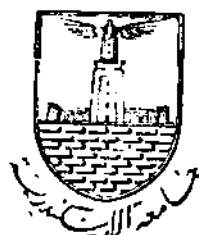


مجلة كلية الآداب



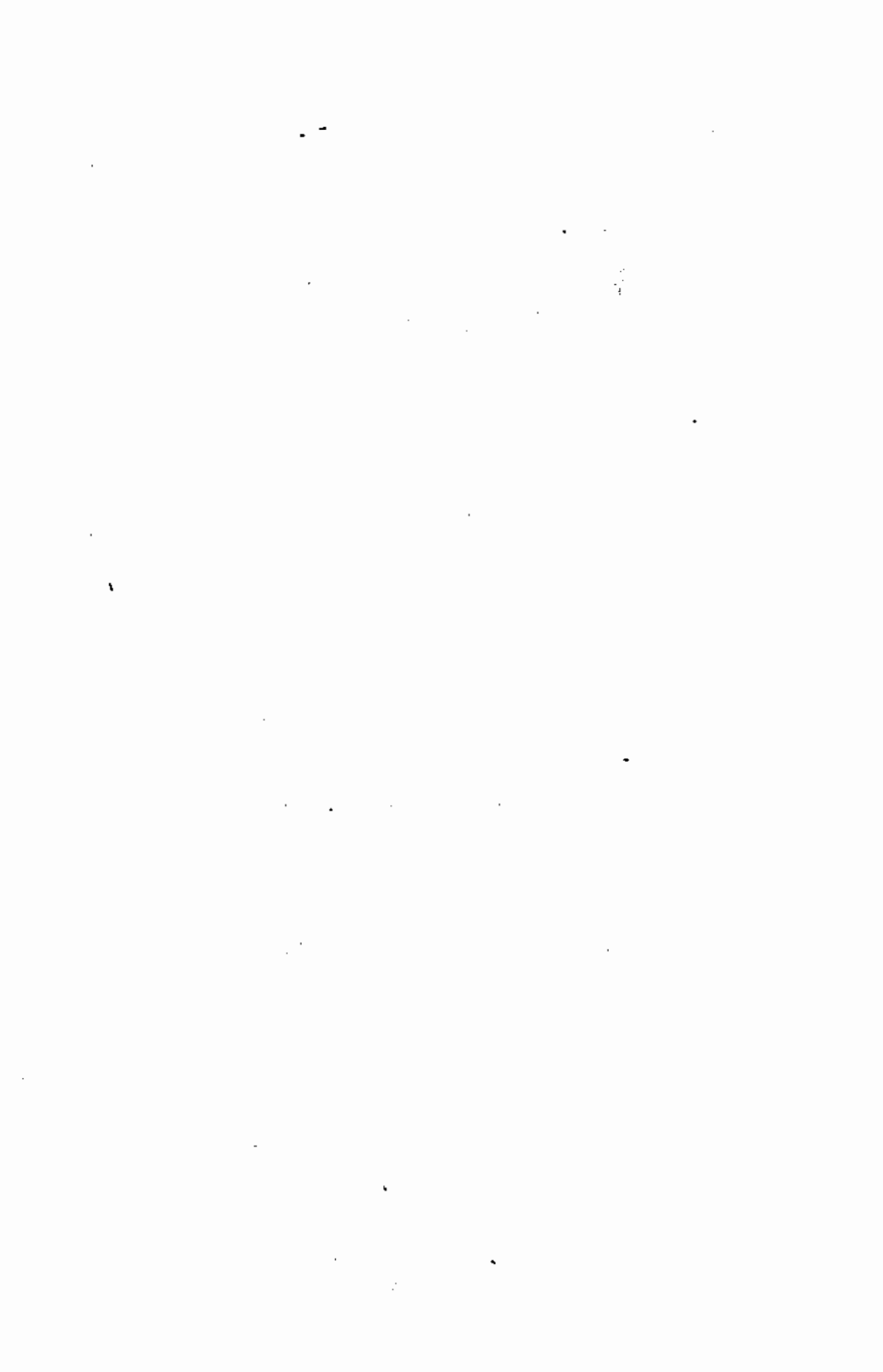
المجلد الثالث والعشرون

١٩٦٩

تطلب هذه المجلة من مكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية
بالشاطبي ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية
إلى كلية الآداب

مطبعة جامعة الإسكندرية

١٩٧١



فهرس

صفحة	
افريقيا في فردوس دانى	
للدكتور حسن عثمان	٣
بستان الرهبان	
للدكتور جوزيف نسم يوسف	٥٩
التورانيون والاييرانيون	
للدكتور طه ندا	٩٣
ميناء الاسكندرية والمشكلات الرئيسية التى تواجهه	
للدكتور فهدى حلالى دلالى أبو العطا	١٨٩
سيوه « دراسة جغرافية »	
للدكتور عبد الفتاح ودييه والسيد / محمد على بهجت	٢٢٥
اتفاقات البحر المتوسط (فبراير - ديسمبر ١٨٨٧)	
للدكتور حسن محمد صبحى	٢٤٧
حوض وادى القطار ببيبي	
للدكتور جوده حسين جوده	٢٧٧
an outline of a programme for the Conservation	
By W. FRODL	1
Arab Awakening During the Crusades	
By Dr. Joseph Nessin Youssef	11



بسم الله الرحمن الرحيم

أفريقيا في فردوس دانتي

بقلم حسن عثمان

- صنعت المناطق المعروفة من أفريقيا جزءاً هاماً من العالم القديم ، وأهمته في خلق ثمرات البشرية وتقرير مصائرهما . وانضحت آثار ذلك في نواح شتى : في الأجناس ، والأساطير ، والأديان ، والحروب ، والسياسة ، والتجارة ، والعلم ، والفن ، والأدب . وتناول بعض الكتاب في العصر القديم طرفاً من أخبارها ، مثل هيرودوت وبليني ، وفي العصور الوسطى اضطردت الصلات المتنوعة بين أفريقيا والعالم الخارجي ، وعلى الأخص في عهد النمو العربي ، إذ سيطر العرب على شمالي أفريقيا ، واتسعوا حتى اشتملت أملاكهم على الأندلس وجزر البليار وساردينيا وصقلية . وقويت العلاقة بين الأوروبيين والشرق الأدنى بشقيه في الشام ومصر ، وعرف الأوروبيون بعض أجزاء من أفريقيا عن طريق الرحلات والتجارة ، وفي أثناء الحروب الصليبية . وكان من الطبيعي خلال ذلك كله أن تنتقل عناصر من التراث الأفريقي ، مع عناصر من تراث اليونان ، ومن تراث المشرق ، إلى أنحاء من أوروبا ، حينما كان للحضارة العربية القيدح المعلن . وامتزجت هذه العناصر بتراث الغرب في العصور الوسطى ، التي كانت آخذة في التطور لبلوغ عصر النهضة في إيطاليا ، الذي أصبح أساساً للعصر الحديث .

وبناء على ذلك فقد دخلت عناصر من الثقافة ومن التراث الأفريقي في ثنايا الأدب الإيطالي الوليد ، منذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي . واستمرت هذه العناصر من الثقافة ومن التراث الأفريقي تتابع نشأة الأدب الإيطالي حتى ظهور دانتي أليجييري . وبذلك كان تراث أفريقيا وثقافتها من العناصر التي استمد دانتي منها مادته . فهو قد اقتبس منها طائفة من الأساطير ، والحوادث ، والبلدان ، والصور ، والشخصيات ، ونظمها في مواضع مختلفة ، واستعارها في بناء الكوميديا الإلهية . وسبق أن تناولنا

أثر أفريقيا في جحيم دانتي (١) ، وفي المطهر كذلك (٢) ، ولنعرض الآن لما استمدته دانتي من تراث أفريقيا وثقافتها في بناء الفردوس .

في الأثرودة السادسة من الفردوس ، بينما كان دانتي يمضي صعداً في صحبة بياتريتشى في سماء مركوريو أو عطارد ، أشار الإمبراطور جستنيان إلى نقل قسطنطين لعاصمة الدولة الرومانية إلى بيزنطة . وقال إنه حينما اتجه إلى العقيدة المسيحية الحققة . أرسل قائده بلزاريوس المظفر الذى أعاد وحدة الإمبراطورية في أوروبا وشمالي أفريقيا في القرن السادس الميلادى ، فأذن له ذلك بأن يعيش مستريح الباك (٣) .

وأشار جستنيان إلى الأجداد التى حتمتها النسر الإمبراطورى ، وتحدث عن نشأة روما ونموها ، وقال إنه هربى بكبرياء العرب - ويقصد أهل قرطاجنة - الذين كانوا قد عبروا جبال الألب وهددوا روما . ثم ذكر أنه نحت لواء النسر قد انتصر شيرين . - على هانيبال - في شمالي أفريقيا ، وكذلك انتصر رومي على خصومه في إيطاليا وشمالي أفريقيا ، كما بدأ النسر خصماً مريباً لثلى فيزيولى ، الذى ولد دانتي عنده سنحه - أى في فلورنسا (٤) .

وتابع جستنيان كلامه فقال إن قيصر قد اتجه إلى إسبانيا ثم إلى دبراكوم ثم سدد إلى غراليا ضربة أحسن بوخزها مكان النيل الدافىء - ويقصد بذلك مقتل رومي على يدى بطليموس الثانى عشر . وذكر جستنيان أن قيصر قد سار إلى آسيا الصغرى ، ثم ذهب إلى مصر ، وأعطى عرشها لكليوباترا بدلاً من بطليموس . وقال إن قيصر انتفض بعدئذ على يوبا ملك نوميديا في شمالي أفريقيا . وذكر أن من حمل اللواء من بعد قيصر - أى أغسطس قيصر - قد حمل بروتس وكاسيوس على النباح في الجحيم - ويشير بذلك إلى هزيمتهما في معركة فيلبي في ٤٢ ق . م . وقال جستنيان إن أغسطس قيصر قد دفع كايوباترا إلى البكاء ، وإلى تناول السم الزعاف ، حينما انتصر على أنطونيوس في أكتيوم في ٣١ ق . م . وذكر أن النسر الإمبراطورى قد اندفع مع أغسطس قيصر حتى بلغ ساحل البحر الأحمر ، وبذلك أتم سيطرة الرومان على مصر (٥) .

وفي الأنشودة الثامنة من الفردوس ، بينما كان دانتي يتأهب مع بياتريتشى للصعود إلى سماء فينوس أو الزهرة ، قال إن الشعوب القديمة قد مجدت القبرصية الحسنة - أى فينوس - كما أنهم مجدوا ديونى - أم فينوس - ولبنها - كيوبيد - وقصوا كيف أشعل كيوبيد نيران الحب في قلب ديدو - ملكة قرطاجنة - وجعلها تغرم بإينياس من بعد موت زوجها سيكيوس (٦) .

وفي ذات الأنشودة التى دانتي وبياتريتشى بشارل مارتل دانجو الفرنسى الذى تألق على جبينه تاج الحجر - فى أواخر القرن الثالث عشر . وقال شارل مارتل إن تريناكريا - أى صقلية - التى تسودها الظلمة بين باكينو وبيلوروس بسبب بركان إتنا وأثره عند الخليج - أى خليج كاتانيا - الذى يتلقى أشد الضربات من رياح أروس - أى رياح السيروكو التى تهب من شمالى أفريقيا - كان عليها - أى كان على صقلية - أن ترتقب ماوكها المولودين من أرومته - ويشير بذلك إلى ما عاناه شعب صقلية من الإرهاق من حكم شارل دانجو الأول (٧) .

وفي الأنشودة التاسعة ، فى سماء فينوس أو الزهرة ، رأى دانتي كوينيزا دا رومانو - أخت أتزولينو الثالث الطاغية الجبلى - ثم رأى فولكو دا مارسيليا - شاعر التروبادور البروفنسى - الذى قال لدانتي إن ذلك البحر - الأبيض المتوسط - يسير بين شطآن متعارضة فى مواجهة الشمس - ويقصد شاطئى جنوبى أوروبا وشاطئى شمالى أفريقيا . وذكر فولكو أنه من سكان مارسيليا التى تكاد تقع على خط واحد مع بوجاية - فى شمالى أفريقيا . وقال إن ابنة بيلوس - أى ديدو ملكة قرطاجنة - قد أساءت إلى زوجها سيكيوس ، وإلى كريسا زوجة إينياس بوقوعها فى حب إينياس وذكر فولكو أن أحداً منهما - فضلاً عن فتاة رودوب التى خلعها ديموفون ، والسيدس الذى ضم جراحه على محبوبته إيولى - لم يضطرم أحدهم عشقاً بأكثر مما أحسه هو فى أثناء الحياة (٨) .

وفي الأنشودة العاشرة في سماء الشمس ، شهد دانتى أنواراً متلألئة
 هيثة لإكليل دائرى ، وسمع من أحدها توماس الأكوينى يخبره بأنه من
 أتباع القديس دومينيكو ، وقال إن سليمان الحكيم هو الأجل من بين سائر
 الأنوار . وأشار الأكوينى إلى ديونيسيوس الأريوباى الذى عرف طبيعة
 الملائكة . وقال إنه فى الوهج الصغير التالى يضحك المناضل عن أزمان
 المسيحى - ويقصد - فى الأغلب - باولوس أورو سيوس الأندلسى -
 الذى تتلمذ على القديس أوغطين - كما أفاد أوغطين ذاته من دراسة
 لاتينياته - وعاش باولوس أورو سيوس ومات فى شمالى أفريقيا (٩) .

وفي الأنشودة الحادية عشرة فى سماء الشمس كذلك . يقول توماس
 الأكوينى إن العناية الإلهية قد هيأت القديسين فرنشسكو ودومينيكو لإرشاد
 الكنيسة ، وتناول شيئاً من حياة فرنشسكو الذى عكف على الزهد والعبادة .
 وذكر الأكوينى أن فرنشسكو قد ارتحل إلى المشرق - أى إلى مصر فى زمن
 الحملة الصليبية الخامسة - وأنه كرز بالمسيحية فى حضرة السلطان العظيمة -
 أى الملك الكامل الأيوبي - فى نوفمبر ١٢١٩ - على مقربة من دمياط ،
 وحينما وجد السلطان ورجاله غير مستعدين للتحويل عن الإسلام ، عاد إلى
 إيطاليا لى ينجى منها حصاد أثماره (١٠) .

وفي الأنشودة الثالثة عشرة فى سماء الشمس كذلك ، تابع توماس
 الأكوينى حديثه إلى دانتى ، ومن ذلك قوله إن عليه ألا يتسرع فى الحكم
 على الأشياء حتى لا يسقط فى مسالك الزلل . ومن الأمثلة التى ضربها لذلك
 مثال سابليوس - المولود فى بنتابوليس فى شمالى أفريقيا فى القرن الثالث -
 والذى رفض فكرة التالوث المسيحية . ومثل الأكوينى أيضاً باريوس -
 الذى ربما يكون من مواليد ليبيا ، والذى أصبح من رجال الكنيسة فى
 الإسكندرية فى القرنين الثالث والرابع - وقد أنكر ألوهية المسيح . ويذكر
 الأكوينى لدانتى أنه بذلك ينبغى ألا يكون الناس شديدي الثقة فى أحكامهم
 كمن يحسب غلة القمح من قبل أن ينضج المحصول . ويقول الأكوينى إنه
 قد رأى من قبل شجرة الورد البرية فى أثناء الشتاء عجفاء شائكة ، ثم

شهادتها وقد ازدانت في الربيع بالوردة النضرة ، وإنه قد رأى من قبل السفينة تجرى عبر البحر مسرعة في كل رحلتها ، ثم تهلك في النهاية عند دخولها المرفأ (١١) .

وفي الأنشودة التاسعة عشرة في سماء جوبيتر أو المشتري ، رأى دانتى أرواح الطوباويين وقد تشكلت في صورة نسر مفتوح الجناحين . وقال النسر - معبراً عن الطوباويين - إن العالم إناء ضيق لا يتسع للخير الأسمى الذي لا يدركه أحد ، وإنه قد يتساءل كيف يلام الوثني على أنه لم يعرف المسيح . وأجاب النسر عن التساؤل بقوله إن الإنسان لا يمكنه أن يحكم بعقله - دون الإلهام - على الأمور الإلهية . وقال النسر إنه لم يصعد أبداً إلى ملكوت السماوات إلا من آمن بالمسيح - عند المسيحيين - وإن كثيرين يستنجدون بالمسيح ، ولكنهم سيكونون يوم الحشر أبعد عنه ممن لم يعرفوا المسيح قط ، وسيلعن الإثيوبي أي - الوثني في نظر دانتى - هؤلاء المسيحيين الخارجين على تعاليم المسيح ، وسيندد الوثنيون بما ارتكبه المسيحيون الآثمون من شائن الأعمال (١٢) .

وفي الأنشودة الثانية والعشرين ، حينما كان دانتى وبياتريتشى يتأهبان للصعود على معراج السماوات من سماء ساتورنو أو زحل إلى سماء النجوم الثابتة ، قال القديس بنيديتو لدانتى إنه كان أول من حمل فوق جبل كاسينو اسم المسيح ، وذكر أن معه الآن أرواح الطوباويين الذين يشتعلون بنار الإيمان ، وأشار من بينهم إلى مكاريوس - المصري - وربما يقصد به واحداً من تلاميذ القديس أنطونيوس المصري - والذي انسحب إلى صحراء ليبيا في القرن الرابع - وربما يقصد به مكاريوس الصغير الإسكندراني - الذي كان أيضاً من تلاميذ أنطونيوس في القرن ذاته . وأشار بنيديتو كذلك إلى القديس روم والدو الكامالدولي من القرن العاشر . وندد بنيديتو بمساويء أهل العصر ، وبتحول الأديرة إلى مغارات للصوفى ، وبإنفاق أموال الكنيسة في غير موضعها ، وقال إن الله الذي أوقف مياه نهر الأردن وشق مياه البحر الأحمر - في زمن موسى - قادر على أن يصلح أحوال البشرية (١٣) .

وفي الأنشودة الخامسة والعشرين في سماء النجوم الثابتة ، تكلم دانتى عن ثقته بربه وأمنه في أن يتوج بإكليل الغار في معبدان فلورنسا . ومأله القديس يعقوب من الأبل وكيف تردهر به نفسه . فسبقت بياتريتشى دانتى إلى الكلام . وقالت إنه ليس لكنيسة المجاهدة ابن أغنى منه بالأمل ، ولذلك فقد أُنِج له أن يلقى من مصر إلى أورشليم وهو لا يزال على قيد الحياة - وأرادت أن تترك أن يترك إن دانتى قد غادر الحياة على الأرض وصعد بجسده الخلى إلى حمة السماوات (١٤) .

وفي الأنشودة السادسة والعشرين ، أنشودة العبور من سماء النجوم الثابتة إلى سماء البرق ، عبر دانتى عن ابتهاجه بالسعادة العلوية ، ولكن القديس بطرس أعرب له عن غضبه لما أصاب الكنيسة من الفساد ، وقال إنه قد أحسست ترى في كل المراعى ذئاب خاطفة في ثياب رعيان . وذكر أن أمى تاشوتيا . ويقصد البابا كلمنت الخامس - وأن أهل كهرمان يقصد البابا برحنا الثانى والعشرين - سيستغاون استشهاده . يسبحين لأول من سحق مصالحهما ، ولكن العناية الإلهية التى حفظت دى وشهيرين من الأبرقي . عهد الدنيا لروما ، سوف تغدو العالم من القوضى والفساد (١٥) .

وفي الأنشودة السابعة والعشرين في سماء المحرك الأول . تكلمت بياتريتشى عن خلق الملائكة والأجرام والكائنات في لحظة واحدة ، وذكرت أن لوتشيفيرو - إبليس . قد تنطرس على الله ، فسقط إلى أسفل دركات الجحيم . عن حين قامت مشاهدة الملائكة الأخيار . وقالت بياتريتشى إن الواعظ يجب الآن إلى الوعظ بروح السخرية والدعابة . وإنه لا قيمة لتغفران الذى يمنح من طريقه . وذكرت أنه بالتطلع إلى نيل الغفران بهذه الطريقة يجمع الأموال رهبان القديس أنطونيوس - المصرى - وقد اتخذته بياتريتشى رمزاً لرجل الدين على وجه العموم (١٦) .

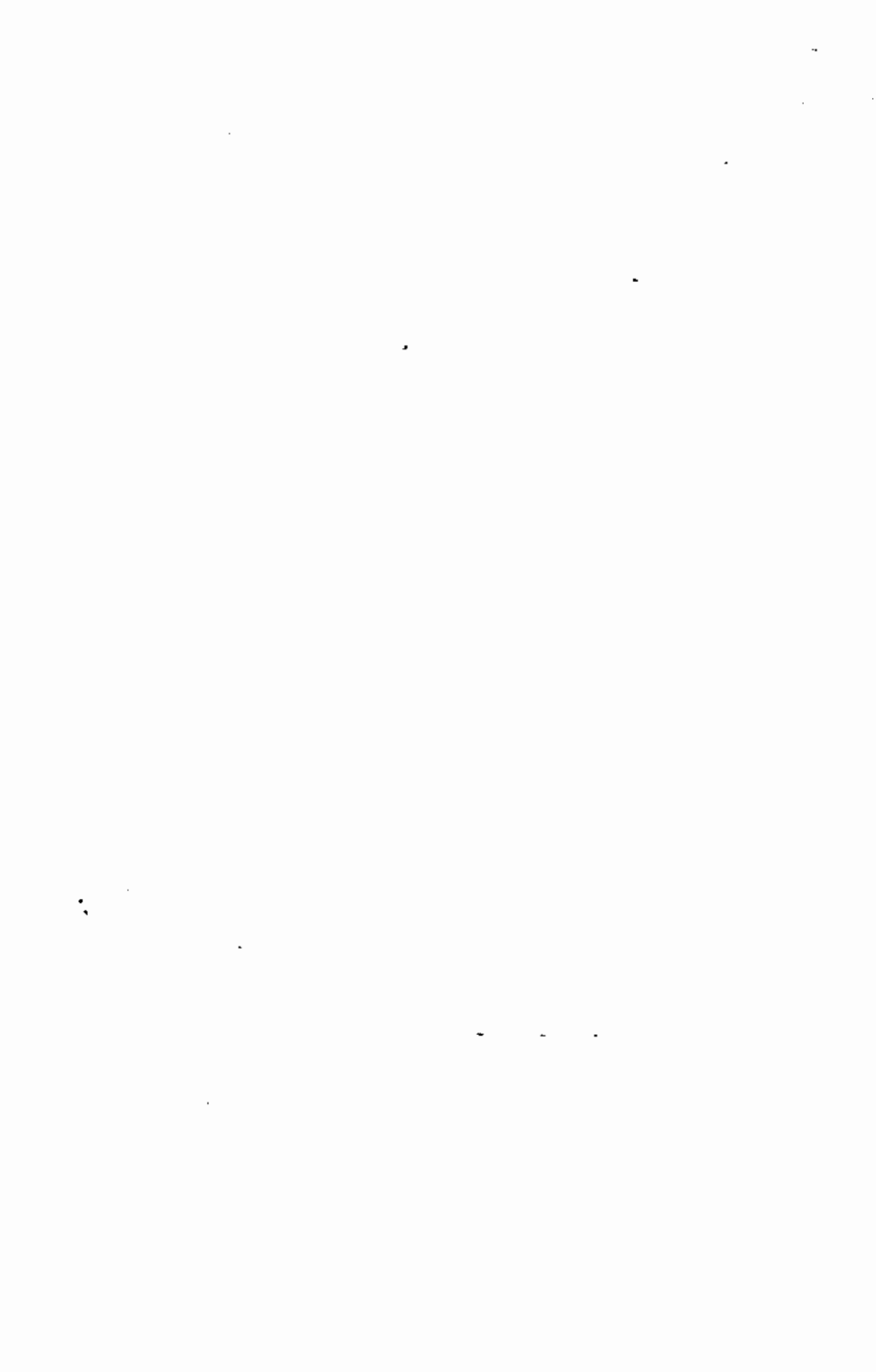
وفي الأنشودة الثمانية والثلاثين في «الإمبريوم» أو سماء السماوات أخذ القديس برنار يوضح لدانتى مواضع الطوباويين في وردة السماء ، ومن هؤلاء

ماريا ، وحواء ، والقديس فرنتشسكو - الذى زار مصر كما سبق فى
الأنشودة الحادية عشرة ، - والقديس أوغسطين - من بواليد نوميديا -
فى الجزائر الحالية - فى القرن الرابع - الذى درس فى قرطاجنة وأصبح
أسقف هيبو . وأشار برنار إلى النبي موسى ، الذى عاش على المن تحت
قيادته الشعب الجحود العاصى الصلْب الرقية - ويقصد بنى إسرائيل الذين
عبر بهم موسى البحر الأحمر ثم غضب عليهم لأنهم عبدوا العجل الذهبى
فى سيناء (١٧) .

وعلى ذلك فإننا نجد أن دانتي قد وضع فى إطار واحد - مع تفاوت
فى التفاصيل - كلاً من قسطنطين ، وجستيان ، وبلزارىوس ، وقرطاجنة ،
وشيبون الأفريقى ، وبومبي ، وسكان نهر النيل ، وبوليوس قيصر ،
وكايرباترا ، وأغسطس قيصر ، وسواحل البحر الأحمر . وربط دانتي
بين فينوس ، وديونى ، وكيوبيد ، وديدو . ووصل بين شارل مارتل ،
وصقلية ، ورياح السيروكو . ومزج بين فولكو دا مارميليا ، وشاطيء
جنوبى أوروبا ، وشاطيء شمالى أفريقيا ، ومارميليا ، وبوجاية ،
وديدو ، وسيكروس ، وديموفون ، وألسيندس . وربط بين القديس باولوس
أوروسيوس ، والقديس أوغسطين . وجمع دانتي بين القديس فرنتشسكو ،
وسلطان مصر ، وإيطاليا . ومزج بين مابليوس ، وآريوس ، وغلة
المحصول قبل نضجه ، والوردة البرية العجفاء فى فصل الشتاء ، والى تزدهر
فى فصل الربيع ، والسفينة التى تجرى مسرعة فى كل رحلتها ، ثم تهلك
فى النهاية عند دخولها المرفأ . ووصل بين النسر الإلهى ، والمسيحين الآمنين ،
والإثيونى الذى يلغهم . وربط بين القديس بنيديتو ، ومكارىوس ،
والأديرة التى صارت للصوفى مغارات ، وانشقاق البحر الأحمر . وجمع
دانتي بين القديس يعقوب وشخصه ، وكأن دانتي بذلك قد جاء مجسماً
الحى من مصر إلى أورشليم - أى من الأرض إلى السماء . ومزج بين القديس
بطرس ، وكلمنتو الخامس ، ويوحنا الثانى والعشرين ، وفساد الكنيسة ،
والعناية الإلهية التى ستحفظ هى وشيرون الأفريقى مجده الدنيا لربما . ووصل
بين لوتشينبرو ، وفساد رجال الدين ، ورهبان القديس أنطونيوس .

ومزج دانتي بن القديس برنار ، وماريا ، وحواء ، والقديس فرنسيسكو ،
والقديس أوغستين ، وموسى وشعبه العاصي في سيناء .

هذه هي الصور التي استمدتها دانتي في الفردوس من أساطير أفريقيا
وتاريخها وأهلها وأبطالها وغزاتها ، ومن بلادها وشطآنها وبحارها ونيلها .
ومزج دانتي في ذلك كله بين الأسطورة والتاريخ ، وبين الخيال والواقع ،
وبين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، وبين الطبيعة والإنسان .
وفي الفردوس - كما في الجحيم والمطهر - لم تبد واحدة من هذه الصور
الأفريقية قلقة في موضعها ، أو متنافرة مع ما يحيط بها ، أو منفصلة
عن السياق العام ، بل جاءت كلها مقدمة متألقة مع سائر العناصر والجزئيات ،
ومرتبطة بالأفكار والمعاني والأخيلة التي أشاد عليها دانتي فردوسه . وبهذا
نترك كيف أسهمت أفريقيا في بناء هذا الصرح العظيم .



٢٢ «وما إن سرت في طريق الكنيسة (١٨) ؛
حتى راق لله أن يلهمني بنعمته القيام بالعمل
المجيد الذي اتجهت إليه بكل قواي (١٩) ؛

٢٥ فعمدت بجيوشي إلى بلزار يوس قائدي (٢٠)
وقد آزرته السماء بيمينها ، حتى آذن لي ذلك
بأن أبقى مستريح البال (٢١) .

.....
قرطاجنة وشيوني وهومي : ٥٤-٤٩:٦

٤٩ وإلى الأرض حوى (النسر) بكبرياء العرب (٢٢) ،
حين عبروا وراء هانيبال (٢٣) صخور الألب (٢٤) ،
التي تفيض منها مياهك أيها البو (٢٥) .

٥٢ ونحت لوائه (٢٦) انتصر شيون (٢٧) وهومي (٢٨)
إبان شباهما ، وبدا خصما مريراً لذلك
التل الذي ولدت عند سفحه (٢٩) .

.....
النيل وبطليموس ويوبا وكليوباترا والبحر الأحمر : ٨١-٦٤:٦

٦٤ واتجه (قبصر) بجيشه نحو إسبانيا (٣٠) ،
ثم إلى ديراكيوم (٣١) ، وسدد إلى فارمايا ضربة (٣٢)
أحس بوخزها النيل الدافيء (٣٣) .

٦٧ ورأى ثانياً أنانديروس (٣٤) وسيمويس (٣٥) ، إذ كان
قد ارتحل عنهما ، وشهد الموضع الذي يرقد فيه
هيكثور (٣٦) ؛ ثم نهض إلى مضرة بطليموس (٣٧) .

٧٠ ومن هناك انقض كالبرق على يوبا (٣٨) ،
ثم اتجه إلى عالمكم الغربي ، حيث بلغ أسنائه
صوت النضج في أبواق هومي (٣٩) .

Belisar :

VI. 22—27

22 «Tosto che con la Chiesa mossi i piedi,
 a Dio per grazia piacque di spirarmi
 l'alto lavoro, e tutto 'n lui mi diedi;

25 e al mio Belisar commendai l'armi,
 cui la destra del ciel fu sì congiunta,
 che segno fu ch' i' dovessi posarmi.

.....

Cartagine, Scipione e Pompei :

VI. 49—54

49 Esso atterrò l'orgoglio delli Arabi
 che di retro ad Annibale passarò
 l'alpestre rocce, Po, di che tu labi.

52 Sott'esso giovanetti triunfaro
 Scipion e Pompeo; ed a quel colle
 sotto 'l qual tu nascesti parve amaro.

.....

Il Nilo, Tolomeo, Juba, Cleopatra e il Mar Rosso :

VI. 64—81

64 Inver la Spagna rivolse lo stuolo,
 poi ver Durazzo, e Farsalia percosse
 sì ch'al Nil caldo si senti del duolo.

67 Antandro e Simoenta, onde si mosse,
 rivide e là dov' Ettore si cuba;
 e mal per Tolomeo poscia si scosse.

70 Da onde scese folgorando a Juba;
 'onde si volse nel vostro occidente,
 ove sentia la pompeana tuba.

٧٣ وبما فعله وهو في قبضة من حمل اللواء
من بعده (٤٠) ، ينيح بروتس وكاسياس في الجحيم (٤١) ،
وحزنت كل من مودينا (٤٢) وبيروديجا (٤٣) .

٧٦ وبسببه لا تزال تبكي كليوباترا الآسية ،
التي نالت من الأفعى موتاً عاجلاً زوأمًا ،
حينما ولت الأدبار أمامه (٤٤) .

٧٩ واندفع معه (٤٥) حتى بلغ الساحل الأحمر (٤٦) ؛
وفي ظله توطد في الدنيا السلام ،
حتى أغلق دون يانوس باب الهيكل (٤٧) .

ديلو : ٨ : ١-١٢

١ اعتاد العالم أن يعتمد - وهو ما فيه هلاكه (٤٨) -
أن القبرصية الحسنة (٤٩) قد أشعت (٥٠) الحب الجنوني (٥١) ،
بدورائها في فلك تدويرها الثالث (٥٢) ؛

٤ ولذلك لم تقتصر على تمجيدها الشعوب
القديمة ، وهي في غيا سادرة (٥٣) ،
بتقريب القرابين وبصلوات النذور (٥٤) ؛

٧ ولكنها مجدت كذلك ديوني (٥٥) وكيوبيد (٥٦) ،
تلك كأم لها (٥٧) وهذا كابن (٥٨) ؛ وروت أن كيوبيد
قد جلس في أحضان ديلو (٥٩) ؛

١٠ ومن تلك التي أستخدم منها بداعة أنشودتي (٦٠) ،
اتخذت اسم تلك النجمة التي ترنو إلى الشمس :
إلى ظهرها تارة (٦١) وإلى جيئها تارة أخرى (٦٢) .

.....

- 73 Di quel che fè col baiulo seguente,
 Bruto con Cassio nell' inferno latra,
 e Modena e Perugia fu dolente.
- 76 Piangene ancor la trista Cleopatra,
 che, fuggendoli innanzi, dal colubro
 la morte prese subitana e atra.
- 79 Con costui corse infino al lito rubro;
 con costui puose il mondo in tanta pace,
 che fu serrato a Jano il suo delubro ».

Dido :

VIII. 1—12

- 1 Solea creder lo mondo in suo pericolo
 che la bella Ciprigna il folle amore
 raggiasse, volta nel terzo epiciclo;
- 4 per che non pur a lei faceano onore
 di sacrificio e di votivo grido
 le genti antiche nell'antico errore;
- 7 ma Dione onoravano e Cupido,
 questa per madre sua, questo per figlio;
 e diccan ch'el sedette in grembo a Dido;
- 10 e da costei ond'io principio piglio,
 pigliavano il vocabol della stella,
 che 'l sol vagheggia or da coppa, or da ciglio.
-

- ٦٤ « وعلى جيبني كان قد تألق تاج
هاتيك البلاد التي يرويها الدانوب (٦٣) ،
من بعد أن ينأى عن بلاد الألمان (٦٤) .
- ٦٧ وترينا كريا الجميلة (٦٥) التي تسودها الظلمة
بين باكينو (٦٦) وبيلوروس (٦٧) ، عند الخليج الذي
يتلقى أكثر الضربات من رياح أروس (٦٨) ،
- ٧٠ لا بسبب تيفوس (٦٩) بل بالكبريت المتوالد (٧٠) .
كان عليها أن ترتقب ملوكها المولودين
من أرومتي من صلب رودولف وشارل (٧١) ، —
- ٧٣ إذا لم تكن الحكومة السيئة التي تضي
الشعوب الخاضعة أبداً (٧٢) ، قد حملت بالرمو
على الصياح : إلى الموت ، إلى الموت الزوام ! (٧٣) .
- شاطيء شمالي أفريقيا وبوجاية وديدو وسيكيو : ٨٢:٩-١٠٢
- ٨٢ وعندئذ بدأت كلماته هكذا (٧٤) : « إن أكبر
الوديان (٧٥) الذي تنساب فيه المياه خارجة من (٧٦)
ذلك البحر الذي يحيط بالأرض (٧٧) ،
- ٨٥ يسير بين شطآن متعارضة (٧٨) في مواجهة
الشمس (٧٩) ، إذ تصنع خط زواها حيث (٨٠)
اعتاد أفتها أن يكون من قبل هناك (٨١) .
- ٨٨ وكنت في ذلك الوادي من ساكني الشاطيء (٨٢)
بين نهر الإبرو (٨٣) ونهر الماكرا (٨٤) ، الذي يفصل
بمجره القصير أهل جنوا عن أهل تسكانا .

- 64 « Fulgiemi già in fronte la corona
di quella terra che il Danubio riga
poi che le ripe tedesche abbandona.
- 67 E la bella Trinacria, che caliga
tra Pachino e Peloro, sopra 'l golfo
che riceve da Euro maggior briga,
- 70 non per Tifeo ma per nascente solfo,
attesi avrebbe li suoi regi ancora,
nati per me di Carlo e di Ridolfo,
- 73 se mala signoria, che sempre accora
li popoli soggetti, non avesse
mosso Palermo a gridar : Mora, mora ! » .

Lito d'Africa, Buggea, Dido e Sicheo :

IX. 82—102

- 82 « La maggior valle in che l'acqua si spanda »,
incominciò allor le sue parole,
« four di quel mar che la terra inghirlanda,
- 85 tra' discordanti liti, contra 'l sole
tanto sen va, che fa meridiano
là dove l'orizzonte pria far sòle.
- 88 Di quella valle fu' io litorano
tra Ebro e Macra, che per cammin corto
parte lo Genovese dal Toscano.

٩١ وحيث يكاد يوجد غروبٌ وشروقٌ واحدٌ (٨٥) ،
تقع بوجاية (٨٦) ، ومسقط رأسي ،
الذي أدفأه ذات يومٍ بدماثة (٨٧) .

٩٤ ولقد دعوني فولكو (٨٨) هؤلاء القوم حيث
كان اسمي لديهم معروفاً (٨٩) ؛ وإن هذه السماء
بطابعي موسومة ، كما كنت بطابعها موسوماً (٩٠) ؛

٩٧ إذ أن إبنة بيلوس (٩١) ، بإساعتها إلى
كل من كريشا (٩٢) وسيكروس (٩٣) ، لم تضطرم عشقاً
بأكثر مني ، طالما كان ذلك ملائماً لجداول شعري (٩٤) ؛

١٠٠ وكذلك لم تفعل فتاة رودوب التي خدعها
ديموفون (٩٥) ، ولم يشتعل ألسيدس حباً
حينما ضم جوانحه على محبوبته إيولي (٩٦) .

أوروسيوس وأوغسطين : ١٠٩:١٠-١٢٠

١٠٩ « وإن خامس الأنوار (٩٧) الذي هو الأجل من
بيننا ، منبعث من عجة عظيمة (٩٨) ، حتى ليتعطش
العالم كله إلى معرفة أخباره هناك في أسفل (٩٩) :

١١٢- وبداخله يوجد العقل السامي (١٠٠) ، الذي توفرت له
الحكمة العميقة ، حتى إنه لو ثبتت لنا حقيقة الحقيقة ،
لما ظهر بعد من هو في الحكمة نظيره (١٠١) ،

١١٥ ولتنتظر من بعده إلى نور تلك
الشمعة (١٠٢) التي سبرت الأغوار من طبيعة
الملائكة ووظائفهم ، وهي في جسدها في أسفل (١٠٣) .

91 Ad un occaso quasi e ad un orto
 Buggea sicde e la terra ond'io fui,
 che fè del sangue suo già caldo il porto.

94 Folco mi disse quella gente a cui
 fu noto il nome mio; e questo cielo
 di me s' imprenta, com' io fe' di lui;

97 chè più non arse la figlia di Belo,
 noiando e a Sicheo ed a Creusa,
 di me, infin che si convenne al pelo;

100 nè quella Rodopea che delusa
 fu da Demofonte, nè Alcide
 quando Iole nel core ebbe rinchiusa ».

Orosio e Agostino :

X. 109—120

109 « La quinta luce, ch'è tra noi più bella,
 spira di tal amor, che tutto 'l mondo
 là giù ne gola di saper novella :

112 entro v' è l'alta mente u' sì profondo
 saver fu messo, che se 'l vero è vero
 a veder tanto non surse il secondo.

115 Appresso vedi il lume di quel cero
 che giù, in carne, più a dentro vide
 l'angelica natura, e 'l ministero.

١١٨ وفي الوجد الصغير التالى (١٠٤) يضحك ذلك
المناضل عن أزمان المسيحيين ، والذي استعان
بدراسة لآتينياته القديس أوغسطين (١٠٥) .

سلطان مصر والقديس فرنسيسكو : ١١ : ٩٤-١٠٥

٩٤ « وحينما تقاطر الإخوان المساكين (١٠٦) ،
فى لآثر هذا الذى كانت حياته الرائعة
أولى بأن يُتغنى بها فى المكوت السماوات (١٠٧) ،

٩٧ تكالت بإكليل آخر الرغبة المباركة
لهذا الذى رعى الأغنام (١٠٨) ، بوحى من
الروح القدس ، وعلى يد البابا أونوريوس (١٠٩) .

١٠٠ وعندما كثرز بالمسيح وبالأخرين الذين كانوا
له أتباعاً (١١٠) ، فى حضرة السلطان العظيمة (١١١) ،
وهو إلى الإستشهاد ظمآن ،

١٠٣ وإذا وجد القوم غير مستعدين لاعتناق
دينه (١١٢) ، وحتى لا يبقى دون طائل ،
آب لكنى بجنى من حصاد إيطاليا أثماره (١١٣) .

سابليوس وآريوس : ١٣ : ١١٨-١٣٨

١١٨ « وكثيراً ما يحدث أن يؤدى
عاجل الرأى إلى مسالك الزلل ،
وإذا بالعقل يصبح مقيداً بالنزوات (١١٤) .

١٢١ وإنه لأسوأ من العبت أن يغادر الشاطيء ،
من يسعى دون دراية فى طلب الحقيقة ،
إذا لا يعود إليه كما كان عند ارتحاله (١١٥) .

118 Nell' altra piccioletta luce ride
 quello avvocato de' tempi cristiani
 del cui latino Augustin si provide ».

Il Soldano (d'Egitto) e San Francesco :

XI. 94—105

94 « Poi che la gente poverella crebbe
 dietro a costui, la cui mirabil vita
 meglio in gloria del ciel si canterebbe,

97 di seconda corona redimita
 fu per Onorio dall'Eterno Spiro
 la santa voglia d'esto archimandrita.

100 E poi che, per la sete del martiro,
 nella presenza del Soldan superba
 predicò Cristo e li altri che 'l seguirono,

103 e per trovare a conversione acerba
 troppo la gente, per non stare indarno,
 reddissi al frutto dell' italica erba » .

Sabellio e Arrio :

XIII. 118—138

118 « perch' elli 'ncontra che più volta piglia
 l'opinion corrente in falsa parte,
 e poi l'affetto l'intelletto lega.

121 Vie più che 'ndarno da riva si parte,
 perché non torna tal qual e' si move,
 chi pesca per lo vero e non ha l'arte.

- ١٢٤ وفى العالم أدلة واضحة على ذلك :
مثل پارمينيديس (١١٦) ، وميليسوس (١١٧) ، وبريسون (١١٨)
وغيرهم كثيرون ممن ساروا دون أن يعلموا وجهتهم (١١٩) :
- ١٢٧ وهكذا فعل سابلوس (١٢٠) ، وآريوس (١٢١) ، وأولئك
البلهاء الذين كانوا كالسيوف على الكتاب المقدس ،
إذ مسخروا ما فيه من الوجهة السوية (١٢٢) .
- ١٣٠ فينبغى ألا يكون الناس من بعد
شديدى الثقة فى أحكامهم (١٢٣) ، كمن يحسب
غلة القمح فى الحقل من قبل أن ينضج المحصول (١٢٤) :
- ١٣٣ فقد رأيت من قبل شجرة الورد
البرية تبدو طوال الشتاء عجماء شائكة ،
وإذا بهامتها من بعد بالوردة مزدانة (١٢٥) .
- ١٣٦ ومن قبل رأيت السفينة تجرى
عبر البحر سوية مسرعة فى كل رحلتها ،
وتهلك فى النهاية عند دخولها المرفأ (١٢٦) » .
- الإثيوبي : ١١٤-١٠٠-١٩
- ١٠٠ وحينما سكنت من الروح القدس هذه النيران
المتألقة (١٢٧) ، التى كانت ما تزال منتظمة على الرمز
الذى أكسب الرومان احترام العالم (١٢٨) ،
- ١٠٣ اسأنت قولها (١٢٩) : « إلى هذا الملكوت
لم يصعد أبداً من لم يؤمن بالمسيح (١٣٠) ،
من قبل ومن بعد أن تُسمّر على الشجرة (١٣١) .

- 124 E di ciò sono al mondo aperte prove
Parmènide, Melisso, e Brisso, e molti,
li quali andavano e non sapean dove :
- 127 sì fè Sabellio e Arrio e quelli stolti
che furon come spade alle Scritture,
in render torti li diritti volti.
- 130 Non sien le genti, ancor, troppo sicure
a giudicar, sì come quei che stima
le biade in campo pria che sien mature :
- 133 ch'io ho veduto tutto il verno prima
lo prun mostrarsi rigido e feroce,
poscia portar la rosa in su la cima;
- 136 e legno vidi già dritto e veloce
correr lo mar per tutto suo cammino,
perire al fine all' intrar de la foce ».

L'Etiope :

XIX. 100—114

- 100 Poi si quetarón quei luccenti incendi
dello Spirito Santo ancor nel segno
che fè i Romani al mondo reverendi,
- 103 - esso ricominciò: « A questo regno
non salì mai chi non credette 'n Cristo,
vel pria vel poi ch' el si chiavasse al legno.

١٠٦ ولكن فلتنظر إلى كثيرين وهم يصيحون :
”أيها المسيح ، أيها المسيح !“ والذين سيكونون
يوم الحشر أقل قرباً إليه ممن لم يعرفوا المسيح (١٣٢) ،

١٠٩ وسيلعن الإثيوبي مثل هؤلاء
المسيحيين (١٣٣) حينما تنفصل الجماعتان (١٣٤) ، إذ
تصبح إحداهما ثرية أبداً ، وتظل الأخرى فقيرة (١٣٥).

١١٢ وماذا يستطيع الفرس أن يقولوا
للوكم (١٣٦) ، عند رؤيتهم ذلك السفر مفتوحاً ،
والذى يسجل فيه كل ما لهم من شائن الأعمال (١٣٧) ؟ .

مكاربيوس : ٢٢ : ٤٠-٥١

٤٠ «لأننى أول من حمل هناك
فى أعلاه ، اسم من أتى إلى
الأرض بالحقيقة التى سمو بنا كثيراً (١٣٨) ،

٤٣ ولقد أفاضت علىَّ النعمة الإلهية
بأنوارها ، حتى اجتذبت القرى المحيطة بى (١٣٩) ،
من العقائد الباطلة التى أفسدت الدنيا (١٤٠) ،

٤٦ وكان سائر هذه النيران جميعاً
رجالا متأملين (١٤١) ، اشتعلوا بتلك النار
التي تنبت ما هو مبارك من الأعمار والأزاهير (١٤٢) .

٤٩ وهنا يوجد مكاربيوس (١٤٣) ، وها هنا رومالدو (١٤٤) ،
وهناك إخوانى الذين ثبتوا أقدامهم وحفظوا
فى الأدبرة قلوبهم بإيمان مكين (١٤٥) .

106 Ma vedi : molti gridan "Cristo, Cristo",
che saranno in giudicio assai men prope
a lui, che tal che non conosce Cristo;

109 e tai Cristiani dannerà l'Etiope,
quando si partiranno i due collegi,
l'uno in eterno ricco, e l'altro inope.

112 Che potran dir li Perse a' vostri regi,
come vedranno quel volume aperto
nel qual si scrivon tutti suoi dispregi? ».

Maccario :

XXII. 40—51

40 « e quel son io che su vi portai prima
lo nome di colui ch'n terra addusse
la verità che tanto ci sublima;

43 e tanta grazia sopra me relusse,
ch'io ritrassi le ville circostanti
dall'empio colto che 'l mondo sedusse.

46 Questi altri fuochi tutti contemplanti
uomini fuoro, accesi di quel caldo
che fa nascere i fiori e' frutti santi.

49 Qui è Maccario, qui è Romoaldo,
qui son li frati miei che dentro ai chiostri
fermar li piedi e tennero il cor saldo ».

- ٨٨ « ودون ذهب ودون فنية بدأ بطرس (١٤٦) ،
وبالصلاة والصوم بدأت أنا (١٤٧) ،
وبالتواضع أقام فرنسيسكو نظام رهبانه (١٤٨) .

- ٩١ وإذا ما نظرت إلى بداءة كل^١
منهم (١٤٩) ، ثم نظرت إلى أين صاروا ،
فسرى أن بياض اللون قد غدا اغبراراً (١٥٠) .

- ٩٤ ولكن (١٥١) تراجع الأردن وانحسار البحر (١٥٢) ،
حيثما أراد الله ذلك ، قد أثار مرآهما
عجباً أبعد من تقديم المعونة هاهنا (١٥٣) .

- ٤٩ وتلك الرحيمة التي قادت أرياش
أجنحتي إلى مثل هذا الطيران العالى ،
سبقتنى إلى الإجابة على النحو الآتى (١٥٤) :

- ٥٢ « ليس للكنيسة المحاكمة (١٥٥) لابن^٢ أغنى منه
بالأمل (١٥٦) ، كما هو مكتوب في صفحة
الشمس (١٥٧) التي تشع على كل حشدنا :

- ٥٥ ولذلك فقد أتيح له أن يأتي من
مصر (١٥٨) إلى أورشليم (١٥٩) ، لكي يتأملها ،
من قبل أن ينتقضى زمان جهاده (١٦٠) .

- ٥٥ « ومن العلياء هاهنا ترى في كل
المراعى ذئاب خاطفة في ثياب رعيان (١٦١) :
أيها العدالة الإلهية ، لماذا تظلين متغافية (١٦٢) ؟

88 « Pier cominciò sanz'oro e sanz'argento,
e io con orazione e con digiuno,
e Francesco umilmente il suo convento.

91 E se guardi il principio di ciascuno,
poscia riguardi là dov' è trascorso,
tu vedrai del bianco fatto bruno.

94 Veramente Iordan volto retroso
più fu, e 'l mar fuggir, quando Dio volse,
mirabile a veder che quì 'l soccorso ».

d'Egitto vegna in Ierusalemme :

XXV. 49—57

49 E quella pia che guidò le penne
delle mie ali a così alto volo,
alla risposta così mi pervenne :

52 « La Chiesa militante alcun figliuolo
non ha con più speranza, com' è scritto
nel sol che raggia tutto nostro stuolo :

55 però li è conceduto che d'Egitto
vegna in Ierusalemme, per vedere,
anzi che 'l militar li sia prescritto ».

Scipio :

XXVII. 55—63

55 « In vesta di pastor lupi rapaci
si veggion di qua su per tutti i paschi :
o difesa di Dio, perchè pur giaci ?

٥٨ وللشرب من دماننا (١٦٣) يتأهب أهل
غاسقونيا (١٦٤) وأهل كاهور (١٦٥) : فإلى أية نهاية
مهينة ينبغي أن تنحدرى أيتها الأرومة الطيبة (١٦٦) !

٦١ ولكن العناية السامية التى حفظت
هى وشييونى (١٦٧) مجده الدنيا لروما ،
مستهب لمعونتنا سريعاً ، كما أتيت (١٦٨) .

القديس أنطونيوس : ٢٩ : ١١٥ - ١٢٦

١١٥ « وإلى الوعظ يذهب الواعظ الآن (١٦٩) بروح
السخرية والدعابة ، وما إن نسمع للضحكات (١٧٠)
حتى تنتفخ قلسوته (١٧١) ، ولا يطلب على ذلك مزيداً .

١١٨ ولكن طائراً يعتش على طرف قلسوته (١٧٢) ،
حتى إذا ما رآه عامة الناس أدركوا
أين وضعوا ثقتهم لكى ينالوا الغفران (١٧٣) ؛

١٢١ وبه (١٧٤) ازدادت فى الأرض الحماقة ،
بحيث يتقاطر الناس عند كل وعد
ببذل لهم (١٧٥) ، دون سند من برهان (١٧٦) .

١٢٤ وهذا (١٧٧) يسمن القديس أنطونيوس
خنزيره (١٨٨) ، وكثيرون غيره ، الذين هم أسوأ
من الخنازير ، بأدائهم عملة لم تدمغ (١٧٩) .

فرنتشكو وأوغسطين : ٣٢ : ٢٨ - ٣٦

٢٨ « وكما يصنع هاهنا (١٨٠) هذا العرش المجيد
لسيدة السماء (١٨١) ، وتصنع مائر العروش
من تحته (١٨٢) ، مثل هذا التقسيم العظيم (١٨٣) ،

58 Del sangue nostro Caorsini e Guaschi
s'apparecchian di bere : o buon principio,
a che vil fine convien che tu caschi !

61 Ma l'alta provedenza che con Scipio
difese a Roma la gloria del mondo,
soccorrà tosto, si com'io concipio ».

Sant' Antonio :

XXIX. 115—126

115 « Ora si va con motti e con iscede
a predicare, e pur che ben si rida,
gonfia il cappuccio, e più non si richiede.

118 Ma tale uccel nel beccchetto s'annida,
che se 'l vulgo il vedesse, vederebbe
la perdonanza di ch' el si confida;

121 per cui tanta stoltezza in terra crebbe,
che, senza d'alcun testimonio,
ad ogni promission si correrebbe.

124 Di questo ingrassa il porco sant' Antonio,
e altri assai che sono ancor più porci,
pagando di moneta senza conio ».

S. Francesco e S. Agostino :

XXXII. 28—36

28 « E come quinci il glorioso scanno
della donna del cielo e li altri scanni
di sotto lui cotanta cerna fanno,

٣١ هكذا يفعل في الجانب المقابل (١٨٤) عرش يوحنا
الكبير (١٨٥) ، الذي احتمل الصحراء والاستشهاد
وهو طاهر أبداً (١٨٦) ، ثم احتمل عامين عذاب الجحيم (١٨٧) ؛

٣٤ وهكذا اختبر من تحته فرنسيسكو (١٨٨) وبنيديتو (١٨٩)
وأوغسطين (١٩٠) وآخرون (١٩١) لتحديد التقسيم ،
من حلقة لأخرى حتى هنا في أسفل (١٩٢) .

ذلك الزعيم (موسى) : ١٣٢-١٢٤:٣٢

١٢٤ هـ وإلى اليمين ترى ذلك الأب العتيق
للكنيسة المقدسة (١٩٣) ، الذي عهد اليه
السيد المسيح بمفتاحي هذه الزهرة الجميلة (١٩٤) .

١٢٧ وذلك الذي (١٩٥) رأى من قبل موته
كل الأزمان العصبية (١٩٦) للعروس الجميلة (١٩٧) ،
التي اقتنيت (١٩٨) بالروح (١٩٩) والمسامير (٢٠٠) ،

١٣٠ يجلس على مقربة منه (٢٠١) ؛ وبالتقرب من الآخر (٢٠٢)
يستوى ذلك الزعيم (٢٠٣) الذي عاش على المن تحت
قيادته (٢٠٤) ، الشعب الجحود المتقلب الصلب الرقبة (٢٠٥) .

31 Così di contra quel del gran Giovanni,
 che sempre, santo 'l deserto e 'l martiro
 sofferse, e poi l'inferno da due anni;

34 e sotto lui così cerner sortiro
 Francesco, Benedetto e Agostino
 e altri fin qua giù di giro in giro ».

Quel duca (Moïse) :

XXXII. 124 — 132

124 « dal destro vedi quel padre vetusto
 di Sant Chiesa a cui Cristo le chiavi
 raccomandò di questo fior venusto.

127 E quei che vide tutti i tempi gravi,
 pria che morisse, della bella sposa
 che s'acquistò con la lancia e coi chiavi,

130 siede lung'h'esso, e lungo l'altro posa
 quel duca sotto cui visse di manna
 la gente ingrata, mobile e retrosa » .

الحواشي

(١) عثمان ، حسن : أفريقيا في جسيم دانتي ، تحليل وترجمة وشروح وتعليقات مع تقديم
نصوص من «الجسيم» . بمجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية ، عدد ١٠ سنة ١٩٥٦ .
صفحات ٣ - ٤٠ .

(٢) عثمان ، حسن : أفريقيا في مطهر دانتي ، تحليل وترجمة وشروح وتعليقات مع تقديم
نصوص من «المطهر» . بمجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية ، عدد ١٤ سنة ١٩٦٠ .
صفحات ١٣٩ - ١٦٠ .

Par. VI. 22—27.	(٣)
Par. VI. 49—54.	(٤)
Par. VI. 64—81.	(٥)
Par. VIII. 1—12.	(٦)
Par. VIII. 64—75.	(٧)
Par. IX. 82—102.	(٨)
Par. X. 109—120.	(٩)
Par. XI. 94—105.	(١٠)
Par. XIII. 118—138.	(١١)
Par. XIX. 100—114.	(١٢)
Par. XXII. 40—96.	(١٣)
Par. XXV. 49—57.	(١٤)
Par. XXVII. 55—63.	(١٥)
Par. XXIX. 115—126.	(١٦)
Par. XXXII. 28—132.	(١٧)

(١٨) يعني حيناً آمن جستنيان (٤٨٣ - ٥٦٥ Giustiniano) إمبراطور بيزنطة
منذ ٥٢٧ - بمنصب الثنائية في طبيعة المسيح وتأثير البابا أجاييتوس الأول عليه. واشتهر جستنيان
بحروبه ضد الوندال في شمال أفريقيا وضد القوط الشرقيين في إيطاليا، كما اشتهر بتقنين القوانين ،
وجعله دانتي رمزاً للسلام العالمي ونجد الإمبراطورية .

(١٩) يقصد إصدار جستنيان مجموعات القوانين. ولكن دانتي ارتكب هنا خطأ تاريخياً

لأن تنوين القوانين حدث من ٥٢٨ إلى ٥٢٣ أى قبل اعتلاء أجايثيوس الأول كرسى البابوية (٥٣٣ - ٥٣٦) .

(٢٠) بلزارايوس (٤٩٠ - ٥٦٥ . Belizarius) أعظم قواد الإمبراطورية الرومانية الشرقية وبفضله امتد حكم جستنيان في إيطاليا وشمالي أفريقيا . ويبدو أن دانتي لم يعرف أن جستنيان قد غضب عليه وسجنه .

وتوجد صورة من الموزايكو من القرن ٦ لبلزارايوس وجستنيان في كنيسة سان فيتالي في رافنا .

وآلف دونيتزي (١٧٩٧ - ١٨٤٨) ألبان أوبرا عن بلزارايوس :
Donizetti, G. : Belisario, opera. Venezia, 1836.

(٢١) أى بمنحته القدرة الإلهية الفرصة لكي يتفرغ لأعمال السلم .

(٢٢) قال دانتي العرب ويقصد القرطاجيين ، وقد أخطأ في استعمال لفظ العرب للدلالة عليهم .

(٢٣) هانيبال (٢٤٧ - ١٨٣ ق. م . Annibale) ملك قرطاجنة الذي اجتاحت إسبانيا وإيطاليا وهدد روما وهزمه شيبوني في زاما في ٢٠٢ ق . م . وبذلك انتهت الفترة الثانية من الحروب البونية بين روما وقرطاجنة .

(٢٤) يقصد السلسلة الغريبة من جبال الألب بين إيطاليا وفرنسا . وينبع البومن جبل فيزو .

(٢٥) استخدم دانتي لفظ (labi) من اللاتينية بمعنى ينساب أو يفيض .

(٢٦) يعنى في ظل النسر الإمبراطورى .

(٢٧) شيبوني (٢٣٤ - ١٨٣ ق. م . Scipione) القائد الرومانى الذى فتح إسبانيا وعمره ٢٠ سنة وهزم هانيبال في زاما في شمالي أفريقيا في ٢٠٢ ق. م . ويسمى بالإفريقي .

وآلف هيندل (١٦٨٥ - ١٧٥٩) ألبان أوبرا عن شيبوني :
Haendel, G.F. : Scipione, opera. London, 1726.

(٢٨) بومبي (١٠٦ - ٤٨ ق. م . Pompeius) القائد الرومانى الذى انتصر في إيطاليا وأفريقيا وعمره ٢٥ سنة وخرج حل يوليوس قيصر الذى هزمه في فارصاليا في ٤٨ ق. م . فهرب إلى مصر حيث قتل .

وآلف كافالي (١٦٠٢ - ١٦٧٦) ألبان أوبرا عن بومبي :

Cavalli, P.F. : Pompeo Magno, opera. Venezia, 1667.

(٢٩) حينما انتصر القنصل الرومانى فيورينو على فيزولى بدأ النسر لأهلها خصبا عنيدا فوق تل فيزولى الذى تقع فلورنسا - موطن دانتي - عند سفحه .

(٣٠) إسبانيا هى حد العالم المسكون في الغرب عند أهل المعبر وهزم فيها قيصر بعض أتباع بومبي في ليريدا في ٤٩ ق. م .

(٢١) ديراكيوم (Dyrrhachium) على ساحل الأدرياتيك الشرق وقد عبر إليها قيصر قادماً من برنديزي لكي يتعقب بومبي وارتدت قواته عندها في أول الأمر في ٨ ق . م .

(٢٢) هزم قيصر بومبي في فارساليا (Pharsalia) في تساليا في ٨ ق . م .

(٢٣) كانت ضربة قيصر شديدة في فارساليا حتى بلغ صدها ضفاف النيل . وهذه إشارة إلى مقتل بومبي على يد بطليموس الثاني عشر .

(٢٤) أنتاندروس (Antandros) قرية ساحلية صغيرة في فريجيا في آسيا الصغرى أطلع منها إنياس عند رحيله إلى الغرب بعد حرب طروادة كما ورد في الأساطير الرومانية :
Virg. Æn. III.6.

(٢٥) سيمويس (Simois) نهر صغير ينبع في جبل إيدا ويمرّ بالقرب طروادة :
Luc. Phars. IX. 950 . . .

(٢٦) أي حيث مات هكتور في حرب طروادة .

(٢٧) يعني أن قيصر ذهب إلى مصر وأعطى عرشها لكليوباترا بدلا من بطليموس الذي لقي حتفه .

روضع هيندل (١٦٨٥ - ١٧٤٩) ألبان أوبرا عن يوليوس قيصر تناول فيها ظفره بمصر وقلب كليوباترا ، كما وضع أوبرا عن بطليموس تناول فيها مأساته :

Haendel, G.F. : Julius Caesar, opera. London, 1724 (Vox).

Haendel, G.F. : Tolomeo, opera. London, 1713 (ex. Decca).

(٢٨) يوبا (Juba) هو ملك نوميديا في شمال أفريقيا الذي آزر بومبي وحزبه قيصر بعد معركة تابوس في ٤٥ ق . م .

(٢٩) أي ذهب قيصر إلى إسبانيا حيث لجأ إينا بومبي وقواده وحزبهم في معركة موندا في ٤٥ ق . م .

(٤٠) حلّ اللواء من بعده أغسطس قيصر بانتصاره على كاسيوس وبروتس في معركة فيلبى في مقلونيا في ٤٢ ق . م .

(٤١) يقول جستنيان (ينج) أو (يعوى) ولكن كاسيوس وبروتس لا ينطقان بكلمة . وهما في في لوتيفيرو - إبلبس - وليس من الضروري أنهما ينبجان فعلا وربما يقصد مجرد إحساسهما بالألم الشديد . وفي هذا رجوع بنا إلى عالم الجحيم :

Inf. XXXIV. 64-67.

(٤٢) هذه إشارة إلى انتصار أغسطس على ماركوس أنطونيوس عند مودينا (Modena) في شمال إيطاليا في ٤٣ ق . م .

(٤٣) حاصر أغسطس بيروجا (Perugia) في وسط إيطاليا وكان قد تحصن بها
لوكيوس أنطونيوس في ٤١ ق. م. :

Luc. Phars. I.41

(٤٤) هذه إشارة إلى انتصار كليوباترا بسم الأفي بعد معركة أكتيوم وموت ماركوس
أنطونيوس في ٣١ ق. م. .

(٤٥) يعني جرى النهر مع أغسطس قيصر .

(٤٦) يقصد بالساحل الأحمر ساحل البحر الأحمر وهذا معناه أن أغسطس أتم السيطرة
على مصر . وأورد فرجيليو مثل هذا التعبير :

Virg. Æn. VIII. 685.

(٤٧) يانوس (Janus) أو ديانوس (Dianus) إله بدء الأشياء عند الرومان ومنه
اشتق شهر يناير وهو حارس باب السماء وحارس الأبواب على الأرض . ويقال إن نوما
ملك روما - بعد رومولوس - قد خصص للإله يانوس مرامنقى يفتح وقت الحرب ويغلق زمن
السلم . وفتح وقت الحرب يدل على أن الإله قد خرج لمساعدة الجيش الروماني وإغلاقه زمن
السلم يدل على أن الإله يحرس روما . وتسمية مرامنوس بالمعبد أو الهيكل (Delubro)
تسمية خاطئة وقع فيها بعض الكتاب وأخذ بها دانتي . والمقصود هنا أن أغسطس قيصر قد حقق
في هذه فترة من السلام لم يعرفها العالم من قبل . وهذه إشارة إلى ميلاد السيد المسيح في هذه الفترة
وذكر يانوس كل من أوفيدوس وليفيوس :

Ov. Fasti, I. 318.

Liv. Hist. VIII. IX. 9.

(٤٨) يرى القنماء أن المقصود هنا هو ما يصيب النفس من اللعنة بسبب الخطيئة ويرى
المحدثون أن المقصود هو ما كان من معتقدات الناس في هصور الوثنية مما يحرم عليهم الهلاك .

(٤٩) القبرصية الحسناء هي فينوس إلهة الحب التي ولدت في قبرص كما ورد في الميثولوجيا
اليونانية الرومانية . والمقصود هنا كوكب فينوس أو الزهرة :

Ov. Met. X. 270

(٥٠) أي الحب الحسى . وفي ذكر الحب الجنوني إشارة إلى ما تسببه العواصف الجاحمة
من المآسى كما حدث لبيدو أو كليوباترا أو تريستان وإيزولدا أو فرنتشكا وباولو :

Inf. V.

(٥١) فلك التنوير (epicyclo) دائرة صغيرة يقع مركزها على محيط دائرة أكبر .
والمقصود حركة فينوس أو الزهرة في فلكها الثالث حول نفسها من الغرب إلى الشرق بعكس
حركة السماء اليومية من الشرق إلى الغرب كما ورد في فلك بطليموس .

(٥٢) يعني المعتقدات السابقة على ظهور المسيحية .

(٥٣) اعتاد القدماء أن يقدموا القرابين ويقدموا صلوات النور إقنيوس . وقد حل الأب
جوردانو على هذه العنقوس الوثنية :

Fra Giordano, XXII. (Torraca, Paradiso p. 700).

(٥٤) (Dione) ابنة أوتيانوس وقتييس وأم فينوس من جويتر . وتسمى فينوس
أحياناً بديوني :

Virg. Æn. III.19....

(٥٥) كيوييد (Cupid) ابن فينوس وإله الحب في الميثولوجيا اليونانية الرومانية :
Ov. Met . X. 525 — 526.

(٥٦) أي ديوني أم فينوس .

(٥٧) يعني كيوييد ولد فينوس .

(٥٨) أشمل كيوييد الحب في قلب ديدو (Dido) ملكة قرطاجنة وجعلها تفرم باينياس
بعد موت زوجها سيكيوس :

Virg. Æn. I. 657...

ورسم روبنز (١٥٧٧ - ١٦٤٠) صورته رمز لانتحار ديدو عندما ارتحل عنها إينياس
وهي في متحف اللوفر في باريس .

وألّف برسل (١٦٥٩ - ١٦٩٥) الحان أوبرا عن إينياس وديدو :

Purcell, H. : Aeneas and Dido, opera. Chelsea, 1689. (HMV).

(٥٩) أي من فينوس أو الزهرة التي يبدأ بها دانتى هذه الأشرطة وأصفت (أنشودنى) للإيضاح.

(٦٠) في الأصل (da coppa) يعني إلى ما وراء الرأس .

(٦١) في الأصل (da ciglio) يعني من جهة الحاجب أي إلى الأمام . والمقصود
أن فينوس أو الزهرة تتبع الشمس مساء وتسبقها صباحاً .

(٦٢) المقصود أن شارل مارتل (١٢٧١ - ١٢٩٥ Carlo Martello) بن شارل
الثاني داجو قد توج ملكاً على المجر بوصفه ابن ماريّا أخت لاديسلاو الرابع ملك المجر الذي مات
في ١٢٩٠ بلا وريث . وفي الحقيقة صار شارل مارتل ملكاً بالإسم فقط وشغل عرش المجر
أندريّا الثالث البندقي .

(٦٣) يعني الأراضي الألمانية . وفي الأصل (شواطئ) الألمان .

(٦٤) الأرض المثلثة الأطراف أو تريناكريا (Trinacria) وهذا هو الإسم القديم
لصقلية المأخوذ من شكلها :

Virg. Æn. III. 384.

(٦٥) باكينو (Pachino) الطرف الجنوبي للشرق لصقلية ويعرف الآن برأس باسارو (Passaro):
Ov. Met. V. 350 — 351.

(٦٦) بيلورو (Peloro) الطرف الشمال الشرق لصقلية ويسمى الآن رأس فارو (Faro):
Virg. Æn. III. 411, 687.

(٦٧) أى خليج كاتانيا أو قطانية (Catania).

(٦٨) أروس (Eurus) هو الإسم القديم للرياح الشرقية أو الجنوبية الشرقية التى تهب
من شمال أفريقيا على خليج كاتانيا وتعرف بالسيروكو:
Virg. Æn. I. 5, 110, 131, 140, ecc.

(٦٩) تيفوس (Typhoeus) أو تيفون (Tiphon) الوحش ذو المائة رأس الذى
ناعض الآلهة فبطش به جوبيتر واعتقد القدماء أن محاربه سترجاع حرته هى السبب فى ثوران
البراكين ولكن دانتي يرفض هذا الاعتقاد:

Luc. Phars. IV. 595—596.

Virg. Æn. IX. 715 — 716.

Hom. III. 783.

(٧٠) يعنى أن يركان إتنا يخرج الدخان الذى يعم أجو بسبب التكبريت فى باطن الأرض.

(٧١) أى كان على صقلية أن تنتظر حكامها من سلالة جده شارل الأول دأنجو ملك نابلى
ومن سلالة حيه رودولف الها بىرجى عن طريقه هو أى بزواجه من كلمنترا ابنة رودولف
المذكور.

(٧٢) يعنى حكم شارل دأنجو الأول السيء. وكهم ترفض الحكومات السيئة شعوبها ورعاياها!

(٧٣) هذه إشارة إلى ثورة صقلية على الحكم الفرنسى ومقتل الفرنسيين فى ١٢٨٢ وبذلك
انتقل حكمها من آل أنجو الفرنسيين إلى آل أراجون الإسباني.

(٧٤) المتكلم هو فولكودا مارسيليا شاعر الترويدور البروفنسى وميأى الكلام عنه بعد.

(٧٥) لفظ الوادى يعنى هنا البحر والمقصود ببحر الأبيض المتوسط باعتباره أكبر
البحار الداخلة.

(٧٦) يعنى تعبير (furor di) الخارج كما يعنى فيما عدا ذلك. وفى الحال الأول يكون
المعنى هو (الذى يخرج من المحيط)، وفى الحال الثانية يكون المقصود هو (أن البحر الأبيض
المتوسط هو أكبر البحار فيما سوى المحيط) كما يرى بعض العلماء الدانتيين.

(٧٧) المقصود المحيط الأطلسى وهو المعروف قديماً بالأوقيانوس (Oceanus) واعتقد
القدماء أنه كان يحيط بكل الجزء اليابس من الكرة الأرضية، وظنوا أن الأرض مكونة

من قارة واحدة تمتد من خط الاستواء حتى الدائرة القطبية شمالا ومن جبل طارق غرباً حتى مصب
نهر الكنج شرقاً .

(٧٨) أى شاطئ أوروبا وشاطئ أفريقيا والتعارض قائم بسبب تقابل موضعهما الجغرافي
ولاختلاف السكان والدين والعادات . ويقترب هذا المعنى مما أورده فرجيليو :

Virg. Æn. IV. 628.

(٧٩) المقصود أن البحر الأبيض المتوسط يسير من بوغاز جبل طارق نحو الشرق .

(٨٠) يقصد شرق البحر الأبيض المتوسط أى أورشليم .

(٨١) يعنى أن الشمس حين تشرق في الساعة ٦ عند الكنج يصبح أفقها عند أورشليم ، وحين
تصبح الظهر في أورشليم - موضع أفقها التللكى السابق - ينتقل أفقها إلى جبل طارق - ببارق -
٦ ساعات - وهذا على أساس اعتبار جغرافي المصور الوسطى أن أورشليم تقع في نصف المسافة
بين الكنج وجبل طارق التي تبلغ ١٨٠ درجة - أى نصف محيط الكرة الأرضية - وهذا يعنى
أن المسافة بين أورشليم وجبل طارق هي ربع محيط الكرة الأرضية أى ٩٠ درجة . والواقع أن
البحر الأبيض المتوسط يغطى ٤٢ درجة طولية فقط .

(٨٢) يقصد أنه كان من سكان مارسيليا .

(٨٣) الإبرو (Ebro) نهر في إسبانيا ينبع من جبال البرانس ويصب في البحر الأبيض
المتوسط قبالة جزر البليار .

(٨٤) الماگرا (Magra) أو الماكرا (Macra) نهر ينبع في شمال منطقة لومبارديا
في شمال شرق بونتريمول وبعد انقذته نهر فارو ويصب في البحر الأبيض المتوسط في شرق خليج
استريا ويبلغ طوله ٤٠ ميلا . وفي عهد أغسطس كان فاصلا بين أوروبا وإيجوريا وفي زمن
دانتي كان سداً بين أملاك جنوا وتسكان .

(٨٥) أى تقع بوجاية ومارسيليا على خط طول ٥ شرقاً تقريباً ، وتشرق عليهما الشمس
وتغرب عندهما في وقت واحد تقريباً .

(٨٦) بوجاية (Buggea) مدينة في شرق الجزائر وكان بينها وبين مارسيليا وجنوا
وبيرا تجارة رائجة في زمن دانتي وعلى الأخص في العسل وشحمه .

(٨٧) يعنى مارسيليا التي أزيلت فيها الدماء عندما فتحها بروكس باسم يوليوس قيصر في ٤٩ ق.م.
في الحرب الأهلية بينه وبين بومبي :

Luc. Phars. III. 571 — 572.

(٨٨) فولكو دى مارسيليا (Folco di Marsiglia. ١٢٣١ - ؟ ١١٦٠) أحد
شراء التروبادور البروفنسيين . وهو ابن تاجر جنوى غنى رامتاز بالوسامة وطلاوة الحديث ،
وتردد على بلاطات برال دى بو دى مارسيليا ورايمونندو برنجييري الخامس دى تولوز وريتشارد

قلب الأسد والفونسو الثامن القشتالي . وله منامرات في الحب منها أنه أحب أدليسيا زوجة يرال ثم أحب أخته لاورا كما أحب أوديسيا زوجة جيوم الثامن دى مونبليه . ثم كف عن منامراته واتجه إلى الزهد ودخل سلك الكهنوت وتدرج في وظائف الكنيسة حتى أصبح أسقف تولوز وتلقب الألبيجيين الذين اعتقدوا أن المسيح ملاك بحجم صوري وبذلك لم يقتل ولم يبعث حياً وربما أراد دانتى تكريمه بوضعه في الفردوس لأنه وهب نفسه للكنيسة .

(٨٩) سبق أن أشارت كونيترادا رومانو (١١٩٨ - ١٢٧٩ . Cunizza da Romano) الأخت الصغرى من أخوات أنزولينو الثالث حاكم لبارديا وإيميليا والفيتيتو - في بيت ٢٧ وما يليه في هذه الأشرطة إلى أن فولكو كان رجلاً مشهوراً .

(٩٠) أى أن سماء فينوس أو الزهرة تدمع بطابع فولكو حينما تلتقاء في رحابها كما دمتها هي بطابعها حينما كان في الحياة الدنيا .

(٩١) بيلوس (Belus) هو ملك صور في الأساطير اليونانية الرومانية . وإبنة بيلوس هي ديدو (Dido) ملكة قرطاجنة :

Virg. Æn. I. 621.

(٩٢) كريسا (Creusa) إبنة بريام وهيكونا وزوجة إينياس :

Virg. Æn. I. 720., IV. 552.

(٩٣) سيكيوس (Sychaeus) زوج ديدو التي أتت بعد موته على ولائها لحيه وإن كانت ستقع في حب إينياس وستتحرر بسببه .

(٩٤) يعنى طالما كانت جدائل شعره - أو خيته - خالية من الشيب لكى تدل على أنه في سن الشباب .

(٩٥) فتاة رودوب (Rodopea) هي فيليس إبنة سيثون ملك تراقيا وديموفون (Demofonte) هو ابن تيزويوس وفيدرا واشترك في حرب طروادة ، وعند عودته منها أحب فيليس ووعدها بالزواج بعد زياوة أسرته في أثينا . وطال غيابه فاعتقدت فيليس أنه خائنها فانتحرت :

Ov. Her. II. 1.

Virg. Æn. XI. 675; Cul. 131, 133.

ومن فيض الألحان المسرحية - في صوو متفاوتة - نجد جلوك (١٧١٤ - ١٧٨٧) ولويدجى كبروني (١٧٦٠ - ١٨٤٢) قد وضع كل منهما ألحان أوبرا عن ديموفون :

Gluck, Ch. W. Demofonte, opera. Milano, 1742.

Cherubini, L. : Démophon, opéra. Paris, 1788 (ex. Decca).

(٩٦) أليدس (Alcides) هو هرقل الذي أحب إيول (Iole) إبنة ملك تساليا فاختطفها وتزوجها فثارت غيرة ديانيرا زوجته فقتلته بقميص نيسوس كما ورد في الأساطير اليونانية الرومانية :

Ov. Met. IX. 134....

• وقد ألف كل من لولي (١٦٢٣ - ١٧٤٠) وجلوك (١٧١٤ - ١٧٨٧) أوبرا عن الشيس :

Lully, J.B. : Alceste, opéra. Paris, 1674 (ex. Philips, HMV).

Gluck, Ch. W. : Alceste, opéra. Vienna, 1770 (Decca).

(٩٧) المتكلم هو توماس الأكويني (١٢٢٥ - ؟ ١٢٧٤ . Tommaso d'Aquino) زعيم الفلسفة المدرسية . عاش في باريس ولندن وروما وبولونيا ونابلي . عمر على التوفيق بين أرسطو والمسيحية . وهو متأثر بأرسطو وبفلاسفة العرب على الرغم من معارضة المذهب ابن رشد العقل . وأهم مؤلفاته «الخلاصة اللاهوتية» . ويشير الأكويني هنا إلى سليمان (Solomon) الملقب بالحكيم وهو ابن داود وثالث ملوك إسرائيل . حكم من حوالي ٩٦٠ إلى ٩٢٢ ق . م . وامتدت مملكته من حصص إلى خليج العقبة وتحيط بشخصيته الأساطير .

(٩٨) يرجع هذا إلى أن سليمان الحكيم هو واضع نشيد الإنشاد الذي ينمض بآيات المحبة كما ورد في العهد العتيق من «الكتاب المقدس» .

وله اقتباس عربي حديث :

الحكيم ، توفيق : نشيد الإنشاد . القاهرة ١٩٤٠ .

ومن الذين ألفوا ألحاناً من نشيد الإنشاد أو عنه نجد جوفاني بيريغيني دا بالسترينا (١٥٢٥ - ؟ ١٤٩٤) وإيميليو فيراري (١٨٥١ - ١٩٣٣) وأرتورو أونيجير (١٨٩٢ - ١٩٥٥) :

Da Palestrina, G.P. : Motetorum 5 vocibus liber quartus ex Canticis Cantorum. Roma, 1583.

Ferrari, E. : Il Cantico dei Cantici, opera. Milano, 1898.

Honegger, A. : Cantique des Cantiques, oratorio. Mézière, 1921. (Columbia).

(٩٩) أى أن أهل الأرض في شك من مصير سليمان وهل هو في السماء أم لا إذا اغتطف غلبه اللاهوت في شأنه لانغمسه في حياة الفخامة والملاذات :

I. Re, XI.1 - 13.

(١٠٠) يعنى بداخل هذا النثر الخامس توجد روح سليمان الحكيم .

(١٠١) أى إذا صدق ما جاء بخصوص سليمان في «الكتاب المقدس» الذي هو الحق - عند المسيحيين - فلن يظهر له نظير أبداً :

I.Re, III. 12.

(١٠٢) هذا هو ديونيسيوس الأريوبايجي (Dionysius Areopagite) من أعيان أثينا واعتنق المسيحية على يد القديس بولس في سنة ٥٢ . ويقال إنه كان أول أسقف لأثينا وإنه استشهد في ٩٥ وربما يكون قد زار باريس . وسحاول بعض الباحثين اعتباره للقديس دنيس شفيع فرنسا . واشتهر في العصور الوسطى بأبحاثه عن الله وعن الصوفية واللاهوت ونظام الملائكة ، الذي يعد الآن من أبحاث الأفلاطونية المحدثة في القرنين ٥ و ٦ .

(١٠٣) هو أعمق من درس طبيعة الملائكة وتأثر به فلاسفة المسيحية ومنهم توماس الأكويني.

(١٠٤) هناك خلاف حول المقصود بصاحب هذا النور ولكن الأغلب أنه باولوس أوريوس (Paulus Orosius) الذي ولد في طركوفة في جنوبي غرب برشلونة في أواخر القرن ٤ وتقلد على القديس أوغسطين في هيبوعل مقربة من يوفه الحالية في الجزائر ، وسافر إلى فلسطين ثم عاد إلى شمال أفريقيا ، ولا يعرف تاريخ وفاته بها . ووضع كتاباً في تاريخ معارضة الوثنية حل فيه على الوثنية ودافع عن المسيحية . وأفاد داني بكتابة أوريوس في كثير من معلوماته التاريخية .

(١٠٥) القديس أوغسطين (S. Agostino) . من مواليد نوميديا (بالجزائر) ومات في هيبو في أثناء غارة الوندال عليها في ٤٣٠ . اعتنق المسيحية في ميلانو وأصبح أسقف هيبو في ٣٩٦ . وسيأتي بعد : Par. XXXII. 35.

واستعان أوغسطين بدراسة أوريوس في وضع كتابه عن مدينة الله .

(١٠٦) يعنى حيناً أكثر أتباع النظام الفرنتشكي ويقال إنهم بلغوا ما لا يقل عن ٥٠٠٠ مريد في ١٢١٦ . وحكماً يمضى توماس الأكويني في حديثه .

(١٠٧) أي وراء فرنتشكو الذي كان أجدر أن تمتد حياته في السماوات على أيدي الملائكة وليس في الأرض على أيدي الرهبان .

(١٠٨) استخدم د نتي لفظ (archimandrita) من اليونانية بمعنى أمير أو راعي الأغنام.

(١٠٩) المقصود هنا لكيل الآخر هو أن البابا أرنودوريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧ - Onorio III) ثبت النظام الفرنتشكي بقراؤه البابوي في ١٢٢٣ .

والقديس فرنتشكو الأسيسي (١١٨٢ - ١٢٢٦ S. Francesco d'Assisi) يختلط

بشأنه التاريخ بالأسطورة . وقد عاش في أول الأمر عيشة مترفة في كنف أبيه بيتر ورناردوني تاجر الصوف الثرى وشارك في حياة المجتمع ولكنه عرف بالكرم والعنف على الفقراء . ووقع في أسر بيرودجا في القتال الذي نشب بينها وبين أسيسي في ١٢٠٢ وقضى في السجن بعض شهور . وعند تحرره مرض وأصابته أزمة نفسية . وبينما كان يتدرب من جديد للاشتراك في الحرب ضد أبوليا انتابه شعور ديني واتجه إلى حياة الزهد والعزلة والعبادة . وقام بالحج إلى روما وامتلا قلبه بالأسى على الفقراء والشحاذين أمام كنيسة القديس بطرس في الفاتيكان ، ومارس الشجاعة ومأ ، فثر الإحساس بالفقر فيه أكبر الأثر وكشف عما في الفقر من المآسى والمباهج على السواء . وتخل عن ثروة أبيه وعكف على وهظ الفقراء وخلعة مرضى البرص ، ورم بناء الكنيسة المهتأة سان داميانو . ودخل سلك الكهنوت وأنشأ نظام رهبانيته في ١٢٠٩ - ١٢١٠ . وأنشأت سيدة نبيلة تحت رعايته نظاماً للراهبات باسم نظام سانتا كلارا في كنيسة سان داميانو في ١٢١٢ . وحاول فرنتشكو التبشير بمفجه في الأندلس في ١٢١٤ - ١٢١٥

وفي مصر في ١٢١٩ . وفي ١٢٢١ أنشأ جماعة الترياري من العلمانيين رجالا ونساء وهم الذين سيرون على مبادئه دون أن يدخلوا سلك الكهنوت . ومات في كنيسة بوتيونكولا (ماريا الملائكة) على بعد ميلين إلى جنوب أسيسى .

ورسم جوتو (١٢٦٦/٧٦ - ١٣٣٧) صورة لاتحاد فرنشسكو بالفقر في الكنيسة العليا للقديس فرنشسكو في أسيسى .

وآلف أدريانو أديرياني (١٨٧٧ - ١٩٣٥) الحان أوراتوريو عن القديس فرنشسكو وكذلك فعل فرنشسكو مالبييرو (١٨٨٢ -) :

Adriani, A. : San Francesco, oratorio, 1916.

Malipiero, G. F. : San Francesco d'Assisi, musica corale, 1920.

(١١٠) رسل فرنشسكو مع بعض مريديه من أنكونا قاصداً الشرق الأدنى ليشر بالمسيحية ووصل إلى دمياط في زمن الحملة الصليبية الخامسة بقيادة جان دي برين في عهد الملك الكامل الأيوبي ، وبعد حصار دمياط الذي لم ينجح ، وفي الفترة التي عقدت فيها الهدنة بين الجانبين . وسافر فرنشسكو مع زميله ألومينا تو قاصداً معسكر المسلمين وطلباً لمقابلة السلطان في نوفمبر ١٢١٩ فقادها الجند إلى حضرة . وأخذ فرنشسكو يشرح معنى الثالوث للملك الكامل التي أصنى إليه برحابة صدر ولم تكن المسيحية غريبة عليه ، إذ كان ملكاً مثقفاً فضلا عن معرفته بأحوال المسيحيين بسبب اختلاط الغرب بالشرق في أثناء الحروب الصليبية . وقد قدر الملك الكامل هذين الراهبين المسلمين المتواضعين البسيطين الذين لا يحملان سلاحاً . ويقال إن فرنشسكو دعا الملك الكامل إلى اعتناق المسيحية وإنه عرض عليه أن يبقى إلى جانبه لكي يعلمه حقائقها . ويقال إنه سأله أن يقيم تجربة النار وإنه مستعد لأن يستل النار مع بعض رجال الدين المسلمين وإذا لم يحترق فرنشسكو فعل الملك الكامل أن يؤمن بالمسيحية . وبطبيعة الحال لم يقبل الملك الكامل تلك الدعوة لأن إيمانه بالإسلام لم يكن أقل من إيمان فرنشسكو بالمسيحية . وعلى الرغم من إخلاص فرنشسكو وزجه وتبلة فلم يكن له أن يدرك قدر الإسلام ولم يعرف أن المسلمين لا يرضون بغير دينهم بدلا . ويقال إن الملك الكامل قدم لفرنشسكو هدايا قيمة ولكنه اعتذر عن عدم قبولها ، فأعطاه الأمان للمبور حتى يبلغ معسكر المسيحيين .

(١١١) ترجع الحضرة السلطانية العظيمة إلى أهبه السلطان وشخصيته . ويفسر بعض الشراح لفظ (superba) بالكبرياء أو صعوبة المراسم ولكن هذا التفسير مستبعد لأن الملك الكامل كان حاكماً مستقراً وقد أصفى إلى فرنشسكو وأحسن معاملته وقدره وأمنه .

(١١٢) بطبيعة الحال لم يكن الملك الكامل أو المسلمون مستعدين للتحويل عن الدين الحنيف .

ورسم جوتو (١٢٦٦/٦٧ - ١٣٣٧) صورتين للقديس فرنشسكو في حضرة السلطان الملك الكامل وهو يسأله أن يأذن لشيوخ الإسلام بدخول تجربة النار معه ، الواحدة في كنيسة القديس فرنشسكو في أسيسى والأخرى في كنيسة سانتا كروتشي في فلورنسا .

(١١٣) رجع فرنشسكو إلى إيطاليا في ١٢٢٠ لكي يبشر بدموته الدينية بين المسيحيين الذين تهاونوا في أمور دينهم .

(١١٤) يتابع توماس الأكويني الكلام بقوله إنه من المؤلف في حياة كثير من الناس أن يشرعوا في التصرف في مواقف مختلفة ثم يدافع من مكابرتهم وعنادهم لا يعترفون بالخطأ ويعجزون عن حسن التصرف . وهو توماس الأكويني عن هذا المعنى في «المجموعة اللاهوتية» :
d'Aq. Sum. Theol. I.II.X.3.

(١١٥) أي أن الصياد القديم الخبرة يعود إلى الشاطئ وقد أضاع وقته عبثاً . والمقصود أن من يبحث عن الحقيقة دون إدراك وتدبر لا يبلفها أبداً .

(١١٦) بارمينيدس (Parmenides) فيلسوف يوناني ولد في إيليا حوالي ٥١٣ ق. م. ومن رأيه أن الشيء هو أصل الكائنات .

(١١٧) ميليسوس (Melissus) فيلسوف يوناني من ساموس ولد حوالي ٤٥٠ ق. م. وهو تلميذ بارمينيدس ومن آرائه أن العالم لانهاى ولا يتغير ولا يتحرك . ويشير دانتي إلى هذين الفيلسوفين في «الملكية» :
Mon. III. IV. 4.

(١١٨) بريسون (Bryson) فيلسوف يوناني ولد في هيراكليا وشغل بتربيع الدائرة ، وعومق تلاميذ إقليدس . وبعد هؤلاء الثلاثة نماذج للتفكير المقيم في تاريخ الفلسفة اليونانية .

(١١٩) يشبه هذا المعنى ما ورد في «الكتاب المقدس» :
Giov. XII. 35.

(١٢٠) سابليوس (Sabellius) ولد في بفتابوليس في شمال إفريقيا في القرن ٣ . ورفض فكرة الثالوث واعتبر أن الآب والإبن والروح القدس ليست سوى أسماء مختلفة للإله الواحد .

(١٢١) آريوس (حوال : ٢٥٠ - ٣٢٦ Arius) من الجائر أنه ولد في ليبيا وهو من تلاميذ لوسيانو الأنطاكي وأصبح من رجال الدين في الإسكندرية ، وأنكر ألوهية المسيح . وسأول قسطنطين أن يحل هذه المشكلة دون جدوى فحكم عليه بمجمع نيقية بالهرطقة في ٣٢٥ ، فقتضى بضع سنوات منفياً في إيليريا ثم أفرج عنه ورجع إلى الإسكندرية ونزل على هرطقته ومات في القسطنطينية .

(١٢٢) يعنى وغيرهم من الهرطقة الذين شوهوا معاني الكتاب المقدس ومسخوا الوجود المستقيمة التي تتألف في صفحاته بانمكاسها على حد السيوف اللامعة - أي بالهرطقة ، ويمكن القارىء أن يجرب النظر إلى وجهه ممسوخاً على صفحة سكين لامعة إذا تعذر عليه العثور على سيف لامع !

(١٢٣) يقصد توماس الأكويني بحكم الناس على العقيدة الدينية الآخرين . ويشبه هذا المعنى ما ورد في «الكتاب المقدس» وفي «الرؤية» :
I. Cor IV. 5; Jac. Epis. IV. 11.
Conv. IV. XV. 12.

(١٢٤) هذه صورة مستمدة من الحياة الواقعة في الريف . وهي صورة مجسة عن حكم الناس على الأمور دون دراية .

(١٢٥) في هذه الثلاثية ينتقل دانتى من الكلام الفلسفى إلى رحاب الفن الشعرى ويقدم صورة دقيقة رائعة المفارقة بين جفاف الشتاء وقسوته وازدهار الربيع الطلق الضاحك ، بوصف شجرة الورد البرية (*rosa canis*) في كلا الفصلين . وهي من أجل أبيات الكوميديا في وصف شيء من مظاهر الطبيعة الساحرة .

(١٢٦) وهذه الثلاثية تعبير دقيق عن ملاحظة حركة السفينة في الجو المواق ثم في الجو العاصف وهي صورة أخرى مجسة للفكرة التي يريد دانتى التعبير عنها . والثلاثيات الثلاث الأخيرة تأتى متتالية ومتدرجة وتتقدم صوراً رائعة مجسة عن المعبر المجهول الذى يرتقب الإنسان .

(١٢٧) أى حينما توقفت عن الدوران الأرواح الطوباوية التي أثارها الله برحمته .

(١٢٨) يعنى النسر رمز الإمبراطورية الرومانية .

(١٢٩) النسر هو الذى يتكلم كروح عامة تعبر عن أرواح الطوباويين جميعاً .

(١٣٠) هذا في اعتقاد المسيحيين . ويشبه هذا المعنى ما ورد في « الكتاب المقدس » :
Atti, IV. 12.

(١٣١) يعنى من قبل ومن بعد صلب المسيح على الصليب - كما في عقيدة المسيحيين .

(١٣٢) أى ليس كل من يستنجد بالمسيح يدخل ملكوت السموات وورد هذا المعنى في
Matt. VII. 21 — 22.
« الكتاب المقدس » :

(١٣٣) الإثيوبي (Etiopie) هنا رمز للوثني أو لغير المسيحي على العموم . وربما لم يعرف دانتى أن المسيحية الأرثوذكسية قد بلغت الحيشة في القرن ٤ . وربما عرف ذلك ولكنه لم يعتبر الأرثوذكسية من المسيحية في شيء .

(١٣٤) يعنى سيفصل في يوم الحشر الطوباويون عن الآثمين وسيكون الأولون إلى يمين الله والأخيريون إلى يساره . وورد هذا المعنى في « الكتاب المقدس » :
Matt. XXV. 31 — 46.

(١٣٥) أى سيحصد الطوباويون بالرحمة الأبدية ويشقى الآثمون بحرمانهم منها .

(١٣٦) يقصد دانتى بالفرس (*Perse*) الشعوب الوثنية أو غير المسيحية على وجه العموم ويقصد بالملوك ملوك العالم المسيحي .

(١٣٧) يعنى أن الفرس أو الوثنيين - هند دانتى - سينتدون بما ارتكبه المسيحيون من الأعمال المشينة . ويشبه هذا التعبير ما جاء في « الكتاب المقدس » :
Apocal. XX. 12.

(١٣٨) المتكلم هو القديس بنيدكتو (٤٨٠ - ٤٥٣ S. Benedetto) مؤسس النظام البندكتي . ولد من أسرة نبيلة في نورسيا (نورثسا الحالية) التي تقع في شرق أومبريا . درس في حدائقه في روما ، واشتهر بالزهد والورع ، وأنشأ في سوبياكو بعض الأديرة ثم أنشأ على جبل كاسينو الدير المعروف بهذا الإسم في ٥٢٩ . وهاجم اللومبارد هذا الدير في ٥٨٩ ونهبه العرب وأحرقوه في ٨٨٤ . ومنذ القرن ٨ توالى عليه الرهبان المنقطعون للعلم والأدب . واحتوت مكتبته على كنوز من الوثائق والمخطوطات والمطبوعات . وقد حدم هذا الدير في القتال المرير الذي حدث عنه في أثناء الحرب العالمية الثانية ثم أعاد الأمريكيون بناءه . ويقول بنيدكتو هنا إنه أنشأ الدير ثوق جبل كاسينو (الذي يقع في منتصف المسافة بين روما وفابيل) .

وتوجد صورة للقديس بنيدكتو من عمل مصور من مدرسة أوركافيا في القرن ١٤ وهي في متحف الأكاديمية في فلورنسا .

وَألف جوزيف ميسليفشيك (١٧٣٧ - ١٧٨١) الحان أوراتوريو عن القديس بنيدكتو :
Myslivecek, J. : Oratorio di S. Benedetto. Padova, 1768.

(١٣٩) استخدم دانتي لفظة (ville) وتعني القرى أو المدن أو المواضع حل وجه المعموم .

(١٤٠) يعنى اجتذب إليه الوثنيين وأخرجهم من عقائدهم الباطلة .

(١٤١) النيران تعني الأرواح . وعبر «الكتاب المقدس» عن الإيمان باندري :
Salmi, XXXIX. 3; Luca, XXIV. 32.

(١٤٢) المقصود هنا الأفكار والأعمال الصالحة . والأزهار رمز لحياة التأمل والفاكهة رمز لحياة العملية ، وعبر توماس الأكويني عن ذلك :
d'Aq. Sum. Theol. II.II.81.

(١٤٣) ربما كان المقصود القديس مكاريوس (٣٠١ - ٣٩١ S. Macarius) ويسى بنصرى وهو من تلاميذ القديس أنطونيوس المصري وانسحب إلى صحراء ليبيا حيث عاش ٦٠ سنة في العزلة والعبادة والعمل اليدوى . وربما قصد دانتي القديس مكاريوس الصغير الذي كان أيضاً من تلاميذ القديس أنطونيوس وعاش بين النيل والبحر الأحمر ومات في ٤٠٤ ، ويرجع إليه الفضل في تنظيم الرهبنة في الشرق .

ويظهر أن الأخير هو المقصود كما يرى كثير من الشراح .

(١٤٤) سان روموالدو (حوالى ٩٦٠ - ١٠٢٧ S. Romoaldo) من أسرة أونسى ولد في رافنا وصار راهباً في أحد أديرة البندكتيين بقرى رافنا ، وسامه خروج الرهبان حل قواعد نظامهم بقرار بمحركة إصلاح وأنشأ النظام البندكتي الكاملدولي (Camaldoli) في منطقة كازنيتو بقرى فلورنسا .

وتوجد صور لرؤيا سان روموالدو من عمل مدرسة بيتر في القرن ١٤ وهي في متحف الأوفيزي في فلورنسا .

(١٤٥) المقصود الرهبان الذين عكفوا حل حياة الزهد والورع بعكس الرهبان في عصر دانتي الذين خالفوا تعاليم الكنيسة .

(١٤٦) يعنى بدأ القديس بطرس بإقامة الكنيسة دون ثروة . وورد هذا المعنى في «الكتاب المقدس» :
Atti, III. 6.

(١٤٧) أى بدأ القديس بنيدكتو نظامه الدينى .

(١٤٨) استخدم دانتي لفظ (convento) ويقصد الجماعة أو المريدن وقلت (نظام رهبانه) . وسبق الكلام عن القديس فرنشسكو :
Par. XI. 49...

(١٤٩) يعنى أصل كل من الكنيسة ونظام بنيدكتو ونظام فرنشسكو .

(١٥٠) أى أن الفضائل الدينية تحولت إلى آثام وخطايا وخرج الرهبان في النظامين المذكورين على تعاليمهم .

(١٥١) استخدم دانتي لفظ (veramente) من اللاتينية بمعنى لكن أو مع ذلك كما سبق غير مرة مثل :
Par. I. 10. ecc.

(١٥٢) هذه إشارة إلى اشتقاق البحر الأحمر وتوقف مياه الأردن في أثناء خروج الإسرائيليين من مصر وسيرهم صوب الشمال بقيادة النبي موسى كما ورد في «الكتاب المقدس» :
Esod. XIV. 21—29, Gios. III. 14 — 47; Salmi, CXIV. 3.

ورسم بييرو دى كوريمو (١٤٦٢ ؟ - ١٥٢١ ؟) صورة تمثل انخسار البحر الأحمر وغرق فرعون عند خروج موسى وشعبه من مصر وهى في كنيسة سستو في الفاتيكان .

(١٥٣) المقصود أن ما فعله الله من شق مياه البحر الأحمر وتوقف مياه الأردن كان معجزة أصعب من إصلاح رجال الدين الخارجين على قواعد الدين وأن الله بعد ذلك قادر على إصلاح الأحوال .

(١٥٤) أى تكلمت بياريتشى قبل أن يتكلم دانتي وأرادت أن تحجب عن أول سؤال وجهه القديس يعقوب إلى دانتي . والقديس يعقوب هو شقيق يوحنا الإنجيلي ، ويقال إنه بشر بالمسيحية في أسبانيا ثم عاد إلى أورشليم حيث قتله غيرود أجريبا سنة ٤٤ وحملت جثته إلى أسبانيا حيث دفنت في جاليشيا وصار قبره مزاراً يحج إليه المسيحيون . ويعد دانتي واضع رسالة القديس يعقوب والمرجع أن واضعها هو يوحنا الصغير .

(١٥٥) الكنيسة المخاربة أو المجاهدة عنده هى الكنيسة التى تضم جميع المسيحيين في الأرض .

(١٥٦) يعنى ليس هناك من هو مغمم بالأمل أكثر من دانتي من حيث التطلع إلى أن تبلغ البشرية عصرأ تنود فيه الحرية والعدالة والاستقرار والسلام .

(١٥٧) الشمس رمز لله .

(١٥٨) مصر رمز للحياة على الأرض . والمعنى مأخوذ من تاريخ بنى إسرائيل وخروجهم من مصر بقيادة النبي موسى . وهكذا كان اعتقاد أهل مصر .

(١٥٩) أوووليم هنا رمز للسماء . وهكذا كان اعتقاد أهل مصر . وورد هذا المعنى في «الكتاب المقدس» :

Galati, IV. 26; Ebrei, XII. 22; Apocal. III. 12; XXI. 2,10.

(١٦٠) استخدم دانتى لفظ (prescrito) بمعنى الإنهاء . والمقصود إنقضاء زمن الكفاح في أثناء الحياة على الأرض .

(١٦١) أى أن رجال الدين أغفروا مغاسلم تحت ثيابهم الكتسية. ويشبه هذا المعنى ما ورد في «الكتاب المقدس» :

(١٦٢) يستحث القديس بطرس العناية الإلهية على عقاب هؤلاء البابوات الأشرار . والقديس بطرس هو سمعان بن يونا وشقيق أندراوس وكان صياداً في بلاد الجليل ومن مريلدى يوحنا المعمدان ، وصار من أخلص أتباع المسيح واستشهد في روما في عهد نيرون حوالى ٦٨ م .
ورسم ميكلائنجلو (١٤٧٥ - ١٥٦٤) صورة لاستشهاد القديس بطرس وهى في متحف الفاتيكان .

(١٦٣) المقصود أن القديس بطرس يتنبأ هنا بأن كلا من يوحنا الثانى والعشرين و كلمنتو الخامس سيتفعلان استشهاد المسيحين الأوائل لتحقيق مصالحتها .

(١٦٤) غاسقونيا (Gasconia) مقاطعة في جنوبي فرنسا . والمقصود هنا البابا كلمنتو الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٤) واشتهر بالبخل والجشع وخضع للنفوذ الفرنسى في أفنيون ولم يذهب إلى إيطاليا وأيد الجبلين ثم انحاز إلى الجلف ومكانه عند دانتى في الجحيم :
Inf. XIX. 82 — 87.

(١٦٥) كاهور (Cahors) مدينة في جنوبي فرنسا تقع على نهر لو وكانت عاصمة منطقة كيرسى القديمة وهى أهم مدينة في مقاطعة لو الحديثة . واشتهرت في العصور الوسطى بأنها كانت مقراً للامرايين . والمقصود هنا هو البابا يوحنا الثانى والعشرون (١٣١٦-١٣٢٤) وهو من أهل كاهور واشتهر بالبخل والجشع .

وتوجد صورة صغيرة لانتخاب يوحنا الثانى والعشرين وترجع إلى القرن ١٤ وهى في مكتبة كيدجى في روما . وهو مدفون في كاتدرائية أفنيون .

(١٦٦) يعنى إلى أى مدى ينبغي أن تنحدر الكنيسة القديمة الصالحة .

(١٦٧) شيببون (Scipione) الأفريقى هو القائد الرومانى الذى هزم هانيبال في قرطاجنة في سنة ٢٠٢ ق . م . وبذلك حفظ مجد روما .

(١٦٨) أى سينفذ الله العالم من الفوضى والفساد . وسبق التعبير عن ذلك :

Inf. I. 101 — 102, ecc.

(١٦٩) يعنى - على حد قول بياتريتشى - يجعل الواعظ دينه أن يثير الناس بالدعابة والسخرية دون أن يتناول مسائل الدين . ويشبه هذا الكلام ما سيقوله الرهبان المخلصون في إيطاليا ومنهم جيرولامو سافونارولا في فلورنسا في أواخر القرن ١٥ .

(١٧٠) يمكن أن يفسر تعبير (pur che) بمعنى (لكى) وفي هذه الحالة تكون الترجمة (ولكى يسمح الضحكات) .

(١٧١) ربما كانت القلنسوة رمزاً للرهبان أو الواعظ ويكون المنتفخ هو الواعظ نفسه وكانت قلانس الرهبان أكبر حجماً في زمن دانتي . والمقصود هنا حال الزهو التي كانت تسود الواعظ إذا سمع على الضحكات .

(١٧٢) الظاهر هنا رمز للشيطان والمقصود أن الشيطان يقف على طرف قلنسوة الرهبان الذين يعمدون في عظامهم إلى أسلوب السخرية والدعابة .

(١٧٣) أى أنه حيناً يرى المستمعون أن مثل هذا الرهاب يعط الناس وهو خاضع لتأثير الشيطان يدركون عدم جدوى النفران الذى يقدم بنيله بواسطة صكوك النفران .

(١٧٤) يعنى بالتطلع إلى نيل النفران بهذه الطريقة .

(١٧٥) أى يخطئ الناس حيناً يضعون ثقتهم في نيل النفران بناء على وعد مثل ذلك الرهاب بذلك . وورد في نص الجمعية الدائنية الإيطالية لفظ (correrebbe) من الجرى أو المسارعة أو التقاطر أو الاحتشاد . وورد في نص أكسفورد ونص كازيلا (converrebbe) بمعنى التحول أو السخول في حظيرة الإيمان بالوعد بنيل النفران من طريق صكوك النفران . وهناك تقارب في المعنى المقصود من استخدام كلا اللفظين .

(١٧٦) يعنى بنون أن يكون هناك من الأدلة ما يثبت قيمة صكوك النفران .

(١٧٧) أى بالتطلع إلى نيل النفران بالطريقة السالفة الذكر .

(١٧٨) القديس أو الإنبا أنطونيوس (٢٥٤ - ٣٥٩ S. Antonio) راهب مصرى ولد في قمن العروس بمركز الواسطى وكان من أسرة غنية وتلقى تعليماً دينياً ، ومات أبوه وهو في سن العشرين فقام بتدبير أملاكه بعض الوقت ، ولكن سرعان ما تملكه حب العزلة والتسك فباع أملاكه ووضع أخته مع جماعة من المتبتلات وفي سنة ٢٨٥ خرج إلى بسيرة ، وبني سويف في المنطقة التي شيد عليها دير المسنون ، وعاش هناك ٢٠ سنة حيث اجتمع حوله بعض المريدين . وفي سنة ٣١١ في عهد اضطهاد الإمبراطور مكسيمينوس للسيحية انحدر إلى المدن في رحط من رهبانه لتشجيع المضطهدين وزار الإسكندرية وتحنى حاكمها علناً ولم يتعرض له أحد بسوء إذ كان عهد اضطهاد المسيحيين قد أذن بالزوال . واتجه أنيرا إلى الصحراء الشرقية سنة ٣١٥ واستقر في جبال القلعة الجنوبية على مقربة من ساحل البحر الأحمر وأقام الزهاد القلايات من حوله . ولما بلغ أنطونيوس المائة من العمر خرج إلى المدن لكي ينسحق فقرات الأريوسيين واتخذ أنطونيوس الخنزير رمزاً له ، وربما كان ذلك كناية عن الشيطان الذى تغلب هو عليه ، وربما كان تعقلاً

لا يقال إن أنطونيوس حفظ الماشية من الأوبئة ، ومات في ٣٥٩ . وبعد موته أنشئ دير في الموضع الذي أقام به في جبال القنطرة الجبلية . ويقال إن بقياء قد حملت إلى القسطنطينية وإن جزءاً منها حل إلى البروقس في القرن ١١ . وليس المقصود بما ذكره دانتى هنا القديس أنطونيوس نفسه بل رهبان نظامه الديني الذين خالفوا تعاليمه من بعده وأخلوا بسنن غنازيرم بوجههم الناس بنيل الغفران في نظير المال . ويقصد دانتى بهذا جميع الرهبان الذين اتبعوا هذه الطريقة الخاطئة .

(١٧٩) يعنى أن رهبان القديس أنطونيوس يبيعون حشوك الغفران التي لا قيمة لها في سبيل خلاص النفوس من الخطايا ، وهي أشبه بالعملة الزائفة التي لم تدمج .

(١٨٠) يتكلم القديس برنار ويقصد الناحية التي نظر إليها دانتى حتى الآن . والقديس برنار (١٠٩١ - ١١٥٣ S. Bernard) ولد في برجانديا وأنشأ دير كليرفو في شامبانيا ودعا إلى الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩) . واشتهر بالزهد وقوة الشخصية وبجبه للعداء مارييا . وتوجد صورة للعداء مارييا وهي تتجلى لبرنار وهي من عمل أحد مصوري مدرسة أوركانيا في القرن ١٤ وهي في متحف الأكاديمية في فلورنسا .

(١٨١) يعنى عرش العداء مارييا .

(١٨٢) أى عروش السيدات العبرانيات .

(١٨٣) استخدم دانتى لفظ (cerna) من اللاتينية بمعنى يقسم .

(١٨٤) يعنى يصنع تقريبا مائلا في الجانب المواجه .

(١٨٥) هو يوحنا المعدان (S. Giovanni Battista) وهو ابن زكريا واليسابات وبشر بالمسيح وقام بتعليمه واستشهد في سبيل إيمانه :
Luca, I. 5 — 24, 56—80.

ومن الصور التي استوحاها المصورون من يوحنا المعدان صورة له من عمل ليونيمى من القرن ١٤ وهي في كنيسة سان فرنتشسكو في أسيسى ، وكذلك صورته من عمل ليونارد دا فنشى (١٤٥٢ - ١٥١٩) وهي في متحف اللوفر في باريس .

وألف جيوكويزو فينو (١٨٦٧ - ١٩٥٠) ألحان أوبرا عن يوحنا المعدان :
Fino, G. : Il Battista, opera. Torino, 1906.

(١٨٦) مات يوحنا المعدان في سنة ٣١ أى قبل موت المسيح — كما عند المسيحيين — بستين .

(١٨٧) المقصود بالجميع هنا مخلقة اللبى حيث نزل المسيح وأخرج منه يوحنا فيمن أخرجهم
Inf. IV. 52....
وكتول دانتى :

(١٨٨) القديس فرنتشسكو الأسيسى (S. Francesco d'Assisi) مؤسس النظام
Par. XI.
الفرنتشسكى وسبق الكلام عنه :

(١٨٩) القديس بنيدكتو (S. Benedetto) مؤسس النظام البنيديتي وسبق الكلام عنه :
Par. XXII.

(١٩٠) القديس أوغسطين (S. Agostino : ٣٥٤ - ٤٣٠) ولد في دغست في نوميديا (بالجزائر) ومات في هيبو (يقرب بونة الحالية في الجزائر) في أثناء غيرة الوندال عليها . وكان أبوه وثنياً ولكن أمه اعتنقت المسيحية . وفي أول نشأته عاش حياة الإباحة ثم حكف على الدراسة في موطن ميلاده وفي قرطاجنة . وسافر إلى روما واشتغل بالتعليم في ميلانو حيث تأثر بالقديس أمبروزو أسقف ميلانو واعتنق المسيحية وذلك المعمودية في ٣٨٦ ، ثم عاد إلى روما وإلى هيبو حيث أصبح أسقفاً في ٤٩٢ . وغر أعظم آباء الكنيسة . ومن مؤلفاته «الاعتراقات» و«مدينة الله» .

وبما رسمه منصورون للقديس أوغسطين نجد صورته التي تنسب إلى تشي: بوي (حوال ١٢٤٠ - ١٣٠٢) وهي في كنيسة سان فرنشسكو في أسيسي ، وصورته من عمل أندريا دا بونا يوتو (سنوات نشأته ١٣٤٣ - ١٣٧٧) وهي في مصلى الإسبان في كنيسة سانتا ماريا نوڤيلا في فلورنسا ، وصورته من عمل بوتشلي (حوال ١٤٤٥ - ١٥١٠) وهي في متحف الأوفيزي في فلورنسا ، والصورة التي رسمها روبنز (١٥٧٧ - ١٦٤٠) وهي في متحف الوطني في براغ .

وأخ جوفاني بييرو فرانكي (توفي ١٧٣١) ورأدولف يوحان هس (١٦٩٩ - ١٧٨٣) الحان أورانوريو وألخان أوبرا على التوالي عن القديس أوغسطين :

Franchi, G.P. : S. Monica nella conversione di S. Agostino, oratorio.
Firenze, 1693.

Hasse, J.A. : La Conversione di S. Agostino, opera. Dresda, 1750.

(١٩١) يتصد سائر مؤسسي النظم النيلية المسيحية وكبار رجال اللاهوت .

(١٩٢) أي حتى الجزء النبوي (الأصغر) من وردة السماء حيث وقف دائي مع القديس برنار .

(١٩٣) أي القديس بطرس .

(١٩٤) يعني وردة السماء .

(١٩٥) هو القديس يوحنا الإنجيلي وهو ابن زبدي صائد السمك في الجليل وكان من أخلص أتباع المسيح . ويعد واضع الإنجيل الرابع والرسائل الثلاث وصغر الرؤيا .

(١٩٦) أي شهد الرؤيا الخاصة بما سينال المسيحية من الولايات : Apocalisse.

(١٩٧) يعني الكنيسة .

(١٩٨) أي الكنيسة التي إقنتها المسيح ببعه كما عند المسيحيين : Atti, xx. 28.

(١٩٩) يعني الرمح الذي جرح به لونغينو المسيح في صدره ، كما يعتقد المسيحيون .

(٢٠٠) أي المسامير التي دقت في يدي المسيح وقدميه على الصليب كما يعتقد المسيحيون .

(٢٠١) يعني حل مقربة من القديس بطرس .

(٢٠٢) ألى بالقرب من آدم .

ويشبه وجود آدم مع القديس بطرس وجوده - مع الفارق - مع النبي العربي يوم القيامة
في تراث الإسلام :

ابن عربي ، محيى الدين : الفتوحات المكية . القاهرة ، ١٢٩٣ هـ . ج ٢ ص ١١٣ .

(٢٠٣) يعنى موسى نبي اليهود الذى عاش في القرن ١٣ ق. م .

وقد رسم بوسان (١٥٩٤ - ١٦٦٥) صورة لعبادة اليهود للمجل القديس بما أغضب موسى
سليهم ، وفى في المتحف الوطنى في لندن .

وصنع ميكلائيل (١٤٧٥ - ١٥٦٤) تمثالا لموسى وهو شامخ على شعبه ، وهو في كنيسة
سان بيتر و إن فنكولى في روما .

(٢٠٤) ألى حينما خرج موسى باليهود من مصر عاشوا في صحراء سيناء على المن انقشاقط من السماء .
Esodo, XVI. 13 — 15; Num. XI. 7; Salm. LXXXVIII. 24; Giov. VI.
31 — 34.

ورسم او كاس كرانك (١٤٧٢ - ١٥٥٣) صورة لفرق فرعون بعد عبور موسى وشعبه
في البحر الأحمر ، وفى في متحف الفن في ريجينزبورج .

وآلف هيندل (١٦٨٥ - ١٧٥٩) ألحان أوراتوريو عن خروج شعب إسرائيل من مصر
كانت روسيني (١٧٩٢ - ١٨٦٨) ألحان أوبرا عن موسى وفرعون أو عبور البحر الأحمر :
Haendel, G. F. : Israel in Egypt, oratorio. London. 1737 (Vox).
Rossini, G. : Moise et Pharaon ou le passage de la Mer Rouge, opéra.
Paris, 1827. (ex. Philips).

(٢٠٥) هذا سباب يوجهه دانتي لليهود على لسان القديس برنار ويشبه ما ورد في «الكتاب
المقدس» :

Esodo, XXXII. 7 — 9.

مكتبة البحث

أولا - مؤلفات دانتي :

(أ) في نصوصها :

Dante Alighieri : La Divina Commedia

- commento analitico di D.G. Rossetti, 6 voll. Londra, 1926.
- col commento di G.A. Scartazzini rifatto da G. Vandelli. Milano, 1949.
- commentata da A. Momigliano. Firenze, 1950.
- a cura di S.A. Chimenz. Torino, 1962.
- presentazine di M. Apolonio, 6 voll. (cd. Fabbri) Milano, 1965.

(ب) بعض ترجمات إنجليزية و(أمريكية) :

- The Divine Comedy, trans. by J. Carlyle, Ph. Wicksteed and Th. Okey. U.S.A., 1944.
- The Comedy of Dante Alighieri, trans. by D.L. Sayers (and B. Reynolds), 3 vols. (Penguin) Harmondsworth, 1949 — 1962.
- La Divina Commedia with an English trans. by H. M. Ayres. New York, 1949 — 1953.
- The Divine Comedy of Dante Alighieri, English trans. by L. Biancolli, 2 vols. New York, 1966.

(ج) بعض ترجمات فرنسية :

La Divine Comédie, trad. par H. Lognon. Paris, 1938.

La Divine Comédie, trad. par. A. Masseron. 4 vols. Paris. 1947—1950.

Dante : Œuvres Complètes :

Vie Nouvelle — Rimes — Banquet — De L'Eloquence en Langue Vulgaire — Monarchie — Epitres — Eglogues — Querelle de L'Eau et de la Terre — Divine Comédie, trad. et commentaires par A. Pézard (La Pléiade). Tours, 1965.

(د) ترجمات عربية :

الرحلة الدانقية في الممالك الإلهية : الجحيم ، المطهر ، النعيم ، ترجمة
عبود أبو راشد ، ثلاثة أجزاء . طرابلس الغرب ، ١٩٣٠ - ١٩٣٣ .

جحيم دانتي ، ترجمة أمين أبو شعر . القدس ، ١٩٣٨ .

كوميديا دانتي أليجييري «الفيلورنسي مولدا لا خلقاً» : النشيد الأول :

الجحيم ، ترجمة حسن عثمان . الطبعة الثانية المزيّدة المنقحة ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

كوميديا دانتي أليجييري «الفيلورنسي مولدا لا خلقاً» : النشيد الثاني :

المطهر ، ترجمة حسن عثمان . الطبعة الثانية المزيّدة المنقحة . القاهرة ، ١٩٧٠ .

كوميديا دانتي أليجييري «الفيلورنسي مولدا لا خلقاً» : النشيد الثالث :

الفرديوس ترجمة حسن عثمان . القاهرة ، ١٩٦٩ .

ثانياً- الكوميديا الإلهية مسجلة :

La Divina Commedia : Edizione fonografica completa con commenti
critici di Natalino Sapegno, letture di Giorgio Albertazzi, Tino
Corrado, Antonio Crast, Carlo d'Angelo, Arnaldo Foà, Achille
Millo e Romolo Valli, 3 voll. (Cetra) .

ثالثاً- مراجع في تاريخ الأدب الإيطالي :

Bartoli, A. : I Primi Due Secoli della Letteratura Italiana. Milano, 1878.

Gaspary, A. : Storia della Letteratura Italiana, trad. di U. Zingarelli
e V. Rossi, vol. I. Torino, 1914.

Sapegno, N. : Disegno Storico della Letteratura Italiana. Milano, 1966.

— Storia Letteraria del Trecento. Verona, 1963.

رابعاً- مراجع عن دانتي ومولفاته :

Cento, F. : Il Pensiero Educativo di Dante. Torino, 1950.

Faggin, G. : La Parola Poetica nel Paradiso (Il Veltro IX. 5 — 6).
Roma, 1965.

Franchi, Anna : Luci Dantesche. Milano, 1955.

- Galassi, G.** : Dante Plastico (La Fiera Letteraria V. 35 — 36, 39). Roma, 1950.
- Gilbert, A.** : Dante and his Comedy. London, 1964.
- Malagoli, L.** : Linguaggio e Poesia nella Divina Commedia (L'Alighieri IV. 2). Roma, 1963.
- Montanelli, I.** : Dante e il suo secolo. Milano, 1965.
- Monnin, G.** : Lyrisme de Dante. Paris, 1964.
- Pagliaro, A.** : Simbolo e Allegoria nella Divina Commedia (L'Alighieri IV. 2). Roma, 1963.
- Petrocchi, G.** : Dante e il suo Tempo. Torino, 1964.
- Renneci, P.** : Dante Visionnaire de L'Histoire (Bulletin de la Société d'Etudes Dantesques du centre Universitaire Méditerranéen XIV.) Nice, 1965.
- Reynolds, Barbara** : The Translation of Dante (Langue et Littérature : Actes du VIII^e Congrès de la Fédération Internationale des Langues et Littératures Modernes). Paris, 1961.
- Sayers, Dorothy Leigh** : On Translating the Divina Commedia (Nottingham Medieval Studies II.) 1958.
- Vittorini, D.** : The Age of Dante. New York, 1964.

خاتماً — مراجع في النثر التشكيلية :

- Bérance, F.** : Botticelli (Larousse). Paris — Novara, 1960.
- Bo, C. e Mandel, G.** : Botticelli (Rizzoli). Milano, 1967.
- Bovini, G.** : Musaici di Ravenna. Milano, 1965.
- Colonna G. e Donati, M.** : Musei Vaticani. Novara, 1962.
- George, B.** (Editorial) : Treasures of the Louvre, 2 vols. (Eng. edition-Hachette). France, 1966.
- Goldscheider, L.** : Leonardo da Vinci (Phaidon Press). London, 1941.
- The Sculptures of Michelangelo (Phaidon Press). Glasgow, 1950.

- Micheletti, E. : Rubens (Larousse). Paris—Novara, 1966.
- Rossi, F. : Le Galerie Uffizzi e Pitti. Milano, 1957.
- Vigorelli, G. e Baccheschi, E. : Giotto (Rizzoli). Milano, 1966.

سادساً—مراجع في الفنون الموسيقية :

- Chailley, J. : Histoire Musicale du Moyen Age. Paris, 1950.
- Bilancioni, G. : Il Suono e la Voce nell'Opera di Dante : Rilievi di un Otologo. Pisa, 1927.
- Dufourcq, N. : Larousse de la Musique (Directeur), 2 vols. Paris, 1957.
- Flower, N. : George Frideric Haendel. London, 1947.
- Grove, G. : Dictionary of Music and Musicians, 6 vols. London, 1940.
- Jacobs, A. : A New Dictionary of Music (Penguin). Harmondsworth, 1958.
- Mander, F. : Importanza della Musica nella Divina Commedia (Elsinore I.5). Roma, 1964.
- Pighini, G. : La Personalità di Dante : Dante Passionale e Musicista. Parma, 1960.
- Pirrotta, N. : Dante Musicus : Gothicism, Scholasticism and Music (Speculum, vol. XLIII. n. 2). Cambridge, Massachusetts, U.S.A., April, 1968.
- Reese, G. : Music in the Middle Ages. New York, 1940.
- Sartori, G. : Enciclopedia della Musica (Ricordi), 4 voll. Milano, 1963 — 1964.

سابعاً—مؤلفات موسيقية :

- Adriani, Adriano (1877 — 1935) : San Francesco, oratorio, 1916. Par. XI. 43 — 117.
- Cavalli, Pier Francesco (1602 — 1676) : Pompeo Magno, opera. Venezia, 1667. Par. VI. 53 — 54.
- Cherubini, Luigi (1760 — 1842) : Démophon, opéra. Paris, 1788 (ex. Decca). Par. 100 — 101.

Da Palestrina, Giovanni Pierluigi (c. 1525 — 1594) : *Motetorum 5 vocibus liber quartus ex. Canticis Cantorum*. Roma, 1583. Par. X. 109 — 113.

Donizetti, Gaetano (1797 — 1848): *Belisario*, opera. Venezia, 1836. Par. VI. 25.

Ferrari, Emilio (1851 — 1933) : *Il Cantico dei Cantici*, opera. Milano, 1898. Par. X. 109 — 113.

Ferrari, Giacomo Goffredo (1763 — 1842) : *L'Eroina di Raab*, opera. Londra, 1813. Par. IX. 115 — 116.

Fino, Giocondo (1867 — 1950) : *Il Battista*, opera. Torino, 1906. Par. XXXII. 31 — 33.

Franchi, Giovanni Pietro (? — 1731) : *San Monica nella conversione di S. Agostino*, oratorio. Firenze, 1693. Par. XXXII. 35.

Gluck, Christof Willard (1714 — 1787) : *Alceste*, opera. Vienna, 1770 (Decca). Par. IX. 101 — 102.

— *Demofoonte*, opera. Milano, 1742. Par. IX. 100 — 101.

Haendel, George Frideric (1685 — 1759) : *Israel in Egypt*, oratorio. London, 1748 (Vox). Par. XXXII. 130 — 132.

— *Julius Caesar*, opera. London, 1724 (Vox). Par. VI. 55...

— *Scipione*, opera. London, 1726. Par. VI. 52.

— *Tolomeo*, opera. London, 1743 (ex. Decca). Par. VI. 69.

Hasse, Johann Adolf (1699 — 1783) : *La Conversione di S. Agostino*, opera. Dresda, 1750. Par. XXXII. 35.

Honegger, Arthur (1892 — 1955) : *Cantique des Cantiques*, per coro e orchestra, 1926. Par. X. 109 — 113.

Lully, Jean-Baptiste (1623 — 1740) : *Alceste, ou le triomphe d'Alcide*, opera. Paris, 1674 (ex. Philips, HMV). Par. IX. 101—102.

Malipiero, Gian Francesco (1882 —) : *S. Francesco d'Assisi*, musica corale, 1920. Par. XI. 35 — 117.

Myslivecek, J. : *Oratorio di S. Benedetto*. Padova, 1788. Par. XXII. 40...

Purcell, Henry (1659 — 1695) : *Aeneas and Dido*, opera. Chelsea, 1689 (HMV). Par. VIII. 7 — 9.

Rossini, Gioacchino (1792 — 1868) : *Moïse et Pharaon ou le Passage de la Mer Rouge*, opéra. Paris, 1827 (ex. Philips). Par. XXXII. 130 — 133.

ثامناً — قواميس وفهارس :

Dizionario Letterario Bompiano delle Opere e dei Personaggi, 9 voll. Milano, 1947 — 1950.

Oxford Dictionary of the Christian Church, ed. by F. L. Cross. London, 1957.

Toynbee, P. : *Dictionary of Proper Names and Notable Matters in the Works of Dante*, revised by Ch. S. Singleton. Oxford, 1968.

Wilkins, E. H. and Bergin, Th. and de Vito, A., (editors) : *A Concordance to the Divine Comedy*. London, 1965.

تاسماً — كتب المراجع :

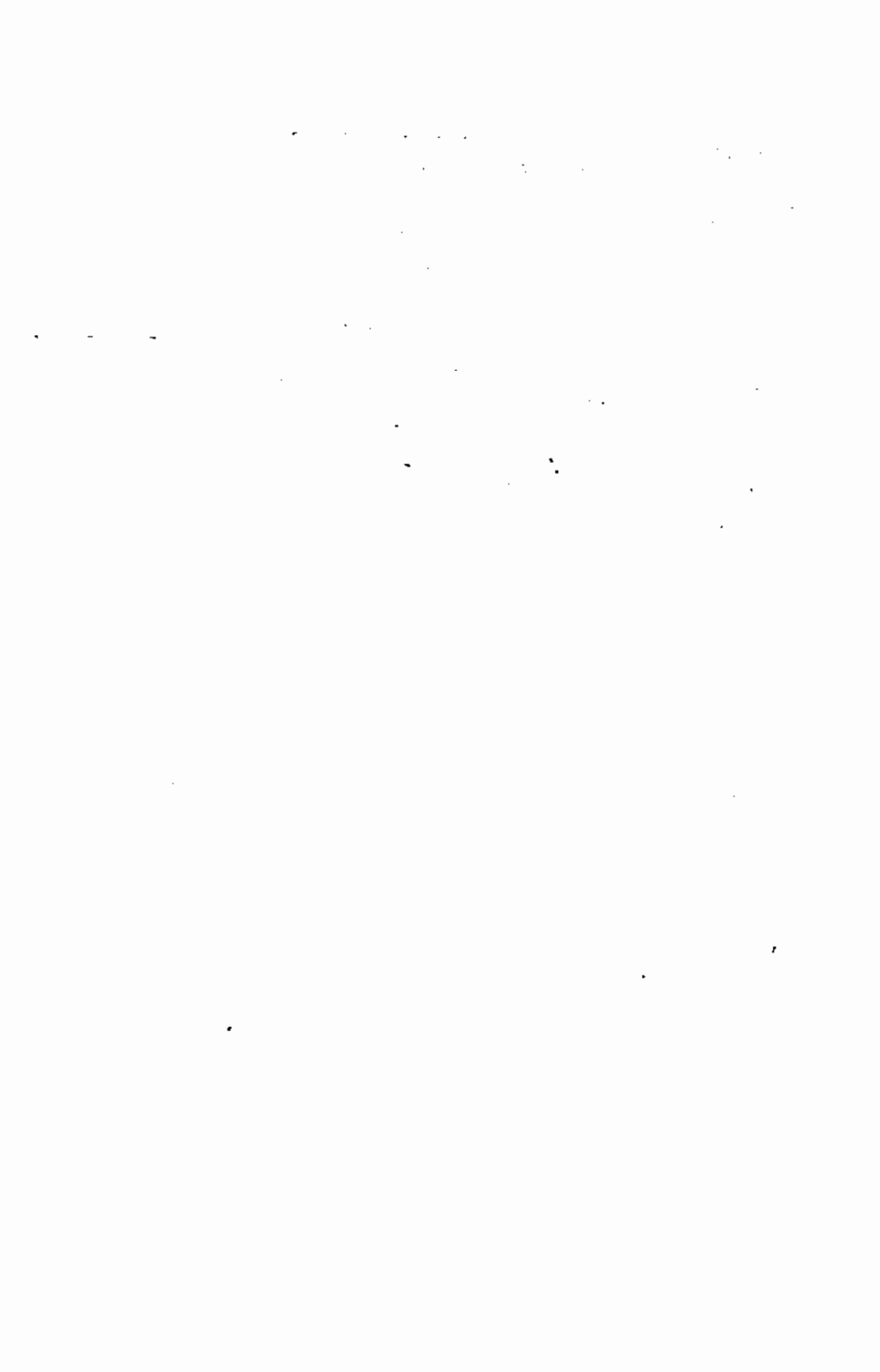
Branca, V. e Caccia, E. (a cura di) : *Dante nel Mondo* (1921 — 1964). Firenze, 1964.

Esposito, E. : *Gli Studi Danteschi dal 1950 al 1964*. Roma, 1965.

La Letteratura Italiana nel Mondo (ed. del Veltro). Roma, 1965.

عاشراً — دائرة معارف :

Enciclopedia Dantesca. Roma, 1970...



« بستان الرهبان » (١)

عرض وتعليل لنسخه المخطبة العربية غير المنشورة

المخلوطة بمكتبة دير سيناء

للدكتور

جوزيف نسيم يوسف

تمهيد :

تحتفظ مكتبة دير سيناء بمجموعة نادرة من المخطوطات العربية التي تتميز بأهميتها البالغة بالنسبة للمعنيين بدراسة الفكر الوسيط ، وظهور المسيحية وانتشارها في نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط ، وحركة الاضطهادات الدينية التي صاحبت نموها ، ثم تأسيس الكنيسة التي أصبح لها شأن خطير في تاريخ القرون الوسطى ، وفي عقلية الفرد وتفكيره وحياته الخاصة والعامة . فضلا عن حركة الانشقاقات الدينية داخل تلك الكنيسة التي عقدت من أجلها المجالس المسكونية الكبرى بقصد تدعيم المسيحية في وجه البدع والمحرطقات التي تعرضت لها . كذلك تناولت نظم الرهبنة

(١) جاءت بعض نسخ البستان المخطبة المخلوطة بدير سيناء تحت اسم « مصحف البستان » . ويبدو في هذه التسمية التأثير العربي واضحاً ، وذلك منذ أن أصبحت شبه جزيرة سيناء بديرها تابعة لتسيادة العربية بعد حركة الراجع . فكان كثير من المخطوطات العربية المسيحية العتيقة بديرنا تسهل بالبسلة وتختتم بالحمدلة وتورخ بالتقويم الهجري . كما أطلق على عدد غير قليل منها لفظة « مصحف » بدلا من « انجيل » أو « سفر » ، وأطلق على كثير من الرسل والقديسين المسيحيين اسم « المصطفى » بدلا من « البشير » أو « الانجيل » ، وهكذا . والخلاصة أن اللغة العربية بمصطلحاتها القنوية الخشبة وأسلوبها الجزل وتعبيراتها السلسة المتدفقة ومفرداتها الغنية قد ملعت بمخطوطات المجموعة العربية المسيحية بديرنا ، فأكسبتها رونقا وجاها وتعبيراً سليماً قوياً . يضاف إلى ذلك أن عدداً غير قليل من تلك المخطوطات يترن بنقوش وزخارف بدئية ملونة على هيئة توريقات نباتية يبدو فيها الأثر العربي . وقد أشرت إلى ذلك بشيء من التفصيل في مقال : دراسات في المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينة في سيناء - مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية العدد ٢٢ - الإسكندرية ١٩٦٩ - ص ١١٢ - ١١٤ و ١٢٥ - ١٢٧ .

والديرية ، وسير وتعاليم وأقوال الرهبان والآباء الأول الذين وضعوا الأسس المتينة التي قام عليها هذا الدين . بالإضافة إلى العديد من الموضوعات الفلسفية واللاهوتية التي تضمنتها تلك المخطوطات .

وتشتمل المجموعة العربية على حوالي مائة مخطوطة لم تنشر بعد ، من بينها أربعون نسخة خطية من مصحف «بستان الرهبان» الذي يعرف أيضاً باسم «بستان الآباء القديسين» أو «فردوس الآباء» (١) . وبعض هذه النسخ في مصاحف مستقلة قائمة بذاتها (٢) ، والبعض مدون ضمن مواضيع أخرى متنوعة متعددة (٣) . وقد قامت في عام ١٩٥٠ بعثة علمية مشتركة من جامعة الاسكندرية ومكتبة الكونغرس الأمريكية بعمل صور ميكروفيلم لمعظم النسخ الخطية لكتاب «بستان الرهبان» ، وتحتفظ كلية الآداب بجامعة الاسكندرية بصور منها (٤) . وترجع أهمية هذه النسخ غير المنشورة أنها تتضمن سير وأخبار وتعاليم الرهبان والنسك والآباء الأول في الكنيسة المسيحية . وهي تلقي المزيد من الضوء على الظروف التي أحاطت بنشأة الحركة الرهبانية

(١) وهو غير «بستان الروح» أو «الفردوس العقل» الذي تحتفظ مكتبة دير سيناء بخمس نسخ خطية منه باللغة العربية تحمل أرقام ٣٥٩ و ٣٦٠ و ٤٣٩ و ٤٨٠ و ٤٨٣ (سيناء - حربي) سفرد لها دراسة مستقلة باذن الله .

(٢) تبلغ عدد نسخ «بستان الرهبان» التي توجد في مصاحف مستقلة منفردة ١٣ نسخة تحمل أرقام مكتبة الدير التالية : ٤٣٧ و ٤٦٧ و ٥٤٦ و ٥٥٠ و ٥٥٢ و ٥٥٤ و ٥٥٧ و ٥٦٣ و ٥٦٤ و ٥٦٥ و ٥٦٦ و ٥٧٢ و ٥٧٣ (سيناء - حربي) .

(٣) أما المخطوطات العربية بسيناء التي تتضمن كتاب «بستان الرهبان» أو أجزاء منه إلى جانب موضوعات أخرى متفرقة ، فعددها ٢٧ مخطوطة تحمل أرقام مكتبة الدير التالية : ٤٣٨ و ٤٣٩ و ٤٤٢ و ٤٤٤ و ٤٧٦ و ٤٧٧ و ٤٧٩ و ٤٩٢ و ٥٠٥ و ٥٠٦ و ٥٠٨ و ٥٢٥ و ٥٣٦ و ٥٤٢ و ٥٤٧ و ٥٤٨ و ٥٥١ و ٥٥٣ و ٥٥٥ و ٥٥٨ و ٥٥٩ و ٥٦٠ و ٥٦١ و ٥٦٨ و ٥٧٠ و ٥٧١ و ٦٢٧ (سيناء - حربي) .

(٤) تحتفظ كلية الآداب بجامعة الاسكندرية بنسخ من صور الميكروفيلم المخطوطات التي قامت بعثة ١٩٥٠ بتصويرها من كتاب «بستان الرهبان» وعددها ٣١ مخطوطة . أما تلك التي لم تقم للبعثة بتصويرها من البستان فعددها تسع مخطوطات تحمل أرقام مكتبة الدير التالية : ٤٧٩ و ٥٢٥ و ٥٥٠ و ٥٥٥ و ٥٦٠ و ٥٦٤ و ٥٦٦ و ٥٦٨ و ٥٧٠ (سيناء - حربي) .

وتطورها ، وانتقالها من مصر إلى أوروبا ، والأثر الذي تركته في الفكر المسيحي خلال الحقبة الوسيطة من التاريخ .

وفيما يلي عرض وتحليل ودراسة مقارنة لهذه النسخ الخطية الأربعين من مصحف «بستان الرهبان» ، مع التعريف بها والكشف عن قيمتها التاريخية .

(أولاً) الناحية الشكلية :

كما بلغت النظر أن مقامات هذه المخطوطات تختلف اختلافاً بيناً . فأكبرها حجماً هي المخطوطة رقم ٤٩٢ سيناء - عربي التي يبلغ مقامها الخارجي $٢٧ \times ٧,٥$ سم ، ومقاس الكتابة من الداخل ٢٥×١٣ سم ، وعدد الأسطر في الصفحة الواحدة ٢١ سطراً ، بينما أصغرها حجماً هي المخطوطة رقم ٥٥٥ سيناء - عربي التي يبلغ مقامها $١٣,٥ \times ٩,٥$ سم ، ومقاس الكتابة ١٠×٨ سم ، وعدد الأسطر في الصفحة ١٠ . كذلك تتراوح أوراق كل مخطوطة ما بين ١١٤ ورقة كما هو الحال في المخطوطة رقم ٤٧٩ سيناء - عربي ، و ٥٧٣ ورقة كما في المخطوطة رقم ٥٦١ سيناء - عربي . وجميع هذه المصاحف مكتوبة على ورق ، فيما عدا المصحف رقم ٥٤٢ سيناء - عربي فهو الوحيد المكون على رق غزال ، ولذلك ينفرد بأهمية خاصة (١) .

هذا ، وقد تنوع الخط المستخدم في كتابة هذه المصاحف الأربعين . فهناك مصحفان مدونان بخط كوفي متأخر (٢) ، ومصحفان آخران بخط نسخي عتيق جداً (٣) ، وثلاثة مصاحف بخط نسخي معتدل يرجع إلى تاريخ متأخر (٤) . أما باقي النسخ فمدونة بخط نسخي عتيق متسق (٥) .

-
- (١) نظراً لأهمية هذه المخطوطة سنعرض لها بشيء من التفصيل في آخر البحث مع غيرها من مصاحف «بستان الرهبان» التي تتميز بأهميتها . أنظر لوحة رقم (٢) .
- (٢) هما المخطوطة رقم ٥٠٨ والمخطوطة رقم ٥٤٢ (سيناء - عربي) . أنظر لوحة رقم (٢) .
- (٣) المخطوطة رقم ٥٥١ والمخطوطة رقم ٥٥٢ (سيناء - عربي) . أنظر لوحة رقم (٣) ولوحة رقم (٥) .
- (٤) المخطوطات أرقام ٤٧٩ و ٥٦٥ و ٥٦٦ (سيناء - عربي) . أنظر لوحته رقم (٦) .
- (٥) بعضها يشتهر بحروفه الصغيرة مثل المخطوطة رقم ٥٥٠ سيناء - عربي .

وثمة خمس مخطوطات مدونة كل واحدة منها بمخطوط مختلفة مما يدل على أن هناك أكثر من شخص قد اشترك في كتابة كل منها. (١) ويلاحظ أيضاً أن العناوين ورووس الموضوعات في هذه المصاحف مكتوبة بالمداد الأحمر ، فيما عدا مخطوطة واحدة تحمل رقم ٥٤٧ سيناء - عربي غير معلمة بالمداد الأحمر (٢) .

وثمة خمسة مصاحف أغلفتها مغشودة (٣) ، وخسة مغلفة بجلد ومعظمها مبطن من الداخل برق أو ورق بقصد تقوية الغلاف (٤) ، ومصحف واحد له غلاف من الورق المقوى (٥) . أما باقي المصاحف وعددها ٢٩ مصحفاً ، فلكل منها غلاف خشبي مكسو بجلد بني عادي أو داكن اللون . وبعض هذه الأغلفة في حالة جيدة ، والبعض الآخر بال أو مكسور أو مفقود أحد جانبيه أو أعيد ترميمه أو تقويته وتبطينه بأوراق عليها كتابات بالعربية أو اليونانية القديمة أو كليهما (٦) . وتغني الملاحظة الأخيرة الكثير ، إذ أن بعض المخطوطات العتيقة اليونانية والعربية التي كان الدبر يحتفظ بها ، قد استخدمت في ترميم وتبطين أغلفة مخطوطات أخرى حفظاً لها من التلف

-
- (١) هي المخطوطات أرقام ٤٤٢ و ٤٤٧ و ٥٥٢ و ٥٦١ و ٥٧٠ (سيناء - عربي) .
(٢) هذا ، ويلاحظ أن بعض عناوين المخطوطة رقم ٤٦٧ سيناء - عربي مكتوبة بالأحمر .
(٣) المصاحف أرقام ٤٤٤ و ٥٠٨ و ٥٢٥ و ٥٧٢ و ٦٧٢ (سيناء - عربي) .
(٤) المخطوطة رقم ٤٧٩ سيناء - عربي لها غلاف جلدي لونه بني فاتح ، والمخطوطة رقم ٥٤٧ سيناء - عربي لها غلاف جلدي عتيق بني اللون ومبطن بقماش كتاني أزرق وبورقة عليها كتابات بالعربية ، والمخطوطة رقم ٥٥٣ سيناء - عربي لها غلاف جلدي عتيق مبطن من الداخل بصعاف من الرق عليها كتابات باليونانية والعربية ، والمخطوطة رقم ٥٥٥ سيناء - عربي لها غلاف جلدي عتيق لونه بني غامق ومبطن بأوراق عليها كتابات بالعربية ، وأخيراً المخطوطة رقم ٥٦٦ سيناء - عربي وتنفرد بغلافها الجلدي الأسود اللون .
(٥) المصحف رقم ٥٧٣ سيناء - عربي .
(٦) الأغلفة المكسورة والبالية والمفقود أحد جانبيها هي أغلفة المخطوطات التي تحمل الأرقام التالية : ٤٣٧ و ٤٣٩ و ٤٧٦ و ٤٧٧ و ٤٩٢ و ٥٠٦ و ٥٣٦ و ٥٤٢ و ٥٥٢ و ٥٦٠ و ٥٦٤ و ٥٧٠ و ٥٧١ (سيناء - عربي) . أما الأغلفة المبهتة أو المقواة بأوراق عليها كتابات بالعربية أو اليونانية القديمة ، فهي أغلفة المخطوطات أرقام ٤٣٨ و ٤٤٢ و ٤٤٤ و ٤٦٧ و ٥٥٠ و ٥٥١ (سيناء - عربي) .

والضياع . وهذه الظاهرة ملحوظة في عدد غير قليل من مخطوطات الدير . كما أن الأوراق التي استخدمت في تبطين بعض أغلفة مصاحف «بستان الرهبان» تتضمن - بصفة عامة - مادة ذات طابع ديني . هذا ، وقد تبقى في عدد من هذه المخطوطات المسامير الكبيرة المبرشمة والأقفال والأشرطة الجلدية المستخدمة لغلقتها (١) .

ولو أن الجانب الأكبر من هذه الأغلفة لا يثير الانتباه ، إلا أن عدداً قليلاً منها يتميز بأهميته من الناحية الفنية والأثرية . فهناك مخطوطة لها غلاف خشبي مكسو بمجلد بني مزين بإطارات ورسوم على شكل ورود صغيرة (٢) ، ومصحفان لكل منهما غلاف مزين بإطار على هيئة توريقات نباتية (٣) ، وأغلفة سبع مخطوطات مرصعة بحليات في الأركان والوسط (٤) . وقد زينت بعض الأغلفة برسوم على هيئة صلبان أو بصليب واحد في الوسط (٥) . ونلمس الدقة والبراعة في هذه الرسوم وفي النقوش والتوريقات التي يتجلى فيها الأثر العربي (٦) .

أما عن حالة هذه المصاحف الأربعين ، فهناك واحد منها بحالة جيدة تماماً وهو المصحف رقم ٤٣٧ سيناء - عربي ، وثلاثة في حالة سيئة للغاية وتحتاج إلى عناية خاصة عند فحصها واختبارها . (٧) كما أن بعضها به

(١) المخطوطات أرقام ٤٣٧ و ٤٩٢ و ٥٥٤ و ٥٥٧ و ٥٦٠ (سيناء - عربي) .

(٢) المخطوطة رقم ٤٣٨ سيناء - عربي .

(٣) المخطوطتان رقم ٥٦٥ ورقم ٥٧١ (سيناء - عربي) .

(٤) المخطوطات أرقام ٤٤٢ و ٥٤٢ و ٥٤٦ و ٥٥٧ و ٥٥٨ و ٥٦١ و ٥٦٣ (سيناء -

عربي) .

(٥) أغلفة المخطوطات أرقام ٤٧٧ و ٤٧٩ و ٥٥٧ و ٥٦١ و ٥٧١ (سيناء - عربي) .

(٦) للمزيد من المعلومات عن تطور الكتابة والخط العربي في مخطوطات سيناء العربية وأغلفة هذه المخطوطات وأهميتها ، أنظر جوزيف نسيم يوسف : دراسات في المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينة في سيناء - مقال بمجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية - العدد ٢٢ (العام الجامعي ١٩٦٩/٦٨) - الاسكندرية ١٩٦٩ ، وبصفة خاصة صفحات ١٠٦ - ١١٢ .

(٧) المخطوطات أرقام ٥٢٥ و ٥٥٥ و ٥٦٤ (سيناء - عربي) .

(ثانياً) قلوfoonات «البستان» وملاحظات أخرى :

المقصود بالقلوfoonات الخواتيم التي تنهى بها المخطوطات ، وهي غالباً ما تكون بقلم كتابها أو ناسخها أو مترجمها . وهذه الخواتيم أهمية لا يمكن التقليل من شأنها بالنسبة للنسخ الخطية الأربعة من كتاب «بستان الرهبان» . فهي تكشف ، في معظم الأحيان ، عن اسم كاتب المخطوط أو ناقله أو مترجمه إذا كان المخطوط منقولاً عن أصل سورياني أو يوناني قديم . كما تسمى الضوء أحياناً على تاريخ المخطوط واسم رئيس الدير وقت تدوينه . وإذا وضعنا في الاعتبار أن غالبية هذه المخطوطات ذات طابع ديني ، وأن كتابها أو ناسخها أو مترجمها هم عادة من رجال الدين الذين كانوا يحرصون على عدم ذكر أسيانهم إنكاراً لدوائهم ، وإذا وضعنا في الاعتبار أيضاً أن الجانب الأكبر من مصاحف «بستان الرهبان» الحالية من القلوfoonات مجهول أسيان كتابها أو مترجمها وغير معروف تاريخ تدوينها بالضبط ، وإذا وضعنا في الاعتبار كذلك أنه لا توجد قوائم كاملة بأسماء رؤساء دير سيناء الذين تولوا إدارته في الفترة الوسيطة من التاريخ — إذا وضعنا كل هذا في الحسبان أدركنا على الفور مدى الأهمية التي تتمتع بها القلوfoonات التي اختتمت بها بعض مصاحف «البستان» ، وما تعنيه بالنسبة للباحث المتعمق فيها (١) .

على أية حال ، توجد ٢٨ مخطوطة من بين هذه المجموعة خالية تماماً من القلوfoonات . (٢) وهذه المخطوطات لم يتسن — بصيغة عامة — تحديد تواريخها بالضبط ، وإنما كان هذا التحديد تحديداً تقريبياً اجتهداً اعتمد أساساً على نوع الورق المستخدم والخط المدون به المخطوط ونوع الحبر . فضلاً عن طبيعة المادة التي يشتمل عليها ، وما ورد بها من نبد أو إشارات

-
- (١) حول قلوfoonات المجموعة الخطية العربية بـسيناء ، أنظر مقال : «دراسات في المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينه في سيناء» ص ١١٥ - ١١٨ .
 (٢) المصاحف الثمانية والعشرون المشار إليها تحمل أرقام مكتبة الدير التالي بيانها : ٣٧ و ٤٣٨ و ٤٤٢ و ٤٦٧ و ٤٧٦ و ٤٧٧ و ٤٧٩ و ٤٩٢ و ٥٠٦ و ٥٠٨ و ٥٢٥ و ٥٤٢ و ٥٤٦ و ٥٤٧ و ٥٥٠ و ٥٥٢ و ٥٥٥ و ٥٥٧ و ٥٥٩ و ٥٦٠ و ٥٦١ و ٥٦٤ و ٥٦٦ و ٥٦٨ و ٥٧٠ و ٥٧١ و ٥٧٢ و ٦٢٧ (سيناء - عربي) .

موثقة تفيد وقف مخطوط ما على الدير أو قراءته والاطلاع عليه ، وما إلى ذلك من بيانات قد تساعد على إلقاء الضوء على الزمن التقريبي الذي دون فيه المخطوط .

وإذا كانت غالبية مصاحف «البستان» خالية من الخواتيم ، فهناك ١٢ مصحفاً توجد بها قلو فونات تضمن بعضها تاريخ المخطوط واسم كاتبه . كما جاء في البعض اسم الكاتب دون ذكر التاريخ ، أو العكس . فهناك مصحفان ورد بكل منهما التاريخ فقط دون أية إشارة إلى اسم الكاتب (١) ، ومصحف واحد ورد به اسم الكاتب دون التاريخ (٢) ، ومصحف آخر لم ترد في خاتمة أية إشارة إلى اسم الكاتب أو تاريخ المخطوط (٣) . أما بقية المصاحف وعددها ثمانية فقد تضمنت القلو فونات الخاصة بها أسماء كتابها وتواريخ تدوينها (٤) .

وإذا انتقلنا من التعميم إلى التخصيص ، نبدأ باستعراض المصاحف التي وردت بها قلو فونات حددت تواريخ كتابتها وأسماء كتابها تحديداً واضحاً . منها المخطوطة رقم ٤٣٩ «سيناء - عربي» ، وهي تحتوي على عدة موضوعات من بينها كتاب «فردوس الآباء» (٥) ، وقد ورد به قلو فون يحدد تاريخه بسنة ٦٧٨٧ لآدم ، أي سنة ١٢٧٩ م . والمصحف بقلم «صفرونيوس» بطريق بيت المقدس ، وكاتبه هو الراهب يوحنا بدبر سيناء ، وقد أعده من أجل «أنا بطرس الاسكاف السينائي» (٦) . أما المخطوطة رقم ٤٤٤ «سيناء -

(١) المصحف رقم ٥٤٨ والمصحف رقم ٥٥١ (سيناء - عربي) .

(٢) المصحف رقم ٥٥٨ سيناء - عربي .

(٣) المصحف رقم ٥٠٥ سيناء - عربي ، ورقة ٢٠٢ أ - ب .

(٤) المصاحف أرقام ٤٣٩ و ٤٤٤ و ٥٣٦ و ٥٥٣ و ٥٥٤ و ٥٦٣ و ٥٦٥ و ٥٧٣

(سيناء - عربي) . ويلاحظ أنه لوجود فاكل في خاتمة المخطوطة رقم ٥٥٤ لم يتسن معرفة اسم كاتبها أو تاريخها حل وجه اليقين .

(٥) هو الموضوع الرابع من بين موضوعات المخطوطة المذكورة . ويبدأ من ورقة ٢٠٧ أ ويتهيأ بورقة ٣٥١ ب .

(٦) أنظر ورقة ٣٥١ ب - ٣٥٢ أ من المصحف المذكور .

عربي ، وعنوانها «بستان الآباء» فتاريخها هو سنة ٦١٥ هـ التي توافق من سنة العالم ٦٧٢٦ ، وهي تقابل سنة ١٢١٨ م . ونقلها من السريانية إلى العربية يدعى «بو شاعر بن الشمس بو الكرم» ، ونص القلوفون كالآتي :

«وهو ما نقله من لغة السريانية إلى العربية المعلم الفاضل
ابا اغريغوريوس المزان بتاج القسوسية الشريف الدرجة
في الرهبانية بو شاعر بن الشمس بو الكرم» (١) .

والمخطوطة رقم ٥٣٦ سيناء - عربي التي ورد في القلوفون الخاص بها أن تاريخها هو سنة ٦٧٥ هـ التي توافق سنة ١٢٧٧ م ، وكاتبها هو «نخايل بن اسطفان بن سيمون بن البيزى الانطاكي الأسير بخزانة البنود» (٢) . كذلك تكشف خواتيم المخطوطات أرقام ٥٥٣ و ٥٦٣ و ٥٦٥ و ٥٧٣ (سيناء - عربي) عن تواريخ كتابتها وأسماء كتابها . فتاريخ المخطوطة الأولى هو سنة ٦٦٨٢ لآدم الموافقة لسنة ١٤٨٥ من الاسكندر وسنة ١١٨٢ م وسنة ٥٦٩ هـ ، (٣) أما كاتبها فهو «ابراهيم بن القس اسحاق بن الحورى منا التايشرائي» (٤) . وتاريخ المخطوطة الثانية هو سنة ٦٧٦٥ لآدم التي توافق سنة ١٢٥٧ م ، وكاتبها هو «الراهب الشمس يوحنا بن الوحش» (٥) . وتاريخ المخطوطة الثالثة هو سنة ٧١٣٠ لآدم التي توافق سنة ١٦٢٢ م ، وكاتبها هو «سياون باسم شماس من مدينة حصص المحروسة» (٦) والأخيرة

(١) أنظر قلوفون المخطوطة رقم ٤٤٤ سيناء - عربي ، ورقة ٣٠٥ ب .

(٢) أنظر مخطوطة رقم ٥٣٦ سيناء - عربي ، ورقة ١٢١ ب .

(٣) أنظر مخطوطة رقم ٥٥٣ سيناء - عربي - ورقة ١٣٢ أ . ويلاحظ أنه بتحويل تاريخ آدم إلى الميلادى يصبح سنة ١١٧٤ م ، وبتحويل التاريخ المجرى إلى الميلادى يكون سنة ١١٨٤ م بفارق يقدر بعشر سنوات ، في حين أن التاريخ الميلادى الوارد فعلا بالقلوفون هو سنة ١١٨٢ م . ولا نجد تعليلاً مقبولاً لهذه الفوارق في التواريخ .

(٤) وقد ورد الاسم أيضاً في قلوفون مختصر في ورقة ١٢١ ب من نفس المخطوطة .

(٥) أنظر مخطوطة رقم ٥٦٣ سيناء - عربي ، ورقة ٣٠٠ أ .

(٦) أنظر مخطوطة رقم ٥٦٥ سيناء - عربي ، ورقة ٤٦٨ ب . ويلاحظ أن قلوفون المخطوطة يلقي القسوة أيضاً حل مصدرها وهو مدينة حصص بالشام .

تاريخها سنة ١٧٩١ م ، وكاتبها هو الشيخ داود السبتي اقلوم جبل الله طور سيناء^(١) . وهناك مخطوطة تحمل رقم ٥٥٤ سيناء - عربي ، تاريخها حوالي القرن الثالث عشر . وكان من الممكن التعرف على تاريخها واسم كاتبها لولا القطع الذي يوجد في ورقة ٣٠٩ أ التي تضمنت خاتمة بإسم الكاتب وتاريخ المخطوطة^(٢) .

هنا ، ويوجد مصحفان من «بستان الرهبان» حددت خاتمة كل منهما تاريخ الفراغ منه دون ذكر اسم الكاتب . الأول يحمل رقم ٥٤٨ سيناء - عربي . وتاريخه سنة ٦٨١٤ لآدم أي سنة ١٣٠٦ م^(٣) ، والثاني يحمل رقم ٥٥١ سيناء - عربي ، وتاريخه هو سنة ٦٥٧٧ لآدم أي سنة ١٠٦٩ م^(٤) . وهناك مخطوطة واحدة من «البستان» احتوت على خاتمتين باسمي كاتبين مختلفين وهي المخطوطة رقم ٥٥٨ سيناء - عربي . ويلاحظ أن إسم الكاتب في الخاتمة الأولى هو «ارسانى المدياني» ، بينما جاء في الخاتمة الثانية أن كاتب المخطوطة يدعى «سيميرن المنبجي» .^(٥) ولما كانت المخطوطة تتضمن مواضيع متفرقة متعددة من بينها «بستان الرهبان» . فلا نعرف على وجه اليقين من هو كاتب «البستان» ، وكل ما يمكن قوله إنه ربما يكون قد اشترك كاتبان في تدوين هذه المخطوطة ويعزز ذلك وجود خطين مختلفين . وثمة مخطوطة تحمل رقم ٥٦٥ سيناء - عربي تضمنت خاتمتها إلى جانب إسم كاتبها وتاريخها إسم أسقف الدير وقت تدوينها ويدعى «كير يواصف»^(٦) .

-
- (١) أنظر مخطوطة رقم ٥٧٣ سيناء - عربي ، ورقة ١٣١ ب .
 (٢) المخطوطة رقم ٥٥٤ سيناء - عربي بها قلوبون (ورقة ٣٠٩ أ) يوجد به تأكل تذر مع معرفة اسم الكاتب وتحديد التاريخ على وجه اليقين . ويبدأ القلوبون هكذا « ... عشر شهر اذار سنة ستة آلاف ... وسبعة وستين لأبينا آدم» . ويحتمل أن تكون سنة ٦٧ [٧] ٦ لآدم التي تقابل سنة ١٢٥٩ م . وعلى هذا يمكن القول بأن تاريخها حوالي القرن الثالث عشر .
 (٣) أنظر مصحف رقم ٥٤٨ سيناء - عربي ، ورقة ١٦٢ أ وورقة ١٩٤ أ .
 (٤) أنظر مصحف رقم ٥٥١ سيناء - عربي ، ورقة ١٤٢ ب .
 (٥) أنظر مخطوطة رقم ٥٥٨ سيناء - عربي ، ورقة ١٩٠ ب وورقة ٢١٠ ب .
 (٦) أنظر مخطوطة رقم ٥٦٥ سيناء - عربي ، ورقة ٤٦٨ ب . أنظر الصفحة السابقة من هذه الدراسة .

نخرج مما سبق بعدة ملاحظات أولاها أن مصاحف «البتان» التي بها قلوبونات قد دوت في الفترة الوسيطة من التاريخ ، وعلى وجه التحديد فيما بين عامي ١٠٦٩ و ١٣٠٦ م ، وذلك باستثناء مصحفين اثنين فقط دونهما بعد . والملاحظة الثانية أنه توجد مخطوطة واحدة تكشف خاتمها عن مصلرها واسم رئيس الدير وقت تدوينها . والملاحظة الثالثة تبين فائدة التلوفونات في إلقاء الضوء على مختلف التقاويم من آدم إلى الاسكندر إلى الميلادي إلى الهجري . وأخيراً تعيينا القلوبونات في التعرف على أسماء كتاب وترجمي «البتان» ، ومعظمهم من هيئة رجال الدين .

هذا عن نسخ «بتان الرهبان» الخطية التي بها خواتيم حددت تاريخ كتابتها أو أسماء كتابها أو ناقلها أو الاثنين معاً . أما بقية مصاحف «البتان» فلا يوجد بها خواتيم ، ولهذا تعذر تحديد تواريخها تحديداً قاطعاً ، ولم يتسن معرفة أسماء كتابها (١) . وقد تم تحديد تواريخ هذه المصاحف غير المؤرخة على وجه التقريب . منها مخطوطة واحدة ترجع إلى القرن التاسع الميلادي وهي تحمل رقم ٥٤٢ سيناء - عربي ، (٢) وأخرى ترجع إلى القرن العاشر ورقمها ٥٠٨ سيناء - عربي ، وثالثة ترجع إلى القرن الحادي عشر ورقمها ٥٥٢ (٣) سيناء - عربي . وهناك سبع مخطوطات ترجع إلى القرن الثاني عشر وهي تحمل أرقام ٤٣٧ و ٥٤٧ و ٥٥٠ و ٥٥٨ و ٥٧١ و ٥٧٢ و ٦٢٧ (٤)

(١) مصاحف «البتان» المجهول أسماء كتابها هي تلك التي تحمل أرقام ٤٣٨ و ٤٦٧ و ٤٧٦ و ٤٧٧ و ٤٧٩ و ٤٩٢ و ٥٠٥ و ٥٠٦ و ٥٠٨ و ٥٢٥ و ٥٤٢ و ٥٤٦ و ٥٤٧ و ٥٥٠ و ٥٥٢ و ٥٥٥ و ٥٥٧ و ٥٥٩ و ٥٦٠ و ٥٦١ و ٥٦٤ و ٥٦٦ و ٥٦٨ و ٥٧٠ و ٥٧١ و ٥٧٢ (سيناء - عربي) . أما المخطوطة رقم ٤٣٧ سيناء - عربي وموضوعها «تعاليم لذهي القم وباسيليوس وافرهم وأقوال من بستان الرهبان» ، فغير معروف كاتبها بالضبط ولم يرد بها قلوبون وإن كان يحتل أنه صفرونيوس بطريق بيت المقدس . ويعتز ذلك ما جاء في المخطوطة رقم ٤٤٢ سيناء - عربي ، ورقة ٦١ أ وما يليها .

(٢) أنظر لائحة رقم (٢) .

(٣) أنظر لائحة رقم (٥) .

(٤) أنظر لائحة رقم (٨) .

(سيناء - عربي) ، و ١٨ مخطوطة ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي وهي تحمل أرقام ٤٣٨ و ٤٤٢ و ٤٦٧ و ٤٧٦ و ٤٧٧ و ٤٩٢ (١) و ٥٠٥ و ٥٠٦ و ٥٢٥ و ٥٤٦ و ٥٥٥ و ٥٥٧ و ٥٥٩ و ٥٦٠ و ٥٦١ و ٥٦٤ و ٥٦٨ و ٥٧٠ (سيناء - عربي) . وثمة مخطوطتان يرجع تاريخ تدوينهما إلى عصر النهضة ، وهما المخطوطة رقم ٥٦٦ سيناء - عربي وتاريخها حوالي القرن السادس عشر ، والمخطوطة رقم ٤٧٩ سيناء - عربي وتاريخها حوالي القرن السابع عشر .

وإذا كانت قنوفونات بعض النسخ الخطية من «صحف بستان الرهبان» التي يحتفظ بها دير سيناء ضمن مجموعته الخطية العربية تمتاز بأهميتها البالغة التي لا يمكن إغفالها أو التجاوز عنها ، فثمة عدة ملاحظات سريعة تجدر الإشارة إليها في هذا الصدد . الملاحظة الأولى أنه توجد ثمانية «مصحف» من تلك المجموعة تضمنت تبدأ تقييده وقدها على الدبر فيما عدا واحدة نص وقفيها غير واضح . (٢) وأربع من هذه الوقفيات بقلم أساقفة اللير أنفسهم . هي المخطوطات أرقام ٤٣٨ و ٥٥٢ و ٥٥٩ (سيناء - عربي) بقلم الأسقف «جرمانوس» (٣) ، والمخطوطة رقم ٥٦٠ سيناء - عربي بقلم الأسقف «ارسل» (٤) أما وقفية المخطوطة رقم ٥٧٣ سيناء - عربي فهي بقلم شخص يدعى الشيخ داود السينائي (٥) . ولم يتضح من نص الوقفية إن كان داود هذا زائراً أم رئيساً له .

(١) أنظر لوحة رقم (١) .

(٢) هي المخطوطات : ٤٣٨ و ٤٤٦ و ٤٥٢ و ٥٥٨ و ٥٥٩ و ٥٦٠ و ٥٧٣ (سيناء - عربي) . أما المخطوطة رقم ٥٥٥ سيناء - عربي (ورقة ٢٧ ب) فنص وقفيها غير واضح وهو «هذا الكتاب تست أم ربي» (كذا) .

(٣) أنظر مخطوطة رقم ٤٣٨ سيناء - عربي . والقبلة مدونة بأغلا حروف الأيمن من الداخل ، ومخطوطة رقم ٥٥٢ سيناء - عربي (ورقة ١) ، ومخطوطة رقم ٥٥٩ سيناء - عربي (ورقة ١٧) . أنظر لوحة رقم (٤) .

(٤) أنظر مخطوطة رقم ٥٦٠ سيناء - عربي (ورقة ٢ أ) .

(٥) أنظر مخطوطة رقم ٥٧٣ سيناء - عربي (ورقة ١ أ) .

والملاحظة الثانية أنه توجد إشارات عديدة في معظم مصاحف «البستان» تفيد اطلاع القراء عليها على مر العصور . وبعض هذه القراءات مؤرخة وموقع عليها من القراء (١) ، والبعض الآخر بدون تاريخ (٢) . وبعض هذه القراءات مكتوب بالعربية واليونانية . (٣) وهناك قراءتان مؤرختان في أحد هذه المصاحف ورد بهما اسم أسقف الدير وقتها ، ويحمل هذا المصحف رقم ٤٣٩ سيناء - عربي ، والقراءتان بتاريخ ٧٠٨٧ لآدم ، أي سنة ١٥٧٩ م ، في عهد رئاسة أسقف الدير المسمى « افجينوس » (٤) .

والملاحظة الثالثة هي أن ثلاثة من مصاحف «بستان الرهبان» مصورة ، وهي المصحف رقم ٥٠٦ سيناء - عربي ، إذ ترين ورقة ٧٦ أ رسوم نباتية ملونة على هيئة توريقات ، والمصحف رقم ٤٥٢ سيناء - عربي الذي تتحلى رءوس فصوله وإصحاحاته بزخارف باهائية مبسطة أقرب ما تكون إلى التوريقات العربية الطراز ، والمصحف رقم ٥٦٠ سيناء - عربي وترين ورقة ٢ أ زخرفة ملونة على هيئة توريقات ورسم على شكل صليب . ولا تكشف الزخارف والرسوم في هذه المصاحف الثلاثة عن براعة أو مقدرة فنية بارزة ، وإن كان الأثر العربي يبدو فيها بوضوح (٥) .

(ثالثاً) عنوان المصحف ومحتوياته ومؤلفه :

اشتهر هذا المصحف باسم «بستان الرهبان» أو «بستان الآباء القديسين»

(١) أنظر ، مخطوطة رقم ٤٣٧ سيناء - عربي التي تتضمن قراءة مؤرخة على الغلاف الأيمن من الداخل بقلم « الشاس بوسد سليمان المتقلب » ، وتاريخها سنة ١٢٧٤ م . أنظر أيضاً المخطوطات العربية بسيناء أرقام ٤٣٨ (ورقة ٢٨١ ب) و ٤٤٤ (ورقة ١٣٦١ أ) و ٥٥٧ (ورقة ٣١٣ ب) و ٥٥٩ (ورقة ٢ أ) .

(٢) أنظر ، مثلاً ، مخطوطة رقم ٥٥٠ سيناء - عربي (ورقة ٢٠٠) .

(٣) أنظر المخطوطات العربية بسيناء أرقام ٤٧٦ (الغلاف الأيسر من الداخل) و ٥٠٦ (ورقة ١٧٥ أ و ب) و ٤٤٧ (أوراق ١٠٢ - ١٠٤ ب) .

(٤) أنظر مخطوطة رقم ٤٣٩ سيناء - عربي (ورقة ٣٥٢ أ) .

(٥) حول مخطوطات سيناء العربية المصورة ، أنظر مقال : دراسات في المخطوطات العربية بدير القديسة كاترينة في سيناء ، ص ١١٢ - ١١٤ . أنظر لوحة رقم (٢) .

أو «فردوس الآباء» . (١) وبالرجوع إلى نسخه الخطية الأربعين المخطوطة بالدير انضح أنها - باستثناء خمس منها - لم تشر إلى اسمه صراحة . فنجد - مثلاً - المخطوطة رقم ٤٣٧ سيناء - عربي تحمل العنوان التالي :

« هذه تعاليم منتخبة من أقوال فم الذهب وباسيليوس وأفرام وزوسيا وباقي الآبا الابرار » (٢) .

ونجد أيضاً أن عنوان «البستان» في المخطوطة رقم ٤٣٨ سيناء - عربي ، هو :
« أقوال منتخبة من أقوال القديسين فم الذهب وباسيليوس وأفرام وقريس ونيلوس وباقي الابرار » (٣) .

بينما تحدد عنوان المصحف في المخطوطة رقم ٤٧٧ سيناء - عربي على الوجه التالي :

(١) ظهر في القاهرة عام ١٩٦٨ كتاب يحمل اسم «بستان الرهبان لآباء الكنيسة القبطية» ، أشرفت على نشره لجنة التحرير والنشر ببطرانية بني سويف والبهنا ، وتولت طبعة مطبعة دار العالم العربي . وغنى عن القول أن هذا الكتاب تناول سير وتراجم مشايخ آباء الكنيسة القبطية فقط أمثال أنثاسيوس وانطونيوس وباخوميوس ومقاريوس ، في حين أن المصاحف الخطية العربية المخطوطة بدير سيناء تناولت سير وأقوال وقصص وتعاليم آباء الكنيسة الأول في فجر المسيحية سواء أكانوا مصريين أم شاميين أم بيزنطيين (يونانيين) أم غيرهم . وواضح أيضاً من مقدمة الكتاب أنه غير مأخوذ عن نسخة خطية عربية من مصحف البستان ، وإنما تم تجميع مادته من عدة مراجع منشورة من عربية وأجنبية وأدلى له اسم «البستان» . وكيفما كان الأمر ، يصح أن تكون النسخ العربية الخطية الأربعين من مصحف «بستان الرهبان» التي يحتفظ بها دير سيناء أساساً متيناً وموثوقاً لمراجعة وتصحيح وتنقيح واستكمال هذه النسخة العربية المنشورة ، وكذلك التراجم المنشورة باللغات الأوروبية الحديثة لكتاب «البستان» مثل ترجمة واليس بادج الإنجليزية المعروفة باسم Budge, E. A. T. W. (tr.), The Paradise or Garden of the Fathers, 2 vols., Oxford, 1934.

(٢) أنظر كذلك - على سبيل المثال - المخطوطة رقم ٤٣٩ سيناء - عربي ، ورقة ٢٠٧ أ ، والمخطوطة رقم ٥٦٠ سيناء - عربي ، ورقة ٢ أ .

(٣) أنظر مخطوطة رقم ٤٣٨ سيناء - عربي ، ورقة ٨٧ ب . راجع أيضاً المخطوطات العربية بسيناء رقم ٤٩٢ (ورقة ١ ب) ، ورقم ٥٠٨ (ورقة ٦٩ ب) ، ورقم ٥٥٧ (ورقة ١ ب) . أنظر لوحة رقم (١) .

«نبدا . . . بوصف سيرة الابا القديسين ونسكهم
الذى يشتمل هذا المصحف عن اخبارهم»^(١).

أما عنوانه فى المخطوطة رقم ٥٣٦ سيناء - عربى فهو :
«من كلام الابا القديسين وأخبارهم»^(٢).

وعنوان المخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربى كالآتى :
«هذه قصص الالهات النجيا القديسين من الرجال
والنسا فى امكنة شتا»^(٣).

وحددت المخطوطة رقم ٥٤٦ سيناء - عربى عنوان المصحف على الوجه
التالى :

«... تقدمه القول عن تدابير الابا القديسين»^(٤).

وعنوان المخطوطة رقم ٥٥٠ سيناء - عربى هو :
«... هذا الكتاب وصية ونسك وتدبير عجيب ..
وألفاظ آبا قديسين»^(٥).

وعنوان «البستان» فى المخطوطة رقم ٥٥٨ سيناء - عربى ، هو :
«هذه ابيات نافعة ملتقطة من قول الابا القديسين»^(٦).

وفى المخطوطة رقم ٥٦٥ سيناء - عربى ، جاء العنوان كالآتى :

-
- (١) أنظر مخطوطة رقم ٤٧٧ سيناء - عربى ، ورقة ٧٢ أ . راجع أيضاً مخطوطة رقم ٥٥٢ سيناء - عربى ، ورقة ١ ب . أنظر لوحة رقم (٥) .
(٢) أنظر مخطوطة رقم ٥٣٦ سيناء - عربى ، ورقة ١ أ .
(٣) أنظر مخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربى ، ورقة ١١١ ب . أنظر لوحة رقم (٢) .
(٤) أنظر مخطوطة رقم ٥٤٦ سيناء - عربى ، ورقة ٢ أ .
(٥) أنظر مخطوطة رقم ٥٥٠ سيناء - عربى ، ورقة ١ أ .
(٦) مخطوطة رقم ٥٥٨ سيناء - عربى ، ورقة ١ أ .

«... نكتب اخبار الابا والقديسين النساك المتوحدين» . (١)

نخلص مما سبق أن معظم مصاحف «البستان» لم تشر إلى عنوانه صراحة ، مكتفية بتحديد المضمون ومجمل المحتويات تحت إسم «أخبار» أو «تعالم» أو «أقوال» أو «كلام» أو «وصايا» أو «تدابير» أو «سير» أو «قصص» الآباء القديسين . ومن هذه المصاحف ما حدد أسماء بعض أولئك القديسين من رجال الكنيسة الأول ، ومنها ما أورد العنوان مكرراً .

أما المصاحف الخمسة التي حددت العنوان بوضوح فهي تلك التي تحمل أرقام ٤٤٢ و ٥٠٦ و ٥٤٧ و ٥٥٤ و ٥٦١ (سيناء - عربي) . وقد اكتفى أحد هذه المصاحف بتحديد العنوان على الوجه التالي :

«نبتدي ... نكتب جزو من الباتيريقيون (٢) المعروف بالبدستان وهو من اخبار الرهبان واللاهات» (٣) .

ومن هذه المصاحف ما حدد العنوان تحديداً أكثر وضوحاً ، ونعني بذلك المخطوطة رقم ٤٤٢ سيناء - عربي :

«المصحف الذي يقال له بدستان الرهبان ...» (٤)

(١) مخطوطة رقم ٥٦٥ سيناء - عربي ، ورقة ١ أ . أنظر أيضاً المخطوطات العربية بسيناء رقم ٥٧٣ (ورقة ١ أ) ، ورقم ٥٦٦ (ورقة ١ أ) ، ورقم ٦٢٧ (ورقة ١٠٩ ب) . أنظر عنوان المخطوطة رقم ٥٦٥ في لوحة رقم (٦) ، وعنوان المخطوطة رقم ٥٧٣ في لوحة رقم (٧) .

(٢) باتيريقيون أو باتريكون كلمة يونانية المقصود بها أقوال الآباء الرهبان . أنظر فراد كامل (دكتور) : فهرست مكتبة دير سانت كاترين بطورسينا - ج ١ (الطبعة ١٩٥١) ص ٩٧ هزير سوربال عطية : النهارس التحليلية لمخطوطات طورسينا العربية ، ج ١ ، ص ٥٦٠ .

(٣) أنظر مخطوطة رقم ٥٤٧ سيناء - عربي ، ورقة ٢ أ . وجدير بالذكر أن هذا العنوان يوضح أن «البستان» يعنى أخبار الرهبان والآباء ، وأن المقصود بأخبار الرهبان والآباء كتاب «البستان» .

(٤) أنظر مخطوطة رقم ٤٤٢ سيناء - عربي ، ورقة ٦١ أ . راجع أيضاً مخطوطة رقم ٥٥٤ سيناء - عربي ، ورقة ٢ أ .

ومنها ما جاء عنوانه تحت اسم «بستان الآباء» :

«نبتدى ... نكتب المصحف الذى يقال له بستان الآباء» (١)

واضح إذن أن «بستان الرهبان» أو «بستان الآباء القديسين» هو المصحف الذى يتناول تعاليم وأقوال وقصص وسير وأنخبار رجال الكنيسة الأول من الرهبان والنسك الذين قامت على أكتافهم الرهبة والديرية فى العصر المسيحى المبكر .

وجدير بالذكر أن هذه النسخ الخطية من «بستان الرهبان» وإن اتفقت فيما جاء بها من أقوال الآباء الرهبان وتعاليمهم وسيرهم ، إلا أنه توجد أحياناً قصص مختلفة حول الدقائق والتفاصيل الصغيرة التى لا تتناول جوهر المادة ذاتها. كما أن بعضها أورد السير والأقوال مختصرة مركزة فى بضع صفحات (٢) ، بينما تناولتها بعض المصاحف بتفصيل وإسهاب كبيرين ، حتى أن عدداً غير قليل منها يحتوى على بضع مئات من الصفحات (٣) . كذلك لوحظ أن عدداً من هذه المصاحف يشتمل على «البستان» كاملاً غير منقوص (٤) ، بينما اشتمل البعض على أجزاء أو مقتطفات منه (٥) . وثمة ملاحظة أخرى هى أن ثلاثة مصاحف من هذه المجموعة الخطية مرتبة ترتيباً أبجدياً حسب أسماء الآباء الرهبان ، وهى المصحف رقم ٤٩٢ والمصحف رقم ٥٤٦

(١) أنظر مخطوطة رقم ٥٠٦ سيناء - عربى ، ورقة ٧٦ أ .

(٢) من النسخ المختصرة نذكر ، على سبيل المثال ، مخطوطة رقم ٤٣٨ سيناء - عربى (أوراق ٨٧ ب - ١٩٩ أ) ، ومخطوطة رقم ٤٧٧ سيناء - عربى (أوراق ٧٢ أ - ١١١ ب) ، ومخطوطة رقم ١٩ ، سيناء - عربى (أوراق ٥ ب - ٣٨ أ وأوراق ٦٠ أ - ٦٩ ب) ، ومخطوطة رقم ٥٤٨ سيناء - عربى (أوراق ٢ أ - ٥٧ ب) . هذا ، مع ملاحظة أن المخطوطات المشار إليها تحتوى على موضوعات عديدة متنوعة إلى جانب «البستان» .

(٣) نذكر ، على سبيل المثال ، مخطوطة رقم ٤٣٩ سيناء - عربى (أوراق ٢٠٧ أ - ٣٥١ ب) ، ومخطوطة رقم ٤٤٢ سيناء - عربى (أوراق ٦١ أ - ٣١٦ ب) ، ومخطوطة رقم ٥٤٦ سيناء - عربى (أوراق ٢ - ٢٤٢) ، وهكذا .

(٤) أنظر ، مثلاً ، المخطوطات العربية بسيناء أرقام ٤٣٨ و ٤٣٩ و ٥٤٨ .

(٥) أنظر ، مثلاً ، مخطوطة رقم ٤٧٧ ومخطوطة رقم ٤٧٩ (سيناء - عربى) .

والمصحف رقم ٥٥٢ (سيناء - عربي) ، وقد جاء في بداية كل منها ما يفيد ذلك صراحة . (١)

وكيفما كان الأمر ، فإن التمعن بين السطور في هذه النسخ الخطية الأربعين وما تضمنته من أقوال وأخبار ومن سير وقصص تتعلق برجال الكنيسة الأول من الرهبان والنساك - يلقي الكثير من الضوء على الحركة الرهبانية في مصر وسورية ، تلك الحركة التي تعتبر من الظواهر الهامة في تاريخ القرون الوسطى . فأول ما يكشف عنه «بستان الرهبان» أن الرهبة ظهرت في بداية عهدها في مصر . وتوضح قصص وأخبار القديس أنطونيوس المتوفى سنة ٣٥٦ م وهو في سن المائة ، وغيره من المتوحدين الذين عاشوا في الصحراء الشرقية بمصر مثل القديس بولس (أبا بولا) المتوفى حوالي سنة ٢٧٠ م ، أن هذه الحركة بدأت أول ما بدأت على هيئة حركة توحيدية انفرادية (٢) . وإلى جانب هؤلاء يوجد رعييل من آباء الكنيسة بمصر من أمثال القديس باخوميوس والقديس مقاريوس في وادي النطرون . وتبين تعاليمهم وقصصهم كيف انتقل هذا النظام من حركة توحيدية إلى الحركة المعروفة بحركة الحياة الاجتماعية للرهبان . إذ تم تنظيم حياة الرهبان في شكل اجتماعي بحيث يعيش الجميع داخل حيطان دير واحد ،

(١) بداية «البستان» في المخطوطة رقم ٩٢٢ سيناء - عربي كالآتي : «أقوال الابا القديسين وقول كل واحد منهم مجموع في موضع واحد وهم يتبعون بعضهم بعضاً كل حروف الفبايطاء . أنظر ورقة ١ ب من المصحف المذكور . أنظر لوحة رقم (١) ولوحة رقم (٥) . ويلاحظ أنه على الرغم من عدم اشارة باقي النسخ صراحة إلى التزام الترتيب الأبجدي للأباء القديسين ، إلا أنها درجت على ترتيبهم ترتيباً أبجدياً . وإن كان هذا لا يمنع من أن بعض هذه المصاحف لم يرتب مادته ترتيباً أبجدياً ، مثل المصحف رقم ٥٤٢ سيناء - عربي .

(٢) أنظر ، مثلاً ، مخطوطة رقم ٩٢٢ سيناء - عربي (ورقة ١ ب وما بعدها) ، ومخطوطة رقم ٥٠٨ سيناء - عربي (ورقة ٧١ ب و ٧٢ أو ٧٦ ب) ، ومخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربي (ورقة ١١٣ ب وما بعدها و ١٢٦ أ و ١٥٤ ب وما بعدها و ١٧٨ أ و ٢٠٩ أ وما بعدها و ٢١٨ أ) ، ومخطوطة رقم ٥٥٢ سيناء - عربي (ورقة ٢ ب وما بعدها) ، ومخطوطة رقم ٦٢٧ سيناء - عربي (ورقة ١٤٠ أ وما بعدها) . أنظر أيضاً لوحة رقم (١) ولوحة رقم (٦) ولوحة رقم (٧) .

وكل منهم داخل قلايته ، وهم يأكلون معاً ويصلون معاً ويلبسون معاً
ويشتغلون لكسب الرزق . ونستشف من تراجعهم أن من أولى مبادئهم أن
يعيشوا فقراء متبذلين يخدمون الله عز وجل ويطيعون رؤسائهم طاعة عمياء .
والبستان غنى في مادته في هذه الناحية (١) .

ولهذا ليس بغريب أن تستحوذ سير وتعاليم آباء الكنيسة الأول من
المصريين ، وبخاصة بولس وانطونيوس وباخوميوس ومقاريوس (٢)
على حيز كبير من «بستان الرهبان» . فعلى أساسها انتظم عقد الرهبنة انتظاماً
جودها قوة لا يستهان بها في تاريخ الكنيسة المسيحية في العصور الوسطى
وحتى في العصر الحديث (٣) .

(١) أنظر - على سبيل المثال - مخطوطة رقم ٤٩٢ سيناء - عربي (ورقة ٤٧ أ وما بعدها
و ٧٦ ب وما بعدها) ، ومخطوطة رقم ٥٠٨ سيناء - عربي (ورقة ٧٠ ب) ، ومخطوطة رقم ٥٤٢
سيناء - عربي (ورقة ١٢٠ ب وما بعدها و ١٢٤ أ وما بعدها و ١٦٥ ب وما بعدها و ٢٣٥ ب) ،
ومخطوطة رقم ٥٥٢ سيناء - عربي (ورقة ١٠٥ أ وما بعدها و ١٨٦ أ وما بعدها) .
(٢) جدير بالذكر أن أسماء أولئك الرهبان الأول وردت في نسخ «البستان» الخفية بتهجئات
مختلفة . ففلا عرف القديس بولس باسم «أنا بولا» في مخطوطة رقم ٥٠٨ سيناء - عربي (ورقة
٧١ ب) ومخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربي (ورقة ١٢٦ أ) . وعرف انطونيوس باسم «انطونس»
أنظر مخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربي (ورقة ١١٣ ب) ، بينما جاء في معظم النسخ الخفية لبستان
تحت اسم «انطونيوس» . أما باخوميوس فقد عرف باسم «بخوميوس» أنظر مخطوطة رقم ٥٤٦ سيناء -
عربي (ورقة ٧٦ ب) . وجاء مقاريوس في عدد من هذه المخطوطات تحت اسم «أنا مقار» أنظر
مخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربي (ورقة ١٢٠ ب) أو «مقاريوس المصري» أنظر مخطوطة
رقم ٥٥٢ سيناء - عربي (ورقة ١٠٥ أ) ، وهكذا .

(٣) إلى جانب مصاحف «بستان الرهبان» الخفية التي اشتملت ، فيما اشتملت عليه ، حل سير
وتعاليم انطونيوس وباخوميوس ، توجد ضمن المجموعة الخفية العربية بدير سيناء عشرات
المخطوطات التي تضمنت قصص وأعمال وسيرة كل من حذق القديسين . وقد قمت بمصر أهم
هذه المخطوطات في كتاب كولتون (ج . ج) : عالم العصور الوسطى في التنظيم والحضارة - ترجمة
وتعليق د . جوزيف نعيم يوسف - الطبعة الثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) - ص ١٦٨ ح ٢ .

وجدير بالذكر أن «بستان» بلاديوس يوضح أنه كانت توجد بمصر والشام في نهاية
القرن الرابع أديرة للرهبانيات في المنازل التي ترعرت فيها الرهبنة . وإن الومضات السريعة
التي يزودنا بها فيما يتعلق بحياتهم الروحية وأدق شؤونهم الخاصة على مثيرة ومشوقة في ذات الوقت .
أنظر من ذلك مخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربي (ورقة ١٣٤ أ و ١٣٦ ب وما بعدها و ٢١٠ أ - ب) =

وتسير بنا تراجيم «البستان» وقصصه لتسلط الأضواء على الظروف التي انتقل فيها هذا النظام من مصر إلى شرق أوروبا على يد القديس باسيليوس الذي عاش في الدولة البيزنطية في القرن الرابع الميلادي . ومن ترجمته وأخباره نعرف أنه قام بزيارة مصر وفلسطين وسورية وغيرها من المناطق التي نشأت وترعرعت الرهبنة فيها ، وذلك رغبة منه في فهم الحركة على حقيقتها والتعرف عن قرب على أدق أسرارها وخباياها . ونعرف أيضاً أنه بعد عودته إلى بلاده كان قد اكتسب من رحلاته وزياراته هذه خبرة كبيرة ، وأصبحت لديه فكرة واضحة عن الحياة الانفرادية والحياة الديرية الاشتراكية للربان . وتبين أقواله وأنظمته أنه أثر الحياة الديرية الاشتراكية بعد إدخال إصلاحات على قوانين باخوميوس ، وكان لتعاليمه آثارها التي لا تنكر في هذا الشأن . (١)

وهكذا ينتقل بنا «البستان» من قديس إلى آخر من رجال الكنيسة القدامى من أمثال اثناسيوس السكندري الذي أسهم في نقل الرهبنة إلى الغرب الأوروبي ويوحنا ذهبي الفم وأفرام المرياني ونيلوس واغريغوريوس وغيرهم (٢) . وهكذا كلما تمعنا في ثناياه كلما استيقنا لنا الكثير مما يتعلق بقوانين الرهبنة ونظمها وتقاليدها من حيث ساعات الصلاة والدراسة والعمل والأكل والنوم ، إلى جانب الملابس والمشرب والمأكل وما إلى ذلك . بالإضافة إلى حياة التبتل والطهر والزهد والتعشف التي كان يحياها أولئك القديسون

من مخطوطة رقم ٦٢٧ سيناء - عربي (ورقة ١٦١ ب وما بعدها) . كذلك تكشف النسخات التي أعدنا بها في بستانه عن الرهبنة في سورية وفلسطين في أواخر ذلك القرن عن حقيقة واضحة ، وهي أنها ظلت في أغلبها نكية توحدية . أنظر من ذلك مخطوطة رقم ٥٠٨ سيناء - عربي (ورقة ١٧٠ أ) ، ومخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربي (ورقة ٢٢١ ب) . وللمزيد من المعلومات أنظر مجموعة كامبريدج للعصور الوسطى :

Cambridge Medieval History, vol. I (Cambridge, 1936), 526, 530.

- (١) أنظر مخطوطة رقم ٥٥٢ سيناء - عربي (ورقة ٤٠ ب وما بعدها) .
- (٢) أنظر ، مثلاً ، مخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربي ورقة ١٨٩ ب وما بعدها و ٢٠٦ أ ر ٢١٤ ب ٢١٨ أ ٢١٩ ب و ٢٢٣ أ و ٢٢٦ أ و ٢٢٧ أ ، ومخطوطة رقم ٥٥٢ سيناء - عربي ورقة ٥٧ وما بعدها .

في هذا العصر المبكر والنواهي والمحرمات غير المسموح بها ، والمعجزات التي قاموا بها (١) .

وغنى عن القول إن هذه النسخ الخطية الأربعين من «بستان الرهبان» تخرر بمادة دسمة قيمة من الطراز الأول ، لا يمكن للباحث المتعمق في تاريخ الرهبة والديرية في العصور الوسطى إغفالها أو التجاوز عنها .

وإذا كنا قد تحدثنا عن «البستان» وعنوانه ومحتوياته وأهميتها من الناحية التاريخية بالنسبة للمشتغلين في تاريخ العصور الوسطى ، بقي أن نعرض لمؤلفه . وهنا تثار عدة تساؤلات من بينها مثلا : من هو مؤلف مصحف «بستان الرهبان» وجامع مادته الأصلية ؟ وهل أشارت النسخ الخطية الأربعين التي يحتفظ بها دير سيناء إليه أم لا ؟

بالرجوع إلى هذه النسخ الأربعين ، وبالبحث والتنقيب في محتوياتها وبين سطورها ، يتضح أنها — باستثناء مصحفين اثنين فقط برقمي ٥٤٢ و ٦٢٧ (سيناء — عربي) (٢) — لم تشر إلى اسم مؤلف «البستان» وجامع مادته . فقله ورد في بعض هذه المصاحف أسماء كتابها وناسخها عبر القرون ، كما ورد في عدد قليل منها أسماء مترجميها وناقليها من السوربانية أو اليونانية القديمة إلى العربية دون أية إشارة إلى اسم المصنف الأصلي .

فن بين المجموعة الخطية العربية الخاصة بالبستان سبع مخطوطات وردت بها قلوبونات أشارت صراحة إلى أسماء كتابها وتواريخ تدوينها ، وهي تحمل أرقام ٤٣٩ و ٥٣٦ و ٥٥٣ و ٥٦٣ و ٥٦٥ و ٥٧٣ و ٥٥٨ (سيناء — عربي) . هذا، بالإضافة إلى مخطوطة أخرى تحمل رقم ٥٥٤ سيناء — عربي ،

(١) أنظر مخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء — عربي (ورقة ١٢٢ أوما بملها) ، ومخطوطة رقم ٥٥١ سيناء — عربي (ورقة ٤٤ ب و ٥٨ ب) ، ومخطوطة رقم ٦٢٧ سيناء — عربي (ورقة ١١٥ أ وما بملها و ١٣٠ ب وما بملها و ١٤٨ أوما بملها و ١٥٥ ب) .

(٢) سنشير إليهما بالتفصيل فيما بعد .

وقد وردت بها خاتمة بالتمل ، ولكن تعذر معرفة اسم الكاتب وكذلك التاريخ على وجه اليقين لوجود قطع بها (١) .

هذا عن المخطوطات التي عرفنا أسماء كتبها عن طريق خواتم واضحة . وإلى جانب ذلك توجد ثلاث مخطوطات لم ترد بها قلوبونات ، ومع ذلك أمكن العثور على أسماء كتبها أو مصنفها من البحث في ثنانيا سطورها ، وهي المخطوطة رقم ٤٤٢ سيناء - عربي ، وتاريخها حوالي القرن الثالث عشر وكانت هي المخطوطة رقم ٥٠٦ سيناء - عربي ، وتاريخها حوالي القرن الثالث عشر ، وأو أن كاتبها مجهول إلا أنه جاء بها أن الكاتب قام بنقل «بستان الآباء» من مصحف كتبه القديس صفر ونيوس بطريق بيت المقدس (٢) . والثالثة هي المخطوطة رقم ٥٦٨ سيناء - عربي ، وتاريخها حوالي القرن الثالث عشر وكانت مجهول ، إلا أنه جاء بها أنها «من تصنيف قول أبينا غريغوريوس أقدس أهل زمانه الرسولي لخلافة بطرس الرسول على مكانه» (٤) ، ولعل المقصود البابا جريجوري الكبير .

وهناك أيضاً ثلاثة مصاحف خطية أخرى ورد بها ما ينبغي أنها منقول من السوربانية أو البرنانية القديمة إلى العربية ، وجاء في اثنين منها أسماء مترجميها . الأول يحمل رقم ٤٤٤ سيناء - عربي ، وتاريخه سنة ١٢١٨ م ، وورد في الخاتمة الخاصة به أن الذي نقله من السوربانية إلى العربية شخص يدعى «بو شاكر ابن الشماس بو الكرم» . (٥) وواضح من قلوبون ورد في

(١) أشرت إلى ذلك بالتفصيل فيما سبق ص ٦٦ - ٦٩ من هذا البحث .

(٢) أنظر مخطوطة رقم ٤٤٢ سيناء - عربي ، ورقة ٦١ أ . وقد ورد اسم الكاتب في بداية مصحف البستان مع العنوان .

(٣) أنظر مخطوطة رقم ٥٠٦ سيناء - عربي ، ورقة ٧٦ أ ، علماً بأن هذه المعلومات لم ترد في خاتمة وثيقة في بداية المصحف .

(٤) أنظر مخطوطة رقم ٥٦٨ سيناء - عربي ، ورقة ١ أ ، وهي أيضاً بدون قلوبون وقد وردت هذه البيانات في بداية المصحف .

(٥) أنظر قلوبون المخطوطة رقم ٤٤٤ سيناء - عربي ، ورقة ٣٠٥ ب .

المصحف رقم ٥٠٥ سيناء - عربي وتاريخه حوالى القرن الثالث عشر أنه
منقول من اليونانية القديمة إلى العربية : وأن ناقله ومفسره يدعى « اصطفان
الفاخورى » (١) . وبالمثل يتضح من المصحف رقم ٥٤٢ سيناء - عربي ،
وتاريخه حوالى القرن التاسع الميلادى ، أنه منقول من اليونانية إلى العربية ،
وإن لم يرد به اسم ناقله ومفسره (٢) .

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن بعض هذه المصاحف أصلية
مكتوبة بالعربية للمرة الأولى وليست نسخاً مترجمة أو منقولة عن غيرها ،
كما يدل على أن بعضها منسوخ عن مصاحف أخرى أقدم عهداً ، والبعض
الآخر مترجم عن اللغات القديمة كالسريانية أو اليونانية . وبكلمة أخرى ،
فإن بعض هذه المخطوطات عبارة عن مصاحف أصلية أصيلة ، والبعض
مصاحف منسوخة ، والبعض مترجمة .

وكيفما كان الأمر ، ففيما عدا المصاحف التى أشرنا إليها ، فإن بقية
النسخ الخطية من « البستان » مجهول أسماء كتابها أو ناخبها أو مفسريها
أو مترجميها .

والخلاصة أن هذه النسخ المجهول أسماء كتابها أو ناقلها أو تلك التى
أشارت إلى أسمائهم ومجموع عددها ٣٨ نسخة ، لم تكشف عن إسم مؤلفها
ومصنفها الأصيل . ومن حسن الحظ أنه يوجد مصحفان اثنان فقط كشفنا
عن إسم مؤلف « البستان » ومصنفه ، وهما المصحف رقم ٥٤٢ سيناء - عربي
والمصحف رقم ٦٢٧ سيناء - عربي .

ففى المصحف الأول نبذة توضح أن مؤلفه هو « بلاديوس » ونصها :

(١) أنظر قلفون المخطوطة رقم ٥٠٥ سيناء - عربي ، ورقة ٢٠٢ أ - ب .

(٢) أنظر مخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربي ، ورقة ١٥ أ . والمخطوطة بدون قلفون وقد
وردت هذه المعلومات فى ثنايا الكلام . هذا ، وقد تعرضنا بإيجاز لكتاب عدد من المصاحف
و« البستان » عندما تحدثنا عن قلفونات « البستان » وأهميتها من الناحية التاريخية .

« ... كتب هذه القصص بلاذيرس اسقف المدينة التي يقال لها بالرومية مدينة الانه (أى هيلانة) الملكة... »^(١)

ويعزز ذلك ما جاء في المخطوطة رقم ٦٢٧ سيناء - عربي ، وتاريخها حوالى القرن الثانى عشر ، ونص النبذة كالآتى :

« هذه أخبار الابا القدا والافاضل الرهبان النجبا القديسين ... كتبها بلاذيرس اسقف مدينة هيلانة الملكة القديسة أم قسطنطين الملك الكبير طلبها منه بلاسيوس وزير ثاؤطوسيوس الملك الكبير فى ملوك الروم »^(٢) .

ويتضح من المصحفين السالفين أن مؤلف «بستان الرهبان» هو بلاذيرس أسقف هليوبوليس فى بيشنية^(٣) . ولد حوالى عام ٣٦٥م وتوفى عام ٤٢٥م وله من العمر قرابة ستين عاماً . وبلاذيرس هو أحد أولئك الكتاب الذين عاشوا فترة التغير والانتقال من القديم إلى الوسيط حيث كان كل شىء فى تغير تدريجى مستمر : ولم يكن هناك شىء ثابت على حاله . فقد كان

(١) أنظر المخطوطة السابقة . ورقة ١١١ ب . أنظر أيضاً لوحة رقم (٢) .

(٢) أنظر مخطوطة رقم ٦٢٧ سيناء - عربي ، ورقة ١٠٩ ب . وهذه المخطوطة بدون خاتمة ، وقد عثرنا على اسم المؤلف الأصيل فى بداية «البستان» . أنظر أيضاً لوحة رقم (٨) . والمقصود بثاؤطوسيوس الامبراطور البيزنطى ثيودوسيوس الذى حكم من سنة ٣٧٩ إلى سنة ٣٩٥ .

(٣) Palladius, bishop of Helenopolis. ، وللمزيد من المعلومات عنه أنظر : E.A.T. Wallis Budge (tr.), The Paradise of the Fathers, 2 vols. (Oxford, 1934) ; idem, The Wit and Wisdom of the Christian Fathers of Egypt (Oxford, 1934) ; C. Butler, The Lausiatic History of Palladius, 2 vols. (Cambridge, 1898, 1904) ; C.M.H., vol. I, 522ff.

وجدير بالذكر أنه إذا كان بلاذيرس هو المؤلف الأصيل لبستان وجامع مادته باعتباره معاصراً وشاهد عيان لبداءة الحركة الرهبانية فى مصر والعالم المسيحى المعروف وقتذاك ، فلا شك أن هناك زيادات أخرى أضيفت إليه فيما بعد بقلم كتاب متأخرين تناولوا سير و تراجم كثير من الرهبان والنساك الذين عاشوا فى الفترة التى ازدهرت فيها الرهبنة فى الشرق والغرب فى العصور الوسطى المبكرة . ولهذا عرف مصنف بلاذيرس فى إحدى مخطوطات سيناء العربية باسم «الفرديوس القديم» . أنظر مخطوطة رقم ٤٢٤ سيناء - عربي ، ورقة ١١٢ أ . ويلاحظ أن هذه هى المخطوطة الوحيدة من بين النسخ الخطية الأربعة التى أشارت إلى ذلك . أنظر لوحة رقم (٢) .

«النظام القديم» في الفكر والسياسة والاقتصاد والدين والحرب ينهار من أساسه أمام جحافل الجرمان المتبربرين ، معلناً نهاية عصر بمبادئه ومثله وقيمه وبداية عصر جديد له مفاهيم وأوضاع جديدة مغايرة ، وهو عصر ارتكز على دعامتين أساسيتين هما الجرمان الذين قضوا على الدولة الرومانية القديمة وحضارتها ، والمسيحية التي قضت على الوثنية وعبادة الامبراطور .

كانت هذه الظروف التي أملت بالعالم عند نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط من بين العوامل التي ساعدت على نشأة الرهبنة وانتشارها وقتذاك . يضاف إلى ذلك أمور أخرى عديدة منها الحساس الديني الذي صاحب انتشار المسيحية واعتناق الناس لها ، وحالة الفوضى والاضطراب التي سادت العالم بسبب الحروب المستمرة وغزوات البرابرة . فضلاً عن حركة الاضطهادات الدينية التي صاحبت ظهور الدين الجديد بسبب ما كان يدعو إليه من وحدانية الله ونبد عبادة الامبراطور ، والتي بلغت أشدها في عهد دقلديانوس . فاضطر الناس إلى الفرار إلى الوديان والقفار وإلى قمم الجبال وجوف الصحارى للتوحد والتعبد والتقشف والتأمل في ذات الله العلية ، رغبة في تخليص نفوسهم من أدران الآثام وأرواحهم من شرور الدنيا ، وإعداد عديدهم للحياة الثانية ونعيمها المقيم ، أملاً في الحصول على الخلاص الذي يعتبر ، في نظر المسيحية وفلسفتها التي جاءت كرد فعل للتاريخ القديم ووثنيته ، الغاية النهائية لكل كائن حي .

وكانت أول نشأة الرهبنة - حسبنا أسلفنا - في مصر في شكل حركة توحدية ، ثم انتقلت إلى ما عرف بحركة الحياة الاجتماعية للرهبان ، وكان من روادها الأوائل القديس انطونيوس والقديس باخوميوس (١) . وقد

(١) أنظر عن ذلك المراجع التالية : كولتون (ج . ج) : عالم العصور الوسطى في الظلم والحضارة - ترجمة وتعليق د . جوزيف نسيم يوسف - ط . ثانية (الإسكندرية ١٩٦٧) - ص ١٦٨ وما بعدها ؛ عزيز سوريال عطية : نشأة الرهبنة المسيحية في مصر وقوانين القديس باخوميوس - مستخرج من رسالة «مارمينا» من الرهبنة القبطية - مايو ١٩٤٨ - ص ٥ وما بعدها .
= راجع أيضاً :

ذاعت شهرة الحياة الرهبانية المصرية في جميع الكنائس المسيحية . واعتبرت مصر لفترة طويلة بمثابة «الأرض المقدسة» حيث كان المسيحيون يؤثرونها على فلسطين . فالزائر لها يمكنه مشاهدة هذه الجموع الغفيرة من الزهاد والنسك المنقطعين لعبادة الله . وأصبح المسيحيون يحجون إليها من كل مكان لرؤية أولئك القديسين والاستماع إليهم . وكان من بين هؤلاء بلاديوس صاحب «البستان» الذي أمضى السنوات من ٣٨٨ إلى ٣٩٩ ومن ٤٠٦ إلى ٤١٢ بين رهبان مصر يتحدثون إليه ويستمع إليهم . وقد أمضى الفترة الأولى في طيبة والثانية في وادي النطرون . ومن بين من زاروا مصر في هذا العصر يجب أن نذكر القديس بازيل الكبير مؤسس الرهبنة اليونانية ، وهيلاريون Hilarion الذي أدخل الرهبنة في فلسطين ، وروفيون Rufinus ومعه سيدة رومانية تدعى ملانيا Melania وقد أمضيا ستة أشهر من عام ٣٧٣ في مصر . وكذلك القديس جيروم St. Jerome ومعه أرملة ثرية تدعى باولا Paula ، وقد زارا الأديرة المصرية وترك لنا جيروم مؤلفاً عن زيارته هذه ترجم فيه حياة الرهبان المصريين وأنظمتهم إلى اللاتينية . وهناك أيضاً القديس الفرنسي يوحنا كاسيان St. John Cassian الذي جاء إلى مصر فيما بين عامي ٣٩٠ و ٤٠٠ ، ولكنه لم يذهب إلى أبعد من طيبة ، ووضع مؤلفين عن مشاهداته ضمنهما حياة أولئك الرهبان وأحاديثهم .

وعلى أية حال ، كان بلاديوس قد فكر في الانخراط في ملك الرهبنة بالإنضمام إلى الرهبان المصريين بعد ملازمته الطويلة لهم ، ولكنه وجد أن نظامهم شديد الوطأة على صحته وسنه المتقدمة . وترك لنا بحثاً عن الرهبان والنسك الذين التقى بهم في كتابه «بستان الآباء القديسين» Historia Lausiaca ، حيث ضمنه سير وتراجم وقصص القديسين المصريين ، وعلى

Atiya, A. S., A History of Eastern Christianity (London, 1968), 28ff., = 59ff.; LaMonte, J.L., The World of the Middle Ages (New York, 1949), 32 ff.; Glanville, S. R. K., The Legacy of Egypt (Oxford, 1957), 17 ff.; Baldwin, M.W., The Mediaeval Church (New York, 1953), 24; C.M.H., vol. I, 521 - 22.

رأسهم باخوميوس الذى زار ديريه فى بانوبوليس Panopolis (أخميم) ،
وخلف لنا صورة نابضة عن الحياة اليومية داخل الدير . ويبدو أنه اقتصر
على الأديرة التى بها رهبان بوسعهم التحدث باليونانية ، ولهذا أهمل زيارة
الأبناشوديه ولم يتحدث عنه مؤلفه .

وهكذا أتاحت ظروف الزمان والمكان لبلاديوس فرصة طيبة للكتابة
فى هذا الموضوع . فقد عاش فترة نمو الرهبنة وترعرعها فى مصر والشام ،
وتحدث بإسهاب عن رحلاته للأديرة المصرية ، وسجل مشاهداته وملاحظاته
بهذا الخصوص فى سفر قيم لايزال باقياً إلى اليوم . فحفظ لنا مادة من الطراز
الأول وتراثاً له قيمته التاريخية الفائقة .

ويعتبر مؤلف بلاديوس مؤلفاً كلاسيكياً فيما يتعلق بالحركة الرهبانية
لا غنى عنه للمتصدى لهذا الموضوع ، إذ عرض أمام الرهبان من جميع
الأقطار أمثلة حية عن رهبان مصر ونساكها كنماذج يحتنون بها فى هذا
العصر المبكر . وأصبح بستان بلاديوس وغيره من مؤلفات زملائه فى هذا
الموضوع تتلى بصوت مسموع فى الأديرة البندكتية فى الغرب الأوروبى
طوال العصور الوسطى وحتى اليوم . وهكذا تمت مجموعة المصادر الأدبية
المكتوبة التى تتناول تاريخ وسير رهبان مصر وغيرهم والتى كان لها أكبر
الأثر على من اعتنق الحياة الرهبانية وقتذاك (١) .

وثمة ملاحظة أخيرة وهى أنه لما كان بلاديوس قد عاش فترة الانتقال
من التاريخ القديم إلى العصر الوسيط ، فإننا نلمس فى مؤلفه ملامح وسمات
التحول من الكتابة الكلاسيكية القديمة ذات الطابع الدنيوى العلمانى إلى
كتابة العصر الوسيط المبكر ذات الصبغة الدينية الواضحة . حقاً لقد واصل

(١) أنظر من ذلك : Glanville, op. cit., 323-24; Atiya, op. cit., 64 66;
C. M. H., I, 522, 524—25, 526.

راجع أيضاً ابريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية - القسم الأول - القاهرة (بدون
تاريخ) - ص ٢٤٢ - ٢٤٤ .

بعض المؤرخين التقاليد الكلاسيكية في فن الكتابة التاريخية ، إلا أن الكثيرين أيضاً أضفوا على كتاباتهم التاريخية لونا دينياً واضحاً يتفق وأوضاع عالم متغير .

وهكذا لم تعد كتابة السير والتراجم — بصفة عامة — تتناول أعمال الأبطال السياسيين والعسكريين كما كان الحال من قبل ، وإنما استهدفت أولاً وقبل كل شيء سير القديسين وأخبارهم بما احتوته من أعمال التقوى والتبتل ونكران الذات . وغدت كتابة تراجم أولئك القديسين والتأريخ لهم من أكثر أشكال الكتابة الأدبية شيوعاً وشعبية ورواجاً . واعتبرت المؤلفات المتضمنة تعاليم وقصص القديسين أفضل ألوان القراءة وأقربها إلى النفس . وقد نما وازدهر هذا اللون من الكتابة طوال العصر الوسيط . ولا شك أن كثيراً من هذه التراجم تعتبر وثائق تاريخية من الدرجة الأولى ، يعتمد عليها الباحث في استقاء مادته ، خاصة وأن قدرها كبيراً من المعلومات والحقائق التاريخية لم يصلنا إلا عن هذا الطريق . وأقرب مثل إلينا كتاب بلاديوس الذي يعتبر في الواقع تاريخاً عاماً عن الرهبنة لمعاصر وشاهد عيان . ومع ذلك يجب أن نعرف أن هذه السير ، بالرغم من أهميتها ، لا ترقى إلى مستوى الكتابة التاريخية البحتة . إذ كلما كثر الحديث عن المعجزات والأعمال الخارقة في حياة قديس ما ، كلما توارت — بطبيعة الحال — الحقيقة التاريخية وكلما قلت القيمة الفعلية لتلك المادة^(١) .

(رابعاً) أهم مصاحف «البستان» الخطية :

من بين النسخ الخطية الأربعين من كتاب «بستان الرهبان» التي تحتفظ بها مكتبة دير سيناء ، تفرد خمس منها بأهمية خاصة تستوجب الإشارة إليها . وتكتسب هذه المصاحف الخمسة أهميتها لأسباب عديدة ، إما لوجود «البستان» كاملاً في نسخة منفردة مستقلة قائمة بذاتها ، أو لتقديم المصحف نفسه ، أو لوجود اسم المؤلف أو الكاتب أو المترجم ، أو لوجود قلاوون يحدد تاريخه ، أو للرق المكتوب عليه ، أو الخط المستخدم في الكتابة .

Cf. LaMonte, The World of the Middle Ages, 85. Cf. also (١)
Barnes, H. E., A History of Historical Writing (New York, 1963), 53f.
والزبد من المعلومات راجع أيضاً جوزيف نسيم يوسف (دكتور) : نشأة الجامعات
في العصور الوسطى (الإسكندرية ١٩٧١) ص ٢٨ وما يليها .

يضاف إلى ذلك أن هذه المصاحف الخمسة ترجع كلها إلى الفترة الوسيطة من التاريخ ، إذ دوت فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر (١) . وفيما يلي عرض مركز هذه المصاحف حسب أهميتها وقدمها .

المصحف الأول : يحمل رقم ٥٤٢ سيناء - عربي ، وله ميكروفيلم بأداب الاسكندرية تحت رقم ٢٥٥ ، وعنوانه «بستان الرهبان ومواضيع أخرى متنوعة من قصص وسير وخلافه» ، ومقاسه الخارجى ٢٣,٥ × ١٤ سم ومقاس الكتابة ١٨,٥ × ١٠ سم ، وعدد الأسطر فى الصفحة ١٨ سطراً ، وعدد أوراقه ٢٥٧ . والمصحف مكتوب على الرق ، وتاريخه حوالى القرن التاسع الميلادى ، وكتابه مجهول (٢) . أما غلافه فخشبى مكسو بجلد بنى مرصع فى الأركان والوسط ، وقد تم ترميم ظهر الغلاف . ويلاحظ أن الغلاف الأيسر مع الأوراق الأخيرة من المصحف مفقودة . وهو مدون بخط كوفى متأخر ، وعناوينه ورءوس موضوعاته مكتوبة كلها بالمداد الأحمر . هذا ، ومعظم صحائف الرق ، بقعة بشدة ، كما أن ورقى ١٠٥ و ١٠٦ مزقتان جزئياً .

ويتمتع هذا المصحف العتيق بأهمية فائقة للرق المكتوب عليه ، وقدمه ، والنخط المدون به . فضلاً عن أنه من المصاحف المصورة ، إذ تتحلّى رؤوس الإصحاحات برسوم وزخارف ملونة ومبسطة تشبه توريقات نباتية على الطراز العربى . وثمة ميزة أخرى يتمتع بها هذا المصحف ، إذ وردت به نبذة تكشف عن مؤلفه وعن أنه ترجمة عربية لأصل يونانى قديم . فقد جاء فى ورقة ١٥ أ أنه فسر من اليونانية إلى العربية عام ٧٧١ م . ومن الصعب

(١) قامت البعثة المصرية الأمريكية عام ١٩٥٠ بتصوير هذه المصاحف الخمسة بالميكروفيلم ضمن المجموعة الخطية التى قامت بتصويرها ، ويوجد نسخ منها بكلية آداب الإسكندرية . وقد قست بجميع المعلومات الأساسية الخاصة بهذه المصاحف الخمسة أثناء زيارته العلمية للدير فى أواخر عام ١٩٦٣ ، واستوفيتها فيما بعد من نسخ الميكروفيلم المحفوظة بكلية الآداب بالإسكندرية .

(٢) لا يوجد بالمصحف قلوبون بتاريخه أو اسم كاتبه .
أنظر أيضاً مراد كامل (دكتور) : فهرست مكتبة دير سانت كاترين بطور سيناء - الجزء الأول - القاهرة ١٩٥١ - ص ٨٠ .

البت إن كانت هذه ترجمة عربية أصلية أم نسخة متأخرة . وكيفما كان الأمر فلا يمكن أن ترجع إلى أبعد من القرن التاسع الميلادي . ويتضح ذلك من نوع المداد والورق والخط المستخدم .

ويحتوى المصحف على موضوعات مختلفة يبلغ عددها ١٧ موضوعاً ، والبند السادس عبارة عن نبذ من سير وتعاليم بعض الآباء الأول التي يحتمل أن تكون مأخوذة من «بستان الرهبان» . (١) وتختتم المخطوطة بالبند السابع عشر وهو يشتمل على «بستان الرهبان» في شيء من التفصيل والإسهاب (٢) .

بداية البستان (ورقة ١١١ ب - ١١٢ أ)

« هذه قصص الالهات النجبا القديسين من الرجال والنساء في امكنة شتا .. كتب هذه القصص بلاذيرس اسقف المدينة التي يقال لها بالرومية مدينة الانه (٣) الملكة ... هذا المصحف يقال له الفردوس القديم » .

نهاية البستان (ورقة ٢٥٧ ب)

« قال شيخ كل صغير يطرح كلمته في وسط شيوخ أكبر منه » (٤) .

المصحف الثاني : يحمل رقم ٥٠٨ سيناء - عربى ، وله ميكرو فيلم بأداب الاسكندرية تحت رقم ٢٣٢ ، وعنوانه «بستان الرهبان وموضوعات أخرى متنوعة» ، ومقاسه الخارجى ٢٠,٥ × ١٥,٥ سم ، ومقاس الكتابة ١٨ × ١٢ سم ، وعدد الأسطر في الصفحة ١٦ سطراً ، وعدد أوراقه ١٥٩ . وهو مكتوب على ورق ورق ، ولكن الجزء الخاص بالبستان مدون على الورق (٥) . والمصحف

(١) أنظر مخطوطة رقم ٥٤٢ سيناء - عربى ، أوراق ٣١ ب - ٥٠ أ .

(٢) أنظر أوراق ١١١ ب - ٢٥٧ ب من المخطوطة السابقة .

(٣) المقصود هيلانة أم قسطنطين الكبير التي اعتنقت المسيحية وكان لها تأثيرها الواضح على إبنها الامبراطور .

(٤) الأوراق الأخيرة من المصحف مفقودة ، وحل هذا فنهايته ناقصة .

(٥) الجزء المكتوب على الرق يقع فيما بين ورقى ٨٠ و ٨٤ ، ومادة هذه الأوراق لا تتعلق بمصحف «البستان» .

عتيق ، إذ يرجع تاريخه إلى حوالي القرن العاشر ، وكتابه مجهول ، (١) ،
وغلافه مفقود . أما الخط فكوفي متأخر ، والعناوين ورءوس الموضوعات
معلمة بالمداد الأحمر . ويلاحظ أن الأوراق الأولى والأخيرة منه مفقودة ،
والأوراق سائبة وممزقة في بعض أجزائها ، كما أن الورقة ١٤٢ أ تركت
على بياض .

ويحتوى المخطوط على موضوعات عديدة متنوعة وعلى جانب من
«بستان الرهبان» وهو مختصر في بضع صفحات (٢) ، وهو البند الحادى
عشر من بنود المخطوط .

بداية البستان (ورقة ٦٩ ب)

« من أقوال الابهات الاطهار »

نهاية البستان (ورقة ٧٩ ب)

« قالوا منجل بنخوميوس انه مرار كثيرة سمع الشياطين
وهم يتحدثون بأنواع الفسق » .

المصحف الثالث : يحمل رقم ٥٥١ سيناء - عربى ، وله ميكرو فيلم
بآداب الاسكندرية تحت رقم ٢٦٠ ، وموضوعه «بستان الرهبان وقصة
تاوضروم» . مقاسه الخارجى ١٩ × ١٤ سم ، ومقاس الكتابة ١٥ × ١٠ سم ،
وعدد الأسطر فى الصفحة ١٢ سطرأ ، وعدد الأوراق ١٤٣ . وهو مدون
على ورق ، وتاريخه سنة ١٠٦٩ م (٣) ، وكتابه مجهول . أما الغلاف فهو
خشبي مكسو بجلد بنبى ، وظهر الغلاف مكسور وقد أعيد تبطينه بأوراق
عليها كتابة باليونانية القديمة . والخط نسخى عتيق ، والعناوين ورءوس

(١) لا يوجد قلفون بتاريخه أو اسم كاتبه .

(٢) أنظر مخطوطة رقم ٥٠٨ سيناء - عربى ، أوراق ٦٩ ب - ٧٩ ب .

(٣) أنظر القلفون الواردة فى المخطوطة رقم ٥٥١ سيناء - عربى ، ورقة ١٤٢ ب .

الموضوعات بالمداد الأحمر . ونظراً لقدم المصحف فإن أوراقه مشبعة بالרטوبة ومبقعة وحوافها ممزقة ، كما أن الأوراق الأولى والأخيرة منه مفقودة .

يبدأ المخطوط بجزء من « بستان الرهبان »^(١) تتلوه قصة حياة القديس تاوضروس .

بداية البستان (ورقة ١ أ)

« ومن هذا يمكنه يصلى غير مستجذب ليس فى طريقه العمل كفاية لان يعين العقل على الكمال من الالام حتى يستمكن أن يصلى بغير انجذاب » .

نهاية البستان (ورقة ٥٨ ب)

« الراهب هو التمسك بأمر الله فقط فى كل زمان ومكان وأمر . الراهب هو اكراه الطبيعة دائماً وحفظ »^(٢)

المصحف الرابع : يحمل رقم ٥٥٢ سيناء - عربى ، وله ميكروفيلم بأداب الاسكندرية برقم ٢٦١ ، وموضوعه « بستان الرهبان » ، ومقاسه الخارجى ١٦,٥ × ١٢ سم ، ومقاس الكتابة ١٣ × ٦,٥ سم ، وعدد الأوراق ٢٥٨ . وهو مدون على ورق ، وتاريخه حوالى القرن الحادى عشر ، وكاتبه مجهول .^(٣) وغلافه خشبى مكسو بجلد بنى وظهره مكسور ، والخط نسخى عتيق . ويلاحظ أن شخصين قد اشتركا فى كتابته ، ونستدل على ذلك من وجود نوعين مختلفين من الخطوط . والعناوين ورعوس الموضوعات معلمة بالمداد الأحمر . هذا ، والورقتان الأخيرتان من المخطوطة باليتان ،

(١) أنظر أوراق ١ - ٨٥ ب من المخطوطة السابقة .

(٢) أنظر لوحة رقم (٣) .

(٣) لم نعث فيه على خاتمة بتاريخه أو اسم كاتبه . أنظر مراد كامل : الفهرست - ج ١ -

كما أن الأوراق من رقم ١ إلى رقم ٣٣ قد استبدلت بأوراق أخرى ، وهي مكتوبة بخط نسخي عتيق بقلم كاتب آخر . كذلك يلاحظ أن الصحائف ٣٢ ب - ٣٣ ب تركت خالية من الكتابة ، ولعلها تركت كذلك لتكون فاصلا بين شطري المخطوطة . وعلى ورقة ١ أ نبذة بقلم أسقف دير مينا المسمى جرمانوس تفيد وقف المصحف على الدير . (١) وتحتوي المخطوطة على «بستان الرهبان» فقط ، ونهايته مفقودة .

البداية (ورقة ١ ب)

« ... نبدا بعون الله وحسن توفيقه وصف سيره الابا القديسين ونسكهم الذي يشتمل هذا المصحف على اخبارهم »

النهاية (ورقة ٢٥٨ ب)

« فقال ... هيا يا اخي وامضى معي طورميننا نصلى قال الاخ ... فلما اجزنا الاردن قال لى الشيخ تعال يا اخي »

المصحف الخامس : يحمل رقم ٥٥٣ مينا - عربي ، وله ميكروفيلم بأداب الاسكندرية برقم ٢٦٢ ، وموضوعه «بستان الرهبان ومتنوعات» ، ومقاسه الخارجى ١٧ × ١٢,٥ سم ، ومقاس الكتابة ١٣ × ١٠ سم ، ومتوسط عدد الأسطر فى الصفحة ١٩ سطراً ، وعدد أوراقه ١٥٢ . وهو مكتوب على ورق ، وتاريخه سنة ١١٨٢ م (٢) ، وكاتبه يدعى «ابراهيم بن القس اسحاق ابن الخورى يحنا الطيشرافى» . (٣) وغلافه جلدى عتيق مبطن من الداخل بصحائف من الرق عليها كتابة بالعربية واليونانية

(١) أنظر لوحة رقم (٤) .

(٢) أنظر القلوفون الوارد فى المخطوطة رقم ٥٥٣ مينا - عربي ، ورقة ١٣٢ أ . وقد جاء فى فهرست الدكتور مراد كامل (ج ١ - ص ٦٢) أن عدد الأوراق ١٤٢ وصحتها ١٥٢ ، ولعله خطأ مطبعي .

(٣) أنظر المخطوطة السابقة ، ورقة ١٣٢ أ وورقة ١٢١ ب . ويلاحظ أن اسم الكاتب لم يرد خلال السرد المتعلق بالبستان ، وإنما جاء بعد ذلك .

القديمة . والخط نسخى عتيق متق ، والعناوين ورءوس الموضوعات -
مثل المصاحف الأخرى - معلمة بالمداد الأحمر تمييزاً لها عن النص .
وصحائف المخطوطة مبقعة والأوراق التي في بدايتها ونهايتها مع الحواف
ممزقة . كذلك يلاحظ أن المخطوطة ناقصة من البداية والنهاية .

وهي تحتوى على عدة موضوعات من بينها مختصر لكتاب «بستان
الرهبان» (١) .

بداية البستان (ورقة ٥١ ب)

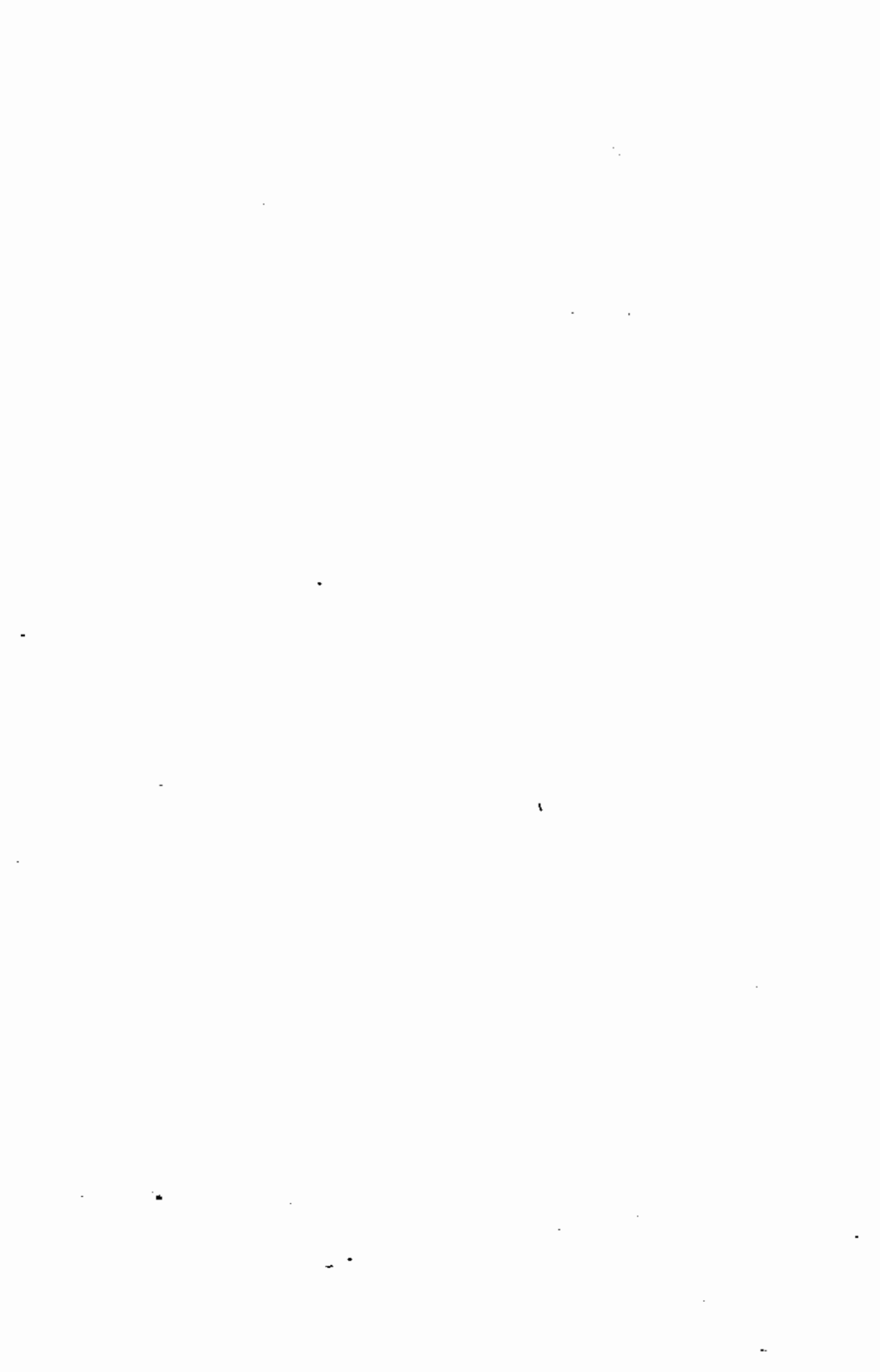
« أخبرنا بعض القديسين عن رجل بطريق من بعض
بطارقة الملك » .

نهاية البستان (ورقة ٥٦ أ)

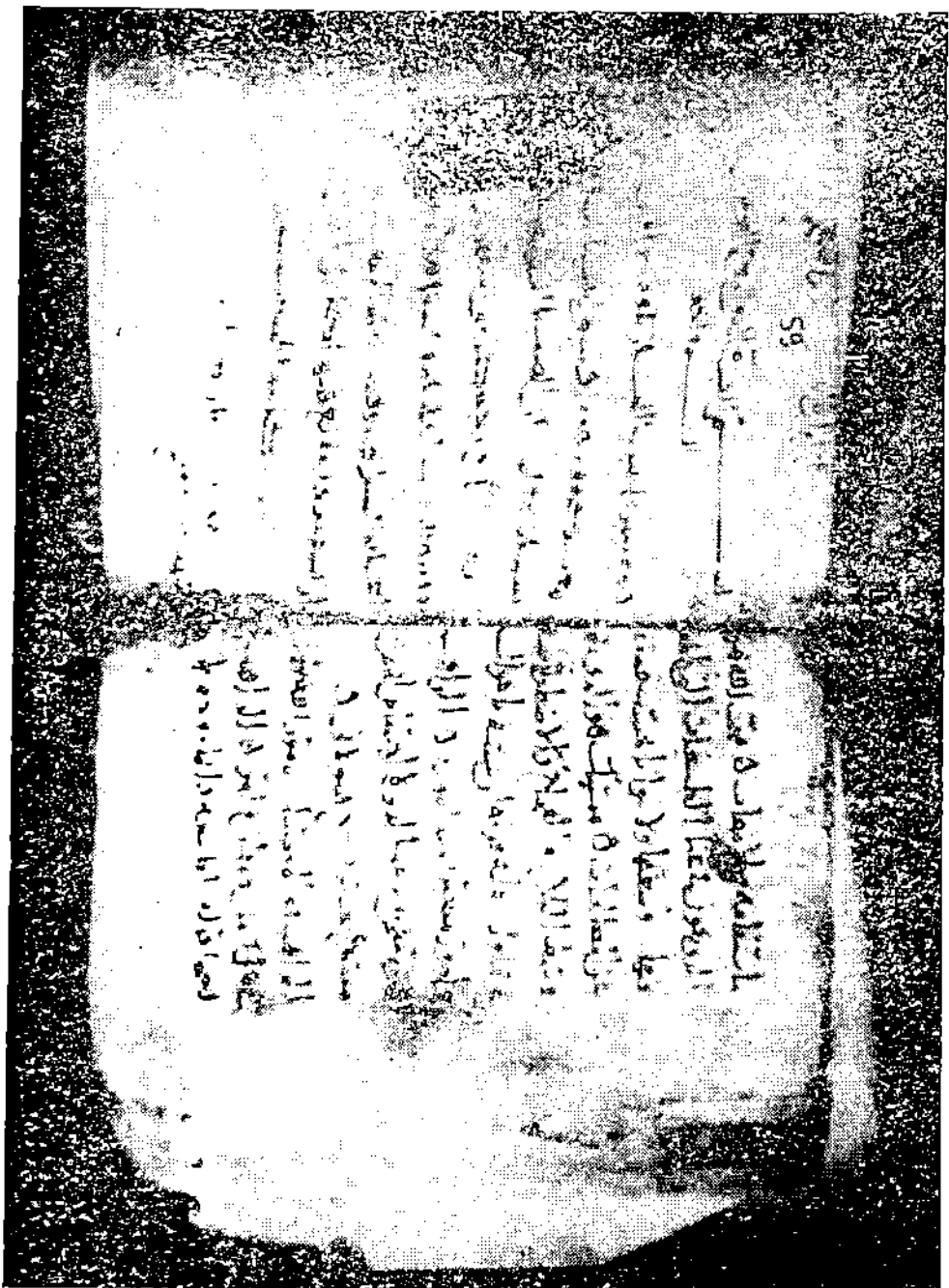
« نحن السابق صاحب الصوت الصارخ سراج البرية
ومر جرجس وجميع القديسين » .

وأخيراً فإن هذه الكنوز الخطية لمصحف «بستان الرهبان» التي تحتفظ
بها مكتبة دير سيناء ، غنية بما احتوته من معلومات هامة ، وعامرة بمادتها
التاريخية القيمة التي تفتح آفاقاً رحبة واسعة أمام المشتغلين في تاريخ الكنيسة
والمسيحية في العصور الوسطى بصفة عامة ، والمعنيين بنظم الرهبنة والديرية
على وجه الخصوص .

(١) أنظر مخطوطة رقم ٥٥٣ سيناء - عربي ، أوراق ٥١ ب - ٥٦ أ . ويلاحظ أن «البستان»
هو البند الثامن من المخطوطة .



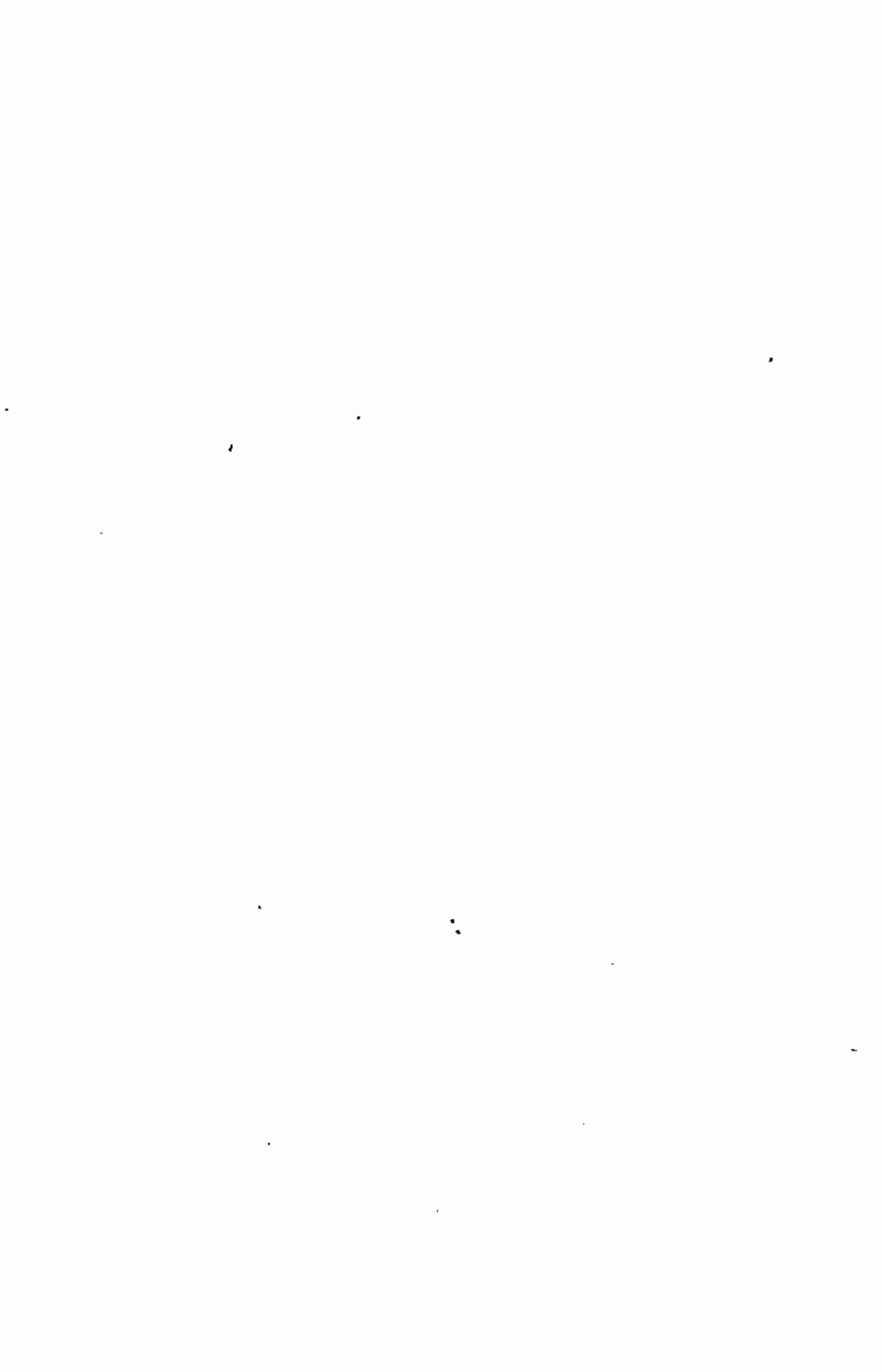




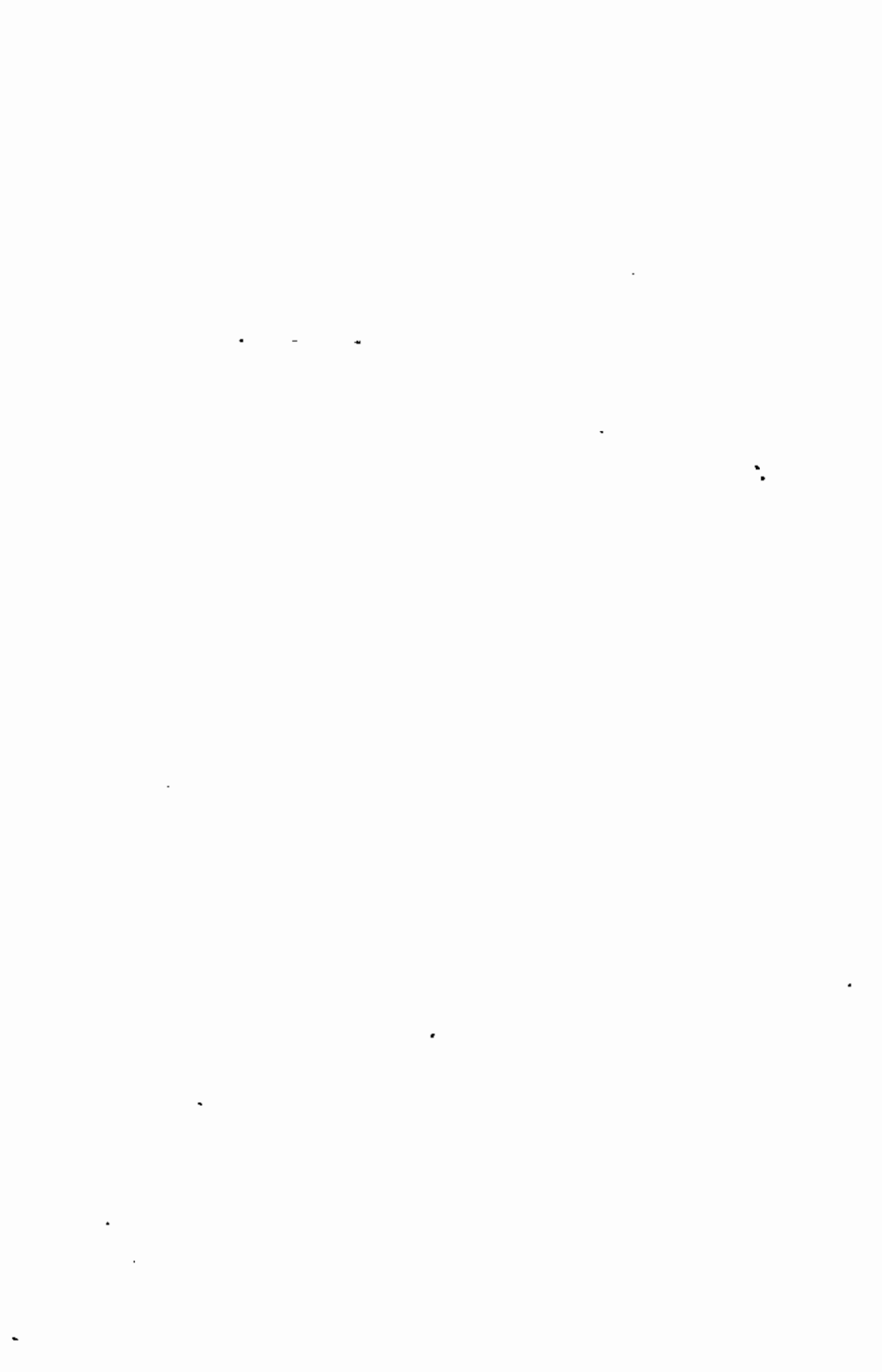


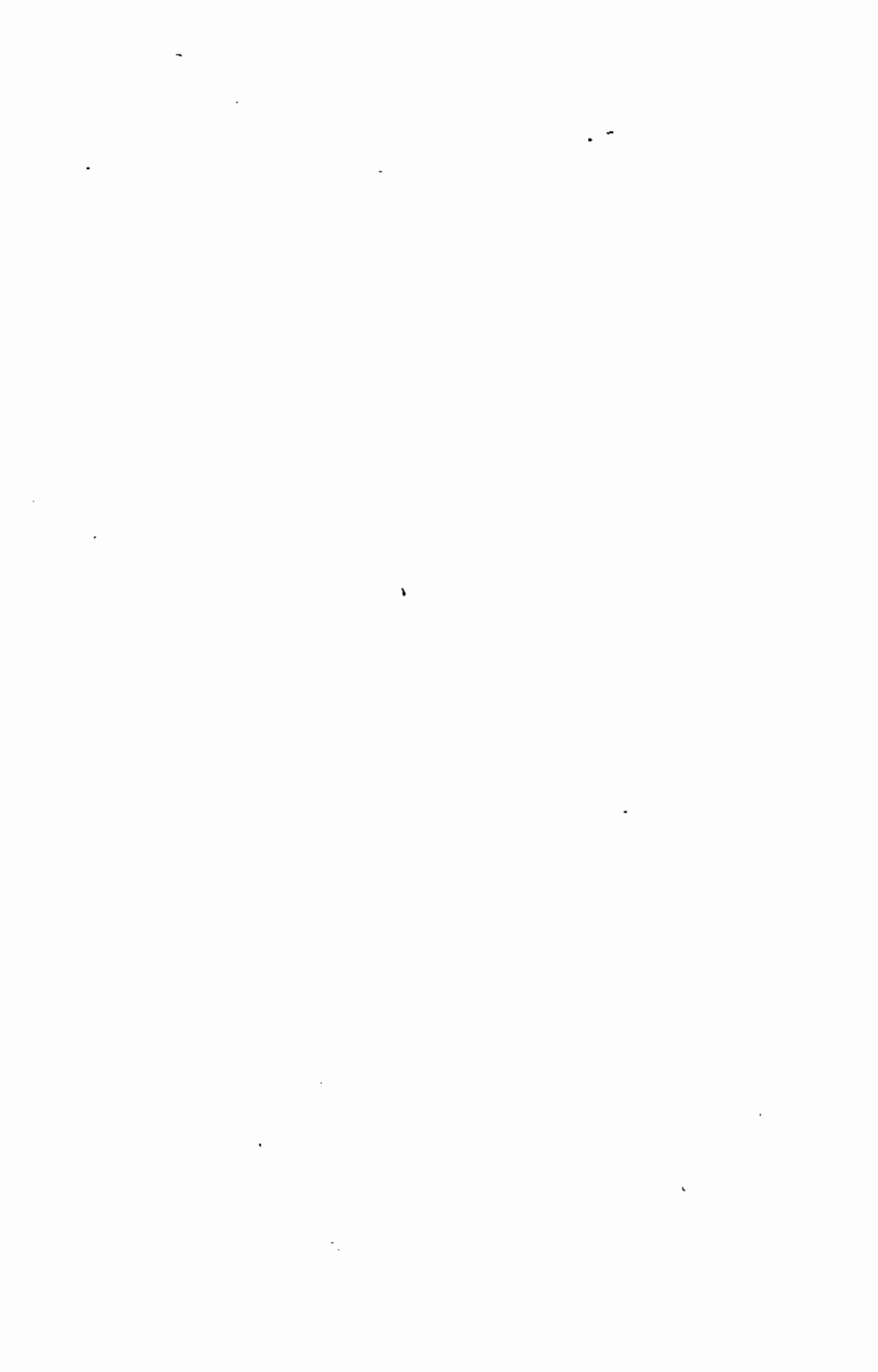
الوزن اثنان مائة واربعة
اربع مائة اثنان مائة واربعة
طريقه سلا (الوزن)
السكنجبين
معدن اطفال
معدن





[illegible]





التورانيون والايраниون

للدكتور طه ندا

يعترف العلماء الذين تفرغوا للدراسة تاريخ الترك بصعوبة هذه الدراسة ومرد ذلك إلى أسباب كثيرة يذكرونها ، منها كثرة القبائل والفروع التي ينتمى إليها هذا الشعب ، واتساع مساحة الأرض التي شغلها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب . وتعدد اللهجات التي يتكلمون بها تبعاً لتعدد المناطق والأقاليم التي يعيشون فيها . واختلاط هذا الشعب بكثير من الشعوب الأخرى التي خالطها أو عاش معها حاكماً أو محكوماً كالصين والفرس والعرب والهنود وغيرهم .

وقد ترتب على هذا الاختلاط بين الشعب التركي وغيره من الشعوب اختلاط الدماء ، وتداخل النواحي ، وامتزاج اللغات والثقافات مما يوسع دائرة البحث على الباحث ويجعله في حاجة إلى كثير من أدوات البحث المختلفة التي لا تلزم في العادة لغيره من الباحثين في الموضوعات الأخرى .

والمتصدى لتاريخ الترك أو أدبهم يجد صعوبة كبرى في هذه الدراسة لأنه يحتاج إلى إجادة اللغة التركية . وحتى هذه اللغة نفسها تتفرع كما أشرنا إلى لهجات مختلفة تعقد الأمر أمام الباحث وتجعله في حاجة إلى مساعدة مجموعة من العلماء بهذه اللهجات المختلفة . ثم هو في حاجة إلى إجادة عدد آخر من اللغات ارتبطت بالتركية ارتباطاً وثيقاً وأثرت فيها وأهمها اللغة العربية واللغة الفارسية وما يتصل بهذه اللغات من تاريخ وحضارة وثقافة .

وقد يبدو أن إجادة لغة شعب من الشعوب تكفي لدراسة تاريخه ، ولكن هذا لا ينطبق على دراسة الشعوب التركية . فاللغة الصينية مثلاً مهمة في معرفة تاريخ الأتراك الذين عاشوا في أقصى الشرق في الصين ومنغوليا

وفى معرفة أخبارهم التى وردت فى المصادر الصينية . أما الذين اتجهوا إلى الغرب وخالطوا الفرس والعرب وتأثروا بالحضارة الإسلامية فالاعتماد على الفارسية والعربية أمر أساسى لمعرفة تاريخهم . ويلاحظ أن مصادر تاريخ الترك كانت تكتب حتى أزمنة متأخرة باللغة الفارسية . وعندما أخذ الترك يهتمون بلغتهم ويتخذونها لغة كتابة وتأليف لم ينقطع تيار الفارسية وظلت تشارك التركية .

ويشير بارتولد إلى هذه الصعوبات فيقول إنه ليس هناك بين الدول التركية ما يستمد تاريخه من مصادر تركية سوى الدولة العثمانية . وحتى هذه المصادر التى كتبت بالتركية تجبر الباحث على إجادة العربية والفارسية لأن اللغة التركية خليط من هذه اللغات . وكثير من الأتراك يصعب عليهم فهمها لهذا السبب (١) .

وهناك صعوبة أخرى تتمثل فى أن المصادر الخاصة بتاريخ الترك قد كتبت فى عصور متأخرة مما يعرض المعلومات الواردة فيها للشك فى صحتها نظراً للفروق الزمنية الواسعة بين تاريخ الوقائع الواردة فى هذه المصادر وبين تاريخ تأليف هذه المصادر نفسها .

وإذا أضفت إلى هذا قلة المصادر القديمة والوثائق تبين لك أن الأمر تكتفه الصعوبات من كل جانب .

وأقدم الآثار الخاصة باللغة التركية تلك النقوش التى اكتشفت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على ضفاف نهر أرخون فى منغوليا وتعرف بين الباحثين بآثار أورخون . وهذه النقوش تشمل فترة ضائلة من تاريخ الترك تبلغ نصف قرن فقط من سنة ٦٣٠ - ٦٨٠ م .

وتشير هذه النقوش فى تلك الحقبة إلى تاريخ أترك الشرق عندما كانوا

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ترجمة أحمد السعيد سليمان ص ٢

خاصة بين للصين . ورغم اكتشاف هذه النقوش منذ مدة إلا أنها لا تزال موضع البحث والدراسة . وما زالت ترجحتها موضع خلاف بين العلماء لصعوبة النص الأصلي الذي كتبت به تلك النقوش . ويقدم لنا بارتولد مثلاً من أمثلة الخلاف بين العلماء في ترجمة هذه النقوش كلمة مثل كلمة «تورك» التي اختلفوا فيها اختلافاً واسعاً فهي اسم قبيلة أو أسرة حاكمة أو معناها القوة أو العزم أو الجماعة المتحدة .. الخ . (١) وكل هذا الخلاف قائم حول معنى كلمة واحدة فكيف يكون الخلاف بالنسبة لمجموعة النقوش كلها .

ويرى بارتولد أن الشعب التركي وإن كان موجوداً منذ أقدم العصور إلا أن كلمة تورك لم تستعمل في رأيه للدلالة على هذا الشعب قبل القرن السادس ويرجح أن تكون هذه اللفظة «تورك» اصطلاحاً إسلامياً (٢) .

وبناء على ما يراه بارتولد لا مانع لدينا في أن نخص بهذه اللفظة (تورك) الأتراك الذين عاشوا في العصور الإسلامية . أما الذين عاشوا قبل ذلك أي في العهود القديمة حيث غلبت على تاريخهم الأساطير فسنطلق عليهم اسم التورانيين . والغرض من هذا مجرد الفصل الواضح بين عهدين عاشتهما الشعوب التركية ، عهد اسطوري قديم ، وعهد تاريخي .

١ - التورانيون والایرانيون :

أما التورانيون فننسبهم الشاهنامه إلى تور بن افریدون . وأقدم علاقة عرفناها بين التورانيين والإيرانيين ترجع إلى عهد هذا الملك ، فإنه قبل وفاته قسم مملكته بين أولاده الثلاثة فأعطى (سلم) وهو الابن الأكبر أرض الروم وبلاد المغرب وماناخها من تلك الممالك ، وأعطى لتور بلاد الصين والترك . أما ایرج وهو أصغر الاخوة فقد خصمه بخير ما في مملكته من البلاد إذ جعل له القسم الأوسط من المملكة الممتد من بلاد العراق حتى آخر بلاد

(١) المصدر السابق : ص ٢٩

(٢) المصدر السابق : ص ٣٠

الهند ، ثم خصه فوق ذلك بولاية العهد . وأثار هذا التحيز نائرة الأخوين تور ، سلم . وبدأت الغيرة تنهش قلبيهما وتوجه سلوكهما ضد أخيهما الصغير ابرج .

وكان ابرج ذكياً فطناً فأحس بما يضره نحوه أخواه من الكراهية وأراد أن يسترضيهما ويزيل ما بنفسهما من الحقد عليه . ولكن المنافسة احتدمت ولم يسيطر تور على أعصابه فهجم على أخيه ابرج وقتله . وكان قتله سبباً في اشعال نار الحروب بين أعقاب هؤلاء الاخوة أجيالا طويلة . وبدأت لهذا السبب سلسلة الحروب بين أعقاب ابرج أو اير الذي ينتسب اليه الايرانيون طلباً للثأر وبين أعقاب أخيه تور الذي ينسب اليه التورانيون.

وأول هذه الحروب وقع في عهد منوجهر حفيد ابرج ، فعندما بلغ منوجهر هذا مبلغ الرجال عزم على الانتقام لجده . وفي القتال الذي دار بين الايرانيين والتورانيين دارت الدائرة على هؤلاء الأخيرين وقتل تور . ولم يكتف منوجهر بقتل تور في الشرق ولكنه اتجه بعد ذلك إلى الغرب حيث قتل أخاه سلم . وبدأ أن الأمر كله قد خلاص لمنوجهر الذي انفرد بالملكة بعد مقتل جديده تور وسلم .

لكن المدوء الذي ساد المملكة في عهد منوجهر بعد انتصاراته على جديده لم يلبث حتى تبدد بعد وفاته لأن التورانيين بلغهم ما كان عليه نوذر بن منوجهر من سوء الرأي وضعف التدبير . ووجدوا الفرصة سانحة للانتقام من الايرانيين والاستيلاء على بلادهم . وكان بطل التورانيين في ذلك الوقت افراسياب الذي غزا بجيوشه الايرانيين وقضى عليهم وأسر ملكهم نوذر ثم لم يلبث حتى قتله ، وأقام مقامه في حكم بلاد الفرس (١) . ويعد هذا أول حكم تركي لبلاد الفرس .

وفي عهد زوبن طهمااسب كان التورانيون والاييرانيون قد مشوا

(١) شاهنامه : ٢٧٣/١ ط برزخيم تهران

ما يجرى بينهم من القتال وحل بالبلاد قحط شديد دفع الفريقين إلى التفكير في السلم ، والكف عن الحرب . وتم الصلح بينهما فعلا . واتفق الطرفان بمقتضاه على أن يسيطر التورانيون على المنطقة الممتدة شرق نهر جيحون وأن يسيطر الايرانيون على المناطق الواقعة غربي ذلك النهر . وجعلوا النهر حداً فاصلاً بينهم .

ولكن التورانيون عندما بلغهم موت «زوه» نقضوا معاهدتهم مع الفرس وأسرع أفراسياب بجيوشه فعبر نهر جيحون قاصداً بلاد الفرس . وفي ذلك الوقت كان كرشاسب بن زو قد مات هو الآخر وتولى الأمر بعده الملك كيةباد رأس الدولة الكيانية . وبزع نجم البطل الايراني المشهور رستم بن دستان .

وفي القتال الذي دار بين الايرانيين بقيادة رستم والتورانيين بقيادة افراسياب حلت الهزيمة بالتورانيين وقتل منهم عدد كبير . وتراجع افراسياب إلى دامغان ثم عبر جيحون عائداً إلى بلاده . وبعد تقلب الأمر استقر رأى افراسياب وابيه بشنك على مودعة الايرانيين نظراً لما رأوه من قوتهم وحسن استعدادهم . وتم الصلح فعلاً بين الجانبين على أن يلزم كل فريق حده ولا يتجاوز به بالاعتداء على الجانب الآخر . وكان الحد بينهما هو نفسه نهر جيحون ، فالتورانيين ما يقع شرقه من البلاد، وللايرانيين ما يقع غربه .

ولكن التورانيين لم يحرصوا دائماً على الوفاء بتعهداتهم فعندما بلغ افراسياب وقوع الملك كيكاموس أسيراً لملك هاما واران أسرع إلى بلاد ايران فاستولى عليها وقتل أهلها حتى اضطر كثيراً من الايرانيين إلى الهجرة من بلادهم فراراً بأرواحهم إلى زابلستان حيث كان يقيم رستم بن دستان ، واستغاثوا به لانتقاذ ملكهم من أسر هاما واران ولطرد التورانيين من ايران . واستطاع رستم أن يخلص كيكاموس من أسر ملك هاما واران ثم استعد بعد ذلك لقتال التورانيين وطردهم من البلاد . وتولى كيكاموس قيادة

الجيش الايرانية وهزم التورانيين ، وأجلاهم عن بلاده ، واستتب الأمر
لكيكائوس ودانت له البلاد بالطاعة .

وحدث بعد ذلك أن خرج البطل الايراني رسم مع بعض قواده للصيد
فانحرف إلى بلاد توران وتوغل فيها هو ومن معه فسمع بذلك افراسياب
وأعد العدة للهجوم عليهم حتى يخلص منهم . وكان أمله أن يقضى على رسم
ومن معه من أبطال الايرانيين فيتزعزع بذلك ملك كيكائوس . ولكن
افراسياب خاب أمله وكاد يهلك في القتال معهم ، ونجا بصعوبة بعد أن
خسر كثيراً من رجاله وعتاده .

ووقعت بعد ذلك الحرب السادسة بين التورانيين بقيادة سهراب (وهو
ابن رسم من ابنة ملك شمنجان التركي) ، والايرانيين بقيادة رسم وقد
وقد بدأت الحرب بهجوم سهراب على بلاد ايران واستيلائه على بعض
قلاعهم . فأتقذ اليه الملك كيكائوس القائد رسم للقائه ومنعه من التوغل
في ايران . ولم يكن رسم يعرف ابنة سهراب ولا كان سهراب يعرف أباه
رسم . ودارت الحرب بينهما وكل منهما يجهل صلته بالآخر وبعد عدد
من المبارزات بين القائدين قتل سهراب على يد أبيه الذي اكتشف الحقيقة
بعد فوات الأوان (١) . وهذه المأساة من أشهر القصص الفارسية .

ولم يسكت افراسياب عن قصد بلاد ايران في عهد الملك كيكائوس
الذي ندب للقائه ابنه سياوش وضم اليه قائد جيوشه رسم . وزحف
سياوش بجيشه الكثيف حتى التقى بالتورانيين عند مدينة بلخ . وهناك دارت
عليهم الدائرة فأسرعوا إلى نهر جيحون يعبرونه للعودة إلى أوطانهم . ولم يكن
افراسياب قد اشترك في هذه المعركة وساء ما بلغه من انهزام التورانيين
وفكر في المصالحة على أن يلتزم كل منهما الحدود التي رثمت بينهما
منذ أيام أفريدون . وقبل سياوش مصالحة افراسياب الا أن أباه ككاوس

(١) شاهنامه : ٥٠٢/٢

رفض هذه المصالحة ودعا ابنه إلى تسليم من عنده من الرهائن التورانيين والعودة بهم إليه . ولكن سياوش رفض أن ينقض عهده مع الأتراك ولجأ إلى بلادهم حيث عاش في كنفهم محوطاً بالرعاية والإكرام . وقد بالغ افراسياب في إكرامه فزوجه ابنته فرنكيس التي وضعت له مولوده كيخسرو بن سياوش المشهور بين ملوك الفرس . ولكن حياة سياوش لم تطل بين الأتراك بسبب الدسائس والمؤامرات التي انتهت بمقتله هناك .

ولما علم كيكاوس بمقتل ابنه سياوش صمم على الانتقام وأرسل رستم في اثني عشر ألف فارس للتأثر . وتقدم جيش رستم يفتح البلاد حتى إذا التقى بزعماء التورانيين صرعهم واحداً بعد الآخر كما صرع ولدى افراسياب وأخاه كرسيز . أما افراسياب فاستطاع أن ينجو من الهلاك وفر مع من بقي من التوران : واستولى رستم على بلادهم ، ودمر مدنتهم ، ونهب قراهم ، وأعمل السيف في رجالهم ، وسبي نساءهم حتى أتوه متضرعين يلتصقون منه الرحمة ويعلنون البراءة مما ارتكبه افراسياب فكف أذاه عنهم ثم ما لبث أن عاد إلى كيكاوس إذ رأى من الصواب أن يكون قريباً منه . وعندما أحس افراسياب بعودة الايرانيين إلى بلادهم ظهر من جديد ، وبدأ يجمع قلوب جيشه .

وفي هذا الوقت كان كيخسرو قد صمم على الانتقام لأبيه سياوش من التورانيين ، ولكن جيش كيخسرو بقيادة طوس شغل عن القتال باللهو والسكر فاغتم التورانيون الفرصة بقيادة بيزان وهجموا على الايرانيين في معسكرهم وأوقعوا بهم وقعة عظيمة شتت شملهم وأبادت جمعهم . فلما علم كيخسرو بذلك عزل طوس عن القيادة وبعث بجيش جديد يقوده عمه فرى برز . وحل بهذا الجيش ما حل بسابقه من الخزيمة والاندحار . وغنم التورانيون في تلك الحرب غنائم كثيرة من الأيرانيين . ولم يئأس الايرانيون من القتال فعاودوه مرة ثالثة بلا فائدة ولم يكن أمامهم بد بعد ذلك من الاستعانة برستم بعد أن فشل طوس أكثر من مرة أمام التورانيين ولم يطل بهم الانتظار حتى وصل رستم ومعه النجدة . وبعد مناوشات

ومبارزات عديدة التقى الجمعان . ولم يصمد التوران طويلا ، وولوا
الأدبار . وأقبل الإيرانيون على خيامهم يغنون ويجمعون ما خلفه التورانيون
وراءهم من أموال وكنوز . ولم يجد افراسياب بعد هزيمة جنده بدا من
التقدم بنفسه ولكنه لما رأى قوة الإيرانيين أثر الانسحاب هو الآخر .

ثم تجددت الحرب بعد ذلك حين بلغ افراسياب أن الملك كيخسرو
قد عزم على عبور جيحون فتقدم اليه في عسكر جرار وخيم في صحراء
آمل ورتب جنده وتقدم كيخسرو حتى قرب من معسكر افراسياب وحفر
حول معسكره خندقاً ملاءً بالماء . وفي المبارزات اتى سبقت الحرب قتل
كيخسرو ، خاله شیده بن افراسياب (١) وبعد يومين من المبارزة
نشب القتال العام بين الفريقين وانتهى بفوز الإيرانيين . واتخذ افراسياب
من الليل ستاراً وعبر مع جنوده نهر جيحون عائدين إلى بلادهم . ولم يسكت
كيخسرو عن طلبهم وظل يتعقبهم ويستولى على بلادهم حتى عم الخراب
وأخذ افراسياب يهيم على وجهه في البلاد لا يأمن إلى أحد إلى أن وجد مغارة
مهجورة في أحد الجبال فأقام بها . ولكن خفيده كيخسرو عرف مكانه
فأسرع اليه ، وشده وثاقه ، وقتله بالسيف . وبذلك انقضى أمر افراسياب
بطل التورانيين .

ولما تولى كشتاسب بن لهراسب ملك ایرا أطاعه الملوك وأدوا له
الجزية الا ملك توران ارجاسب فإنه وحده كان يأخذ الآتاوة من الإيرانيين
وفي عهد كشتاسب ظهر زردشت وآمن به كشتاسب ودعا الناس ومن
حولهم من الملوك إلى الإيمان به . ونصح زردشت الملك كشتاسب ألا يدع
لأرجاسب وأن يقطع عنه الجزية التي يدفعها له . وعمل كشتاسب بنصح
زردشت مما أثار الحرب من جديد بين الإيرانيين والتورانيين . واستمرت
نيران الحرب بين الفريقين اسبوعين وانتهت بهزيمة ارجاسب . ومضى

(١) افراسياب جد كيخسرو لأنه أبو فرنكيس أمه . وهل هذا فالملك كيخسرو إيراني الأب
توراني الأم . كما كان البطل الإيراني سهراب بن رستم إيراني الأب توراني الأم . وأمه هي
من ابنة ملك سمجان التوراني .

تحت جنح الظلام هارباً إلى بلاده في الصين . وترك من بقى من رجاله أسرى في قبضة الإيرانيين . وبلغ أرجاسب بعد ذلك ما وقع من الخلاف بين كشتاسب وولده اسفنديار واضطراب أحوال البلاد فأسرع ينهز الفرصة ويغير على ايران . ولم تطل هذه الحرب أكثر من ثلاثة أيام وانجبت بالهزم الإيرانيين هزيمة ماحقة . وبعدها صفح كشتاسب عن ابنه وولاه قيادة جيشه بعد ذلك فاستطاع أن يهزم التورانيين ورغب في أن يقضى أثرهم وأن يتبعهم في بلادهم ، واستطاع في قصة طويلة أن يقضى على أرجاسب وأن يستولى على بلاده ، ويطلق لأتباعه العنان يسرفون في القتل ويثأرون من التوران .

وفي العهد الساساني تتجدد وقائع التورانيين مع الإيرانيين في عهد بهرام كور . وكانت سيرة بهرام في اللهو وإقباله على العبث تدشاعت فطمع خاقان التوران في بلاده . وفي الوقت الذي بدأ فيه الخاقان التوراني يتوغل في ايران كانت جيوش الروم تستعد للزحف من الغرب . ونزل خاقان التوران بجيوشه في مرو . وغره ما كان من قوته وضعف حال الإيرانيين حتى بغته سراً في متصيده أحد أتباع بهرام فأخذه على غره وقضى عليه . ولم يبق التوران الا على أصوات الإيرانيين يكبسونهم ويحيطون معسكرهم من كل جانب . واستطاع بهرام أن يقضى على التوران ويظهر مرو منهم ويقتفى أثرهم في بلادهم حتى أتوه خاضعين والزموا بدفع الخراج له .

وفي عهد فيروز بن يزدجرد تجدد القتال من التوران وكان ملكهم «خوش نوازه» . وكانت هذه الحرب شوماً على فيروز والإيرانيين لأن التوران خلدعوهم وأقاموا حول معسكرهم في سمرقند خندقاً غطوه بالأعشاب ولما وصل فيروز وتقدم ومن معه من كبار أهله وقواده للقاء هؤلاء التوران وقع في الخندق وقضى عليه (١) .

(١) شامنامه : ٢٢٧٤/٨

واستطاع ابنه بلاش أن يثأر له من بعده حتى أرغم التوران على طلب الصلح والتعهد برد ما غنموه في حربهم مع فيروز وإعادة الأسرى الذين كان من بينهم قباد بن فيروز وموبد الموبدان أردشير. والحرص على سلامة هؤلاء الأسرى كان السبب الذي دفع الإيرانيين إلى قبول الصلح الذي طلبه الأتراك. ولزم كل فريق بموجب هذا الصلح حده وجعلوا من نهر جيحون فاصلاً بينهم كما كان منذ عهد أفريدون.

وجاء قباد بن فيروز وبدأ عهده بمحاربة الخزر وانتصر عليهم ثم شغل بمحاربة الهياطلة عشر سنين (٥٠٣ - ٥١٣) حتى استراح الإيرانيون من شرهم. ومع أن سوفزاي هو الذي خلص قباد من أيدي الهياطلة إلا أن هذا الأخير لم يرع حقه عندما عاد إلى ملكه فقتله طغياناً منه واستبداداً وثار الشعب بعد مقتل سوفزاي ضد قباد، وانقسم المؤرخون في أسباب هذه الثورة فمن بعضهم أنها كانت من أجل سوفزاي واحتجاجاً على مقتله. والحقيقة أن هذه الثورة كانت بسبب إيمان قباد بمزدك واعتاقه الديانة المزدكية ومحاولته فرض هذه الديانة على الناس مما أفسد المجتمع الإيراني إفساداً شديداً. وقد نجح الثوار في القبض على قباد وبمنته إلا أنه استطاع أن يهرب من السجن ويلجأ إلى الهياطلة ويستعدي ملكهم على الإيرانيين فأمنه ثلاثين ألف مقاتل عاونوه على الرجوع إلى بلاده والتكامل بأعدائه وتثبيت عرشه.

وعندما تولى كسرى أنوشروان الملك أمر ببناء سد عظيم بين توران وإيران يمنع تدفق هؤلاء التورانيين على بلاده. وهذا السد يمتد في ولايتي أذربيجان وأرمينية قرب أردبيل. ويعرف بسد أرمينية أو الباب الحديد أو الباب أو باب الأبواب (١). كما يعرف أيضاً بسور الصين وسور الحجارة (٢).

(١) م. الرمزي : تنليق الأخبار ص ١٦٩ ط أورنبوع

(٢) المسعودي : مروج الذهب ٢٠٥/١ ط الثالثة بحري الدين عبد الحميد

وأراد خاقان التوران أن يهادن كسرى أنو شروان لما سمع من حسن سيرته وقوة بأسه فأرسل اليه وقدأ بهدية عظيمة . وخشى الهياطلة الذين يمر وفد الخاقان ببلادهم أن يتصادق الطرفان فيسهل القضاء عليهم ، وفكر وا في طريقة لإفساد ما بينهما فهجموا على الوفد وقتلوه وسلبوا الهدية . ولما علم الخاقان بعملتهم وجه إليهم جيشه . ووقعت بين التوران والهياطلة واقعة عظيمة قرب قرية نخشب استمرت ثمانية أيام وانتهت بانتصار التورانيين وقتل ملك الهياطلة وتحطيم جيشه . ورأت القلول المهزومة أن تنضم إلى جيش كسرى أنوشروان لتحمي نفسها . وفكر الخاقان في الهجوم على ايران بعد ذلك ولكنه عدل عن فكره ورأى من الأصوب أن يتصل بكسرى بصلة النسب ويوثق ما بينهما بوثاق متين فزوجه إحدى بناته وأجهن إلى قلبه . وهدأت الأحوال بين التورانيين والايرانيين وانتشر السلام وعمرت البلاد وعم الخير .

وفي عهد هرمزد بن كسرى أنو شروان أحاط به الاعداء من كل جانب ، فأقبل ساوه شاه ملك التورانيين قاصداً ايران ، واستعد في الغرب قيصر الروم ، وتحفز للانقضاض أيضاً ملك الخزر . وضيق الاعداء عليه الخناق من كل جانب . واستطاع هرمز أن يفض هذا الجمع فصالح ملك الروم ، وهاجم ملك الخزر الذي ما كاد يسمع بقدومه حتى فر أمامه . ولم يبق أمامه بعد ذلك سوى ملك التوران فجهازه لملاقاته جيشاً بقيادة بهرام جوين . وانهزم التورانيون أمامه ، وقتل ساوه ، وتبدد شمل جيشه . وابتهج الايرانيون بهذا الظفر العظيم وأعفى هرمزد الناس من خراج الأرض أربع سنين ابتهاجاً بهذه المناسبة (١) . وحاول يرموده أن يثار لأبيه ولكنه ولكنه متى هو الآخر بالهزيمة واضطر إلى الاستسلام آخر الأمر .

ولم يلبث بهرام طويلاً حتى انقلب على ملك ايران وتقدم لحرب كسرى برويز الذي سار لملاقاته بالنهروان . وروى المسعودى في ذكر هذه الواقعة

(١) شاهنامه : ٢٦٢٣/٨

أن بهرام جزيين حين بلغسه قتل هرمزد أسرع إلى المدائن من النهروان فاستولى على الملك . ورأى برويز أن يستعين بملك الروم فكاتبه في هذا الشأن ووعده أن يعوضه عما ينفق من أموال وأن يدفع إليه ديات من يقتل من مجند الروم . وبعث إليه بهدايا عظيمة . واشترط ملك الروم مقابل هذه المساعدة أن ينزل له برويز عن الشام ومصر اللتين كانتا خاضعتين لسلطانه فأجاب به برويز إلى ما طلب . ولما اجتمعت الجيوش لأبرويز هاجم بهرام فهزمه (١) ولم يجد بهرام بدا من اللجوء إلى خاقان التورانيين الذي آواه وأكرم مثواه واستطاع الأيرانيون بعد ذلك أن ينفذوا إلى مخيم بهرام بن التوران من يطعنه بسكين فيقضي عليه (٢) .

هذه هي خلاصة ما ورد في الشاهنامه من الحروب التي دارت بين التورانيين والأيرانيين في العهود البيشدادية والكيانية والساسانية . ويلاحظ أن ماورد من هذه الوقائع في العهدين البيشدادى والكيانى أسطورى لأن هاتين الدولتين من الدول الأسطورية عند الفرس . أما ماورد منها في تاريخ الساسانيين فإنه يتضمن كثيراً من الوقائع التاريخية وإن لم يسلم الأمر من المبالغات والأقاصيص .

ويلاحظ أن العلاقات بين التورانيين والأيرانيين في الفترة السابقة كانت تقوم على العداوة والحرب ورغبة كل فريق في القضاء على الفريق الآخر وتملك أراضيه .

ولا شك في أن الحروب كانت مظهراً مهماً من مظاهر الاتصال والاحتكاك بين الفريقين ، كما كانت التجارة مظهراً آخر من مظاهر هذا الاتصال . فقد كان التورانيون أهل بدوارة ولم تكن الحضارة قد عرفت طريقها إلى مجتمعاتهم بعد . وكان المجتمع الأيراني وخاصة في العهد الساساني متحضراً . ومن هنا كان التوران البداءة في حاجة إلى ما يصنع في إيران من السلع . يضاف إلى هذا التجاور المكاني بين الطرفين .

(١) المروج : ٢٧٥/١

(٢) شاهنامه : ٢٨٢٤/٩

وقد كان لهذا الاتصال بين الشعبين آثاره ومظاهره ونتائجه . وقد عرف النوران الكتابة من الإيرانيين . كما أن الديانات المختلفة التي ظهرت في بلاد الفرس تسربت أيضاً إلى المجتمع النوراني . وقد عرف النورانيون الديانة الزردشتية كما انتشرت بينهم الديانة المانوية . ويذكر بارتولد أنه لم تكن دولة الأتراك الغز تسقط حتى أخذت المانوية تنتشر بين الترك على نطاق واسع (١) . ومعنى هذا أنها كانت معروفة قبل ذلك أيضاً . ولا معنى لأن يسلم بارتولد بانتشار الديانة المانوية بين الأتراك ثم ينكر انتشار الديانة الزردشتية في المجتمع النوراني (٢) . وإذا كان بارتولد ينكر في صفحة ١٢ انتشار الزردشتية في المجتمع النوراني فإنه بذلك يناقض نفسه بعد ذلك في صفحة ٤٠ حيث يعترف صراحة أنها انتشرت هناك بحكم وقوع النورانيين تحت تأثير المدينة الإيرانية وهذا هو الشيء الطبيعي الذي نسيه بارتولد في أول الأمر . ويستشهد بارتولد على انتشار الزردشتية في صفحة ٤٠ (التي سبق له أن انكر انتشارها في ص ١٢) بالرحالة الصيني هيوان تسانج الذي جاب أواسط آسيا سنة ٥٣٠ . ويستند بارتولد على كتابات هذا الرحالة في القول بأن الديانة الزردشتية غزت المجتمع التركي وانصهرت على الديانة البوذية في أواسط آسيا منذ أواخر الدولة الساسانية (٣) .

وتبدأ الوقائع الصحيحة لتاريخ الترك من عهد كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٨ م) ففي القرن السادس أقام النوران دولة بلوية عاشت إلى القرن الثامن . وامتدت هذه الدولة امتداداً واسعاً من حدود الصين الشمالية إلى البحر الأسود . وكان هؤلاء النورانيون ينسبون إلى الغز . وقد قامت هذه الدولة على أكثاف أخوين هما بومين الذي حكم الجانب الشرقي من الدولة وتوفي ٥٥٢ م ، وإخوة استمى الذي كان أطول عمراً واستمر يحكم الجانب الغربي من الدولة بعد وفاة أخيه بنحو ربع قرن . وفي سنة ٦٣٠ م

(١) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٣

(٢) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٢

(٣) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٤٠

قضت الأسرة المالكة في الصين ، أسرة تانغ ، على الجزء الشرقى من الدولة وأتبعته بالقضاء على الجزء الغربى سنة ٩٥٩ . ولكن التورانيين لم يستسلموا للخضوع وحققوا استقلالهم من جديد ، وظلت دولتهم قائمة حتى سنة ٧٤٥ (١)

وحوالى سنة ٧٠٠ م كانت الفتوحات العربية قد استطاعت أن تسيطر على الأجزاء الغربية من هذه الدولة بينما سقطت الأجزاء الشرقية فى سنة ٧٤٥ فى يد قبيلة تركية أخرى هى الأويغور .

٢ - الفتوح الإسلامية :

لم تكن صلة المسلمين بما وراء النهر مستقرة واضحة أول الأمر فكان الحكام العرب يشنون الغارات على ما وراء النهر ويعودون كل سنة إلى أمالكهم فى خرمان (٢) . ويروى الطبرى أن الأمراء المحليين فى ذلك الوقت كانوا يجتمعون فى كل سنة ليفضوا ما بينهم من المنازعات بالحسنى وليتعاهدوا على مواصلة الجهاد ضد العرب .

ومما كان يشجع العرب على غزو الأقاليم الشرقية بالإضافة إلى نشر العقيدة واعلاء كلمة الدين ازدياد الأموال التى يغنمونها . وكان لمساعدة الأهالى أنفسهم أثر كبير فى الانتصارات التى أحرزها العرب فيما وراء النهر . ويعزى بجانب من نجاح قتيبة فى فتح تلك الأصقاع إلى مساعدة العناصر الوطنية . أما ببطء الغزو فراجع إلى أن العرب قنعوا إلى حد ما لفترة طويلة بالغنائم الحربية والجزية ولم يهتموا بأن يكون الفتح مستمرا متصلا . هذا إلى وجود العقبات الطبيعية التى لم يكن لها مثيل فى بلادهم .

ومع أن المسلمين غزوا ما وراء النهر فى سنة ٤٦ هـ على يد القائد ربيع ابن الحارث إلا أن معرفتهم بهذا الاقليم ورغبتهم فى فتحه كانت أقدم من ذلك فابن الأثير فى حوادث سنة ٢٢ يذكر أن الأحنف بن قيس غزا خراسان ،

(١) بروكلمان : الامبراطورية الإسلامية وانحلالها - الترجمة العربية ص ١١٠ بيروت

(١) كانت ما وراء النهر تتبع حاكم خراسان .

وأن عمر أذن للمسلمين فدخلوا بلاد فارس تعقباً ليزدجرد ، وأنهم هزموه عند بلخ ففر منهم وعبر النهر ، ورغب المسلمون في مطاردته ولكن عمر كتب إلى الأحنف وطلب إليه أن يقتصر على مادون النهر ولا يجوزه . ولا شك في أن عمر أراد أن يعفى المسلمين من التوغل في تلك الأقاليم خوفاً عليهم لجهلهم بها .

وبمرور الأيام سمع العرب أشياء الكثير عن تلك الأقاليم الغنية فكانوا يقومون بغزوات متقطعة غير منظمة يعودون منها بالغنائم الكثيرة فعرف العرب تلك الأقاليم بالتدريج وشجعهم غناها وضعفها على أن يقوهوا بغزواتهم التي أخذت شكلها المنظم فيما بعد .

وفي سنة ٤٦ أرسل زياد بن أبي سفيان ربيع بن الحارث إلى خراسان فدار حتى بلخ . ومن هناك عبر النهر . ولم تكن لهذه الغزوة أهمية كبيرة لأن ربيعاً لم يكن له هدف مرسوم من هذا الغزو .

وفي سنة ٥٤ عين معاوية عبيد الله بن زياد والياً على خراسان . وكان عبيد الله شاباً فتياً فقطع النهر إلى بخارى واستولى في طريقه على بيكند المدينة الغنية بعد حرب طويلة ، ونال من فتحها غنائم عظيمة وحمل عدداً كبيراً من الأسرى ثم تابع سيره إلى بخارى . وكانت تحكمها الخاتون التي استنجدت بمن حولها من الأتراك فحفروا إلى نجديتها في جيوش كبيرة ، ولكن المسلمين تغلبوا عليهم في النهاية وقتلوا منهم كثيرين ففرقت جيوش الأتراك مسرعة إلى أوطانها وقرت الخاتون إلى قلعتها وأراد عبيد الله أن ينتقم منها بتخريب مدينتها فأرسلت إليه تطلب الصلح فصالحها على مال كثير وحمل معه أربعة آلاف أسير .

ثم عزل عبيد الله سنة ٥٦ وحل محله سعيد بن عثمان الذي عبر النهر قاصداً بخارى . فلما علمت الخاتون بذلك أرسلت إليه تذكره بالصلح

الذى عقدته مع سلفه وضاعفت له في المال والهدايا . ولكن سعيها نبذ المعاهدة، ورد اليها هداياها، وتقاتلت جيوشه مع جيوشها وجيوش من خفوا لتجديتها من الصغد وكش ونخش . وانتهى الأمر بهزيمتهم جميعاً فانفضوا من حولها ولم تجد بداً من طلب الصلح فصالحها سعيد الا أنه طلب منها رهائن عنده حتى يضمن سلوكها نحوه وعدم انقضاضها عليه أثناء غزوه للصغد وسمرقند ، فقدمت اليه ثمانين شخصاً من دهاقنة بخارى وأمرائها ويذكر نرشخي أن هؤلاء الرهائن كانوا من بين المتأمرين عليها وعلى ولدها طغشاده فتخلصت منهم بهذه الطريقة (١) .

ومن ألع الشخصيات الإسلامية التي نشرت الإسلام في المشرق شخصية القائد العربي قتيبة بن مسلم . وتعتبر غزوات قتيبة مرحلة بارزة من مراحل الغزو الإسلامي في آسيا الوسطى . واستطاع قتيبة في سنوات متعاقبة أن يستولى على بخارى ونسف وسمرقند . وفي سنة ٩٤ هـ غزا قتيبة الشاش وفرغانة ووصل إلى الصين وفتح مدينة كاشغر في سنة ٩٦ هـ . واستطاع قتيبة أن يحقق نصراً إسلامياً في تلك المناطق بنشر الدين الإسلامي هناك الذي قضى على الديانة الزردشتية . ويلاحظ أن الفتح لم يكن كافياً لثبيت الإسلام في قلوب البخاريين . ويروى النرشخي أن البخاريين كانوا يعتنقون الإسلام إذا ما غزاهم العرب ثم يرتدون عنه إذا رحل العرب . وكان من عادة العرب الفاتحين أن يرحلوا عن تلك الأصقاع الباردة إذا حل الشتاء ويعودوا إلى خراسان . وفي كل غزوة من غزوات قتيبة كانوا يعلنون الإسلام ثم يعودون إلى دينهم القديم حين يرجع العرب عنهم . وقد بذل العرب مجهودات كبيرة ليثبتوا دعائم هذا الدين الجديد .

وكان أشد الناس ضيقاً بهذا الدين وعناداً له رجال الأديان التي كانت منتشرة في تلك الأصقاع قبل الإسلام ، والأشراف . وقد لاحظ العرب ذلك كما لاحظوا أن كثيراً ممن اعتنقوا الإسلام في الظاهر خوفاً ورهبة كانوا يزاولون عبادتهم القديمة سراً أو في سكون الليل . فأمر قتيبة كل بخارى

(١) نرشخي : تاريخ بخارا ص ٤٦ ط سعادت ١٣١٧ تهران

أن يفسح في بيته مكاناً لعربي يسكنه فيه . وكان هؤلاء العرب عيوناً للدولة يبلغون عن كل من يرتد عن الاسلام أو يمارس شعائر دينه القديم .

وبما بذله قتيبة لنشر الدين الجديد وتشجيع الناس على اعتناقه أنه بنى في سنة ٩٤ هـ المسجد الجامع في قلعة بخارى . وجعل لكل من صلى فيه الجمعة درهمين مكافأة . وذكر الرشخي أنه رأى مسجد بخارى في أيامه وعلى أبوابه نقوش وصور وثنية ، وأنه سأل عن سبب ذلك فعرف أن أغنياء بخارى كانوا قد أقاموا لأنفسهم خارجها سبعة قصر . وفي أحد أيام أجمع دعا المسلمون أولئك البخاريين إلى الصلاة في المسجد فرموهم بالحجارة فهجم المسلمون على تلك القصور وانتزعوا أبوابها وجعلوا منها أبواباً للمسجد حين وسعوه . وكان على تلك الأبواب صور أصنامهم ومعبوداتهم فزالوا من تلك الصور ما استطاعوا وتركوا الباقي (١) .

ولم يكن المسلمون في بخارى يستطيعون في أول الأمر الظهور في الشوارع أو الأماكن العامة بغير سلاح خوفاً على أنفسهم من الكفار وبقية هذه هذه العادة حتى عهد الرشخي (٢) . وإمعاناً في الحيلة لم تسمح السلطات للعناصر الوطنية بحمل السلاح إلا بعد أن تعلن إسلامها .

ويذكر بارتولد أن تأثير المدنية الإيرانية في بلاد الترك قد ازداد بعد غزو المسلمين وانتشار الاسلام هناك (٣) . وإذا كانت الديانة الزردشتية الإيرانية قد أضعفت أثر الديانة البوذية هناك فإن الإسلام قد أثر في الزردشتية وأضعف شأنها . وانتشر بين أهالي المناطق الشرقية قصص الفرس القديمة وأخبار ملوكهم الأقدمين ، وبدأت اللغة الفارسية تسود في تلك المناطق . ويقرر بارتولد أن اللغة التركية إذا اجتمعت مع الفارسية في قطر من الأقطار

(١) رشخي : تاريخ بخارا ص ٥٧

(٢) نفس المصدر ص ٦١

(٣) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٢٩

فإنها تنتصر عليها (١) . وهذا الرأي ليس صحيحاً ولا يمكن التسليم به فتاريخ الترك سواء منهم الذين عاشوا في المناطق الشرقية أو الغربية يدل على أن لغتهم وأدبهم ظلت تحمل حتى وقت متأخر طابع اللغة الفارسية وأدبها وأن الأدب التركي نشأ في ظل الأدب الفارسي ومنه استمد نماءه وقوته . وعندما ادم الأتراك بعد قرون طويلة بلغتهم وجعلوها لغة للتأليف العلمية والأدبية لم يضعف شأن الفارسية وظلت تزاحم التركية . وهذا موضوع طويل لا يحتمله هذا البحث .

٣ - القرخانيون والسامانيون :

انتشر الإسلام بين الترك في عهد الدولة السامانية الإيرانية التي سيطرت في القرنين التاسع والعاشر (من ٨٢٠ - ١٠٠٠ تقريباً م) على أواسط آسيا وبلاذ ما وراء النهر (٢) .

وينسب هؤلاء السامانيون إلى قرية من قرى بلخ يقال لها سامان (٣) . وكان جد الأسرة والياً على القرية يقال له سامان خدا . وينتهي نسب السامانيين إلى بهرام جربين . وقد مر ذكره فيما سبق (٤) . وقد أسلم سامان هذا فيما بعد

وفي ختام القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) حين ظهرت الدولة الصفارية التي قضت على حكم الطاهريين وأصبح لها السيادة في فارس طمع امرأؤها في أن يوسعوا حدود دولتهم وأن يسيطروا سلطانهم على بلاد ما وراء النهر مما عجل بدولتهم وقضى عليها ، وذلك أن عمرو بن الليث بعد أن صارت له السيادة في فارس أراد أن يضم إليه كل ما كان للطاهريين فيما وراء النهر . وكان هذا سبب القضاء على دولته إذ كانت قوة السامانيين

(١) نفس المصدر ص ٤٢

(٢) بينما فيما سبق أن الإسلام عرف طريقه إلى بلاد الأتراك قبل ذلك بفترة طويلة في الفتوح

الإسلامية الأولى منذ عهد قتيبة بن مسلم سنة ٨٦ هـ

(٣) معجم البلدان : ١٣/٣ ط لبيزج

(٤) راجع ص ١٣ من هذا البحث .

في ذلك الوقت قد توطدت . وتفسير ذلك أن عمراً كان قد ثبت ملكه في فارس فلم يستطع الخليفة أن يرد له طلباً . وكان طلبه أن يضم إلى ملكه ما وراء النهر فأصدر الخليفة أمراً بعزل اسماعيل الساماني وتولية عمرو بن الليث نائباً للخليفة فيما وراء النهر . ولم يدعن اسماعيل لهذا القرار وقامت الحرب بينه وبين عمرو وانتهت بهزيمة جيش عمرو الذي كان يقوده محمد ابن بشير . ولما بلغ الخبر عمراً استعد بنفسه لحرب اسماعيل وسار من نيسابور إلى بلخ . وهناك تقابل الجيشان وحلت الهزيمة بعمرو فحاول الفرار ولكنه أسر وأرسل إلى الخليفة المعتضد في بغداد سنة ٢٨٨ هـ حيث قتل في السنة التالية . وباختفاء عمرو من الميدان خلا الجو لاسماعيل الساماني وكان على الخليفة أن يقر توليته على ما كان يتولاه عمرو . وتم بذلك لاسماعيل الاستيلاء على خراسان . وأصبحت دولة السامانيين تضم عدداً من المدن المشهورة في ذلك التاريخ أمثال مرو ، نيسابور ، الري ، آمل ، هراة ، بلخ ، قزوین ، شیراز ، أصفهان . وكان السامانيون والبويهيون يتقاسمون في وقت واحد حكم إيران وأواسط آسيا على النحو الآتي : كان للسامانيين خراسان ، سيستان ، بلخ ، بخارى ، سمرقند . وكان للبويهيين العراق ، فارس ، كرمان ، خوزستان ، لورستان . أما طبرستان وجرجان فكانت تنتقل بينهما . وهكذا ترك اسماعيل الساماني رقعة دولته عندما مات سنة ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م .

وعندما تولى الحكم الأمير منصور الأول قابله متاعب من قبل حاكم نيسابور التركي البتكين . وعندما وجه الأمير جيوشه إليه تراجع إلى غزنة حيث استعد هناك ونظم جيشه بحيث استطاع أن يقاوم بجيش المنصور . وعندما مات البتكين سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م انتقلت رئاسة هؤلاء الأتراك إلى سبكتكين . وقد استطاع سبكتكين هذا أن يضع أساس دولة جديدة سيطرت فيما بعد على إيران وشمال الهند . ومع أن سبكتكين التركي كان تابعاً للدولة السامانية الإيرانية إلا أنه كان يتصرف كما يتصرف الحكام المستقلون . وهذه الدولة التركية التي وضع أسسها سبكتكين والتي عرفت

فما بعد باسم الدولة الغزنوية استطاعت أن تقضي على الدولة السامانية من ناحية ، واشتركت معها من ناحية ثانية قوى تركية أخرى هي قوة القراخانيين

وكان هؤلاء القراخانيون قد وجهوا ضربة قوية إلى الدولة السامانية حين استولى بغراخان على مدينة بخارى سنة ٣٨٣ هـ . ولم يستطع نوح الساماني أن يقاوم رغم الجيش الكبير الذي أرسله للقاءة بغراخان . ولما يئس نوح من النصر خرج من بخارى إلى آمل متخفياً . ويشاء الحظ الحسن أن تحالف نوحاً لأن بغراخان لم يقو على المقام في بخارى لوخامة جوها فرجع عنها إلى بلاد الترك ومات بعد ذلك ، وثار الأهالي على عسكره في بخارى وفتكوا بهم . وكانت هذه هي الفرصة السانحة لنوح فعاد إلى عاصمته وأحسن الأدلون استقباله . وفي أثناء حروب نوح الساماني مع القراخانيين كان بعض كبار دولته قد ثاروا عليه طمعاً في مملكته مثل أبي علي بن سيمجور ، وفائق . وكان أولهما يكتب بغراخان سرّاً ويحضه على غزو بخارى . وانضم فائق بدوره إلى بغراخان في غزو بخارى . فلما رجع بغراخان عن المدينة إلى بلاده وقضى على الجيش التركي كان على نوح الساماني أن يتخلص بعد ذلك من أتباعه الخونة . وكان أبو علي بن سيمجور وفائق قد تحالفا ضده فاستدعى نوح لحرهما سبكتكين وولده محموداً . وتقابلت الجيوش في هراة وانهمز أبو علي هزيمة شنيعة فعاد معه فائق إلى نيشابور فبعثهما جيوش نوح بقيادة سبكتكين واستولت على المدينة . وولى نوح محموداً على نيشابور وعهد إليه بجيوش خراسان ولقبه سيف الدولة كما لقب أباه سبكتكين ناصر الدولة . وعاد نوح بعد ذلك إلى عاصمته بخارى .

ولكن موت نوح في سنة ٣٨٧ أدى إلى اختلال ملك السامانيين اختلالاً ظاهراً . وعندما علم القراخانيون بوفاة وولاية ابنه منصور الثاني بن نوح الثاني هاجموا بخارى بالاشتراك مع فائق ، وفر المنصور أمامهم . وحاول فائق بعد أن دخل بخارى أن يثبت أقدامه بطريقة قانونية فأعلن للناس أنه جاء لمساعدة الأمير على توطيد ملكه ، واستطاع أن يقنع منصوراً بالعودة

إلى عاصمته . وكان طبيعياً بعد أن عاد منصور أن تصبح السلطة والنفوذ في يده فائق .

وعين فائق قائداً جديداً للجيش بخراسان هو بكتوزون الذي كان من كبار شخصيات الدولة السامانية قبل سقوط بخارى في يد فائق . وكان محمود بن سبكتكين حينما تولى بكتوزون قيادة الجيش بخراسان يحارب أخاه اسماعيل ، ولما انتصر عليه واستولى على مدينة غزنه ساءه أن يعين بكتوزون والياً على خراسان . ورأى نفسه أحق بهذا المنصب لما قدمه إلى الدولة من خدمات فكتب إلى الأمير الذي لم يكن يملك من السلطة الفعلية شيئاً ، وعرض عليه الأمير لارضائه بلخ ، ترمذ ، بست ، هراة بدل خراسان ولم يقبل محمود هذا العرض واتخذ الحرب وسيلة لنيل ما يريد .

وفي تلك الأثناء توجه بكتوزون وفائق خيفة من منصور فقبضا عليه ، ووليا مكانه أخاه عبد الله . وكان هذا حافزاً حفز محموداً للاسراع في حربهما والاستيلاء على الملك ودارت الحرب بين الفريقين في آخر جمادى الأولى بمرو فانهزم بكتوزون وفائق وأخذ محمود يطاردهما حتى استخلص خراسان منهما ونزعها نهائياً من الدولة السامانية ، وكون لنفسه فيها ملكاً رأى أن يكسبه المظهر القانوني فخطب للقادر بالله . واستولى محمود على أملاك السامانيين في المقاطعات الواقعة جنوب نهر جيحون ، وهرب بكتوزون وفائق ومعهما الأمير الساماني الجديد عبد الله إلى بخارى .

وفي عهد عبد الملك الثاني بن نوح الثاني (١) . الذي تولى الملك صبيهاً صغيراً كانت نهاية الدولة السامانية وزوالها على يد محمود بن سبكتكين التركي ، والقرانيين (الابلك خانيين)

وبعد أن استولى محمود على خراسان لم يبق في يده عبد الملك الأمير الساماني المذكور سوى إقليم ما وراء النهر . وكان قد اجتمع في بخارى ،

(١) يذكره صاحب تاريخ كزیده خطأ «عبد الملك»

عبد الملك وبكتوزون وفائق وحاول ثلاثهم أن يقوموا بعمل حربي يستردون به خراسان . وأخذوا فعلاً في إعداد الجيوش ولكن أمرهم انتهى إلى الفشل فقد مات فائق وكان أبرزهم فوهن عزمهم وتفرقت الجيوش التي أعدوها ولم يعد هناك أي أمل في استرداد خراسان .

ولم يلبث اقليم ما وراء النهر أن لحق بخراسان فإن ملك الترك عندما بلغه ما صار إليه أمر الدولة السامانية من الضعف والعجز وانتزاع اقليم خراسان منها سير إلى بخارى جيشاً استطاع أن يدخلها وأن يقبض على بكتوزون وغيره من القواد والأمراء . وكان ذلك في يوم الثلاثاء العاشر من ذي القعدة سنة ٣٨٩ هـ . واختفى عبد الملك مدة استطاع بعدها إلا يلك خان أن يقبض عليه ويسجنه إلى أن مات .

وهكذا انتهت هذه الدولة السامانية الإيرانية على يد هاتين القوتين التركيتين : قوة الغزنين والقراخانيين . هذه الدولة التي يقول عنها ابن الأثير أنها انتشرت وطبقت كثيراً من الأرض من حدود حلوان إلى بلاد الترك بما وراء النهر .

• • •

وتعتبر مملكة القراخانيين أولى الممالك الإسلامية التركية . وقد بدأ شأن هؤلاء القراخانيين يعلو منذ أواخر القرن العاشر عندما دخلوا في الإسلام وكانت عاصمتهم في أول الأمر مدينة كشغر . وامتدت مملكتهم من كشغر حتى بحر آرال . ويرجع أصل هؤلاء القراخانيين إلى قبائل الأويغور . ومن أعظم خاناتهم بغراخان الذي سبقت الإشارة إليه ، والذي اتخذ من مدينة بلاساغون عاصمة له . وضمت مملكته كثيراً من المدن المهمة أمثال كشغر ، ختن ، تراز ، فاراب (اترار) وغيرها من المدن المهمة .

ولم يكتف القراخانيون بالقضاء على دولة السامانيين ولكنهم فكروا في القضاء على الدولة الغزنوية نفسها . وقامت الحروب بين الطرفين .

وكان من أثر زوال الدولة السامانية الإيرانية وقيام الدولة الغزنوية التركية على حكم إيران، وطمع القراخانيين الأتراك في القضاء على الدولة الغزنوية نفسها لاختضاع بلاد إيران لحكمهم أن أصبحت إيران مسرحاً لحروب لا مصلحة للشعب الإيراني فيها ، وأصبحت بلاده مطمعاً للمغامرين الغزاة من الأتراك . وقد أثار هذا الوضع نائرة العناصر الوطنية الإيرانية التي نهت الشعب الإيراني المستكين إلى أمجاده التاريخية ، وضرورة أحيائها لنشر الوعي القومي بين الشعب . وفي هذا الجو ظهرت شاهنامة الفردوسي وكما تأثر القراخانيون بالاسلام تأثروا أيضاً بالثقافة الإيرانية التي راجت بينهم واستهوتهم الملاحم الإيرانية حتى إنهم أطلقوا على أنفسهم لقب آل افراسياب (١) .

٤ - الغزنويون :

أشرنا فيما سبق إلى هولاء الغزنين وكيف قضوا على الدولة السامانية. وأصل هذه الأسرة اليتيم أحده عبيد الأتراك الذين ارتفع شأنهم في عهد الدولة السامانية .

ويعتبر سبكتكين مؤسس هذه الدولة . وكان هو الآخر عبداً من عبيد البتكين وزوجاً لابنته ، وكان معروفاً بالشجاعة والحزم فاستطاع أن يمد سلطان دولته . وولى وجهه شطر الهند فهزم ملوكها وأنشأ حكومة ببشاور . وكذلك اتجه إلى الناحية الأخرى واستولى على خراسان .

وجاء بعد سبكتكين ابنه محمود الذي يعتبر أشهر ملوك هذه الدولة ومن أبرز أعلام التاريخ الإسلامي . وقد نال محمود هذه المكانة لما قام به من الغزوات الكثيرة التي رفعت لواء الاسلام . وتعتبر غزواته في بلاد الهند من أعظم الغزوات التي قام بها المسلمون في كفاحهم الطويل لنشر الاسلام .

(١) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٨٥

وقبل أن يبدأ هذه الغزوات التاريخية رأى أن يأمن جانب مجيرانه
ليضرب لمخاربة الهنود وهو مطمئن . وكان مجيرانه في ذلك الوقت السامانيين
والإيلك خانية (القراخانية) .

أما السامانيون فقد ضعف أمرهم في ذلك الوقت ضعفاً شديداً ولم يعد
بأيديهم سوى إقليم ما وراء النهر بعد أن انتزعت خراسان منهم . وحتى هذا
الإقليم ، ما وراء النهر ، لم يدم لهم طويلاً لأن إيلك خان استطاع بحيشه
أن يزحف إلى بخارى سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٨ م ، وأن يأسر عبد الملك الساماني
ويحبسه بأفكند حتى مات . ومع أن الدولة السامانية لم يعد لها شأن أو كيان
فقد حرص محمود على أن يفي الناحية الشكلية حقها وطلب موافقة الخليفة
على ولايته فجاءته خلعة السلطنة من القادر بالله الخليفة العباسي . وكان
محمود يحرص وهو صاحب القوة والغلبة على اظهار الخضوع الشكلي للخليفة
العباسي حتى إنه كان ياتب نفسه في كتبه إلى الخليفة «عبد مولانا أمير
المؤمنين وصنيعته محمود بن سبكتكين» (٢) ومنحه الخليفة لقب «يمين
الدولة وأمين الملة» .

أما إيلك خان التركي فقد رأى محمود أن مسالته أحسن وسيلة للاطمئنان
إلى جانبه . فأخذ في توطيد أواصر الصداقة بينهما . ورأى أن يؤكد
ودهما فأرسل إليه وفداً يرجو مصاهرته ويغلب كرمته . وكان لمحمود
ما أراد ، وقبل إيلك خان أن يزوجه ابنته . وبهذا نجح محمود فيما أراده
وهياً نفسه بعد ذلك لغزو الهند .

وفي نهاية عهد محمود كانت دولته قد امتدت امتداداً عظيماً وشملت
خراسان وطبرستان في الغرب والتركستان وما وراء النهر في الشمال وإقليم
البنجاب في الشرق والأقليم المعروف في الوقت الحاضر ببلاد الأفغان في
الوسط .

وبعد أن رجع محمود من إحدى غزواته ضد البويهيين التي استولى

(١) النجوم الزاهرة : ٢٥٩/٤ ط دار الكتب ١٩٣٢

فيها على أصفهان مات في غزوة سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م بالغاً من العمر
إحدى وستين سنة إذ كان قد ولد في سنة ٣٦٠ / ٩٧٠ م ..

ولم يجد الزمان على الدولة الغزنوية بمثل محمود . ويذكر البيهقي أن
محموداً كان يحس أنه لن يظهر في أمرته بعد موته من يضارعه (١) ،
وكانه كان يتنبأ بذلك .

ولم يظن محمود في حياته إلى الخطر الذي يهدد دولته من وجود
الأتراك السلاجقة وازدياد نفوذ رؤسائهم أمثال طغرل بك . ومع أن مسعوداً
خليفة محمود كان من الملوك الأكفاء والمقاتلين الشجعان إلا أنه انهزم
أمام طغرل في الموقعة التي دارت بينهما في دندانقان بين مرو وسرخس
٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م .

وكان من أثر هذه الخزيمة التي لحقت مسعوداً أن انتزع منه السلاجقة
خراسان وجميع الأقاليم الغربية التابعة للدولة الغزنوية . وكانت هذه الخزيمة
قاضية على جميع آمال مسعود بل وعايه نفسه إذ قتل بعد ذلك سنة ٤٣٣ هـ
١٠٤١ م .

ويتوالى الملوك من الأمرة الغزنوية بعد ذلك ، وترداد في نفس الوقت
قوة السلاجقة مما دعا بعض الملوك الغزنويين إلى مسالمتهم مثل إبراهيم
الغزني الذي تجاوزت مدة حكمه أربعين عاماً امتازت بالسلم والرخاء .
وكان سبب ذلك ما لحق إاليه من تزويج ابنه مسعود الثالث إلى ابنة ملكشاه
السلجوقي . واستغل إبراهيم هذه الصلة بينه وبين السلاجقة وانصرف إلى
الإصلاح الداخلي . وكذلك كانت الحال في عهد مسعود الثالث ، إلا أن
العلاقات قد ساءت بعد ذلك بين الطرفين . واستطاع السلاجقة ومن بعدهم
الغوريون أن يستولوا على غزنه وأن يقضوا على ملك الغزنويين بها . وفي
الحروب التي دارت بين السلطان علاء الدين حسين « جهانسوز » من ملوك

(١) تاريخ بيهقي : ص ١١٤ نشر في وفيات

الغوريين وبين بهرام شاه الغزنوي سقطت غزنة واشتعلت الحرائق فيها حتى صيرتها رماداً ولم يعد لها بعد ذلك مجدداً القديم .

وبعد سقوط غزنه وضياح الجزء الغربي من الدولة اتجه الغزنويون إلى مقاطعاتهم في الشرق ، واتخذوا لاهور عاصمة لهم ، واستمروا يحكمون هناك إلى أن قضى الغوريون على الأسرة الغزنوية نهائياً . وكان ذلك في سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م .

الشاهنامه :

كان نظم الشاهنامه عملاً قومياً أراد به الفردوسي أن يلفت أنظار مواطنيه الإيرانيين إلى ما يجري في بلادهم من سيطرة العناصر اللخيلة كالفزنيين الأتراك . وكان الفردوسي يريد أن ييث النعرة القومية في الشعب الإيراني ليتحرر من حكم هؤلاء الأجانب ويسترد وطنه الذي ضاعت وحدته وتقسمت أرضه بين مجموعة من الحكام الغاصبين الذين انفرد كل منهم بجزء من الوطن الإيراني القديم حيث كون لنفسه فيه دولة مستقلة على حساب وحدة الوطن الإيراني ، ففي القرن الرابع الذي ولد فيه الفردوسي وشرع ينظم شاهنامته كان قد ظهر في كل ركن من أركان الدولة الساسانية القديمة دولة جديدة .

وكان عملاً جريئاً من الشاعر الإيراني المتعصب «الفردوسي» أن ينظم الشاهنامه التي تمجد الإيرانيين وتدعو إلى احياء أمجادهم في ظل دولة تركية متعصبة . ومن الطبيعي ألا يلقى هذا الشاعر الإيراني المتعصب تقديراً كافياً على هذا العمل الأدبي الضخم من سلطان تركي متعصب لا يهمه في شيء أن يرتفع شأن الإيرانيين .

ولا تكتم الشاهنامه نزعة العداء نحو الأتراك بل هي تعكس في صراحة شعور الإيرانيين نحو أعدائهم التقليديين الأتراك ، وتبدو في الشاهنامه نزعة الاحتقار واضحة نحو التورانيين ، فالعنصر

الایرانی طیب و کریم بینما يمثل العنصر التورانی اللوم والخسة . وما يمثل هذا الفرق بينهما موقف كودرز الایرانی من یران التورانی عندما تبارزا : ففي هذه المباراة عندما بدا أن الغلبة للبطل الایرانی كودرز وهرب من أمامه غریمه التركي بعد أن سقط عن فرسه وكسرت ذراعه ولجأ إلى جبل هناك یحميه رقی قلب البطل الایرانی لحال غریمه وتذكر مكانته بین قومه وما انتهى إليه أمره من الهوان بعد هزيمته فعرض عليه أن یؤمنه على حياته إذا طلب الأمان ، ولكن یران رفض أن یسلم بالهزيمة وأن یطلب الأمان وصمم على أن یقاتل إلى آخر قطرة فی دمه وتحین الفرصة فری كودرز بسهم أصابه فی عضده اصابة شديدة . وهكذا أراد البطل الایرانی لغریمه التورانی الحياة بینما تحین هذا الأخير الفرصة لیردیه . ولم یبالك كودرز نفسه من الغضب وسدد سهمه إلى یرزان فأرداه قتیلاً . وهنا تصور لنا الشاهنامه الخلق الایرانی العظیم الذی تحلی به كودرز فانه من فرط غضبه من عدوه أراد أن یجتز رأسه بعد مصرعه ولكنه عدل عن ذلك احتراماً له بل إنه أراد أن یكرمه فی میتته فرفع علمه عند رأسه لیقی وجهه حرارة الشمس المحرقة فی تلك الصحراء .

وعندما تقدم یلسم أخو یران یطلب مبارزة رسم هزیء به البطل الایرانی کیو وأفهمه فی احتقار أن رسم یرفع عن مبارزة ترکی مثله (۱) .

وفی عهد کیکاوس نرى مثلاً آخر على احتقار الایرانیین للتورانیین فعندما تغلب سهراب على قلعة سبید دز معقل الایرانیین وكان یتولى حراستها هجیر قالت أخت هجیر لسهراب تسخر منه ان التورانیین لا ینبغی لهم أن یطمعوا فی الزواج من الایرانیین . تريد بذلك أن التورانیین أقل شأناً منهم . وتوجه له حديثها أيضاً فتقول لسهراب انه لا یبدو من نسل التورانیین لما یظهر علیه من البهاء والروعة . كأنها بذلك تعنی أن التورانیین لا یتصفون بهذه الصفات . والحقیقة كان سهراب خلیطاً من الدم التورانی والایرانی

(۱) شاهنامه : ۶۹۷/۳

فهو ابن رستم البطل الايراني من ابنه ملك سمنجان التوراني . ولعل ما يجري في عروقه من الدماء الايرانية هي التي ألقت على مظهره هذه الروعة والجلال وعندهما ذكر كيكاوس افراسياب نعته بأنه من طبنة أخرى غير طبنة البشر وأن الله سواه خلقاً آخر (١) .

وعندهما تقدم ييلسم لقتال رستم صاح بالايرائين : أين رستم الذي تزعمون فرد عليه كيو : ان رستم يرفع عن مبارزة تركي مثاك (٢)

وفي موضع آخر تصف الشاهنامه التورانيين بالخداع (٣)

وترى الشاهنامه ان الخبيث أصيل في طباع التورانيين وأنهم ورثوا هذا الخبيث من جدتهم نور (٤) .

ومع كل هذه العداوة التي تنضج بها الشاهنامه نحو الأتراك فإن السلطان محموداً لم يضيق صدره بها . وأما ما يتهم به من التقدير على الشاعر في المكافأة فلم يكن هو في الحقيقة مسئولاً عنه ، فقد كال أعداء الفردوسي له الاتهامات عند السلطان ، وحرصوه عليه ، وهم الذين نقصوا من قيمة المكافأة بعد أن استشارهم في المبلغ الذي يقده له (٥) . ومن الحق أن نقول إن السلطان كان كريماً معه متسامحاً . ولو أنه حاسبه على ما ورد في الشاهنامه من العداوة للأتراك وإثارة الفتن بين العنصر الايراني والتركي . وتحقير الجنس التركي نقول إنه لو حاسبه على كل هذا حساباً عسيراً يودي به إلى التهلكة لكان معذوراً فيما يفعل . وكان الملوك والسلاطين فيما مضى يأمرن بالقتل لجرائم أقل من هذه بل لحفوة صغيرة أو لجرد وشاية ليس لها أصل من الحقيقة .

(١) شاهنامه : ٥٥٦/٣

(٢) شاهنامه : ٦٩٧/٣

(٣) شاهنامه : ١٢٩٩/٥

(٤) شاهنامه : ١٣١٩/٥

(٥) جهار مقالة : المقالة الثانية ، الحكاية الخامسة

هاجر الأتراك من موطنهم الأصلية في شرق آسيا وشمالها (١) هجرات كثيرة إلى غربها . وليس من السهل احصاء هذه الهجرات لكثرتها . ولكن من الممكن أن نميز بين تلك الهجرات الكثيرة هجرتين كبيرتين يفصل بينهما في الزمان ما يقرب من قرنين . اتجهت الهجرة الأولى إلى غرب آسيا بينما اتجهت الثانية إلى جنوب آسيا . أما الهجرة الأولى فهي هجرة السلاجقة الذين اتجهوا إلى أقصى الغرب من قارة آسيا وكونوا ما يعرف الآن بالأتراك الغربيين . ومن هؤلاء الأتراك الغربيين جاء فيما بعد العثمانيون الذين قضوا على الامبراطورية البيزنطية .

أما الهجرة الكبرى الثانية فكانت هجرة المغول

وسكان السلاجقة في أول أمرهم رعاة لم يتبع موطنهم الأصلي في تركستان لحم بسبب قلة المرعى وازدحام البلاد فأتروا أن يهاجروا غرباً إلى بلاد ما وراء النهر .

ويقال من بين أسباب هجرة هؤلاء السلاجقة أن امرأة ملك الترك خافت على زوجها من سلجوق لما رأت من قوة شخصيته وازدياد نفوذه بين عشيرته ، وأوعزت إليه أن يتخلص منه ويقتله . وعندما بلغ سلجوق هذا الخبر جمع عشيرته ورحل معها إلى الغرب . وعندما حلوا فيها وراء

(١) يمكن أن نقسم الجنس التركي بصفة عامة إلى ثلاثة أقسام :

(أ) القسم الأول هو الأتراك الشماليون ويشمل القبائل التي تعيش في سيبيريا أمثال قبائل ياقوت وغيرها .

(ب) القسم الثاني ، القبائل الشرقية ويشمل تلك القبائل التي تعيش في تركستان الصينية والأوزبك وإلى هؤلاء ينسب تنار القرم والغولجا .

(ج) القسم الثالث : هو الأتراك الغربيون ويشمل هذا القسم الأتراك المنيين والآذر ييجايته في فارس ، وقبائل التركمان .

النهر كانوا يشتون في نور احدى ضواحي بخارى ، يصيغون في الصغد بالقرب من شمرقند (١) .

وينسب هؤلاء السلاجقة إلى زعيمهم سلجوق (٢) .

وعندما بلغوا ما وراء النهر أرادوا أن يتجهوا بعد ذلك إلى خراسان التي كانت خاضعة للسلطان محمود الغزنوي ، فكان عليهم أن يحصلوا على اذن من السلطان بالإقامة في ممتلكاته . ويروي الكرديزي كيف سمح لهم السلطان بذلك ، فقد أرسلوا اليه وفدًا من رؤسائهم وقوادهم يتضرعون اليه أن ينقذهم مما حاق بهم في بلادهم من الظلم والأذى . وأردفوا بعد ذلك بغرونه كي يسمح لهم بالإقامة في خراسان فذكروا أنهم أربعة آلاف أسرة فاذا سمح لهم السلطان بعبور النهر ليقيموا في خراسان فسيجد منهم خيراً كثيراً وعوناً عظيماً إذ ينضمون إلى جنده ويقاثلون تحت رايته . وقد رق قلب محمود لهم وطيب خاطرهم وسمح لهم بعبور النهر . ولم يكن محمود بعيد النظر فيما فعل . وكان أمير طوس أبو الحارث أرسلان الجاذب أبعد منه نظراً فقد رأى أن ما فعله السلطان كان خطأ . ولهذا اقترح عليه أن بكل السلطان أمرهم اليه حتى يبيدهم أو يقلم أظفارهم على أقل تقدير فلا يخشى بأسهم بعد ذلك . ولكن السلطان محمود استنكر هذا الاقتراح الذي يدل على قسوة القلب ولم يوافق عليه ، فحذره أمير طوس وخوفه من سوء العاقبة (٣) . وقد أثبتت الأيام فيما بعد صدق فراسة هذا الأمير وحسن تقديره للأمور لأن القضاء على دولة الغزنبيين بعد ذلك تم على أيدي هؤلاء السلاجقة .

ويصف لنا البيهقي بالتفصيل الحرب التي دارت بين السلطان مسعود

(١) الراوندي : راحة الصنور ، الترجمة العربية لابراهيم الشوازي ، عبد النعيم حسنين ،

نواد الصياد ص ١٤٥

(٢) يذكر بارتولد ان سلجوق في أصلها ليست اسم علم ولكنها تحريف كلمة سوباشي بمعنى قائد الجيش ص ١٠٠ من تاريخ الترك في آسيا الوسطى .

(٣) تاريخ كرديزي : ص ٦٧ طهران

الغزنى والسلاجقة فى مرو (دندانقان) حيث انتصر السلاجقة وقضوا بذلك على الدولة الغزنوية . ويذكر البيهقى أن السلطان مسعوداً كان قد رتب خطته على أن يطوق السلاجقة وأن يقطع عليهم خط الرجعة . ولكن مسعوداً ، كما يبدو من رواية البيهقى ، لم يقدر المسئولية الملقاة على عاتقه فى هذه الحرب حق قدرها لأنه نام بعد العشاء نوماً عميقاً وهو على قبله . ولم يجرؤ القبالة على الإمراع بالقبيلة خوفاً من إيقاظ السلطان وحرصاً على راحته . وظل السلطان يغط فى نومه حتى الفجر فتأخر بجيشه عن اللحاق بالسلاجقة لحصارهم وتطويرهم . وكانت هذه فرصة عظيمة لطغرل الذى كان قد أدرك خطة السلطان . وكان عامل الوقت شديد الأهمية والخطورة بالنسبة للسلاجقة فأمرعوا بالهروب لينجوا من التطويق . وكانوا فى هروبهم يضطرون إلى التخفف من أحاسنهم وأمتعتهم توخياً للسرعة وطلباً للنجاة . وعندما وصل السلطان بجيشه وجدهم قد رحلوا وفشلت بذلك الخطة التى رتبها نتيجة لتأخره عن اللحاق بهم بسبب غلبة النوم عليه . وقد اشتد به الغضب وقتذاك وألقى اللوم على رجاله .

وعلم السلطان بعد ذلك أن السلاجقة بلغوا باورد فجند فى أثرهم ولكنه بعد رحلة شاقة لم يظفر بهم لأنهم كانوا قد رحلوا عنها قبل وصوله . ولو أن السلطان تابع سيره لكان من الممكن أن يلحق بهم ولكنه تعطل فترة فى باورد . وكان هذا الوقت الضائع فى باورد سبباً فى تمكين السلاجقة من الفرار وتعويق السلطان مسعود عن اللحاق بهم . ويتابع البيهقى وصف هذه المطاردة المثيرة بين جيش السلطان مسعود وجيش السلاجقة بقيادة طغرل فيذكر أن الأعداء كانوا فى خلال هذه المطاردة فى غاية من الفرع وشدة من الجهد والتعب حتى إن طغرل كان ينام وهو فى كامل عدته ولباسه . ولكن السلطان كما أشرنا من قبل لم يكن يقدر أهمية عامل الزمن فى التعجيل بالقضاء على أعدائه . والدليل على هذا أنه لم يكن يواصل مطاردة العدو المنهك المذخور بل كان يتلبث فى كل بلدة يصل إليها . ففى نسا مثلاً

أقام بضعة أيام يشرب ويستمتع بجمال تلك الناحية (١) . ثم اتجه بعد ذلك عن طريق باورد واستوا إلى نيشابور حيث استقبله هناك قضاتها وعلمائها وفقهاؤها . ولم تكن نيشابور في هذه المرة كما عهدنا من قبل فقد عمها الخراب واشتد فيها الغلاء حتى عز القوت وهلك الناس . ومن أمثلة استهتاره بحظيرة المهمة ، وإضاعة الوقت ، ما كان من احتفاله في مدينة نيشابور بعيد النوروز يوم الخميس الثامن عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٤٣١ هـ (٢) . ومن نيشابور اتجه السلطان إلى طوس ونزل في الصحراء على مفترق طرق سرخس ونسا وباورد واستوا ونيشابور . وفي نفس هذا الوقت كان الأعداء يتحركون . وسار السلطان متجهاً إلى سرخس حتى إذا بلغها ألفاها خراباً ولم يجد بها مظهراً من مظاهر الحياة فلا ماء ولا زرع ولا سكان . وضاعت الحال بالسلطان فنصحته رجاله بالذهاب إلى هراة حيث يتوفر العلف ثم يقصدون بعد ذلك إلى العدو . ولكن السلطان الذي كثر تهاونه فيما سبق لم يقبل النصيح وأصر على الذهاب إلى مرو حيث يقم العدو لأنه رغب في أن يعجل بقتاله ليتفرغ نهائياً من أمره . وتظاهر رجاله بقبول الفكرة ولكنهم رأوا أن يرسلوا إليه الرسل مرة أخرى لعله يعدل ، ولكن السلطان سب الرسل وأهانهم وصمم على موقفه . وكان يهتم قادته وروساء جيشه بالخور والضعف أمام السلاجقة . وكان الطريق إلى مرو محفوفاً بالمخاطر بسبب القحط وجفاف الأرض ، ومع ذلك فقد جاءهم أمر صريح من السلطان بعد صلاة العصر بالاستعداد للسير في اليوم التالي إلى مرو . وجاء اليوم التالي وكان الثاني من رمضان فتحرك الجيش في طريق مرو . ولكن أسباب الهزيمة كانت قد تجمعت على الجيش من أول الأمر ، فالجوع قاتل ، والأرض مجدبة لأماء ولا رزق ، والجنود مرهقون بسبب الصوم ، والدواب هزيلة من الجوع . وكان الجند يتوقعون أن يعود السلطان من حيث أتى عندما يرى جيشه على هذه الحالة السيئة . ولكنه

(١) تاريخ بيهقي : ص ٦٠٧ نشر غني و فياض ط تهران

(٢) نفس المصدر : ص ٦١١

ركب رأسه واستمر في سيره . وعندما تلاقى الجيشان في يوم الخميس الثامن من رمضان كان اليأس قد غلب على جيش السلطان . وفي المناوشات التي دارت بين الجيش أدرك السلاجقة مدى الضعف واليأس الذي يعانيه جيش السلطان فازدادوا جرأة وإقداماً بينما كان جيش مسعود يزداد تخاذلاً ويأساً وعزوفاً عن القتال . ومع أن السلطان دحهم على العدو بشدة وقوة إلا أنه لم يجد عوناً من جنده الذين انفضوا على أنفه ولم يكن لهم من هم سوى طلب النجاة . هذا بالإضافة إلى أن غلمان السلطان خانوه في القتال ورأوا من الأصابع لهم أن ينضموا إلى صفوف أعدائه . وعند حصن دقان كان نظام الجيش كله قد اضطرب واختل وانفكس لأعداء عليه من كل جانب يقتلون وينهبون . تفرقت الخزيمة في النهاية بالسلطان وغنم السلاجقة في تلك الحرب غنائم طائلة (١) .

وبعد هذه الخزيمة سقطت خراسان كلها في أيدي السلاجقة وبدأ شأن الغزنين في الأفول .

وبعد أن استطاع طغرل بك القضاء على ممتلكات الدولة الغزنوية في الجانب الغربي من النهر (خراسان) وطردهم منه إلى ممتلكاتهم في الشرق، همه القضاء على أسرة إيرانية كانت تسيطر على أجزاء كبيرة من بلاد إيران هي أسرة البويهيين (٢) . وبمقوطة هزلاء البويهيين خلصت جميع الأراضي الإيرانية للأتراك السلاجقة .

وبالغ الراوندى في وصف طغرل بك وصفاً عبقرياً وشاملاً تأريخه وحرصه على الدين .

وقد فعل طغرل عقب استيلائه على السلطنة ذلك الإجراء التقليدي

(١) تاريخ يهقي : ص ٦٠٢ نشر غنى وفياض والترجمة العربية للشهاب ونشرت ص ٦٦٣
(٢) بعض المؤرخين ينسبون البويهيين إلى أصل ديكى . وقد قسم البويهيون نيم فارس والعراق فيما بينهم ، كما تولوا الحكم في مناطق أخرى من إيران مثل كرمان ورمز واهمان وأصفهان .

الذى كان يفعله رؤساء تلك الدول الإسلامية من إظهار الخضوع للخليفة بغداد باعتباره رمز السلطة الدينية في العالم الإسلامي كله .

وبينا كان طغرل بك يقضى على دولة البويهيين ويستولى على ممتلكاتهم توفي الخليفة القادر بالله سنة ٤٢٢ هـ وبويع بعده ابنه الخليفة القائم بأمر الله . وكان طبيعياً أن يستنجد الخليفة القائم بطغرل بك لانقاذه من شر البساسيري الذى كان قد استولى على السلطة في بغداد . وظل طغرل بك يلاحقه حتى قتله .

وقد قسم السلاجقة بلاد إيران فيما بينهم فنال جفرى بك ، أكبر الأخوة إقليم خراسان وجعل من مرو عاصمة له . وخص «موسى كلان» ولاية بست وهراة وسجستان . وتولى قاورد أكبر أبناء جفرى بك أمر الطبيين وكرمان . أما طغرل بك نفسه فقد جعل عاصمته في الري .

وأدى طغرل بك للخليفة العباسي خدمات كبرى إذ خلصه من شر البويهيين الذين استبدوا بالأمر وجعلوا الخليفة لعبة في أيديهم كما خلصه أيضاً من شر البساسيري وقضى على فتنته . ولم يكن ذلك كله بلا مقابل فقد انتقلت السلطة في العالم الإسلامي إلى السلاجقة ولم تعد إلى الخليفة .

وعندما توفي طغرل بك لم يكن له وريث ذكر يرث السلطنة من بعده فتولاها ابن أخيه جفرى بك وهو ألب أرسلان . وهكذا في سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م أصبح ألب أرسلان سلطاناً على دولة تمتد من نهر جيحون حتى الفرات ومن بحر الخزر حتى الخليج الفارسي . و كان وزيره نظام الملك عالماً من أعلام السياسة بالشرق ، وله دور كبير في توجيه سياسة الدولة السلجوقية . وقد وزر لألب أرسلان وللكشاه من بعده . وظل يباشر مهام الوزارة ثلاثين عاماً .

ونظام الملك إيراني الأصل ولد في طوس سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ونال من التعليم قدراً كبيراً جعله أهلاً لتوجيه سياسة تلك الدولة العظيمة . ومع أنه إيراني إلا أنه أخلص في خدمة الدولة السلجوقية التركية . وكان

هو الآخر سنى المذهب وعدواً للدودا للشيعة والاسماعيلية منهم بوجه خاص .
ويبدو من هذا أن نظام الملك لم يكن يشعر بقوميته الإيرانية . ولا تعليل
لذلك عندنا إلا استغراقه في الناحية الدينية استغراقاً وجه كل حماسه وحمته
لخدمة الدين الإسلامى الذى يجمع بين المسلمين على اختلاف أوطانهم
وقومياتهم . فكانت الرابطة الدينية عنده تغلب على النزعة القومية على عكس
ما رأيناه عند النردوسى مثلاً . وبسبب هذه النزعة الدينية الغالبة عليه
يمكن أن نفهم إخلاصه للأتراك السلاجقة الذين قاموا هم أيضاً بدور كبير
فى خدمة الإسلام ، كما يمكن أن نفهم سر عداوته للملحدين والكفار
وأصحاب البدع الذين يريدون حدم الإسلام وحدم الدولة الإسلامية .

وأعتقد أن موقف نظام الملك الإيرانى من تدعيم أركان الدولة السلجوقية
التركية واهتمامه بأمر الدين وحده وإهماله النزعة القومية قد ضايق العنصر
الإيرانى ودفعه إلى التخلص منه . وفى رأى أن تقتل نظام الملك كان مظهر
لسخط العنصر الإيرانى على الأتراك الذين كانوا يحتلون بلاده وعلى الذين
عاونوهم على هذا الاحتلال ووطدوا لهم الحكم مثل نظام الملك . ولما كان
الشعب الإيرانى فى ذلك الوقت عاجزاً عن الانتقام الإيجابى المباشر من هؤلاء
الأتراك أو قتالهم وطردهم من البلاد لضعفه فقد لجأ إلى هذه الطريقة السلبية
للتخلص من أعوانهم .

فالإيرانيون عامة كرهوا هذا الحكم التركى باعتباره حكماً دخيلاً
يقوم على الاحتلال والمارقون منهم بصفة خاصة عن دين الإسلام كرهوا
أيضاً هذا الحكم التركى الذى يوطد أركان الإسلام فى البلاد . وسعى
الفرقيان ، الوطنيون والمارقون عن الدين ، للتخلص من هذا الحكم
وأصبحت بذلك الدولة السلجوقية الحاكمة هدفاً يراد تفويضه من الناحيتين
السياسية القومية والدينية . وأصبح نظام الملك هو الآخر عدواً لدوداً
للفريقين .

ومما يؤيد رأينا فى أن قتل نظام الملك كان مظهراً من مظاهر الصراع

القوى الدينية بين الأتراك الحاكمين والإيرانيين المغلوبين على أمرهم
ما يأتي :

١ - إن قاتل نظام الملك كان إيرانياً متحمساً ضلته طائفة الإسماعيلية
ودفعته إلى ارتكاب هذه الجريمة .

٢ - بين نظام الملك والإسماعيلية عداوة سافرة فهو سني وهم شيعة
وكان نظام الملك يكردهم ويضيق عليهم ويتهمهم بالمروق عن الدين .
والإسماعيلية باعتبارهم شيعة يشارون إلى الترس . ونظام الملك لا يؤمن بالزعة
القميصة الفارسية ويعدى الشيعة . وليس هناك ما يمنع من وجهة نظر هؤلاء
الشيعة التزمين من أن يعملوا على التخلص من هذا الرجل الذي يدير
شئون الدولة ويوقف عقبة في سبيل زيادة العنصر الإيراني والمذهب الشيعي .

وقد ظهر هؤلاء الإسماعيلية عندما تأسست الدولة الفاطمية . وكان
هؤلاء الفاطميون يشارون إليهم من الأيالة فاطمة رضي الله عنها بنت رسول
الله صلى الله عليه وسلم . وهذا القسب لم يسلم من الطعن في صحته . وقد أعلن
خصوص هؤلاء الفاطميين أنهم من ذرية الملقب الفارسي «عبد الله بن ميمون
القديح» . وإذا صح هذا القسب فعنه أن الفاطميين من سلالة الترس .
ومن هنا فهم لماذا كان يحرص هؤلاء الفاطميون أو الإسماعيلية على القضاء
على نظام الملك . صحيح أن نظام الملك قد لا يكون مقصوداً لذاته ولكن الواضح
أنه كان ركن هذه الدولة التركية وقد يكون في القضاء عليه زعزعة لذيانها .

٣ - كان نظام الملك يقاوم الدعوات الخدامة التي بدأت تنتشر في
بلاد . وكان يعتبر دعوة هؤلاء الإسماعيلية أو الحشاشين من تلك الدعوات
التي يجب القضاء عليها . وكان اهتمام الدولة الفاطمية بنشر دعوتها في البلاد
الإسلامية - وخاصة في إيران - دليلاً على رغبتها في تقويض الاتجاه
المذهبي السائد في إيران أيام السلاجقة ثم تقويض النظام كله فيما بعد بالقضاء
على الحكم التركي وإحلال الحكم الإيراني محله . ولم يخف على الفاطميين
خطورة نظام الملك على اتجاهاتهم المذهبية والسياسية . وكان الرجل يقاومهم

بكل سلاح إيماناً منه بأنهم يفسدون في الدين والأرض . وعلى العموم
كان يشكل خطراً كبيراً عليهم .

وفي «سياسة نامه» فصول كثيرة يهاجم فيها نظام الملك هؤلاء المسلمين .
ففي الفصل الثالث والأربعين يكشف أحوال هؤلاء المسلمين الذين هم
أعداء الملك والاسلام (١) . ويصنّفهم بأنهم كالكتلاب التي تخرج من مخابها
إذا عرض للدولة عارض من الضعف . وهم يخرجون على الدولة في ذلك
الوقت . ويدعون التشيع وترداد قوتهم . وهم لا يتركرون وسيلة من وسائل
الإفساد إلا اتبعوها من قتل القليل والقتل وإحداث البدع . وهم يدعون
الإسلام بالقول وينهولون أنجال الكفار . وباطلهم بخلاف ظاهريهم . وقولهم
بخلاف عملهم . وليس هناك عذر أخير لهم ولا أساس منهم على دين محمد
المصطفى صلى الله عليه وسلم . ويذكر نظام الملك أن يرغب في هذا الفصل
من كتابه أن يبين للسلطان كم خرجوا على الدولة وكم ستمكوا وكم أفسدوا
واكنه لن يستطيع أن يعمل ذلك بالتفصيل . ولهذا غلب بكفى بالتفصيل منه
حتى يعلم السلطان أسره من بدايته إلى نهايته .

ويرد نظام الملك أصول هذه الدعوات المأداة إلى المذاهب الإيرانية
التقدمية كذهب مزدك . ويعقد فصلاً خاصاً عن خروج مزدك ويشرح
مذهبه وكيف كان يقتله على يد أنوشيروان النادل . وغرضه من سرد
قصة مزدك وشرح مذهبه أن يعلم الناس والسلطان الأصول الخبيثة التي
تنطوى عليها دعوتهم حتى يتعظ بها العقلاء ويتذكروها (٢) .

وفي الفصل الخامس والأربعين يتحدث نظام الملك عن خروج سبباد كبير
على المسلمين من نيشابور إلى الري وفتنته (٣) .

(١) سياسة نامه : ص ١٦٤ ط شيفر .

(٢) نفس المصدر : ص ١٦٦

(٣) نفس المصدر : ص ١٨٢

وفي الفصل السادس والأربعين يتحدث نظام الملك عن خروج الباطنية في خراسان وما وراء النهر (١) .

وفي الفصل السابع والأربعين يتعرض نظام الملك لخروج الباطنية في خراسان وما وراء النهر (٢) . ويختتم هذا الفصل بالإشارة إلى أن هؤلاء الباطنية ومن شاكلهم من الحرمة كانوا يسعون إلى القضاء على الإسلام . ويذكر أن هؤلاء الملحدون كانوا يتظاهرون بمحبة آل الرسول عليه السلام حتى يصيدوا الناس ويجذبوهم إلى مبادئهم الهدامة فإذا قوى أمرهم وطوؤوا الناس تحت جناحهم بذلوا جهدهم حتى يقضوا على الشريعة فهم في الحقيقة أعداء آل الرسول ، وليس عندهم رحمة على أحد وليس هناك قوم من الكافرين أقسى قلباً منهم .

ومن قراءة هذه التمسول يتضح أن نظام الملك كان يتهم هؤلاء الإسماعيلية صراحة بالكفر والمروق عن الدين وإفساد الناس والمجتمع وأنهم إنما كانوا يدعون التشيع ليتقربوا به إلى الناس ويضمروهم إلى صفوفهم بينما هم في الحقيقة يخفون مذاهب خبيثة ترجع في أصولها إلى تلك المذاهب الهدامة التي عرفها المجتمع الإيراني قبل الإسلام وبعده كالزردكية والحرمية والباطنية وغيرها .

وفما كتبه نظام الملك ما يدل على أنه فهم هؤلاء القوم على حقيقةهم وكشف ألاعيبهم أمام الناس والباطان . وكان هذا في نظر هؤلاء الإسماعيلية سبباً كافياً للقضاء عليه والخلص منه .

٤ — كان الحسن بن الصباح الإيراني أحد دعاة الإسماعيلية البارزين . وقد رحل من إيران سراً إلى مصر حيث اتصل بالخليفة الفاطمي المستنصر بالله الذي كثره بنشر الدعوة في إيران . وبدأ الحسن أولاً بعمل وفق المخطط المرسوم له من قبل الفاطميين في مصر حتى إذا قوى أمره في إيران ومات

(١) نفس المصدر : ص ١٨٣

(٢) نفس المصدر : ص ١٨٧

الخليفة المستنصر انفصل عن مركز الدعوة في مصر وبدأ يعمل لحسابه الخاص . ووضح عند ذلك أن المسألة لم تكن مجرد خلاف مذهبي بين السنة والشيعة ولكنها كانت مسألة سياسية أبعد من هذا .

هـ - يشير براون في حديثه عن مذهب الإسماعيلية إلى أنهم يهتمون بالعدد سبعة (١) ، فهناك مثلاً سبع فترات يأتي في كل فترة منها نبي . وكل نبي من هؤلاء الأنبياء السبعة يعقبه سبعة أئمة . وكان على رأس الفترة السادسة النبي محمد عليه الصلاة والسلام . أما الفترة السابعة فتبدأ بالامام السابع إسماعيل . ويتألف الكون عندهم من مراتب الوجود السبع . وفي نظرهم أن المرید لا يستطيع أن يصل إلى كنه مذهبهم قبل أن يمر بالمقامات السبعة .

ويذكر براون أن الداعي كان يجذب اهتمام العضو الجديد بمجموعة من الأمثلة تقوم على العدد سبعة كأن يسأله مثلاً لماذا خلق الله الكون في سبعة أيام ، ولماذا جعل السموات سبعاً ، والأرضين سبعاً ، والبحار سبعة . ولماذا جعل الله فاتحة الكتاب تتألف من سبع آيات ، ولماذا خلق الله العمود الفقري في الإنسان من فقرات سبع في العنق . واثنى عشرة في الظهر (يشيرون بذلك إلى أن الفقرات السبع في العنق كناية عن الأئمة السبعة الذين يأتون على رأس كل فترة من الفترات كما سبق ، ويساعدونهم النقباء وعددهم اثنا عشر) (٢) .

واهتمام الإسماعيلية بالعدد سبعة يمثل اهتمام الإيرانيين القدماء به . صحيح أن المسلمين يهتمون أيضاً بهذا العدد ولكنه كان معروفاً قبل هذا في المجتمع الإيراني القديم . ومن هنا يسهل أن نستنتج أن اهتمام الإسماعيلية بالعدد سبعة كان إحياءاً لعادة إيرانية قديمة .

Browne : A Literary History of Persia p. 197 vol. II (١)

والترجمة العربية للشواذبي ص ٢٤٣

(٢) نفس المصدر ص ١٩٨ والترجمة العربية ص ٢٤٤

٦ - فإذا انتقلنا إلى داعية إسماعيلي آخر هو ناصر خسرو وجدنا في تاريخه ودعوته ما يؤيد كل ما أشرنا إليه .

ولد ناصر خسرو في ضواحي بلخ وعاش جانباً من حياته في عهد الدولة الغزنوية ثم عاصر الدولة السلجوقية واشتغل مدة كاتباً للديوان السلجوقي ، وقام ناصر خسرو بعدد من الرحلات وزار بلاداً كثيرة من بينها مصر حيث انتهى بأستاذة المذهب الإسماعيلي فلقنوه أصول هذا المذهب ، فلما عاد بعد ذلك إلى بلخ أخذ يثبث هذه الدعوة الإسماعيلية هناك فلقى مقاومة شديدة من الدولة السلجوقية اضطرتته إلى اللجوء والاختفاء . وكانت عقيدته موضع تجريح وطمع . ولا جدال في أن هذا التجريح والطمع كان لهما ما بهرهما من آراء ناصر خسرو نفسه ومن بعض أشعاره الإلحادية . وفضلاً عن هذا فإنه كان من المؤمنين بمذهب الأويل . وكتبه المختلفة مثل «زاد المسافرين» و «وجه دين» تنضح بتأييد عقائد الباطنيين . وهي عقائد تقوم على التزيغ وإلهاد الدين . كما أن الشاعر يبالغ في الثناء على علي وشيعته والأئمة الزايطيين وعلى رأسهم الخليفة المستنصر كما يثني على سلمان الفارسي والمختار .

وظاهر من هذا أن ناصر خسرو كان إيرانياً متعصباً . ولاشك في أن من كان مثله على هذه الدرجة من التعصب القومي يميل إلى الدعوات التي أهدافه القومية وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف لم يجد مانعاً من تكذب طريق الدين الصحيح .

ولم يكن نظام الملك متجنباً على هؤلاء . فهناك من معاصري هذه الأحداث عبد القاهر البغدادى المتوفى ٤٢٩ هـ صاحب الفرق بين الفرق . وهو يحدثنا في مؤلفه هذا عن أن «ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس» (١) . ويذكر «البغدادى في موضع آخر أن أصحاب التواريخ يقررون «أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية

(١) عبد القاهر البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٨٢

كانوا من أولاد الخوس وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم ولم يجسروا على إظهاره خوفاً من سيوف المسلمين ، فوضع الأنصار منهم أسماً من قبلها منهم صار في الباطن إلى تفضيل أديان الخوس وتأولوا آيات القرآن وسنن النبي عليه السلام على موافقة أسسهم » (١) ويذكر في موضع ثالث أن أكثر المتكلمين في بيان أغراض الباطنية قد ذهبوا إلى «أن أغراض الباطنية الدعوة إلى دين الخوس بالتأويلات التي يتأولون عليها القرآن والسنة واستدلوا على ذلك بأن زعيمهم الأول ميمون بن ديصان كان مجوسياً من سبي الأهواز ودعا ابنه عبد الله بن ميمون الناس إلى دين أبيه » (٢) ويضرب أمثلة لتأويلاتهم كل ركن من أركان الشريعة تأويلاً يورث تضاملاً حين يزعمون أن معنى الصلاة والوالة إمامهم ، والحج زيارته وإدمان خدمته ، والمراد بالصوم الإمساك عن إفشاء سر الإمام دون الإمساك عن الطعام .. الخ (٣) .

وبأى أبو حامد الغزالي - وهو الآخر من معاصري هذه الأحداث - المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ فيكشف كثيراً من أساليب هؤلاء الباطنية في رسالته «فضائح الباطنية» .

يتحدث الغزالي عن بيان الباعث للباطنية على نصب هذه الدعوة وإفادته هذه البدعة فيقول إن الذين يدعون هذه الدعوة الباطنية لا ينتسبون إلى ملة وإن غاية هذه الدعوة «الانسلال من الدين كالانسلال الشعرة من العجين» ، وإن القائلين بأمرها طائفة من الخوس والمزدكية وشرذمة من الثنوية للمحدثين (٤)

وفي موضع آخر يذكر الغزالي أن من حيل هؤلاء الباطنية لاستدراج الناس حيلة التشكيك . وتقوم هذه الحيلة على تشكيك الناس في دينهم ، وإثارة الأسئلة المحيرة في شئون الدين ليتزعزع إيمانهم ومعتقدهم . ومن أمثلة ما يفعلونه في هذا الباب - باب التشكيك - أن يسأل الداعي مثلاً ما بال

(١) نفس المصدر ص ٢٨٥

(٢) نفس المصدر ص ٢٩٣

(٣) نفس المصدر .

(٤) فضائح الباطنية : ص ١٨ نشر وزارة الثقافة

الحائض تقضى الصوم دون الصلاة؟ ما بال الاغتسال يجب من المتنجس الطاهر ولا يجب من البول النجس؟ ما بال أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة؟ .. الخ هذه الأسئلة المحيضة . ويقول الغزالي «ولا يزال يورد عليه هذا الجنس حتى يشككه» (١) .

وفي موضع ثالث يبين الغزالي السبب في رواج حيلة هؤلاء الباطنية وانتشار دعوتهم مع ركائكة حجّتهم وفساد طريقتهم (٢) فيقول إن الذين يستجيبون لهؤلاء الباطنية ثمانية أصناف :

الصنف الأول : طائفة ضعاف العقول

الصنف الثاني : طائفة الموتورين الذين جاء الإسلام فقضى على أمجادهم القديمة فزال عنهم المجد وزالت عنهم الدولة كأبناء الأكاسرة والدهاقين وأولاد الجحوس . فهؤلاء موتورون اشتعلت نيران الحقد في قلوبهم فهم يشهزون كل فرصة ويتبعون كل وسيلة للانتقام وطلب الثأر .

الصنف الثالث : طائفة الطموحين الذين يتطلعون إلى المجد والاستعلاء فهؤلاء يسارعون إلى اعتناق كل مذهب إذا وعدوا بتحقيق آمالهم .

الصنف الرابع : طائفة الذين يحبون أن يتميزوا على سائر الناس فيتبعون الضلالات ويروجون الأمور التي تخالف ما عليه آراء الناس ليعرف اسمهم وينشر ذكركم .

الصنف الخامس : طائفة الذين يملكون طريق النظر وإعمال الفكر ولكنهم لم يصلوا بعد إلى مرحلة النضج والاستقلال في الرأي .

الصنف السادس : طائفة نشأت بين الشيعة والروافض فهم يعتقدون بحكم نشأتهم ما يعتقدونه هؤلاء .

(١) نفس المصدر : ص ٢٦

(٢) نفس المصدر : ص ٣٣

الصنف السابع : طائفة الملحميين من الفلاسفة والشعراء والمتحجرة .

الصنف الثامن : طائفة المنحليين وأرباب الشهوات . وهؤلاء يشغلون عليهم القيام بالترويض والتكاليف ، ولذلك فهم يروجون للباطنية وغيرها من المذاهب الهدامة التي ترفع عنهم التكاليف وتعفيهم من أداء القروض وتيسر لهم سبيل الشهوة واللذة .

وهناك مؤلف ثالث جاء بعد البغدادي والغزالي هو الشهرستاني صاحب الملل والنحل المتوفى ٨٥٤٨ . وهو يتحدث عنهم بما لا يخرج عما ذكرنا . ويذكر أن أشهر ألقاب هؤلاء الإسماعيلية هو الباطنية . ويشرح سبب ذلك فيقول « إنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطلاً ولكل تنزيل تأويله (١) كما أنهم يسمون بالعراق الباطنية والقرامطة والمزدكية وبخراسان العلوية والملحدة . وهذا يبين بوضوح الأصول التي يستند إليها هؤلاء الإسماعيلية أو الباطنية في دعاوهم . وهي أصول تخرج بصاحبها عن الإسلام وترده إلى المعتقدات الخوسية القديمة .

وجاء بعد ألب أرسلان السلطان ملكشاه . وكان لهذا السلطان أعمال - حربية مجيدة . وأكن إصلاحاته في ميدان السلم فاقها . وقد قضى السنوات الخمس الأولى من حكمه في حروب ثم دانت له البلاد ففرض ما بقي من حكمه وهو خمسة عشر عاماً في الإصلاح ورعاية العلوم والآداب مما جعل عهده من أزهى العهود في تاريخ العالم الإسلامي . بنى ملكشاه في سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م المرصد الذي كان يشغل فيه العالم الفلكي والشاعر المعروف عمر الخيام . وانتهت نتيجة أبحاثه الفلكية إلى وضع التقويم المعروف بالتقويم الجلالى . وعرف عن ملكشاه أنه كان سلطاناً عادلاً أسبغ عدله وحايته على جميع رعاياه حتى لم يبق في عهده مظلوم واحد . ويقول الراوندى إن أصحاب الظلمات كانوا يتقدمون بظلاماتهم إلى الملك نفسه (٢) .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ١/١٩٢ تحقيق سيد كيلاني ١٩٦١

(٢) راحة الصدور : الترجمة العربية ص ٢٠٥

واتخذ ملكشاه أصفهان عاصمة للملك . ونشطت في عهده حركة البناء والتعمير . كما أنه أنشأ كثيراً من الحدائق أمثال (باغ كاران) و (بيت الماء) و (باغ أحمد سياه) و (باغ دشت كور) وغيرها (١) .

ولم يكن في تاريخ ملكشاه ما يعاب سوى غدره بوزيره المخلص الأمين نظام الملك الذي عزله بناء على وشايات كاذبة ، ثم لقي مصرعه بعد وقت قصير من عزله . ولم يعيش ملكشاه بعد نظام الملك سوى شهر واحد وتوفي في سن الثامنة والثلاثين . وفي هذا المعنى يقول الشاعر المعزى ما معناه : « في شهر واحد صعد إلى الفردوس الوزير الشيخ ، ولحقه في الشهر التالي الملك الشاب . فواحسرتاه على مثل ذلك الملك ومثل هذا الوزير . فانظر إلى قهر الله وتأمل عجز السلطان » (٢) .

ومن الشخصيات البارزة في عهد السلاجقة السلطان سنجر (٥١١ - ٥٥٢هـ / ١١١٧ - ١١٥٧ م) . وفي عهد هذا السلطان اتسعت رقعة الدولة اتساعاً كبيراً فامتدت من حدود كاشغر إلى أقصى بلاد النمن وديكة والطائف وهكران وعمان وأذربيجان إلى حدود الروم (٣) . وحكم هذا السلطان مدة طويلة بلغت أربعين سنة فضلاً عن عشرين سنة سابقة قضاه حاكماً على خراسان ويقول الراوندى إن خراسان في عهده أصبحت كعبة القصاد (٤) . ويصفه الراوندى وصفاً دقيقاً فيقول إنه كان ساذجاً في الصغير من الأمور ولكنه كان قوى العزيمة بعيد النظر في الجسم منها (٥) .

(١) نفس المصدر : ص ٢٠٦

(٢) رفت در يك مه بفردوس برين دستور بير

شاه برنا در بي آر رفت در ماه دكر

أى درينا آبخنان شاهى ووزيرى اينجين

قهر يزدانى به بين وصجز سلطاني نكر

(٣) راحة الصور : ص ٢٦٠

(٤) نفس المصدر والصفحة

(٥) نفس المصدر : ص ٢٥٦

وبالغ الأراوندى في الحديث عن شجاعته ومقدرته في القتال فيقول إنه منذ أن كان حاكماً على خراسان من قبل أخيه بركياروق إلى أن قضى في الملك أربعين سنة لم يتعرض قط لهزيمة (١) . ولكن الواقع يخالف هذا ، ففي سنة ٥٣٥ هـ / ١١٤٠ م انهزم السلطان سنجر أمام أئمز الذي ملك خوارزم وأعلن هناك استقلاله التام . وفي سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م لقي أشنع هزائمه على يد قبائل تركية أخرى تنحدر من نفس الأصل الذي انحدر منه السلاجقة (الأتراك الغز) وهي قبائل القراخانيين . وهنا يعيد التاريخ نفسه فإن انقراضاثنين عندما عبروا النهر في سبيل البحث عن المراعى حصلوا من سنجر على إذن بالإقامة في ممتلكاته في ختلان ، صغانيان ، نواحى بلخ تماماً كما فعل السلاجقة أنفسهم مع السلطان محمود الغزنى . ولكنهم بعد أن توطنوا في تلك الأنحاء شرعوا يشيرون المتاعب في وجه حاكم بلخ الذى شكاهم إلى السلطان وطلب إخضاعهم . وما أن سمع السلطان بهذا العصيان الذى تنشره قبائل الغزنى تلك الأنحاء حتى أسرع إلى تأديبهم ولكنه منى بالهزيمة في سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م ووقع أسيراً في أيديهم . وشرع الغز يغيرون على العاصمة أنفسهم وقتل أدهشهم ما رأوا في ضواحي مرو من المراعى الغنية والخيرات فأقبارا في شراهة يسرقون وينهبون كل ما تقع عليه عيونهم . ولم تسلم خراسان من سلبهم وتدميرهم . ونحولت بلادها خراباً . وعندما استطاع سنجر أن ينجو من الأسر هاله ما رآه في عاصمته وفي غيرها من بلاده من التخريب والدمار فمات كمدأ بعد أشهر قليلة .

وهكذا بدأت الدولة السلجوقية تلقى نهايتها على يد قوتين : قوة الأتراك الغز في الشرق ، وقوة الخوارزمشاهيين في الشمال .

ولم يهدأ الصراع بين الأتراك والإيرانيين من أتباع الإسماعيلية . فهؤلاء الإسماعيلية أو الحشاشون شرعوا ، بعد موت الخليفة النظامى المستنصر ، يعملون لحسابهم الخاص في إيران بزعامة الحسن الصباح . وبعد أن اغتالوا

(١) نفس المصدر : ص ٢٥٧

نظام الملك تابعت بعد ذلك الاغتيالات فقتل كثير من أبرز الشخصيات في ذلك العصر . وقد عدد براون أسماء بعضهم . ولم يسكت أهل السنة على هذه الجرائم التي يرتكبها الشيعة فقاموا بثارون لقتلهم ووقعت مجموعة من المذابح منها مذبحه نيشابور في سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م ومذبحه الباطنية الى أمر بها السلطان بركياروق في سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م ومذبحه مدينة آمد التي قتل فيها عدد من الباطنية بلغ سبعمائة سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ثم المذبحه الكبرى التي أمر بها السلطان سنجر سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م انتقاماً لقتل وزيره معين الملك . وكانت تهمة الباطنية إذا لحقت شخصاً من الأشخاص مبرراً كافياً لقتله . وسادت الفوضى المجتمع الإيراني في ذلك العهد . وعم الذعر بين الناس . وكثيراً ما كان يخرج الرجل من بيته فلا يضمن أن يعود اليه .

٦ - الخوارزميون .

ويقال لهم أيضاً الخوارز مشاديون وملوك خيوه (٤٧٠ - ٥٦٢٨ هـ / ١٠٧٧ - ١٢٣١ م) . ويرجعون في أصلهم إلى أحد ممالك السلطان ماكشاه الداجوق واسمه انوشكين . وهذا المملوك بدأ حياته ساقياً عند اساطان ماكشاه ثم استطاع أن يظفر بمنصب حاكم خوارزم (خيوه) . وخافه في هذا المنصب ابنه الذي لقب نفسه خوارز مشاه .

وكان أئمة أول من أظهر من هؤلاء المملوك الميل إلى الاستقلال (٥٢١ - ٥٥١ هـ / ١١٢٦ - ١١٥٦ م) . وكان أئمة مقبياً عند السلطان سنجر وكان له تأثير عليه فعبه حاكماً على خوارزم رغم أن وزراءه نصحوه ألا يفعل . وما أن وصل أئمة إلى خوارزم حتى قاد الثورة ضد مولاه سنجر الذي وج، الجيش لحربه وهزمه ، وعين مكانه في حكم خوارزم أحد أقاربه سليمان شاه دون أن يزوده بالعدد الكافي من الجنود والعتاد . وما كادت جيوش السلطان سنجر تعود حتى أخذ أئمة يجمع شمله ويضم قوته من جديد . وأراد أئمة أن يشغل سنجر بالفراخانيين في الشرق فدعاهم ليلدوا فتوجههم نحو الغرب في بلاد ما وراء النهر . وفي الوادي المعروف

باسم (درغام) لقي سنجر أشنع هزائمه ففر إلى خراسان عن طريق ترمذ ومعه من بقي من فلول جيشه . وهذا أصبحت بلاد ما وراء النهر في قبضة القراختائيين . ولأول مرة وجدنا قوماً من المسلمين وهم الخوارزمشاهيون يحالفون قوماً من أعداء دينهم الوثنيين وهم القراختائيون (١) . وفي نفس السنة انتهز أتسر فرصة هزيمة سنجر وبدأ يغير على إقليم خراسان . وأضاف كثيراً من البلاد إلى ملكه .

واستطاع ابنه علاء الدين محمد بعد حرب مع الفوريين في خراسان أن يخضع الجزء الأكبر من بلاد إيران حوالي سنة ١١٢٠ / ١١٢٠ م ، وأن يخضع بخارى وسمرقند ويغزو مقاطعة كورخان من ملوك القراختائية ، وأن يستولى على عاصمته أترار . وفي سنة ١١٢٤ / ١١٢٤ م غزا أفغانستان واستولى على غزنة وعزم بعد ذلك على أن يقضى على الخلافة العباسية ولكن ظهور المغول بقيادة جنكيزخان على حدود بلاده فل حده وقضى على آماله . وكان في ظهور المغول القضاء على دولة خوارزم .

الأتابكة :

وخضعت لإيران أيضاً للأتابكة . وكان هؤلاء الأتابكة قد تقسموا فيما بينهم أراضي الدولة السلجوقية .

وهؤلاء الأتابكة كانوا من مماليك السلاجقة . وكان لكل واحد من سلاطين السلاجقة أتباعه من هؤلاء المماليك الذين كانوا يشغلون الوظائف الرئيسية في الجيش والبلاط . وكان منهم مربو الأمراء (أتابك) .

ومن هؤلاء المماليك طوغتيكين Tughtigin الذي كان عبداً عند تنش السلجوقي Tutush الذي عينه وصياً على ورثته دقاق Dukak ، ولما توفي تنش استولى عبده على كل السلطات في دمشق .

Skrine & Ross : Heart of Asia p. 139.

(١)

وكذلك كان عماد الدين زنكي مؤسس دولة أتابكة الموصل وحلب فإنه كان ابناً لأحمد عبيد السلطان ملكشاه السلجوقي .

وكذلك كان أتابكة آذربيجان فإنهم كانوا سلالة أحد المماليك الخاصين للسلطان مسعود أحد سلاطين السلاجقة في العراق .

وفي فارس بدأت دولة الأتابكة ٥٥٤٣ / ١١٣٨ م ، وتنسب إلى سلغر أحمد قراد البركمان في عهد السلاجقة . وكانت نهايتها سنة ٦٨٦ هـ على أيدي المغول وقد بدأت هذه الدولة يستقر بن مودود بن ساغر ٥٤٣ - ٥٥٧ هـ وانتهت بابيش بن سعد بن أبي بكر ٦٦٢ - ٦٨٦ هـ .

وفي القرن الثاني عشر الميلادي كانت كل الإمبراطورية السلجوقية (باستثناء الأناضول) في يد دول الأتابكة الذين كونوا لأنفسهم إمارات مستقلة (١) .

وقد قضى المغول على دول الأتابكة كما قضوا على الدولة الخوارزمية .

٣ - المغول : جنكيز خان :

المغول فرع من الشعب التركي . كانوا في أول أمرهم قبائل رحلًا تسعى وراء المراعى والأشجار في شمال صحراء جوبي . ويعيشون على أكل لحوم الماشية وشرب لبنها . ويذكر لين بول أن اسم المغول لم يكن مشهوراً حتى القرن العاشر (٢) ويرجع إلى «بيسوكا» الفضل في تخلص قبائل المغول من سيطرة الصين وتحقيق استقلالهم عنها . ولكن النجاح الأكبر تحقق على يد ابنه جنكيز خان الذي استطاع في عشرين سنة أن يكون إمبراطورية كبرى وعندما توفي «بيسوكا» في سنة ١١٧٥ م حل محله ابنه تموجين (لأنه لم يكن قد سمي بعد باسم جنكيزخان) ولم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره .

Lanc-Poole : Moh. Dynasties p. 159.

Lanc-Pole : Moh. Dynasties p. 202.

(١)

(٢)

ويروى لنا حبيب السير عن حياة جنكيزخان الأولى ما خلاصته أنه حين ولد كان في قبضته قدر من الدم المتجمد . وكان معنى هذا شجاعة ذلك المولود وقدرته على سفك الدماء .

واسم جنكيزخان الأصلي تموجين . وقد رأى تموجين ذات ليلة في نومه أن يديه طالتا ، وفي كل منهما سيف ، حتى بلغنا المشرق والمغرب . وعندما حكى الطفل لأمه هذه الرؤيا فسرتها له بأنه سيستولى على عالم المشرق وسيريق سيفه الدماء في المشرق والمغرب .

وفي سنة ١٢٠٢/١٢٠٥ م غر أحد كهنة المغول اسم تموجين وجعله جنكيزخان . ومعناها في لغة التوراتيين ملك الملوك (١) .

ومن المعروف إن جنكيزخان لم يكن تابعاً لأي دين أو ملة وكان يحترز عن التعصب ، وترجيح مذهب على مذهب . وكان يعظم ويكرم زهاد وعلماء كل طائفة دون تفریق .

ولا يكاد العقل يصدق ما فعله هؤلاء المغول بالبلاد التي فتحوها من ضروب الوحشية التي تفوق التصور لولا أن المصادر المختلفة أجمعت عليه . ومن هذه المصادر مثلاً ابن الأثير الذي يقول عن هؤلاء المغول في حوادث سنة ٦١٧ ما يأتي بعد الاختصار :

«لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة — يقصد غزو المغول للعالم الإسلامي — استعظاماً لها كآراماً لذكرها فأنا أقدم اليها رجلاً وأؤخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين . ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أرى لم تلدني وباليثني مت قبل هذا

(١) تهديم نام تو جنكيزخان
همه كس ورا اينجين خواندند بدان نام تو آفرين خواندند
از آن رو كه معنى جنكيزخان بود شاهان بتورى زبان
ومعناها (لقد سميتك جنكيزخان فأنت لا تنادى بعد ذلك باسم تموجين . ولهذا فالكل ينادونك بهذا الاسم الذي سماك به الله . وعلى هذا الوجه يكرن معنى جنكيزخان في لغة التوراتيين ملك الملوك)

وكنت نسياً منسياً .. » ثم يقول « وهؤلاء المغول لم يبقوا على أحد بل قتلوا
 النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة .. فإن قوماً
 خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغويه
 ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغزهما فيملكونها وينهلون
 بأهلها ما نذكره ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها دكاً وتخريباً
 وقتلاً ونهباً ثم يتجاوزونها إلى الري وهمدان وبلد الجبل وما فيه من
 البلاد إلى حد العراق ثم يقصدون بلاد آذربيجان وأرانية ويخربونها
 ويقتلون أكثر العلماء ولما ينج إلا الشريد النادر في أقل من سنة . هذا ما لم
 نسمع بمثله . ثم لما فرغوا من آذربيجان وأرانية ساروا إلى دربند شروان
 فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم وعبروا عندها إلى بلاد اللابة
 والكز ومن في ذلك الصقع من الأنم المختلفة فأوسعهم قتلاً ونهباً وتخريباً .
 ثم قصدوا بلاد القبايق وهم من أكثر بلاد الترك عدداً فقتلوا كل من وقف
 لهم فهرب الباقون إلى الغياض ورعوس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى
 هؤلاء الأثر عليها . فعلوا هذا في أسرع زمان لم يلبثوا إلا بمقدار سيرهم
 لا غير . ومضت طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزته وأعمالها وما يجاورها
 من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد . هذا ما لم
 بطرق الأسماع مثله ، فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك
 الدنيا لم يملكها في هذه السرعة إنما ملكها في نحو عشر سنين ولم يقتل أحداً .
 إنما رضى من الناس بالطاعة . وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض
 وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة
 لم يبت أحد من البلاد التي لم يطرعوها إلا وهو خائف يتوقعهم ويتربص
 وصولهم . ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم فإنهم معهم الأغنام
 والبقر والحيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير . وأما
 دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات
 لا تعرف الشعر .. إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج . وأما
 ديارهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيئاً فهم يأكلون

جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها ، ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فإذا جاء الوالد لا يعرف أباه .

وهذا شاهد آخر يتحدث عن وحشية هؤلاء المغول وفظائعهم هو ياقوت الحموي (٥٧٥ - ٦٢٦ هـ / ١١٧٨ - ١٢٢٩ م) الذي كان معاصراً لإغارة المغول وكان صديقاً أيضاً لابن الأثير . وقد استطاع ياقوت أن ينجو بحياته بكل مشقة من شرهم . وفي الخطاب الذي كتبه ياقوت إلى القاضي الأكرم جمال الدين أبي الحسن على الشيباني النعماني وزير ملك حلب يتحدث عما رآه من الأهوال وما لقيه من المصاعب حتى استطاع أن ينجو من مرو ويصل إلى الموصل . وقد أورد ابن خلكان هذه الرسالة في ترجمته لياقوت (١) . يقول ياقوت في هذه الرسالة بعد مقدمات كان انتقام بمرو الشاهجهان المنسر عندهم بنفس السلطان ، فوجد بها (أى ياقوت) من كتب العلوم والآداب وصحائف أولى الأفهام والألباب ما شغله عن الأهل والوطن وأذله عن كل خل صفى وسكن ، فظفر منها بضالته المنشودة وبغية نفسه المنتودة ، فأقبل عليها إقبال النهم الحرص وقابلها بمقام لا يزعم عنها محيص ، فجعل يرتع في حدائقها ، ويستمتع بحسن خلقها وخلاتها ، ويسرح في طرفها . وينفذ بمحبوطها وتنفها . واعتقد المقام بذلك الجنب إلى أن يجاور التراب .. إلى أن حدث بحراسان ما حدث من الخراب والويل المبهر والفتاب ، وكانت لعمر الله بلاداً موقنة الأرجاء ، رائقة الأنحاء ، ذات رياض أريضة ، وأهوية صحيحة مريضة ، قد تغنت أطيارها فتمابلت طرباً أشجارها ، وبكت أنهارها فتضاحكت أزهارها ، وطاب روح نسيمها فصيح مزاج إقليمها . ولعهدى بتلك الرياض الأنيقة ، والأشجار المهذلة الوريقة وقد سالت إليها أرواح الجنائب زقاق خمر السحاب فشقت مروجها مدام الطل فنشأ على أزهارها حباب كاللؤلؤ المنجل . فلما رويت من تلك الصهباء أشجاره ، ورنحها من النسيم خماره فتدانت ولا تداني الحبين وتعانقت ولا عناق العاشقين يلوح من خلالها شقائق قد شابه اشتقاق

(١) ابن خلكان : ج ٥ ط محي الدين

الهوى بالعليل فشابه شفقي غادتين دننا للتقيل .. الخ هذه التشبيهات
 إلى أن يقول : وجملة أمرها أنها كانت أنموذج اللجنة بلا مين ، فيها ما تشهى
 الأنفس وتلذ الأعين . قد اشتملت عليها المكارم .. ومن العجب العجائب
 أن سلطانهم المالك هان عليه ترك تلك الممالك وقال لنفسه اله وآلك ، وإلا
 فأنت في الهوا لك ، وأجفل إجماع الرأى ، وطقق إذا رأى غير شيء ظنه
 رجلا بلا رجال .. لكنه عز وجل لم يورثها قوماً آخرين تنزيهاً لأولئك الأبرار
 عن مقام المجرمين بل ابتلاهم فوجدتهم شاكرين . وبلاهم فأثابهم صابرين
 فالجنتهم بالشهداء الأبرار ، ورفعهم إلى درجات المصطفين الأخيار . فجاس
 خلال تلك الديار أهل الكفر والإلحاد ، وتحكم في تلك الأستار أولو الزيف
 والعناد ، فأصبحت تلك القصور كالمسحور من السطور ، وأمسّت تلك
 الأوطان مأوى للأعداء والأغربان ، يتجاوب في نواحيها البوم ، ويتناوح
 في أرجائها الريح السموم فيستوحش فيها الأنيس ، ويرثى لمصابها إبليس ..
 فإنا لله وإنا إليه راجعون من حادثة تقصم الظهر . وتهدم العمر . وتمت في
 العضد .. فحينئذ تهتقر المملوك (يعنى نفسه) على عقبه ناكصاً ، ومن الأوبة
 إلى حيث تستقر فيه النفس بالأمن آسأً بقلب واجب ، ودمع ساكب ،
 ولب عازب ، وحلم غائب ، فتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل بعد
 مقاساة أخطار ، وابتلاء واصطبار ، وتمحيص الأوزار ، وإشراف غير
 مرة على البوار والنيار لأنه مر بين سيوف مسلولة ، وعساكر مغلولة ،
 ونظام عمود محلولة ، ودماء مسكوبة مطولة . وكان شعاره كلما علا
 قتباً أو قطع سببها (لقد لقينا من ..) نمرنا هذا نصباً) فالحمد لله الذى أقدرنا
 على الحمد ، وأولانا نعمة تفوت الحصر والعد . وجملة الأمر أنه لولا فسحة
 في الأجل لعر أن يقال سلام البائس أو وصل ، ولصقت عليه أهل الوداد
 صنفمة المغبون ، وألحق بألف ألف هالك بيلدى الكفار أو يزيدون ..»
 إلى آخر الرسالة .

وكان هؤلاء المغرول يتعمدون استخدام هذه الأساليب الوحشية لإيقاع
 العرب في قلوب أعدائهم . وكانوا يرون أن تخريب البلدان ، وإبادة

السكان أضمن لهم حتى لا ينقض عليهم أهلوها فيشغلوهم ويعطلوا زحفهم ويستزفوا قواهم في معارك جانبية .

ولم يكن الأسرى الذين يقعون في أيديهم أحسن حالا من القتلى فقد كانوا يستخدمونهم في مقاتلة مواطنهم ويجعلونهم في المقدمة ، ولم يكونوا يتورعون عن إلحاقهم في الخنادق ليتخذوا من أجسادهم قنطرة يعبرون عليها . وعلى العموم لم تكن للحياة الآدمية أية قيمة عندهم . إلا أنهم كانوا يستثنون من هذا المصير من يجدونه من أهل البلاد المفتوحة من أهل الحرف والصناعات لأنهم كانوا ينتفعون بهم .

ولا شك في أن هؤلاء المغول كانت الصرامة طابع حياتهم . وكان الجندي المغولي ممتاز بالنظام والطاعة العمياء للرؤساء . وإذا خرج عن الأصول المرعية كان عقابه شديداً .

ولا تحصى الأمثلة التي وردت في المصادر التاريخية على وحشيتهم وغلظة أكبادهم . ومن أمثلة هذا ما فعلوه بأهل خوارزم فإنهم أعلموا سيوفهم في رقاب أهلها ، ولم ينبج منهم إلا أصحاب الحرف والصناعات الذين نقلوهم إلى منغوليا كعادتهم . وفي مدينة مرو بلغ عدد القتلى رقماً قياسياً يقدره ابن الأثير ب ٧٠٠,٠٠٠ بينما يرفعه صاحب جهانكشا إلى ١,٣٠٠,٠٠٠ . وفي نيسابور قطع المغول رؤوس القتلى وجعلوا منها أهراماً عالية ، أحدها للرجال ، والثاني للنساء ، والثالث للأطفال . وفي مدينة باميان ثارت نائرة هؤلاء المتوحشين لمصرع واحد من أمرائهم أثناء القتال فخربوا المدينة تخريباً كاملاً وتركوها قاعاً صفصفاً . وظلت بهذا الشكل مهجورة خالية قرناً من الزمان . وعندما زار الرحالة المعروف ابن بطوطة مدينة بلخ في سنة ٧٢٧ هـ في عهد السلطان أبي سعيد وجدها خاوية على عروشها بعد أن خربها «تنكيز الالعين» . (١) وكذا كانت الحال في مدينة ترمذ ، فقد خرب المدينة القديمة تنكيز — كما يذكر ابن بطوطة — وكانت مبنية على شاطئ

(١) رحلة ابن بطوطة : ص ٣١٧ ط الأميرية ١٩٣٩

جيجون . وأما التي شاهدها ابن بطرطة فهي المدينة الحديثة وقد بنيت على بعد ميلين من النهر (١) وفي بخارى أمر بإشعال النار في بيوتها . وكان أغلبها من الخشب . فاحترقت المدينة كلها في يوم ولم يسلّم من مبانيها سوى المسجد الجامع وبعض القصور المبنية بالطوب الأحمر . وقد روى أن أحد البخاريين ذهب إلى خراسان بعد هذا الحريق فسئل عن حال بخارى وكيف انتهى أمرها مع الغزاة التتارحين فقال «جاءوا وقلعوا وأحرقوا وقتلوا وحلوا» (٢) . ويعلق صاحب حبيب السير فيقول في الواقع لا يمكن أن توجد عبارة في التارسية أوجز من هذه ففيها بيان ما وقع في بخارى من جيش المغول . وفي مدينة أترار ساقوا جميع أهلها إلى الصحراء وأجهزوا عليهم بالسيف الحادة . ويذكر حبيب السير أن المغول قتلوا في قزوين بشيف الحقد ما يقرب من خمسين ألف رجل حتى ارتوت الأرض بالدماء ونبتت من دماء القتلى الزهور المشوكة القمم الوردية الخد (٣) . وفي الرى كان هناك تعصب مذهبي بين الأدهالي ، وعندما سمع الشافعية بخبر وصول المغول أسرعوا لاستقبالهم وحرضوا التتاردين المغوليين (جيه) و(سويدي) على قتل نصف المدينة الذين كانوا أحنافاً ، فأبادهم المغول بحد السيف . وبعد ذلك قالوا لأنفسهم أي خير يرجى لنا من الذين يسعون في دم مواطنيهم ؟ ثم قتلوا الشافعية أيضاً في عقب الخفية .

وكان من عادة هؤلاء المغول أن يسموا المولود باسم أول داخل في البيت عند ولادته . وقازان وقازغان هو التندر . قيل سمى غازان بذلك الاسم لأنه لما ولد دخلت عليه جارية ومعها قدر (٤) .

وكان من عادة المغول حسب أحكام الياسا أو الياساق أن يجتمعوا مرة

(١) نفس المصدر : ص ٣١٦

(٢) خواندمير : حبيب السير ج ٣ ونص العبارة هناك «آمدند و كندند وسوختند وكشتند وبردند» .

(٣) نفس المصدر والجزء .

(٤) خواندمير : حبيب السير ج ٣

كل سنة على هيئة مؤتمر عام يحضره الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة .
وكانوا يحاسبون الملوك على سياستهم ومدى التزامهم بتنفيذ أحكام الياسا .

وكان الاستحمام عند هؤلاء المغول من الجرائم التي تصل عقوبتها
إلى الإعدام ، وكذلك كان تنظيف الأيدي أو الملابس في المياه الجارية (١) .

وكانت طريقتهم في ذبح الحيوان صورة لوحشيتهم إذ كانوا يشقون
بطنه ويخرجون مافي جوفه . وحرّموا على المسلمين أن يذبحوا بطريقتهم (٢) .

وكان من عاداتهم عند وفاة ملوكهم أن يقتلوا مجموعة من الفتيات
الحسنات ويقدموهن قرباناً لروح الملك .

كما كان من عاداتهم إذا مات ملك من ملوكهم أن يسدوا الطرق
ويعنعوا الناس من التنقل حتى لا يروا جنازته . وغرضهم من ذلك أن يخفوا
موته على الناس قبل أن يعلن رسمياً . ومن أوقعه سوء حظه في طريق الجنازة
قبل إعلان الخبر رسمياً قتل . وبذكر براون نقلاً عن دوسون أن أوكداي
أمر بقتل أربعين فتاة عذراء قرباناً لروح جنكيزخان . وصرح الجند الذين
رافقوا جثمان الامبراطور المغولي منكوكخان إلى مثواه الأخير في جبال التاي
بأنهم قتلوا في طريقتهم مالا يقل عن ٢٠,٠٠٠ شخص (٣) .

وكان من عادات هؤلاء المغول أن يسرفوا في الشراب .

أما كيف حلت هذه اللعنة بإيران ففيما يأتي مجمله :

عندما تولى جنكيزخان الحكم كانت سنه لا تتجاوز الثالثة عشرة ولذلك
بذل مجهوداً كبيراً ووقتاً طويلاً بلغ ثلاثين سنة في الكفاح ضد أعدائه
من الأتراك المجاورين حتى استطاع أن يخضعهم ويثبت ملكه . وبعد انقضاء

(١) براون : ٤٤٠/٢ والترجمة العربية ٥٦١

(٢) نفس المصدر

(٣) براون : ٤٤٥/٢ والترجمة العربية ص ٥٦٧

هذه السنين الثلاثين كان قد بقى من عمره عشرون سنة قضاهما فى الفتح والتوسع .

ففى سن الرابعة والأربعين بدأ بإخضاع الأويغور ، ولم تكده تنقضى على ذلك ثلاث سنوات حتى غزا الصين واستطاع أن يضم اليه بعض مقاطعاتها الشمالية مثل مملكة ليوتانج ومملكة تانخوت . وعندما فرغ من أمر الصين كان عليه أن يزيل من طريقه مملكة قراختاي التركية التى كان يحكمها الكورخانات . وسرعان ما سيطر عليها هى الأخرى (١) .

وبهذا الشكل أصبحت حدود دولة جنكيزخان متاخمة لحدود مملكة الخوارزميين . وكان طبعياً أن يحدث الاحتكاك بينهما فى يوم من الأيام ، ومن أسف أن ملك خوارزم السلطان محمد لسوء حظه وحظ العالم الاسلامى كله كان هو الذى أتاح الفرصة المناسبة لجنكيزخان حين قتل رسله ، وكان ذلك خطأً كبيراً منه . ولم يكن هذا هو كل خطئه فقد وقع بعد ذلك فى سلسلة أخطاء عددها النسوى فى كتابه . ونشير اليها فيما بعد .

وعندما بلغ جنكيزخان ما فعله محمد خوارزم شاه برسله صمم على الانتقام وسار فى جيش كثيف «يزيد على القطرات والذرات فى العدد والحساب» (٢) . وقسم جنكيزخان قواته بين أبنائه ، ووكل إلى كل واحد منهم مهمة ؛ فأوكدى وجنتاي كان عليهما إخضاع أترار ، واتجه جوجى خان إلى جند بينما اتجه أثنان آخران من قواده للاستيلاء على فناكت وخجند واتجه جنكيزخان بنفسه مع ابنه تولى إلى بخارى فوصلها فى سنة ١٢١٦م / ١٢١٩م .

أما أترار فقد سقطت بعد قتال عنيف وحصار دام خمسة أشهر ، ولقيت الحياة دورها فى هذا الفتح . ومع ذلك فإن حاكمها من قبل السلطان

(١) لين بول : ص ٢٠٣

(٢) خواندمير : حبيب السيد مجلد ٣

الخوارزمي ضرب مثلاً راثعاً من أمثلة البطولة إذ ظل يقاوم في قلعتها مع من ثبت معه . وكان رجاله يتساقطون واحداً بعد الآخر دون أن يثنيه ذلك عن مواصلة القتال . وفي النهاية قبض عليه المغول وحلوه إلى جنكيزخان حيث تمّتل .

أما بخارى فقد حاصرها جنكيزخان ثلاثة أيام ثم دخلها بعد أن كان الجند الخوارزميون قد تسللوا منها تحت جنح الظلام عائدين إلى خراسان ولما وجد الأهالي أن المدينة قد خلت من الجند المدافعين أرسلوا في طلب الصلح فأجابهم جنكيزخان إلى طلبهم ، ودخل المدينة سنة ٦١٦هـ / ١٢٢٠م أما الجند المسلمون الذين تحصنوا في قلعتها فقد ظلوا يقامون حتى قتلوا عن آخرهم . واندفع المغول يهبون المدينة ، وانتهكوا حرمة المسجد ، وجعلوه اصطبلًا لحيلهم . ولما عرف جنكيزخان أن عدد أمن اتباع خوارزمشاه قد اختلطوا بالأهالي واندسوا بينهم غضب غضباً شديداً وأمر أن يشعلوا النار في بيوت البخاريين . وكان أكثرها من خشب فاحترقت المدينة عن آخرها في يوم واحد . ولم يبق بها عمارة سالمة سوى المسجد الجامع وبعض القصور المبنية بالطوب الأحمر .

أما مدينة سمرقند فقد تركها السلطان محمد خوارزمشاه لحاميتها التي تدافع عنها وابتعد هو خوفاً من المغول . وبعد حصار المغول للمدينة خمسة أيام اختلفت آراء سكان سمرقند فال بعض للصلح وأصر البعض على الولاء للسلطان . وفي الصباح خرج قاضي سمرقند وشيخ إسلامها مع فوج من أشراف المدينة وأسرعوا يطلبون الأمان من جنكيزخان الذي أمنهم وأمرهم بالعودة وفتح أبواب المدينة : وتدقق عسكر المغول عليها ، وفصلوا القاضي وشيخ الاسلام وخمسين ألفاً من أتباعهما عن سائر الناس وساقوا الباقين إلى الصحراء حيث أهلكوهم : وقتل المغول ما يقرب من ثلاثين أميراً من أمراء الخوارزميين مع كامل جندهم وفصلوا عن سائر الناس ثلاثين ألفاً من أرباب الحرف قسمهم جنكيزخان على أولاده وأقربائه (١) .

(١) خواندمير : حبيب السيرة جلد ٣

وبين النسوى أوجه الخطأ التي وقع فيها السلطان في قتاله مع المغول فيقول أنه أمر ببناء سور على مدينة إسنرقند يبلغ امتداده اثني عشر فرسخاً وزوده بالمقاتلة للدفاع عنه ، وجمع من الناس خراج سنة مقدماً ليتفق على بناء ذلك السور ولكن السور لم يتم بناؤه لأن التار أعجلوه عن ذلك (١) . ومن هذه الأخطاء أيضاً أن السلطان عندما سمع بقرب جنكيزخان فرق عساكره بمدن ما وراء النهر وبلاد الأتراك . ولم يترك بلداً من البلاد خالياً من جيش كبير . ويذكر النسوى أن هذا الإجراء كان خطأ من السلطان لأنه شتت شمل جنده وفرق كتائبه . ولو أنه لقي التار بمجموعة مكملة لاختطفهم خطفاً وأنسفهم عن الأرض نسفاً (٢) .

ومن جملة أخطائه - غير ما ذكره النسوى - أنه عندما حارب المغول كانت مملكته لا تزال في دور التأسيس ولم يكن حكمه قد استقر بعد (٣) . وكان واجباً عليه - وهذا موقفه - أن يهادن المغول ليتفرغ لمملكته أولاً بدلاً من إثارتهم ودفعهم للحرب ومقاتلتهم . يضاف إلى هذا أيضاً أنه تحدى الخلافة فهيج الرأي العام ضده وشغل نفسه بأكثر من جهة في وقت واحد .

وأما نيشابور فقد قصدتها المغول بعد أن عبروا النهر . ولم يكن محمد خوارزم شاه يعتقد أنهم سيعبرون نهر جيحون فلما بلغه ذلك غرمها إلى مازندران فتبعه المغول إليها بغية اللحاق به والقبض عليه فتحول عنها إلى الري وهم يجدون وراءهم ثم إلى همدان ولكنهم كانوا لا ينون عن الجلاء في طلبه فعاد مرة أخرى إلى مازندران . ومن هناك أبحر في بحر طبرستان إلى قاعة في وسطه . وانقطعت أخبار محمد خوارزم شاه في تلك الجزيرة التي أقام بها في بحر طبرستان حتى مات سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢١ م .

وبالانختصار دمر هؤلاء المغول ما فتحوه من البلاد ، وأبادوا أكثر

(١) محمد بن أحمد النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتي نشر هوداس ص ٣٦

(٢) نفس المصدر ص ٣٧ :

(٣) عباس الغزالي : تاريخ العراق بين احتلالين ١٠٦/١

أهلها . ففى الرى قضوا على سكانها كما ذكرنا فى سبق . وفعلوا نفس الشئ فى قم . أما كرز رود فقد أحرقوها . وأما خرم آباد فقد جعلوها مأتماً . وقتل «سويداى» فى قزوین ما يقرب من خمسين ألفاً (١) . وفى نيسابور بنوا أهرامات من حجاجم القتلى . ولم يغادروا باميان الا وهى خرائب وأطلال . أما بلخ فقد خوت على عروشها وتجردت من كل معالم الحياة . وقد رآها ابن بطوطة فى رحلته وهى على تلك الحال (٢) . وكانوا قد خربوا مدينة ترمذ التى تقع على شاطيء جيحون فبنيت بعد ذلك من جديد . ولكن ترمذ الجديدة كانت تبعد عن شاطيء النهر ميلين (٣) .

وكانت مدة حكم محمد خوارز مشاه إحدى وعشرين سنة وشهوراً امتدت فيها مملكته من العراق غرباً إلى تركستان شرقاً وضمت بلاد غزنة ، وبعض الهند ، وسجستان ، وكرمان ، وطبرستان ، وجرجان ، وبلاد الجبال ، وخراسان وبعض بلاد إيران .

وترك محمد خوارز مشاه ملكه لابنه البطل جلال الدين ، كما ترك أمه وزوجاته وأولاده أسرى فى يد المغول .

ولا شك فى أن خليفة محمد خوارز مشاه كان بطلاً إسلامياً جديراً بالتقدير . ولم ييأس جلال الدين خوارز مشاه بعد سقوط مملكته فى أيدي المغول . فاتجه أولاً إلى بلاد الهند حيث تبعوه إلى هناك وأحاطوه من كل جانب . وقده قاومهم مقاومة عنيفة . وعندما رأى أن لافائدة ترجى من المقاومة انسحب عائداً إلى إيران محاولاً استرجاع ملكه ، واتجه إلى مقاطعة فارس حيث تزوج ابنه الأتابك سعد . ولكنه بعد أن أكد سيادته على بلاد إيران اتجه لقتال الخليفة ومنازعته بدل أن ينصرف إلى جمع قواه للملاقاة عدوه الأكبر . المغول . وشغل جلال الدين بالإضافة إلى ذلك بحرب أخيه

(١) حبيب السير :

(٢) ابن بطوطة : ص ٣١٧

(٣) نفس المصدر : ص ٣١٦

«غياث الدين» الذى خانته كما حارب أيضاً حاكم كرمان «براق الحاجب» ، وحارب كذلك طائفة الحشاشين . وهكذا وجدنا جلال الدين محارب في وقت واحد في مجموعة من الجهات وكان موفقاً في أول الأمر إذ استولى في سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م على كرمان وأصفهان . والوى كما تمكن في سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م من هزيمة جيش الخليفة وتبعه حتى بغداد واستولى على تبريز . وفي سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م أسرع إلى الجنوب الشرق من إيران حيث أدب حاكم كرمان براق الحاجب الذى خانته بالتحالف ضده مع المغول . وفي سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م هزم الحشاشين ثم حقق بعد ذلك نصراً كبيراً على المغول في دامغان . ولكن هذه الانتصارات لم تغن عنه شيئاً حين هاجمه المغول سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م . ومن ذلك الوقت بدأ نجمه في الأفول وأخذ يتراجع أمامهم . ثم طفق بعد ذلك يهيم على وجهه متخفياً من قرية إلى قرية حتى حان حينه في قرية كردية في الجبال سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م .

ولو كان جلال الدين يحسن الإدارة كما يحسن الحرب لاستطاع أن يتغلب على المغول الذين كانوا وقتذاك متعبين بعد أن قطعوا آلاف الأميال وهم يحاربون بعيداً عن أوطانهم (١) .

ويبدو مما ذكره النسوى في سيرة جلال الدين أنه كان محبوباً من رعيته لأنهم لم يصدقوا أنه مات . وكانوا يعتقدون أنه حى يستعد في مخبئه للظهور من جديد والانقضاض على المغول ويقول النسوى إنه ما نزل ببلد من البلاد إلا والناس يرجفون بأن السلطان باق ، وأنه جمع واحتشد واستمد واستعد . أخابر زور ، أمانى غرور يفتريها الأهواء ، ويخلقها الود والولاء . إلى أن عدت إلى ميافارقين وتيقنت هلاكه (٢) .

٨ - المغول : الایلخانيون :

بعد أن مات جنكيزخان في ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م. انتخب بعده ابنه

Sykes ; A History of Persia p. 60. Oxford. 1922.

(١)

(٢) النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتي ص. ٢٤٥ نشر هوداس. ١٨٩١

أوكداى . وقد تم انتخابه فى نفس الوقت الذى مات فيه جلال الدين خوارز مشاه وانتهى حكم ملوك خوارزم . ثم خلفه فى الملك كيوك ، منكور .

وفى عهد منكور هذا جرد المغول على ايران حملة أخرى بقيادة هولاكو خان أخى منكور . ويعتبر هولاكو مؤسس أسرة الايلخانيين فى ايران التى حكمت قرابة قرن (٦٥٤ - ٧٥٠ هـ / ١٢٥٦ - ١٣٤٩ م) . ولكنهم وإن كانوا فى أول أمرهم غزاة فاتحين وثنيين إلا أنهم أسلموا بعد فترة من الزمن ، واستطاعوا أن يمتزجوا بالشعب الايراني ، ويكتسبوا ثقته . وكان هولاكو ومن تبعه من المغول يتولون حكم ايران بصفتهم نواباً عن الخان الأكبر ولكنهم كانوا يتصرفون فى حرية مطلقة من الناحية الفعلية .

وفى هذه الحملة التى قادها هولاكو اكتسح خراسان ووجه همه للقفز على الاسماعيليه . ويفصل جامع التواريخ وقائع هولاكو مع هؤلاء الاسماعيليه . ففى يوم الأحد غرة ذى القعدة سنة ٦٥٤ استطاع بمعونة نصير الدين الطوسي أن يغرى خورشاه آخر الاسماعيليه بترك قلعته التى كان يتحصن بها والتى ظلت حصن أسرته قرنين من الزمان وأن يعلن خضوعه لجنكيزخان (١) . وأرسل خورشاه الى جميع أتباعه يدعهم الى تسليم ما بأيديهم من القلاع للمغول . وبناء على هذا تسلم هولاكو جميع الحصون والقلاع فى قهستان وروذربار وقومس بما فيها من ذخائر ومعدات وقد بلغ عدد هذه القلاع نحو مائة (٢) . وفى يوم الاثنين ٢٦ من ذى القعدة استولى هولاكو على قلعة الموت بعد أن دعا ركن الدين خورشاه المعتصمين بها للاستليم (٣) .

وكانت لا تزال هناك قلاع كثيرة فى أيدي هؤلاء الملاحدة ، ورأى هولاكو أن يبالغ فى إكرام خورشاه حتى ييسر له

(١) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ المجلد الثانى - الجزء الأول ترجمة نشأت وهنداوى والصيداى ص ٢٥٤ نشر وزارة الثقافة ١٩٦٠

(٢) رشيد الدين فضل الله جامع التواريخ مجلد ٢ ج ١ ص ٢٥٥ الترجمة العربية

(٣) نفس المصدر : جامع التواريخ ص ٢٥٦

سبيل الاستيلاء على تلك القلاع دون حاجة إلى القتال والتضحية بالرجال .
ففى يوم الخميس العاشر من المحرم سنة ٦٥٥ هـ أنعم عليه هولاءكو انعامات
كثيرة وزوجه فتاة مغولية (١) . وأرسل خور شاه فعلا بعض خاصته
مع رسل هولاءكو إلى تلك القلاع ليحث أهلها على التسليم للمغول . وعندما
فرغ خورشاه من تسليم قلاع الاسماعيلية أرسله إلى الخان الأكبر الذى قتله
وأعمل السيف فى أقاربه وأتباعه ولم يسلم منهم حتى الأطنال . وهكذا قضى
هولاءكو على هؤلاء الملاحدة الذين ظلوا يفسدون فى البلاد سبعا وسبعين
ومائة سنة (٢) .

وفى التاسع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٦٢ هـ توفى هولاءكو خان ودفن
فى قلعة تلا من نواحي مراغة بالغغا من العمر خمسين سنة .

وكان هولاءكو على مذهب البوذية . بنى فى خوى داراً للأصنام .
أما امرأته «طوقوزخان» فكانت تدين بالنصرانية . وبسبب هذه الزوجة
النصرانية كانت علاقته طيبة بالعالم المسيحى . ويقال إنه كانت هناك اتفاقات
بينه وبين حكومات أوروبا المسيحية للقضاء على الاسلام (٣) .

ويعتبر أحمد تكرودارخان أول من أعلن إسلامه من المغول الذين حكموا
ايران وإن كان قد أنخمى مسيحيته أما غازان فقد كان لإسلامه صدى كبير من
المغول الذين دخلوا تبعاً له فى هذا الدين ومن عهد غازان ثبت الإسلام فى
قلوب الایلخانين ولم تعد محاولات المسيحية تجدى فى كسبهم إليها . ونشير
فىما بعد إلى موقف المغول من الاسلام .

وبدأ الضعف يلب فى هذه الدولة فى عهد أبى سعيد (٧١٦ - ٧٣٦ هـ /
١٣١٦ - ١٣٣٥ م) . وكانت أسباب الضعف هى نفسها الأسباب التى
أودت بالممالك السابقة كتنافس الأمراء والقواد والوزراء . ومن صور

(١) نفس المصدر : جامع التواريخ ص ٢٥٧

(٢) نفس المصدر : جامع التواريخ ص ٢٥٨

(٣) عباس الفزائى : تاريخ العراق بين احتلالين ٢٥٦/١

هذه المنازعات ما كان بين أسرة الأمير جويان أحد القواد المقربين إلى غازان وأولاده وبين أسرة الأمير حسين الجلايري . وقد ظل النزاع بين الأسرتين والنزاع بين أمرائهما فترة من الزمن حتى استطاع الجلايريون في نهاية الأمر أن يسيطروا ويصبحوا هم القوة الرئيسية في إيران بعد انقضاء حكم الابلخانيين .

أما الوزراء فكان كل منهم يسعى للإيقاع بصاحبه والخلاص منه . ودخل بينهم اليهود فلعبوا دوراً خطيراً في زيادة الوقيعة والدس وتدبير الفتن والمؤامرات . وكانت زوجة سعد الدين أحد الوزراء في عهد الجلائيو يهودية فلما قتل زوجها استعانت بهؤلاء اليهود للانتقام من رشيد الدين الذي كان هو الآخر يستعين بهم للقضاء على خصومه (١) .

والحقيقة أن شأن اليهود كان قد بدأ يرتفع منذ أيام أرغون خان . وكان وزيره في خلال الجزء الأخير من حكمه يهودياً هو سعد الدولة الذي كان أصلاً من أهالي أهر ثم عاش في بغداد فترة اشتغل فيها بالطب ثم انتظم بعد ذلك في سلك الأطباء اليهود في عهد اورغون (٢) . وينسب إلى هذا الوزير اليهودي أنه دبر كثيراً من الحيل للقضاء على الإسلام . وقد استطاع أن يكسب ثقة مولاه حتى عهد إليه بشئون البلاد المالية . وبفضل نفوذه وسيطرته استطاع زملاؤه من اليهود أن يتسللوا إلى كثير من مناصب الدولة حتى قال بعض الشعراء :

يهود هذا الزمان قد بلغوا مرتبة لا يتألفها مسلمك
الملك فيهم والمسال عندهم ومنهم المستشار والملك

... الخ (٣) . وكلما ازداد نفوذ سعد الدولة وسيطرته على شئون المملكة ازدادت جرأته وانكشفت عداوته ضد الإسلام حتى إنه عرض

(١) المصدر السابق : ٤٤٣/١ :

(٢) خواندمير : دستور الوزراء ص ٢٩٦ طهران

(٣) براون : ٣٢/٢

على اورغون اقضاء جميع المسلمين من جميع المناصب الرئيسية في الدولة بل والقضاء على الإسلام نفسه . وقد أعد خطة لتجريد حملة إلى مكة وتحويل الكعبة إلى بيت للأصنام . ودبر خطة للقضاء على كبار الشخصيات الإسلامية في البلاد فأرسل نجيب الدين الكحال اليهودي إلى خراسان ومعه قائمة سوداء بأسماء حوالي مائتين من كبار المسلمين هناك ليتولى القضاء عليهم . وأرسل قائمة أخرى إلى شيراز تضم أسماء سبع عشرة شخصية إسلامية بارزة من شخصيات شيراز للتخلص منهم . ومع أن أرغون عندما تولى الملك كان يكره إراقة الدماء إلا أن هذا الوزير سعد الدولة حجب إليه إراقة الدماء ، وقتل الأبرياء لأقل شبهة وأدنى فتنة . ولكن ما إن أوشكت أهداف سعد الدين على بلوغ القمة حتى وقع اورغون مريضاً في تبريز . وعندما تبين أن شفائه ميئوس منه لم ينبج سعد الدولة من يد أعدائه فأعدم قبل أيام من وفاة أرغون في ٩ مارس ١٢٩١ . وكان مقتل سعد الدولة فرصة للتخلص من اليهود حتى ذبح كثير منهم . وفي بغداد وحدها قتل من زعماء اليهود ما يزيد على مائة . ويعلن الشاعر زين الدين علي بن سعيد فرحته بهذه المناسبة في قوله : (١)

نحمد من دار باسمه التلك
هذى اليهود انقروا قد هلكوا
وقارن النحاس سعد دولهم
وافترضوا في البلاد وانتهكوا
وشنت الله شمل ملكهم
وبالحسام انصقيل قد سبكوا
... الخ هذا الشعر

٩ - المغول : التيموريون :

٧٧١ - ٩٠٦ هـ / ١٣٦٩ - ١٥٠٠ م

ولد تيمور في قرية خواجه ايلغار من أعمال كش . وروى أنه لما ولد

(١) براون : ٣٤/٣ بالشعر منقول عن تاريخ وصال

كانت كفاه مملوءتين بالدم . ولما رجعوا إلى أهل العلم اختلفوا في تفسير هذه الظاهرة ولكنهم اتفقوا على أنه سيصبح جباراً عتياً (١) . وقد ذكرت المصادر قصة أخرى شبيهة بهذه عند مولد بنجكيزخان . وقد ذكرنا قصة بنجكيز فيما سبق نقلاً عن حبيب السير (٢) . ووضح أن هذه القصص إنما كانت توضع للعتاء بعد ما يرتفع شأنهم لتكون كالبشير بعظمتهم .

- وكان مولد تيمور في ٢٨ شعبان سنة ٧٣٦ هـ / ١١ من ابريل سنة ١٣٣٦ م . وتختلف المصادر في أصله ونسبه . فبعضها ينسبه إلى ملوك المغول القدماء (٣) . وينسبه بعضها إلى قبيلة برلاس التركية (٤) . أما لين بول فيصل نسبه إلى بنجكيزخان (٥) . ولكن ابن عريشاه يردد في حقيقته أصله ونسبه بين أكثر من رأى ، فبينما يقول ان أباه كان اسكافياً فقيراً جلدأ ، وأنه في شبابه حاول أن يسرق إحدى الأغنام فضربه الراعى بسهم أصابه في كتفه ثم ثنى عليه بسهم آخر في فخذه فأصابها هى الأخرى ، وأصبح بذلك مصاباً في يمينيه الكتف والتخذ (٦) . تراه في موضع آخر يقول إن الأصح أن أباه ترغاي أحد أركان دولة السلطان وأنه يتصل في نسبه بنجكيزخان (٧) . وترغاي هذا كان أميراً من قبيلة برلاس تولى حكم مقاطعة كش وملحقاتها (٨) . ووضح من هذا الاختلاف ، ومن تردد ابن عريشاه نفسه وترجيحه اتصال نسب تيمور بنجكيزخان عراقه أصله .

ويذكر ابن عريشاه في نشأة تيمور أن الراعى بعد أن أصابه بالسهم

(١) ابن عريشاه : عجائب المقلور : ص ٦ ط رادى النيل بالقاهرة

(٢) راجع أول ص ٥١ من هذا البحث

(٣) عباس الغزوى : تاريخ العراق فيما بين احتلالين ٢٦٢/٢

(٤) Skrine & Ross : Heart of Asia p. 168

Sykes : A History of Persia p. 65

(٥) Lane-Poole : Mohamedan Dynasties p. 265

(٦) عجائب المقلور : ص ٦

(٧) نفس المصدر : ص ٨

(٨) Skrine & Ross : p. 168

حمله إلى والي هراة الأمير حسين الذي أمر بتعذيبه وقتله . ولكن ابنه غياث الدين شنع فيه واستودبه من أبيه . ولم يكن الأمير حسين مقتنعاً بوجهة نظر ولده غياث الدين في العفو عنه ، ولكنه مع ذلك قبل شفاعته وعفاه عنه . وأخذ ابن السلطان يقوم بعلاجه ، ورعايته حتى شفى واشتغل بعد ذلك بخدمة ابن السلطان وبذل في هذه الخدمة غاية الجهد حتى ارتفعت مكانته عنده . وقد وجهه السلطان إلى نائبه في خيستان ، وكان قد عصى ، فقبض عليه تيمور وأخضع البلاد فازداد بهذا قدره عند السلطان . وقيل إنه ظل يخدم ابن السلطان حتى إذا توفي أبوه وانتقل الملك إليه ثار عليه (١) واستولى على هراة . وكان جزاء السلطان منه أنه حبسه حتى مات في محبسه من الجوع والظما .

غزواته لإيران :

غزا تيمور إيران ثلاث مرات : كانت غزواته الأولى سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م حينما أخضع خراسان وخراسان ومازندران .

وكانت غزوته الثانية في سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ - ١٣٨٥ م عندما غزا آذربيجان ، عراق العجم ، جورجيا . وانتهت هذه الغزوة بخضوع شيراز ومنبجة أصهبهان التي قتل فيها ٧٠,٠٠٠ .

وكانت غزوته الثالثة والأخيرة في ٧٩٥ هـ / ١٣٩٢ م عندما أخضع فارس مرة أخرى بعد القضاء على الأسرة المظفرية والسربدارية في سبزوار ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م والكرك في هراة ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ م .

وكانت إيران بعد انقضاء دولة الإيلخانيين مقسمة بين أربع دويلات ؛ المظفريون الذين كانوا يحكمون في فارس والعراق العجمي وكرمان ، والجلالرية في بغداد وآذربيجان ، والسرباديون في سبزوار ، والكرك في هراة وكلاهما في الشمال الشرقي .

(١) عجائب المنقول : ص ١٠٠٩

وقد بدأ تيمور يغزو إيران في ربيع ١٣٨١ م بينما كان عمره ٤٥ سنة وكان اهتمامه في هذه الغزوة موجهاً إلى خراسان . وفيها سلمت له سرخس ثم استولى على بوشخ . وبعد ذلك سقطت هراة وسلم غياث الدين ببر على الحاكم التركي . وبعد ذلك جاء دور طوس واسفرايين التي سواها بالأرض وقتل أكثر أهلها .

وفي ربيع السنة الثمانية ١٣٨٢ م واصل غزواته في بلاد إيران .

وفي سنة ١٣٨٣ م قام بغزوة ثالثة ضد سجستان وما زندران . وفي حوالى نهاية اكتوبر استولى على سيزوار وحطم قلعتها وأسر ما يقرب من ألفين من أهلها . وبعد أن تلقى خضوع فراه استولى على زره حيث ذبح معظم حاميتها وشيد من جاجهم أهراماً . وفي ديسمبر سقطت سجستان ولم يترك فيها شيئاً دون أن يسليه . وكان أهلها قد خرجوا اليه يطلبون الصلح فوعدهم بالصلح إذا سلموا كل ما عندهم من الأسلحة ففعلوا . ولما تأكد أن المدينة قد غدت من السلاح فارغة وضع السيف في أهلها ثم خرب المدينة وجعلها خرائب وأطلالا . وقد أظهر الأهالي شجاعة فائقة في الدفاع عن مدينتهم رغم الخسائر الفادحة التي تكبدوها ولم يسلموا من الذبح في نهاية الأمر . ويذكر سايكس أنه عندما زار سجستان لم يجد بها أكثر من قرية في كل المقاطعة التي كانت في يوم من الأيام مشهورة بثروتها عامرة بمبانيها حالية بعلمائها (١) . وهذا غريب مع امتداد الفترة الزمنية بين الحادثتين . وفي السنة التالية لغزو سجستان اتجه إلى استراباد . وعند ذلك أخضع مقاطعة مازندران واستولى على الري وأخضع الولايات الواقعة على بحر خزر وشمال إيران حتى سلطانية في سنة ١٣٨٥ م . وبعد ذلك بسنتين احتل آذربيجان وسيطر على جورجيا . وكانت أصفهان غايته بعد ذلك فحاصر المدينة وخرج اليه أهلها وتصلحوا معه على أموال يدفعونها اليه . وتفرق رسله ومحصلوه ليجمعوا تلك الأموال من الأهالي فكانوا يعيشون في المدينة فساداً

(١) سايكس : ص ٦٧

ويعبثون حتى إذا ضاق أهل أصفهان بهذه الحال هجموا على رجال تيمور وقتلوا منهم نحو ستة آلاف . ولما بلغ تيمور ما فعله الأصفهانيون برجاله توجه إليهم على الفور في شدة الغيظ وأمر بالقضاء على المدينة قضاء تاماً فلم يبق فيها حياة ، ولا عمارة ، ولا زرعاً ، حتى الأطفال لم يرحمهم وجعلهم لسناك الخيل (١) . وبلغ عدد القتلى في أصفهان بعد تلك المذبحة ٧٠,٠٠٠ كانوا يجمعون جثثهم ويجمعون منها أهراً ومآذن . وكان هذا في يوم الاثنين ١٨ من نوفمبر سنة ١٣٨٧ م .

ثم واصل تيمور بعد ذلك سيره إلى شيراز التي أذعن له في الشهر التالي (ديسمبر ١٣٨٧) . ويزعم دولتشاه أن اللقاء تم في هذه الغزوة بين تيمور وحافظ الشاعر الشيرازي المشهور .

وبعد ستة أشهر اتجه الفاتح المغولي إلى جنوب بلاد الفرس حيث قابله شاه منصور المظفري في عدد من فرسانه يبلغ ٤٠٠٠ فارساً . وكان مصيره الهزيمة والقتل في النهاية .

وعندما غزا تيمور الهند كان قد بلغ سن السبعين . ومع ذلك فقد غزا بعد ذلك آسيا الصغرى واستولى على حلب ودمشق ولم يحاول غزو مصر .

ومات تيمور لنك بعد ذلك بمدة وجيزة عندما قاد حملة ضد امبراطور الصين ودفن في شمرقند . وكانت وفاته سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م . وله من العمر تسع وسبعون سنة .

وقد امتدت امبراطوريته من دلهي إلى دمشق . وبن بحر آرا إلى الخليج الفارسي . وضمت امبراطوريته أغلب أجزاء إيران وأفغانستان بالإضافة إلى المقاطعات الواقعة فيما وراء النهر .

(١) عجائب المتأدور : ص ٣٧

وقد أورد ابن عرب شاه معلومات قيمة تنسر لنا أسباب هذه الانتصارات العسكرية التي كان يحرزها تيمور ، فانه لم يكن يتصد بآدم من البلاد الا بعد أن يكون عيونه فيها قد أنهوا اليه أخبارها وأحوال أهلها خصوصاً الرؤساء والأمراء والكبراء . فكان لهذا إذا حل ببلد واجتمع بأهلها سأل عن فلان وفلان ، وعما تم في النزاع بين فلان وفلان فيهم الحاضرون من ذلك الرجل الذي يعرف عنهم كل شيء (١) .

وكانت له في الحروب ووضع الخطط أساليب تدل على الدهاء والمكر ومن عادته قبل كل حرب أن يجمع رجاله ويعرض عليهم الأمر ويتلقى فيه مشورتهم حتى إذا انتهت الآراء وانفض المجلس عاد ودعا خاصته ومقربيه إلى مجلس سرى آخر . وأعادوا طرح الموضوع من جديد . وناقشوا وتباحثوا حتى يخرجوا فيه برأى قد يخالف الرأي الأول . وهذا الرأي الأخير يبقى سرّاً فلا يعرفه أحد من حضروا المؤتمر الأول . وبذلك يضمن لخططه السرية الكاملة .

ثم كان إذا استقر رأيه على جهة بقصدها أعلن أنه يقصد جهة غيرها ليحول الأنظار عن مقصده الحقيقي ويضلل العيون والجواسيس عن وجهته التي يتجه إليها فعلاً . ثم لا يلبث بعد ذلك حتى يفجأ عدوه من حيث أمن واطمأن .

وكان في بعض الأحيان يتظاهر بالضعف والتراجع ليستدرج عدوه إلى المكان الذي يريد أن يحاصره فيه (٢) .

ولم بجانب هذه المهارة في القتال وسعة الاطلاع بأحوال البلاد وأهلها كان عسكره أيضاً من نوع خاص أوتي القدرة الفائقة على تحمل المشاق والاكتفاء بالقليل والصبر على المكاره ومعرفة البلاد وما فيها من خيرات

(١) عجائب المنثور : ص ٢٢١

(٢) نفسه ص ٢٢٢

وكنوز . ولا بأس هنا في أن نقبس من كلام ابن عرب شاه حين يتحدث عن براعة عسكري تيمور فيقول : (ربما يمرون بقفراء ، ويجيزون بمهمه صحراء ، فيقف بعضهم ثم تراه ينظر إلى أرض ذلك المكان و تراه ثم يقول ليس هذا الثرى من هذا الثرى ثم ينزل عن دابته ، ويأخذ من ذلك التراب ويشمه ، ثم يلتفت إلى جهاته الأربع ، فيقصد منها جانباً ويومه ، ثم لا يزال يسير بمن معه من الأعوان حتى يصلوا إلى مكان فيحفرون ويخرجون كمين الدفائن وما في ذلك المدائن من المغلات والخزائن . وكذلك إذا وصلوا إلى عمائر . أو مروا على مقابر يتوجهون إلى الخبء وكائهم وضعوه بأيديهم ... وربما يجيئون إلى مقام مر على ساكنه فيه أيام . ومضى عليه فيه شهر وأعوام ، وفيه شيء دطمور لم يكن لصاحبه وساكته به شعور ، فبجرد دخوله إليه ينتع ذلك عليهم . ويطلعون عليه . وحين يطالع ساكنه على ذلك يأكل ندانة وحسرة يديه ... وكانوا يحملون البقر ويركبونها ، ويسرجون الخيل ويلجؤونها .. ويطعمون الجمل لحم الكلب والحمل ، ويعاضون عن شعير الدرس بفتح الأرز والدخن والزبيب والعسل وربما أعوزهم ذلك في السفر فأضعموا دوابهم لحاء الشجر» (١) .

وكان عكره يضم خليطاً من أهل الملل المختلفة ؛ ففهم عبدة الأصنام من الترك ، وفهم عبدة النار من الأعاجير . وفهم الكهنة والسحرة (٢) .

ولم تكن هذه الاختلاطات في الملل والعقائد تؤثر شيئاً في قدرة هذا الجيش على القتال . ذلك لأن النظام العسكري الذي كان يفرض على هؤلاء العسكريين - فضلاً عما جأوا عليه وكتسبوه من الصفات - أن يكونوا جنوداً ممتازين ومحاربين أشداء . وكان المغولي إذا دعى للجندي والقتال لم يستطع التأخر لأنه يعلم أن عاقبة التأخر في ثمة هذا الواجب كانت الصلب أو الذبح .

(١) عجائب المقثور : ص ٢٣٤

(٢) نفقة : ص ٢٣٧

وكان الجندي المغولي مستعداً دائماً للقتال مسرعاً دائماً لتلبية الأمر .
ولم يكن العقاب يمل بالجندي المغولي المقصر وحده بل كان يشمل أهله
ويسرى على قومه وعشيرته (١) . وهو عقاب وحشي رهيب . ولذلك
كانت الطاعة العمياء أسلم الطرق للنجاة . ومن هنا برزت هذه الصفة
في المحارب المغولي .

وقد رتب الجندي المغولي حياته على الحرب والقتال . ومن الجنود
المغول من ولد وباغ وتزوج وأنجب وهو في رحلة وسمر لم يستقر ولم
يسكن الحضر (٢) .

وكان الجندي المغولي خشياً جليداً . إذا خرج للقتال حمل معه جرابه وفيه
أسر الزاد لنفسه . والعليقة للفرسه . وكان قادراً على الصوم الطويل
راضياً إذا أفطر بما يسد الرمق . كما كان يكتفي من الثياب بما يستر العزرة
ولو كان رثا خلقاً (٣) .

ولم تكن الحرب صناعة الرجال وحدهم بل كانت المرأة المغولية تشارك
فيها مشاركة فعالة . وكانت المرأة المغولية تحسن استخدام كافة الأسلحة
من طعن بالرمح . وضرب بالسيف ، ورشق بالنبال . ولم يكن يمنعها
من ذلك أقصى الظروف الطبيعية التي تتناوب المرأة . فإذا كانت إحداهن
حاملًا وحانت ساعة وضعها تنحت جانباً من الطريق ، وتزلت عن دابتها ،
ووضعت حملها ثم لفته وحملته معها ، وركبت دابتها . وأسرعت تلحق
بقومها (٤) .

• • • •

(١) نفسه : ص ٢٤٣

(٢) نفسه : ص ٢٣٩

(٣) نفسه : ص ٢٤٣

(٤) عجائب المتنوير : ص ٢٣٩

وبمجرد أن مات تيمور بدأ العثمانيون والجلاليريون والتركمان في استرداد ممتلكاتهم التي كان قد سلبها منهم تيمور . ومع أن خلفاءه سيطروا على شمال إيران لمدة قرن إلا أنهم لم يستطيعوا مواجهة القوة الجديدة الناشئة ، قوة الصفويين .

وكانت المنازعات بين خلفاء تيمور سبباً في القضاء على الدولة . وقد استطاع شاهرخ أن يقف في وجه المطامع والمنازعات لمدة . وكان شاهرخ أعظم أبناء تيمور لنك واستطاع من هراة أن يحكم إيران وأواسط آسيا لمدة نصف قرن تقريباً . وربما ساعد شاهرخ وأكسيه خبرة بالحكم أنه قضى ثمانى سنوات في عهد والده يشترك معه في حكم ممالك خراسان وتوفي سنة ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م في نيشابور .

وعندما قتل ألق بيك سنة ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م استباح التركمان هراة ، واستباح قبايل الأربك (الشيبيانيون) سمرقند (١) .

أما من جاء بعد ذلك من أمراء هذه الأسرة فقد كانوا يعيشون في شجار حتى انتهى أمرهم ولم يستطع خلفاؤه أن يحافظوا على كيان المملكة أمام الصفويين في إيران والشيبيانيين في وراء النهر .

ويمكن أن نعتبر أن نهاية هذه الدولة اقترنت بنهاية عهد أبي سعيد ٨٥٥ - ٨٧٢ هـ / ١٤٥٢ - ١٤٦٧ م . وكان لأبي سعيد هذا أحد عشر ولدا أشهرهم بابر الذي رحل إلى الهند ، وأسس هناك سلطنة مغولية إسلامية كان لها شأن عظيم في تاريخ الإسلام بالهند .

وكما انتهت الدولة المغولية الأولى في إيران وهي دولة الإياخانيين بموت أبي سعيد فكذلك يمكن تأريخ نهاية دولة التيموريين بنهاية عهد أبي سعيد .

١٠ - الأتراك والحضارة الإيرانية ؛

اختلف رأى العلماء فى موقف الأتراك من الحضارة . وقسا فريق من هؤلاء العلماء عليهم . ومن هؤلاء جوستاف لوبون الذى يذكر ان عظمة الأتراك لا تتجلى فى غير الحرب ، وأنهم وإن كانوا قد استطاعوا أن ينشئوا دولا كبرى الا أنهم عجزوا عن خلق حضارة أو ابتكارها . ويذكر أن أقصى ما استطاع هؤلاء الأتراك هو أن يستفيدوا من حضارة غيرهم كالعرب وحتى هذه الحضارة العربية تسرب اليها الضعف والانحطاط عندما أصبحت مقاليد الأمور فى قبضة هؤلاء الأتراك . وعندما انتصر السلطان سليم على المصريين وجعل من مصر ولاية عثمانية أسرعت العلوم والفنون إلى الانحطاط (١) ويقول جوستاف لوبون فى موضع آخر (لكن الترك وإن كانوا أهل حرب وقتال لم يكونوا أهلا ليصعدوا فى سلم الحضارة ولم يقدرُوا على الانتفاع بتراث العرب المغلوبين الثقافى فضلا عن إيمانه . قال العرب : لا ينبت العشب على أرض يغطاها الترك . والحق أنه لم ينبت فسترى فى فصل آخر درجة الانحطاط التى هبطت اليها دولة العرب القديمة بين أيدي السادة الجدد » (٢) .

ويقف بروكلمان منهم نفس الموقف إذ يقول إن الأتراك قد ألحقوا بحضارة إيران والعراق أكبر الأذى . وجاء من بعدهم أنسابوهم المغول . أو التتار فقصوا على البقية الباقية من تلك الحضارة (٣) .

أما رأى تولدكه فقد عرض له بارتولد فى كتابه عن تاريخ الترك فى آسيا الوسطى . وذكر بارتولد ان تولدكه قد بالغ كثيراً حين وصف العنصر التركى بأنه عدو للحضارة . ويرى تولدكه أن استيلاء الترك على بلاد الدولة السامانية كان أفدح مصيبة حلت بتلك البلاد . ويبدو أن هذا الرأى كان مسيطر أعلى تولدكه إذ كرره فى كتابه عن الإسلام Der Islam

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٧٠٠ ترجمة عادل زعتير ط ثانية

(٢) نفس المصدر : ص ١٨٢

(٣) بروكلمان : الامبراطورية الإسلامية وانحلالها : ص ٢٥٣ الترجمة العربية بيروت ١٩٤٩

وقال إن سيطرة الترك على بلاد العالم الاسلامى بعد القضاء على ائندولة السامانية الايرانية كان نكبة هائلة فى التاريخ .

ويدافع بارتولد عن الأتراك فى أكثر من موضع ويخالف نولدكه فى رأيه ، ويضرب على ذلك مثلاً خوارزم فإنها لم تكن فى القرن الثالث عشر أى فى عهد الحكم التركى أقل حضارة عما كانت عنه فى القرنين العاشر والحادى عشر أى قبل الحكم التركى . ويعتبر بارتولد أن ازدياد انتشار المذهب المعتزلى فى خوارزم بعد غزو المغول — وهو المذهب الذى يقوم على لإعمال الفكر والعقل — دليل على أن الحياة الفكرية والعقلية فى خوارزم لم تصب بالعقم خلال حكم الترك . وفى موضع آخر يذكر بارتولد أن تقدم الشعوب أو تأخرها لا يمكن أن ينسب لجنس بعينه أو لمعتقدات دينية أو لظروف بيئة طبيعية معينة . ولا يمكن — فى رأيه — أن تكون هذه العوامل سبباً فى حضارة شعب أو تأخره . ويعتبر بارتولد أن الاتصال بين الشعوب والأجناس ، وتبادل العلاقات من أكبر عوامل البرق ، وأن العزلة من أكبر عوامل التأخر . وإذا كان الجنس الهندى الأوربى (١) قد تفوق على غيره من من الأجناس فما ذلك الا لأنه على علاقات أكبر بغيره عن الأجناس . وتلعب التجارة هنا دوراً هاماً فى الموضوع . والذى يسيطر على التجارة وعلى تبادل السلع بين شعوب العالم يضمن لنفسه تفوقاً أكبر . ولو أن هذه الأقوام التى تنسب إلى الجنس الهندى الأوربى عاشت فى عزلة عن العالم لظلت إلى اليوم متأخرة . وحينما كان المسلمون يسيطرون على طرق التجارة كان لهم التفوق على العالم المسيحى . ومنهما تكن المزايا التى تتمتع بها أوربا من حيث موقعها الجغرافى ، وطبيعة بلادها فإنها لم تكن لتؤدى إلى تفوق أوربا ما لم تهتم أوربا بتنمية علاقاتها المدنية بالعالم . وخلاصة ما يراه بارتولد أن رقى الأمم لا يعود إلى الجنس أو الدين أو البيئة وإنما يعود إلى علاقاتها بغيرها من الأمم . هذه العلاقات التى يلعب الاقتصاد فيها دوراً هاماً (٢) .

(١) المعروف أن هذا التعبير يطلق على وحده لقوية معينة

(٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٧ ترجمة حمزة طاهر

ويبدو أن العلماء الذين نسبوا إلى الجنس التركي الوقوف في وجه الحضارة أو القضاء عليها قد ظلموا هذا الجنس . ويبدو أيضاً أنهم تأثروا بالفظائع التي ارتكبها المغول في غزواتهم على العالم الاسلامي ، تلك الغزوات التي قضوا فيها على كثير من معالم الحضارة بل ومعلم الحياة نفسها . ونسى هؤلاء العلماء أن الأتراك الذين فعلوا هذا كانوا يعيشون قبل ذلك في مواطنهم في عزلة تامة ، وأنهم في ذلك الوقت عندما غزوا العالم الاسلامي كانوا يمارسون اتصالهم بالعالم الخارجي لأول مرة ، وأنهم لم يفهموا في أول الأمر - وهم قبائل رحل - معنى لهذه الحضارة . بدليل أنهم بعد ذلك عندما اتسعت دائرة اتصالهم بالعالم الخارجي ، وازدادت صلاتهم بغيرهم من الأقوام الأخرى كالإيرانيين والعرب عرفوا معنى الحضارة وأسهموا بنصيب في ازدهارها . وقد أثرت الحياة الإسلامية بمعتمداتها وآدابها العربية والفارسية تأثيراً كبيراً فيهم .

ولكن نوضح الأمر ينبغي أن نذكر موقف الأتراك من الحضارة الإسلامية . وهذا موضوع طويل يحتاج وحده إلى مؤلف ضخم . وبكفينا هنا في هذا الفصل الختامي الموجز أن نشير لإشارات سريعة إلى حالة الحضارة الإسلامية في فروعها المختلفة في ظل الحكم التركي في إيران .

وأبرز موضوع يعيننا هنا من موضوعات الحضارة الإسلامية في إيران هو الدين الاسلامي نفسه - إذ هو قوام تلك الحضارة - وموقف الحكم التركي منه .

انتشر الإسلام بين القراخانيين في القرنين التاسع والعاشر الميلادى نتيجة لسيطرة الدولة الإيرانية السامانية الإسلامية على أواسط آسيا . وفضلاً عن هذه السيطرة السامانية وما فرضته على بلاد الأتراك من انتشار الإسلام والحضارة الإيرانية فقد كان هؤلاء البدو قبائل بعيدة عن التحضر ، ولم تكن تستغنى عن الاتصال بحيرانها الإيرانية المتحضرين لدواعي التجارة .

ويذكر بارتولد عن هؤلاء القراخانيين أنهم كونوا أول مملكة تركية

إسلامية وأنهم عندما أسلموا حسن إسلامهم وكانوا أشد حرصاً عليه وتمسكاً بشعائره من غيرهم من الحكام المسلمين في غرب آسيا (١) .

وكانت الدولة الغزنوية أولى الدول التركية التي حكمت لإيران . ودور السلطان محمود في نشر الإسلام وتوطيد دعائمه في بلاد الهند مشهور في التاريخ . وقد بلغت غزوات محمود في بلاد الهند اثنتي عشرة غزوة بين سنوات ٣٩٢ - ٤١٥ هـ / ١٠٠١ - ١٠٢٤ م . ويذكر ابن الأثير أن الدافع الذي دفع هذا السلطان لغزو الهند أول الأمر كان التقرب إلى الله والتكفير عما كان منه من قتال المسلمين (٢) . ولا شك في أن محموداً بعد أن غزا الهند أول مرة أدرك ضعف تلك البلاد ودرجة ثرائها فأغراه هذا بمثابة الفتح والغزو . وكان في كل غزوة يعود محملاً بالغنائم . ويهيمه ابن الأثير بأنه كان محباً للمال فيقول عنه : « لم يكن فيه ما يعاب إلا أنه كان يتوصل إلى أخذ الأموال بكل طريق » . ويستشهد على هذا بحادثة صغيرة مؤداها أن محموداً اتهم رجلاً غنياً بأنه قرصن ليتوصل إلى أخذ ماله . ولما افتدى الرجل نفسه بالمال برأه محمود من تلك التهمة (٣) . ولا أدري كيف أجاز ابن الأثير إطلاق هذا الحكم العام على محمود الغزني لحادثة فردية كهذه يحتمل أن تنهار وقائعها عند التحريص الدقيق . وفي تاريخ محمود من الوقائع العامة المسلم بها تاريخياً ما يناقض هذه الدعوى . وأوضح مثل لهذا ما فعله عندما استولى على بيت أصنام الهنود الذي كان فيه معبودهم الأكبر «سومنا» فإنه عندما هم بتحطيم هذا الصنم فرع الهنود . وأسرعوا إليه يفتدون معبودهم بكل غال ونفيس لديهم ، وقدوا إليه الإلحاح من الأهل والنساء لكي يترك لهم معبودهم . وكانت هذه الأموال المعروضة من الضخامة بحيث أغرت أعوان محمود فنصحوه بأن يقبل العرض ويترك الصنم . وكان في إمكانه أن يقبل ولكنه رفض وصمم على تحطيم الصنم . أفهذه

(١) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٨٤

(٢) ابن الأثير : حوادث سنة ٣٩٢

(٣) نفسه : حوادث سنة ٤٢١

الحادثة أبلغ في الدلالة على شخصية محمود أم تلك الحادثة الفردية الصغيرة التي رواها ابن الأثير وبنى عليها حكمه ١؟

وكان محمود يميل إلى دراسة الفقه . وتذكر بعض المصادر اسمه بين الفقهاء . وفي بعض المصادر أنه ألف كتاباً في الفقه ؟ (١) وإلى جانب الفقه كان ولوعاً بعلم الحديث . وكثيراً ما كان يحقّد المجالس لسماع الأحاديث من الشيوخ كما كان يدعو العلماء من أتباع المذاهب المختلفة إلى مجلسه للمناقشة والمناظرة (٢) .

وقد جعلت انتصارات محمود في غزواته الدينية في بلاد الهند منه بطلاً شعبياً تروى عنه القصص وتنظم فيه الأشعار . ويبدو الباعث الديني واضحاً في نظم الأشعار التي قيلت في مدح السلطان .

• • •

وكان الأتراك السلاجقة هم أيضاً غيورين على الدين الإسلامي . وقد اتخذوا المذهب الحنفي مذهباً لهم كما كان يفعل السامانيون . وقد نشر هؤلاء السلاجقة راية الإسلام في غرب آسيا وانتصروا في صراعهم مع بيزنطة . وكان البيزنطيون قد انتهزوا فرصة الخلاف الذي وقع في العالم الإسلامي بين السنة والشيعة والذي بلغ مداه في عهد الدولة البويهية فاستولوا على بعض البلاد في سوريا وبن النهرين . وعندما صار الأمر كله في يد السلاجقة لم يسترد المسلمون ما فقدوه فحسب بل إنهم نشروا الإسلام في العالم البيزنطي .

ومنذ أن سيطر السلاجقة على آسيا الصغرى أخذت تلك البلاد تتأثر بالحياة التركية . وكان المجتمع هناك مكوناً من عناصر أهمها عنصر الأتراك الحاكمين ، وعنصر الإيرانيين الذي كان منتشرًا هناك ، ثم السكان الأصليون الإغريق . ولم يكن هناك خلاف بين المسيحية والإسلام . وكان المسيحيون

(١) شبلى النعماني : شعر العجم : ٣٥/١ الترجمة النارسية لفخر كيلاني

(٢) ابن خلكان : ١١٠/٢

والمسلمون يعيشون في وفاق . وانتشرت الحضارة الإيرانية في آسيا الصغرى باعتبارها الحضارة التي صادفها الأتراك السلاجقة في رحلتهم من الشرق إلى الغرب ونقلوها معهم عندما انتقلوا إلى آسيا الصغرى .

ولا ينبغي أن ننسى دور السلاجقة في كفاح الصليبيين . وكان خلفاء هؤلاء السلاجقة - وهم الأتراك العثمانيون - دور كبير في الفتح التي قاموا بها في أوروبا ونشروا الإسلام .

ولا داعي هنا لتفصيل موقف السلاجقة من الإسلام وحمايته من الضالين والمضلين ، فقد أشرنا إلى هذا من قبل وبيننا كيف كان وزيرهم نظام الملك يسعى جاهداً بتأييد من السلطان السلجوقي للقضاء على الفرق المنسدة التي تعمل للكيد للإسلام والنيل منه .

المهم أن ننظر الآن في موقف التتار أو المغول من الإسلام باعتبارهم أشد فروع الأمة التركية إضراراً بالعالم الإسلامي وحضارته . وهم الذين نسبت وحشيتهم إلى الجنس التركي كله حتى اعتبره بعض المؤرخين والعلماء - كما مر من قبل - نقمة على الحضارة البشرية .

إذا بدأنا بزعم هؤلاء المغول وجدنا أنه لم يتعرض لدين أحد . وكفل لأهل المال على اختلافهم حريتهم الدينية . ولم يعتنق هوديناً من الأديان (١) .

أما في إيران نفسها حيث حكم هولاءكو وذريته الذين يعرفون بالایلخانيين فإن الموقف تجاه الإسلام كان يختلف من ملك إلى آخر حتى عهد غازان حين استقر الأمر للإسلام .

فهولاءكو مثلاً ٦٥٤ - ٦٦٣ هـ / ١٢٥٦ - ١٢٦٥ م كانت زوجته الكبرى مسيحية من قبيلة قرابت الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية . وكان

(١) تذكر بعض المصادر أنه كان على دين البوذية (غزوى ٢٥٢/١)

لهذا السبب يعطلف على المسيحية وله علاقات طيبة مع البابا اسكندر الرابع الذى أرسل اليه فى سنة ١٢٦٠/٥٦٥٨ م يشجعه على اعتناق المسيحية .

وكان أباقاخان فى الحادية والثلاثين من عمره عندما تولى الحكم . وقد شجعته العناصر المسيحية وآزرته حتى تولى العرش . وتزوج من إحدى المسيحيات (ماريا ابنة ميشيل باليولوغوس) . ولهذا كانت صلته طيبة مع المسيحيين . - وبشير إلى هذا خطاب ادوارد الأول ملك إنجلترا إلى أباقاخان . وفى هذا الخطاب إشارة غامضة إلى عمليات يراد القيام بها فى فلسطين . ولكن أباقاخان لم يستطع أن ينفذ شيئاً فقد اختنفت آخر الإمارات الصليبية فى سوريا فى ذلك الوقت . كما أنه لم يستطع أن يقف فى وجه المماليك . وسرعان ما انتهى عهده بعد ذلك (١) . وكان أباقاخان على تفاهم تام مع البابوات وتبادل الرسائل مع أربعة منهم وهم كليمنت الرابع ، وجريجورى العاشر ، وبوحنا السادس والعشرون ، ونقولا الثالث . وقد حاول هؤلاء البابوات أن يدفعوه إلى اعتناق المسيحية . وقد اختلط فى هذه الرسائل الطابع الدينى بالطابع السياسى (٢) ولا شك فى أن المساعى المشتركة بينهما كان هدفها تدمير خطة سياسية دينية معاً للقضاء على الإسلام والمسلمين .

وجاء بعد أباقا أخوه الذى أراد أن يخدع المسلمين والمسيحيين معاً معاً فبينما كان اسمه الحقيقى نيقولا تراه يسمي نفسه عند ارتقائه العرش أحمد ولم يستطع نيقولا أو أحمد هذا أن يرضى الفريقتين . ولم يطل عهده اذ عزل بعد فترة وجيزة وحل محله ابن أباقا الأكبر وهو أرغون ٦٨٣ - ١٢٩٠ هـ / ١٢٨٤ - ١٢٩١ م .

وكان أرغون طرازاً جليداً ففى عهده ارتفع شأن اليهود بزعامة كبيرهم سعد الدولة الأبهري . وأصله من أبهر كما يدل لقبه وأكنه عاش فى مدينة بغداد مدة حيث خالط العرب والترك وبرع فى عدد من اللغات . واشتغل

(١) سايكس : ص ٦٣

(٢) براون : ١٨/٣

بعد ذلك بمهنة الطب إلى أن استطاع أن ينتظم في سلك أطباء أرغون (١) .
وحكم أرغون إيران حوالي سبع سنوات سيطر في خلالها وزيره اليهودي
سعد الدولة . وينسب إليه المسلمون أنه هو الذي وضع كل الخطط التي
كانت ترمي لتقضاء على الإسلام (١) .

أما بيدو (٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م) فقد كان ميالا إلى المسيحية يفضلها على
الإسلام وربما كان هذا سبباً من أسباب قتله .

أما غازان خان (٦٩٤ - ٧٠٣ هـ / ١٢٩٥ - ١٣٠٤ م) فهو من
الشخصيات البارزة حقاً في تاريخ الإسلام . وكن إسلامه نصراً للدين
فانه على أثر إسلامه دخلت القبائل المغولية في الاسلام ، وجعل الإسلام
دين الدولة الرسمي . ويقال إن الذي زين الإسلام لغازان الأمير نوروز
وكان من كبار شخصيات المغول وحكم كثيراً من المقاطعات الإيرانية
لمدة تسع وثلاثين سنة في عهد جنكيزخان وخلفائه . ويروي أنه عندما
نشب القتال بين غازان وبايدو طنب نوروز منه أن ينذر لله أن يعتنق الإسلام
إذا انتصر . وقد وفى غازان فعلاً بهذا النذر ، ففى ٤ من شعبان سنة ٦٩٤ هـ /
١٩ من يونيو ١٢٩٥ أعلن هو ومعه عشرة آلاف مغول دخولهم في الإسلام
وبعد أن أسلم عهد إلى نوروز بإبادة كل معالم الكفر في تبريز . وفى نوفمبر
سنة ١٢٩٧ استخدم الأمراء المغول العمامة بدلا من لباس الرأس القوي
الذي كانوا يستعملونه . وبدأ غازان يدخل على المجتمع المغولي تغييرات
جديدة تكسيه الطابع الاسلامي . فغير النقوش على العملة بما يتفق مع العهد
الجديد ، وأمر بهدم الكنائس المسيحية والمعابد البوذية في إيران . ولم يقو
رهبان الشامانية أو البوذية على تحدى المسلمين بعد ذلك ، وأخلت البيع
والمعابد مكانها للمساجد (٢) . وخير كهنة المغول المقيمين في إيران بن
الإسلام أو الرحيل عن البلاد أو التعرض للقتل . وبسبب تعصبه للإسلام

(١) خوافمير : دستور الوزراء ص ٢٩٦

(٢) راجع ص ٦٥ من هذا البحث

(٣) براون : ٤٤/٣

دبر له أعداء الإسلام من أشراف المغول وزعمائهم مؤامرة لقتله انتهت بالفشل وبمقتلهم هم . ولكي يفرق بين أتباع كل دين أمر النصاري أن يشدوا الزنار في أوساطهم واليهود أن يضعوا خرقة صفراء في عمامتهم (١) .

وكان غازان خان شيعياً . وقد أبدى اهتمامه بالشيعية في أكثر من مظهر إذ حفر قناة من نهر الفرات إلى قبر الامام علي بالنجف كما أنه حول أراضي كربلاء القاحلة إلى أراض خصبة ، وبني في المدن الكبرى كثير من دور الضيافة لاقامة أبناء علي . وسماها دور السيادات . وكان يسخو في الانفاق عليهم من أموال الأوقاف ويكثر من التردد على قبر علي والحسين (٢) .

أما الجايو محمد خدابنده (٧١٣ - ٧١٦ هـ / ١٣٠٤ - ١٣١٦ م) فكان يثق في أحد الفقهاء وهو جمال الدين بن مطهر ، فزبن له مذهب الرافضية ، وأفهمه أن أبا بكر وعمر إنما كانا وزيرين لرسول الله ، وأن علياً هو الذي يرث الخلافة . وشبه له الأمر بما هو حادث بين الملوك الذين يتوارث أبناؤهم عنهم الملك ، وأن وزراءهم لا يحق لهم أن يتازعوهم الملك . وكان خدابنده قريب عهد بالإسلام فاقتنع بهذا الكلام ، وكتب إلى الأقاليم يحمل الناس على الرفض فأجابه بعضهم ورفض بعض آخر كأهل بغداد وشيراز وأصفهان . ولم يستطع أن يفرض الرفض على الناس فرجع عنه بعد ذلك (٣) وقد نقل بعض المؤرخين أن اسم الساطان خدابنده (عبد الله) . ولما تشيع وحاول أن يفرض التشيع على الناس سماه أهل السنة «خربنده» (عبد الحار) تحقيراً له (٤) .

وفي عهد الجايو خدابنده حاول بعض الأمراء أن يصرفوه عن الإسلام ، ويعيدوه إلى دين أجداده الأولين . ولكنهم لم يفلحوا . وربما كانت هذه المحاولة هي آخر مظهر من مظاهر الوثنية المغولية في إيران .

(١) تاريخ العراق بين احتلالين : ٣٦٨/١

(٢) مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والإسلام ص ٣١

(٣) ابن بطوطة : ص ١٥٦

(٤) تاريخ العراق بين احتلالين : ٤٠٩/١

وبعد وفاة خدابنده تولى السلطان أبو سعيد بهادر خان (٧١٦ - ٨٧٣٦/ ١٣٠٤ - ١٣١٦ م) . وفى أيام هذا السلطان كان قدوم ابن بطوطه إلى بلاد ايران فى أوائل عام ٧٢٣ هـ .

أما تيمور فلم يكن له فى الحقيقة من الإسلام سوى اسم . وكان كما يقول ابن عربشاه معتقداً للقواعد الجذكيزخانية (قواعد الياسا) يعمل بها وينفذها مع ما فيها من مخالفة للشريعة الإسلامية . ولذلك فإن بعض العلماء وأئمة الإسلام قد أفتوا بخروج تيمور على الشريعة وكفروه (١) . ومع هذا فقد فقد كان يواظب على سماع النواريخ وقصص الأنبياء عليهم السلام بالفارسية لجهله بالعربية (٢) . وكما كان عسكر تيمور يضم خليطاً من عبدة الأصنام والمجوس وغيرهم من أصحاب المعتقدات المختلفة فقد كان يضم كذلك عدداً من العباد الصالحاء والزهاد الأتقياء . ويتضح مما كتبه ابن عربشاه أن تيمور كان يحرص على اصطحاب هؤلاء العلماء والزهاد معه وأنه كان يصطنع الحيلة معهم ليغريهم بملازمة عسكره (٣) .

وفى عهد تيمور ظهرت الطريقة الصوفية المعروفة بالنقشبندية .

وبما يذكر لتيمور بالخير أنه قتل فضل الله التبريزى أحد المبدعة وصاحب الجروفيه . وكان قد ظهر فى أيامه وزعم مزاعم كثيرة تهدف إلى إفساد الدين . ودعا تيمور إلى بدعته فقتله . وأمر شاه رخ بعد ذلك بطردهم من البلاد قبل أن يشتري فسادهم .

* * *

أما موقف الأتراك من بقية ألوان الحضارة كالعلم والأدب والفن فهذا ما نعرض له هنا بمجرد عرض سريع لتكامل الخطوط الرئيسية اللازمة فى تحديد الصورة العامة .

وأول هؤلاء الأتراك الذى حكموا إيران الغزنويون . وكان السلطان

(١) عجائب المقثور : ص ٢٢٠

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) نفس المصدر : ص ٢٤١

محمود الغزنى حريصاً أشد الحرص على رعاية العلم والأدب والقرآن في مملكته . وكان يعزى العلماء والأدباء بالانتقال إلى بلاطه . وكان يرى أن بلاطه وهو أعظم البلاطات الموجودة في ذلك العصر . وأعلها شأنًا أحق بأن يجتمع فيه من العلماء والأدباء ما يفوق به غيره . ولا شك في أن بعض الأمراء المحليين كانوا يستجيبون إلى محمود تمامًا وخوفًا منه فيوفدون إلى بلاطه من يرى إيفاده من علمائهم وأدبائهم . ولكننا لم نعرف أنه استخدم في سبيل ذلك القوة . محدثا نظامى العروضى السمرقندى عن بلاط أبي العباس مأمون ملك خوارزم ومن اجتمع فيه من العلماء والفضلاء . ويذكر أن السلطان محموداً حين سمع باجتماع هؤلاء العلماء لدى البلاط المأمونى كتب يطلب إيفاد بعضهم إليه ليزدان بهم بلاطه . وقد قبل بعضهم بالفعل فورد على البلاط الغزنى أبو نصر العراقى وكان من علماء الرياضيات ، وأبو الخير الخوارزمى وكان ممن برعوا في الطب ، وأبو ربحان البيرونى وهو من الشخصيات العلمية البارزة في علم النجوم . بينما رفض ابن سينا وأبو سهل المسيحى من أهل الحكمة القدوم إلى بلاط السلطان محمود . وكان محمود يستطيع أن يتعقبهما ويجبرهما على ملازمة بلاطه ولكنه لم يفعل . وكان يعتبر أن إعراض ابن سينا خسارة كبيرة لبلاطه (١) . وانتهت رحلة ابن سينا بعد خروجه من بلاط خوارزم إلى بلاط شمس المعالى قابوس بن وشكير حيث لقي الرعاية والترحيب هناك . أما المسيحى فقد لقي حتفه في الصحراء أثناء هبوب عاصفة رملية .

وكان محمود نفسه شاعراً ، وقد نسبت إليه أشعار مختلفة في الغزل والرائاء والبطولة . وتورد كتب التذكار ما بقى له من هذه الأشعار . وقد انبغى حوله عدد كبير من الشعراء كان كبيرهم العنصرى الشاعر المعروف .

وكما فعل السلطان محمود في بلاطه بغزنه من رعاية العلم والعلماء

(١) جهاز مقالة : الحكاية الخامسة من المقالة الرابعة .

والأدباء كان الأمراء المخلعون يتنافسون بدورهم في اجتذاب أهل العلم والأدب . ومنهم في نيشابور أبو المظفر نصر - أخو السلطان محمود - . وكان أبو المظفر هذا يهتم بأهل الأدب والعلم حتى اجتمع منهم في بلاطه عدد كبير مدحوه . حياته ورثوه في مماته بالكثير من الأشعار (١) .

* * *

وأما في عهد المغول فيلاحظ براون (٢) أنه على الرغم مما عانته البلاد من قتل العلماء ، وتخريب المكتبات ودور العلم إلا أن العلم لم يقض عليه . وكانت بعض فروع العلم أحسن حفظاً من بعضها الآخر . فبينما أهمل المغول الاهتمام بالدراسات الخاصة بالفلسفة أو العقيدة أو توجيه العناية إلى الشعر نراهم يهتمون ببعض فروع العلم الأخرى كالطب والتنجيم والتاريخ وكان للتاريخ مكانة ممتازة في قلوبهم فتدأ كانوا يرون أن هذا الفرع من العلم هو الذي يحفظ أخبارهم ويخلد ذكركم .

وكان تيمور - كما أشرنا من قبل - يكثّر من الاستماع إلى التواريخ . وسير الملوك حتى حفظها من كثرة التكرار . ولذلك كان إذا أخطأ أحد أمامه في بعض المعلومات التاريخية رده إلى الصواب بينما لم يكن يهتم بالشعراء . ومن المعروف عنه تخريبه قبر الفردوس صاحب الشاهنامه . وتنقل بعض المؤلفات أن تيمور قال على قبر الفردوس هذا البيت :

سر از کور برادر و ایران بین

ز دست دلیران توران زمین

. ومعنى هذا البيت : أخرج رأسك من القبر وأنظر إلى إيران وما يعانیه شعبها على يد أبطال الـورانيين . وهذا البيت يصور نقمة التورانيين على الإـيرانيين وشعور العدواة المتبادل بينهما . ولكن يبعد أن يكون تيمور

(١) العتي : ٢٣٠/١

(٢) براون : ١٦/٣

هو صاحب هذا البيت فقد عرف عنه أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ومن المستبعد أيضاً أن يكون موهوباً في الشعر دون أن تشير إلى ذلك المصادر .

على كل حال كانت المؤلفات التاريخية في العهد المغولي تحتل مكان الصدارة . وفي الفصل الثاني من الجزء الثالث من كتاب براون عن تاريخ الفرس الأدبي (تاريخ أدبي لفرس) A literary History of Persier تفصيل واف عن المصادر التاريخية التي ألفت في عهد الایلخانيين . وكذلك في البحث الذي كتبه أستاذنا المغفور له الدكتور إبراهيم أمين الشواربي ونشره في مجلة كلية الآداب بالقاهرة المجلد السابع ١٩٤٤ وعنوانه «مصادر فارسية في التاريخ الإسلامي» .

وهذا بيان موجز لأهم المصادر التاريخية التي ألفت في هذا العهد :

تاريخ جهانكشا : لعطا ملك الجويني . أتمه مؤلفه سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ وتمتد حوادث هذا الكتاب إلى سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ حين قضى هولاكو على الحشاشين . ويتحدث هذا الكتاب في الجزء الأول منه عن تاريخ جنكيزخان وخلفائه حتى جغتاي . وفي الجزء الثاني عن ملوك خوارزم وعلى الأخص عن قطب الدين محمد وابنه جلال الدين . ويتحدث في الجزء الثالث عن طائفة الاسماعيلية وزعيمها الحسن الصباح . وعلى هذا فالكتاب لا يعتبر تاريخاً عاماً بل تاريخاً خاصاً بجنكيزخان وأسلافه وخلفائه . وقد التحق عطا ملك جويني بخدمة الديوان المغولي في عهد أرغون .

تاريخ وصاف : ويعد تكملة لتاريخ جهانكشا . ولهذا يحسن ذكره بعده مع أنه في الترتيب الزمني متأخر عنه . ألفه أبو عبد الله بن فضل الله الشيرازي في سنة ٧٢٨ هـ . واسمه بالكامل تجزية الأمصار وتزجية الأعصار وعرف اختصاراً باسم تاريخ وصاف . وهو خمسة أجزاء تتحدث عن سلاطين المغول حتى أيام السلطان أبي سعيد سنة ٧٢٨ هـ .

جامع النواريخ . ألفه رشيد الدين فضل الله في سنة ٧١٠ هـ . وكان

طبيعياً خاصاً لأباقاخان . وتولى الوزارة أيام غازان خان . وفي أيام السلطان
أنى سعيد خدابنده ظل رشيد الدين يحتل أيضاً نفس المكانة المرموقة . ويتكون
هذا الكتاب من :

الجزء الأول وفيه بابان : الأول عن تاريخ القبائل التركية والمغولية
المختلفة . والثاني عن تاريخ جنكيزخان وأجداده وأحفاده حتى غازان خان .

الجزء الثاني وفيه مقدمة عن آدم والانبياء والرسل ثم

الباب الأول : عن ملوك الفرس والأقدمين قبل الاسلام ويضم أربعة
فصول .

الباب الثاني : عن تاريخ النبي محمد صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين
ومن بعدهم من خلفاء المسلمين أمويين وعباسيين حتى تحطيم الخلافة على يد
المغول سنة ٦٥٦ هـ ومن عاصريهم من الملوك والسلاطين كسلاطين غزنة ،
والسلاجقة الخوارزميين ، السلفريين أتابكة فارس ، الاسماعيلية ، الأتراك
والهוד ، والفرنج وملوكهم والبابوات والهنود مع مقالة طويلة عن
الديانة البوذية .

تاريخ كزیده : لحمد الله المستوفى القزويني . وهو سليل أسرة عاشت
في قزوین . وكان جده أمين الدين نصر مستوفياً على العراق وكانت نهائته
على يد المغول . وتولى أخوه زين الدين محمد الشؤون المالية في قزوین ،
وأبهر ، وزنجان . وقد وصلنا من مؤلفات حمد الله هذا الثلاثة الآتية :
تاريخ كزیده (مختار التاريخ) ، ظفر نامه (كتاب الظفر) ، نزهة القلوب
والأول والثاني تاريخيان والثالث جغرافى .

ألف تاريخ كزیده في سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م وأحمداه لابن رشيد الدين
وهو غياث الدين محمد الذى تولى الوزارة في مايو سنة ١٣٢٨ ثم قتل بعد ذلك
في مايو سنة ١٣٣٦ م . ويذكر المؤلف المصادر التى رجع اليها في تأليف
كتابه ومن بينها سيرة ابن هشام ، قصص الانبياء للتحفائي ، والرسالة
القشيرية ، وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار وتجارب الأمم لابن مسكويه ،

وتاريخ ابن جرير الطبري ، وتاريخ حمزة الأصفهاني ، تاريخ الكامل لابن الأثير ، زبدة التواريخ لجمال الدين أبي القاسم الكاشاني ، نظام التواريخ للقاضي البيضاوي ، عيون التواريخ لأبي طالب البغدادي ، المعارف لابن قتيبة ، تاريخ جهانكشا لعطاء ملك جويني ، تاريخ العتبي ، سياست نامه .. الخ

ويتألف تاريخ كزیده من فاتحة ثم ستة أبواب يتضمن كل باب منها مجموعة فصول وخاتمة .

ظفر نامه : له أيضاً في سنة ٧٣٥ هـ . وهو منظومة طويلة في البحر المتقارب تتألف من ٧٥,٠٠٠ بيت . وتعد امتداداً لمنظومة الفردوسي الشاهنامة . وتبدأ ظفر نامه من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى زمن المؤلف .

روضة الصفا : لميرخواند . وهو من المصادر التاريخية المهمة . والمعلومات عن مؤلف هذا الكتاب قليلة وان كنا نعرف أنه مات في سنة ٩٠٣ هـ بالغاً من العمر ستاً وستين سنة . اتصل المؤلف بالأمير عليشير نوائي في هراه . وتألف روضة الصفا من سبعة أجزاء :

الأول : في بيان أول المخلوقات وذكر الأنبياء وملوك العجم .

الثاني : عن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين .

الثالث : في ذكر الأئمة وخلفاء بني أمية وبني العباس .

الرابع : في ذكر الدول الإسلامية التي نشأت في فارس إلى عهد تيمور

الخامس : عن المغول الإيلخانيين .

السادس : في تيمور وأعقابيه إلى سنة ٨٧٣ هـ .

السابع : يتحدث عن السلطان حسين بايقرا المتوفى سنة ٩١٢ هـ أي بعد تسع سنوات من وفاة المؤلف مما يدل على أن شخصاً آخر قد كتب هذا الجزء . وترجع أهمية الجزءين الأخيرين من روضة الصفا إلى أن حوادثهما قد عاصرها المؤلف بنفسه .

حبيب السير في أخبار أفراد البشر : (٩٣٠هـ) ومؤلفه غياث الدين ابن همام الدين المعروف بخواند مير المتوفى سنة ٩٤١ هـ . وهو حفيد ميرخوند صاحب روضة الصفا الذي كان جده لأمه . التحق المؤلف كجده أيضاً بخدمة الأمير عليشير نوائى الذى كلفه بتأليف كتابيه مآثر الملوك وخلاصة الأخبار . أما حبيب السير فقد أهداه إلى حبيب الله ساوجى وزير دورمش خان حاكم هراة . ومن هنا جاء اسم الكتاب حبيب السير . وكان المؤلف من معاصرى الدولتين التيمورية والصفوية . وخصص المؤلف للشاه اسماعيل الصفوى الجزء الرابع من المجلد الثالث .

دستور الوزراء : له أيضاً (٩١٤ هـ) وهو يتضمن أحوال وزراء الإسلام حتى زمان المؤلف .

* * *

أما المؤلفات الأدبية التى ترجع إلى عصر المغول فكثيرة نشير منها إلى ما يأتى :

لباب الألباب : وهو من أقدم كتب التذاكر التى وصلتنا . ألفه عوفى سنة ٦١٨ هـ . وهو مجلدان الأول فى شرح أحوال الأمراء والسلاطين والوزراء والعلماء الذين شعروا بالفارسية ، والثانى فى أحوال وأشعار شعراء الفرس .

جوامع الحكايات : لعوفى أيضاً . انتهى من تأليفه سنة ٦٣٠ هـ وهو فى أربعة مجلدات . وقد جمع مادته من كثير من المصادر التى قرأها أو سمعها . المعجم فى معايير أشعار العجم : ألفه شمس الدين محمد بن قيس الرازى فى سنة ٦٣٠ هـ .

أخلاق ناصرى : كتبه نصير الدين طوسى فى أصول الأخلاق والحكمة العميمة . وقد ألفه باسم الملاك ناصر الدين أبى الفتح عبد الرحيم بن أبى منصور محشم قهستان من حكام عهده هولوكو .

كلستان : (٨٦٥٦) : وهو من أمهات كتب الأدب المنشور . ألفه سعدى وكتبه في صورة المقامات وقصد به النصيحة والحكمة والتوجيه الخلقى . وقد كتبه سعدى في سن الخمسين كما يقول في ديباجة الكتاب . وينألف الكتاب من ديباجة وثمانية أبواب .

تذكرة الشعراء : (٨٩٩٢) لدولت شاه بن علاء الدولة السمرقندى وفيه ترجمة لأكثر من مائة وخمسين من شعراء الفرس . انتهى من تأليفه سنة ٨٩٢ هـ .

بهارستان : (٨٩٩٢ هـ) تأليف مولانا نور الدين عبد الرحمن جامى . وهذا الكتاب على نسق كلستان سعدى . وفيه مجموعة من الحكايات ذات المغزى الخلقى . وقد ضم فيه مجموعة من الأشعار العربية والفارسية . ويمكن أن يقال إن بهارستان أحسن تقليد لكلستان .

ولجامى مجموعة أخرى من المؤلفات منها نقد النصوص فى شرح الفصوص وهو فى شرح وتفسير عقايد محي الدين بن عربى مؤلف فصوص الحكم ومختصره نقش الفصوص . ومن مؤلفاته أيضاً نغمات الأنس وفيه شرح أحوال عدد كبير من الفضلاء والعلماء ومشايخ الصوفية . وأصل هذا الكتاب عربى من تأليف محمد بن حسين سلمى النيشابورى واسمه طبقات الصوفية . وقد أشار الأمير عليشير نوائى على جامى أن يترجمه إلى الفارسية ويكمّله ويضيف إليه ترجمة العلماء حتى زمانه . ومن مؤلفاته أيضاً اللوايح ، اللوامع ، شواهد النبوة ، أسفة اللعاعات ، أنوار سهيلي .

• • •

ومن العلماء والمتصوفة الذين اشتهروا فى العهد المغولى نصير الدين الطوسى (٥٩٧ - ٦٧٢) و زكريا القزوينى (٦٠٠ - ٦٨٢) والقاضى البياضوى (المتوفى ٦٨٥) وقطب الدين الشيرازى (٦٣٤ - ٧١٠ هـ) والقاضى عضد الايجى (المتوفى ٧٥٦ هـ) وقطب الدين الرازى (المتوفى ٧٦٦ هـ)

* * *

أما الشعراء فكثيرون ، نشير منهم إلى :

كمال اسماعيل الأصفهاني (متوفى ٦٢٥ هـ) وقد شاهد في أواخر أيامه بعض حوادث المغول الوحشية .

وجلال الدين مولوى بلخي (٦٠٤ - ٦٧٢) . وأشهر أعماله المثنوى الذي يذآف من ٢٦ ألف بيت . وبعد من أهم الآثار الأدبية في التصوف .

وسعدى شيرازى . وهو من مواليد شيراز وسليل أسرة دينية . وقام سعدى بكثير من الأسفار واستقر في النهاية بوطنه شيراز . وكان يتولى حكم فارس أبو بكر سعد بن زكى . وقد نهم إقليم فارس ومدينة شيراز بحالة من الأمن والاستقرار بفضل الصالح الذى عقده أبو بكر مع المغول فجنب بلاده بذلك الوبلات التى تعرضت لها بقية بلاد إيران على يد هؤلاء المغول المتوحشين . ويشير سعدى إلى الأموال التى كان يدفعها أتابكة فارس للمغول لاتقاء شرهم وإيقاذ بلادهم بقوله في البوستان :

سكندر بديوار روئين و سنك
بكرد از جهان راه ياجوج تينك
ترا سد ياجوج كفر از زرست
نه روئين جو ديوار اسكندر ست

أى أنه إذا كان الاسكندر قد أقام سداً من النحاس والحجارة حول طريق ياجوج فان سدك الذى أقمته ضد ياجوج الكفر كان من ذهب ولم يكن من نحاس كسد الاسكندر . وهذا اشارة إلى الأموال التى كان يدفعها هؤلاء المغول لصدمهم عن إقليم فارس .

وكان سعدى من خاصة المقربين إلى ولى العهد سعد بن أبى بكر . ومن اسمه أخذ تخلصه . وكان سعدى موضع رعاية الأب والأبن معاً . ولهذا أهلى سعدى اليهما كتابه البوستان والكلستان .

همام التبريزى (متوفى ٧١٤ هـ) . وكان يعيش في تبريز . وهو من أبرع شعراء الغزل في القرن السابع الهجرى . وكان من المعجبين بسعدى . واليه يشير في هذا البيت :

همام را سخن دلفریب و شیرین است

ولی چه سود که بیجاره نیست شیرازی

أی أن هماماً له من الشعر كل عذب وجذاب ولكن ما الفائدة ؟
إن هذا المسكين لبس شیرازی و يبلغ دیوان عزله قریباً من عشرة آلاف بیت .

شیخ محمود شیشتری : (متوفی ۷۲۰) وهو من أهل شیشتر آذربيجان
وعاش في زمان الجایتو وأبی سعيد . وكان يعد من كبار علماء ومتصوفة
عصره . ومن آثاره مثنوی کلشن راز وهو فی حوالی ألف بیت .

أوحدي مراغی : (متوفی ۷۳۸) وينسب إلى مراغه حيث ولد وإن
كان قضی أغلب حياته في أصفهان . وفي النهاية عاد إلى وطنه في آذربيجان
ولازم غياث الدين محمد بن رشيد الدين فضل الله الذي كان وزير أبي سعيد
(۷۱۶ - ۷۳۶) . وفي مراغة مات ودفن الشاعر . وبلغ ديوانه حوالی
خمسة آلاف بيت تضم ألواناً مختلفة من الشعر كالفصائد والغزليات والمقطعات
وترجيع بند والرباعيات . ومن آثاره مثنوی باسم منطق العشاق . وأشهر
آثاره المثنوی المعروف باسم جام جم .

خواجه کرمانی : (۶۷۹ - ۷۵۳) من أبناء کرمان وقد عرف بالشعر
في شبابه وبدأ أولاً بمدح ملوك المظفرين . وجاء إلى شیراز في أواخر أيامه
واتصل بالشيخ أبي اسحق اينجو ومدحه . ولخواجه ديوان شعر وخمس
منظومات على غرار خمسة نظائى وهى :

- | | |
|------------------|---------------------------|
| ۱ - های و همایون | قصه عشق |
| ۲ - کل و نوروز | محاكاة لخسرود شیرین نظائى |
| ۳ - روضة الأنوار | منظومة خلقية دينية |
| ۴ - کمال نامه | منظومة تصوفية |
| ۵ - کهر نامه | في الأخلاق والتصوف |

وهناك غير هؤلاء الشعراء ابن عيين (المتوفى ٨٦٩) وسلمان ساوجي (المتوفى ٧٧٨) .

وحافظ شیرازی : من شعراء العهد التيمورى متوفى سنة ٧٩١ هـ . وهو من شیراز . وكان أبوه قد هاجر إليها من أصفهان في زمن أتابكة فارس . وكان لا يزال طفلا عندما توفى أبوه . ولم يصرفه كسب العيش عن الدراسة والتحصيل وحضور مجالس العلماء المشهورين في ذلك الزمان . وعندما حفظ القرآن تخلص بلقب حافظ .

وفي ملحوظة حافظ كان يحكم إقليم فارس محمود شاه اينجو من قبل أبي سعيد بهادر . وعندما توفى بعث أبو سعيد الشيخ حسين حكم فارس ولكن الأهالي لم يحسنوا استقباله وثاروا عليه وولوا مكانه أبا اسحق أحد أبناء محمود شاه اينجو . وكان أبو اسحق هذا من أول من مدحهم حافظ لما أظهره نحوه من عطف ورعاية . ولكن أبا اسحق لم يطل عهده إذ سلبه السلطة واستولى على فارس الأمير مبارز الدين محمد بن المظفر حاكم يزد . وقد أساء مبارز الدين السيرة مع أهل فارس واستبد بالناس ومال إلى سفك الدماء والظلم حتى ثار عليه ابنه (شاه شجاع ومحمود) وعزلوه وقتلاه . وتولى الشاه شجاع حكم فارس وأحسن إلى الناس .

وبعد الشاه شجاع تولى ابنه زين العابدين ولكن عهده لم يطل إذ وقعت حملة تيمور على فارس ، وفر زين العابدين ، وترك حكم فارس إلى الأمير منصور بن أخرى شاه شجاع . وقد بذل الأمير منصور جهده في تعمير فارس وصد هجمات تيمور وقد مدحه حافظ في بعض أشعاره ولكنه هزم في آخر الأمر وقتل على يد تيمور وانقرضت بمقتله سلسلة المظفرين سنة ٧٩٥ .

ويذكر دولتشاه أن مقابلة تمت بين تيمور حافظ بعد قتل الشاه منصور وفي هذه المقابلة لام تيمور الشاعر حافظ لأنه يريد أن يهب بمنتهى البساطة محبوبته مدينة سمرقند وبخارى من أجل خالها (طابع الحسن) وذلك حيث يقول

أكر آن ترك شیرازی بدست آرد دل مارا

بخال هندویش بخشم سمرقند و بخارا (۱) .

وهذه القصة غير صحيحة ، ولم يرد لها ذكر في المؤلفات المعاصرة لتلك الأحداث التي أرخت لتيemor . وقد انفرد بذكرها دولتشاه وحده ، ومما يدل على زيفها أن دولتشاه يورخها في سنة ٩٧٥ بينما كان حافظ قد مات قبل ذلك بأربع سنوات .

وأشهر آثار حافظ ديوانه الذي يقرب من أربعة آلاف بيت ، ويضم فنوناً من النظم كالغزل والقصائد والرباعيات والمقطعات وترجيع بند وتركيب بند وبعض المثنويات . ولكن الفن الغالب على ديوانه هو الغزل .

جامي : وينسب إلى ولاية جام بخراسان ومنها اتخذ تخلصه . وبعد أن قضى في جام عدداً من سنن الطفولة اتجه إلى هراة حيث درس هناك . وفي هراة اتصل بسعد الدين كشمري من زعماء الطريقة النقشبندية ، وأصبح واحداً من مريديه ، ثم صار هو زعيماً للطريقة بعد وفاة سعد الدين . وارتبط تاريخ جامي بشخصيتين عظيمتين هما : السلطان حسين بايقرا الذي كان يتولى الحكم في هراة ، ويهتم بالشعر والأدب . والأمير عليشير نوائى وزيره ، كان من علماء عصره وله تأليف بالفارسية والتركية .

ولجامي آثار مثورة ومنظومة . فن المنظوم ديوان أشعاره . وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام : سمي القسم الأول : فاتحة الشباب ، والثاني وساطة العقد ، والثالثة خاتمة الحياة . وقد نظم سبعة مثنويات أخرى يحاكي فيها منظومات نظامي . وهذه المنظومات السبع هي :

سلسلة الذهب منظومة دينية وخلقية

سلامان وأبال قصة قديمة تنطوي على أفكار تصوفية

تحفة الأحرار منظومة دينية

يوسف وزليخا

ليلي ومجنون

خردنامه سكهندرى

أنا مؤلفاته الثرية فقد سبقت الإشارة إليها

• • •

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الفنون المختلفة وجدنا أن هذا الجانب من جوانب الحضارة قد رعاه الحكام الأتراك في إيران .

فإذا بدأنا بالدولة الغزنوية وجدنا أن فن العمارة قد نال في عهدها رعاية كبيرة بسبب الثراء والترف الذي عاش فيه البلاط للانتصارات المتوالية والغنائم الكبيرة التي غنمتها جيوش السلطان في بلاد الهند . وبجلدنا العتيبي حديثاً طويلاً عن مسجد غزنه الجليل الذي بناه السلطان محمود . وكيف كان يغري العمال الذين اشتركوا في بنائه بالأجور والأموال طلباً للإجادة والإتقان ، وكيف نقل ما احتاجه البناء من الأخشاب من الهند والسند ، وكيف بالغ في تجميل المسجد وتزيينه حتى أصبح تحفة فنية رائعة (١) وكانت غزنة أو غزنة عاصمة الدولة زينة الملائن في عصرها .

وفي أقصى عهود الحكم التركي في إيران وهي عهود المغول لم تمت الفنون المختلفة . وقد أشرنا فيما سبق إلى حرص هؤلاء المغول في فتوحهم على سلامة الصنائع وأصحاب الحرف لينتفعوا بهم في أعمالهم الإنشائية . وقد أورد ابن عرب شاه أسماء كثير من الفقهاء والعلماء والمحدثين والقراء والوعاظ والكتاب والمنجمين والنقاشين والفنانين والسطرنجيين الذين اتصلوا ببلاط تيمور .

وعرف عن تيمور أنه كان شديد العناية بتزويد وطنه وعاصمته سمرقند بكل ألوان الحضارة ومقوماتها . وقد أنشأ بظاهر سمرقند من القصور والبساتين ما جعلها من أجمل بلاد العالم الاسلامي وقتذاك .

(١) العتيبي : ٢٩١/٢

وكما كان تيمور مولعاً بالحدائق فقد كان أيضاً مولعاً بالعمارة . بنى
في سمرقند مدرسة دينية كبيرة باسم زوجته بينى خاتون . كذلك تعد
مقبرته المعروفة باسم كورمير أى قبر الأمير من الأمثلة المعمارية الرائعة
في العهد التيمورى .

وكانت كوهرشد إحدى زوجات شاه رخ من المولعين بفن العمارة
وقد أنشأت مسجد كوهر شاد المقام في مشهد .

وترجع مكانة غازان في التاريخ إلى الإصلاحات العظيمة التي قام بها
كتنظيم الضرائب ، ونشر العدالة ، وإقامة المؤسسات العامة الدينية والثقافية .
وكان غازان ولوعاً بفن العمارة كما كان يحسن عدداً من اللغات كالفارسية
والعربية والصينية إلى جانب لغته الأم المغولية .

ويرجع إلى المغول الفضل في أنهم نشروا بإيران الحرير الصيني وأتاحوا
الفرصة للإيرانيين ليحاكوه وينتجوا أنواعاً جديدة منه لقيت رواجاً في
الأسواق الخارجية وعادت بالنفع على الإيرانيين .

وقد ظهر في عهد المغول نوعان من الخط ، أولهما الخط المعروف باسم
تعلقي في القرن السابع الهجري ، وثانيهما الخط المعروف باسم نستعليق .
وهذا الأخير ينسب اختراعه إلى أحد كتاب تيمور هو مير علي التبريزي
وابنه عبد الله . وقد تقدم فن الخط تقدماً عظيماً في عهد تيمور الذي شمل
برعايته الخطاطين . وكان من مظاهر تقدم هذا الفن الاسلامي الجميل
أن عدداً كبيراً من رجال الدولة كانوا من الخطاطين أمثال بدر الدين أحمد
وزراء تيمور ، وابراهيم ميرزا ، وبايسنقر ميرزا من أحفاد تيمور (١) .

وازدهر فن التذهيب في عهد المغول . وكان السلطان الجايتو يشجع
أصحاب هذا الفن . وكان يعهد إلى الفنانين بتذهيب أعمال كثيرة . ويتضح

(١) زكى محمد حسن : الفنون الإيرانية في العصر الاسلامي ص ٣٤

تقدم هذا الفن من تلك النسخ العديدة المذهبة من القرآن الكريم التي كانوا يقدمونها إليه (١) .

أما المنسوجات فقد بدأت تزدهر في إيران من عصر السلاجقة الذين حاولوا إلى إيران المنسوجات الصينية . ولا شك في أن صناعة النسيج في إيران قد تأثرت بالطابع الصيني بسبب هجرة القبائل التركية من الشرق واستمرارها في إيران . وكان لصناعة النسيج في العهد المغولي مراكز مزدهرة مثل هراة ونيشابور وتبريز وقم .

وكان فن التصوير في عهد المغول فناً إيرانياً ممتازاً . وكان كتاب جامع التواريخ من أول المخطوطات الفارسية التي زينت بالصور . ونالت الشاهنامة اهتماماً عظيماً من المصورين .

ولا ريب في أن الإفاضة في الحديث عن الفنون الإيرانية أمر لا تقتضيه هذا المقام .. ومن المناسب أن نقف عند هذا الحد لأن ما ذكرناه كله من ألوان الحضارة في ميادين الأدب والفن لم يكن مقصوداً لذاته ، ولا كان هدفاً لدراسة وإنما كان كله مجرد عرض سريع للتدليل على أن الحكم التركي في إيران لم يكن شراً كله لأنه لم يخل من حسنات .

ومن هذا نرى أن نولدكه وبروكلمان ولوبون في موقفهم من العنصر التركي والحضارة قد أطلقوا أحكاماً عامة تختلف مع الحقيقة في بعض التفاصيل .

Legacy of Persia P. 133 by D. Barrett. (١)

و الترجمة العربية لأحمد عيسى في تراث فارس ص ١٨١

ميناء الاسكندرية والمشكلات الرئيسية التي تواجهه (١)

للدكتور فهمي هلال هلال أبو العطا

مقدمة :

تطل الجمهورية العربية المتحدة على بحرين يعدان من أهم بحار العالم من الناحية الملاحية .. وهما البحر المتوسط في الشمال والبحر الأحمر في الشرق . ويؤلف هذان البحران القسم الأوسط من طريق الملاحة الرئيسى الذى يصل بين جهات غرب أوربا وأمريكا من ناحية وبين جهات المحيط الهندى وشرق آسيا من ناحية أخرى .

وتعتبر الجمهورية العربية المتحدة من الدول الأفريقية التى تتميز بطول سواحلها بالنسبة لمساحتها : فساحلها الشمالى الممتد بين رفح والاقليم يبلغ طوله حوالى ٩٦٥ كيلومتر ، وساحلها الشرقى الممتد بين بيرطابه والحدود المصرية السودانية يبلغ طوله حوالى ١٩٣١ كيلومتر (٢)

ومعنى هذا أن الجمهورية العربية المتحدة إلى جانب موقعها الهام على الطريق الرئيسى للملاحة بين الشرق والغرب فإنها تتميز بسواحل طويلة تتيحها بحار هامة وصالحة للملاحة طول العام . وهى ظروف تلائم بل وتدعو إلى قيام الكثير من الموانئ على امتداد سواحلها لولا وقوف بعض العقبات الطبيعية والاقتصادية فى سبيل ذلك .. وهى أهم تلك العقبات أن معظم السواحل المصرية تظاهرها جهات صحراوية وشبه صحراوية فقيرة : فالصحراء الغربية وصحارى شمال سيناء تظاهرها معظم الساحل الشمالى المطل على البحر

(١) يعتمد هذا البحث فى معظمه على الدراسة الحقلية لميناء الإسكندرية ومشكلاته ، ودراسة التقارير والمشروعات الخاصة به والتى تقوم بوضعها الهيئات المختلفة المتصلة ببحوث العمل فى الميناء . ومن بينها مؤسسة الميناء ومصلحة الموانئ والشحن ومصلحة الموانئ والهيئات العامة لشئون النقل البحرى والنقل بالسكك الحديدية والنقل البرى ووزارة الأشغال وإدارة الملاحة الداخلية إلى جانب الاتصال بالعاملين فى أعمال الشحن والتفريغ والتخزين والاستيراد والتصدير .

(٢) أنظر إدارة التفتيش العامة : الكتاب السنوى للإحصاءات العامة للجمهورية العربية المتحدة ١٩٦٠/٥٢ - القاهرة ديسمبر ١٩٦١ ص ٢٧٣ .

المتوسط ؛ والصحراء الشرقية ومرتفعات البحر الأحمر وجنوب سيناء تتأخر الساحل الشرقى المطل على البحر الأحمر - هذا بالإضافة إلى أن العمران والانتاج الاقتصادى فى الجمهورية يكاد يتركز فى وادى النيل والدلتا وهى مساحة صغيرة بالنسبة للمساحة الكلية للجمهورية . كما أن هذه المساحة تطل على البحر المتوسط بجهة ساحلية صغيرة يبلغ طولها بين الاسكندرية وبور سعيد حوالى ٢٥٤ كيلو متراً أى أقل من عشر طول السواحل المصرية بل إن هذه الجهة الساحلية الصغيرة يعترض قيام الموانى الصالحة على امتدادها أيضاً صعاب وعقبات متعددة نذكر من أهمها الرواسب التى تقذفها مياه النيل فى البحر ثم يحملها التيار الساحلى ويوزعها على امتداد الساحل فتتألف منها وبسببها الحواجز والشطوط الرسوبية التى تقلل من عمق البحر أمام الساحل . ومن ثم تقل صلاحيته لرسو السفن وإقامة الموانى . كذلك البحيرات والمستنقعات والكثبان الساحلية التى تظاهر أجزاء طويلة من هذه الجهة وتجعلها أيضاً غير صالحة لقيام الموانى . فمن المعروف أن نشأة أى ميناء وتقدمه إنما يرتبط بصلاحية موقعه واتساعه وعمق مساحته المائية . كما يرتبط بغنى ظهره والاتصال السهل بينهما (١) .

ولهذا كله كان عدد الموانى الرئيسية فى الجمهورية العربية المتحدة محدوداً على الرغم من اتساع مساحة الدولة وطول سواحلها وكذلك على الرغم من نشاط حركة النقل والتجارة بينها وبين دول العالم الأخرى .

ويعتبر ميناء الاسكندرية أهم موانى الجمهورية إذ يكاد يمر به حوالى نصف مجموع تجارتها الخارجية . ويشغل هذا الميناء الجانب الشرقى من الخليج المحتد بين طابية رأس التين وطابية العباسة والذى يبلغ اتساعه حوالى تسعة

(١) من الصعاب التى أدت أيضاً إلى قلة عدد الموانى الصالحة فى الجمهورية العربية المتحدة .. الحواجز المرجانية والجزر والصخور الغاطسة والأصابع التى تكثر بصفة خاصة أمام ساحل البحر الأحمر وتحد من المناطق الصالحة لقيام الموانى عليه .

كيلو مترات وربيع الكيلو متر (١) . بينما توجد في جانبه الغربي بعض المراسي الصغيرة التي تؤمها قوارب الصيد وتحملها من الخارج حواجز صغيرة للأمواج مثل مرسى المكس المعروف «بالمينا القرنساوى» ومرسى الدخيلة .

وتبلغ مساحة ميناء الاسكندرية ١٨٦٣ فداناً أى ما يقرب من ٧,٨ كم^٢ منها حوالى ١٦٠٠ فداناً مساحة مائية أى حوالى $\frac{1}{4}$ مساحتها الكلية والباقي وقدره ٢٦٣ فداناً مساحة يابسة تشغلها الأرضفة والمخازن والسقائف والطرق ومنشآت الميناء الأخرى .

ويحده الميناء من الخارج حاجز ن للأمواج يرتفع منسوبهما بمقدار ثلاثة أمتار فوق أقل مستوى لمياه البحر . وهذا الحاجز الخارجى ويبلغ طوله حوالى ٣,٥ كم وحاجز الشيرو أو الكورسنة ويبلغ طوله حوالى ٦١٢ متراً . وبالإضافة إلى هذين الحاجزين توجد داخل الميناء عدة حواجز صغيرة ملئت لغرض تحديد أحواض معينة وكذلك للتخفيف من أثر الأمواج في داخل الميناء .

ويقع مدخل الميناء بين الحاجزين الخارجيين ويبلغ اتساعه حوالى ٤٠٠ متراً وتؤدى إليه أربعة ممرات ملاحية رئيسية أطلقت عليها أسماء معينة وهى من الغرب إلى الشرق :

١ - ممر مرابط - وهو ممر صغير يبلغ غاطسه حوالى ستة أمتار وتستخدمه السفن الصغيرة فقط .

٢ - الممر أو البوغاز الكبير - ويعبر الممر الرئيسى للميناء إذ لا يقل غاطسه عن ١٤ متراً . ويبدأ من نقطة تقع على بعد ٢,٨ كيلومتراً تقريباً شمال شرق فناء جزيرة العجمى ويمتد حتى مدخل الميناء بطول قدره ٢,٣ كم

(١) تمتد أمام هذا الخليج في بخط مستقيم تقريباً سلسلة من الحواجز الصخرية تفرها في معظمها مياه البحر بعق يتراوح بين سبع وعشر قدماً ، ويرتفع بعض أجزائها فوق مستوى سطح البحر فيظهر على شكل جزر مثل جزيرة العجمى والأقرش .

وهو الممر الوحيد الذى يستخدم أثناء الليل حيث تحدده على جانبيه علامات ارشاد بعضها مضىء وبعضها الآخر غير مضىء .

٣ - البوغاز الصغير - ويبدأ من نقطة تقع على مسافة ٤,٦ كم تقريباً شمال شرق فنار جزيرة العجمى ويمتد حتى يدخل الميناء بطول قدره حوالى ١.٨٥ كم . وبلى هذا الممر البوغاز الكبير فى الأهمية إذ لا يقل غاطسه عن تسعة أمتار غير أنه لا يصلح لمرور السفن الكبيرة أثناء اضطراب البحر أو عند حدوث دوامات شديدة فى مياهه .

٤ - بوغاز أبى عسكر أو ممر كورفت - وهو ممر ملاحى صغير يقل غاطسه عن ستة أمتار . ولهذا لا تستخدمه سوى السفن الصغيرة ذات الدراية المحلية . ويبدأ من نقطة شمال شرق مدخل البوغاز الصغير بنحو ١.٨ كم ، وتستعين السفن عند سلوكها لتلك الممرات بمجموعة من (الشمندورات) والفنارات وعلامات الارشاد القائمة فى مناطق المكس ورأس التين وكوم الناضورة والقمرية .

هذا ، ويمتد ميناء الاسكندرية فى اتجاه عام من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى فى شكل بيضاوى قطره الأكبر حوالى خمسة كيلو مترات والأصغر حوالى ٢,٤ كم (١) . وينقسم فى داخله إلى قسمين تفصلهما أرصفة الفحم وحاجز الأمواج الداخلى (٢) . ويعرف القسم الشرقى منه

(١) لاحظ أن هذا الاتجاه له أثره فى التغيرات التى تصيب منسوب المياه داخل الميناء بسبب تغير اتجاه جوب الرياح لاسيما لرياح الاحصارية الشديدة فى فصل الشتاء . فقد لوحظ أن جوب تلك الرياح بشدة من الغرب يؤدى إلى ارتفاع منسوب المياه فى الميناء بنحو قد يصل إلى قدم ونصف (حوالى ٥٥ سم) فوق منسوبها المتوسط وأن جوبها من ناحية الشرق قد يؤدى إلى انخفاض هذا المنسوب بنفس المقدار عن المنسوب المتوسط . هذا عند التغيرات اليومية التى تحدث بسبب أحوال المد والجزر بمعدل مرتين فى اليوم الواحد وبفارق يتراوح بين ٢ ، ١٢ بوصة .

(٢) انظر :

El Tobgy, A.K. & Abd-el-Rahman, A.H.; All about Ports, United Arab Republic, 1960. pp. 26-46.

بالميناء الداخلى وتصب فيه التربة المحمودية وتبلغ مساحته ٤٦٤.٥ فداناً ويصل أقصى عمق فيه إلى ١٢ متراً . ويشمل هذا القسم - بالإضافة إلى الأحواض والأرصفة الخاصة - حوض الرسانة والحوض الأوسط وحوض المحمودية ؛ وتتوزع بين هذه الأحواض الأرصفة من رقم ١ إلى رقم ٥٤ ويستخدم بعضها لرسو سفن الركاب حيث تقوم محطة الركاب البحرية (١) أما معظمها فيستخدم في أغراض شحن وتفريغ سفن البضائع العامة ولذا تقوم فوقها وخلفها المنشآت الخاصة بتلك الأغراض كالألات الرافعة والسقائف والتخازن .

أما القسم الغربى من الميناء فيعرف بالميناء الخارجى وتبلغ مساحته حوالى ١٣٩٨.٥ فداناً ويصل أقصى عمق فيه إلى نحو ١٥.٢ متراً . ويشمل هذا القسم أحواض الفحم والبترول وأرصعة التيارات والمواد المتبقة والأخشاب والغلال والمولاس والأرصعة الخاصة بالسفن التى تنقل الحيوانات وكذلك بعض المراسى الصغيرة فى منطقة القبارى لتفريغ مواد البناء . ويضم هذا القسم ٣٢ رصيفاً قسمت إلى مجموعات نخس كل منها بنوع أو أنواع معينة من البضائع التى تعرف بها . أى أنها أرصفة نوعية . كما جهزت كل مجموعة منها أيضاً بتجهيزات خاصة تتلاءم مع السلع التى ترد إليها أو تصدر منها ... فقد جهزت أرصفة الفحم بأوناش خاصة لنقل الفحم من السفن إلى عربات السكك الحديدية مباشرة . وكذلك جهزت أرصفة الغلال بشفاطين كهربائيتين وسيور ناقلة لسحب الغلال من عتابر البونجر الرامية ونقلها مباشرة إلى الصومعة الكبيرة التى أنشئت على الساحل فى نفس المنطقة لتخزين الغلال المستوردة لحين سحبها إلى الداخل بالسكك الحديدية أو بواسطة الصنادل النهرية ؛ كما أقيم خلف الرصيف رقم ٧٠ - الذى ترسو عليه سفن المولاس - خزانان كبيران يستخدمان فى تخزين المولاس المهد لتصدير . وكذلك أهدت مجموعة من خطوط الأنابيب بين أرصفة حوض البترول الذى يقع فى الركن الجنوبي الغربى من الميناء وبين كل من عمل تكرير

(١) تتوسط هذه المحطة أربعة أرصفة يبلغ مجموع أطوالها ١١٥٦ متراً منها ٦٨٤ متراً بعمق ١٠.٢٠ متراً وتسمح برسو السفن حتى تصل طولها حتى ٢٥ ألف طن . أما الأطوال الباقية فعمق المياه بجوارها يبلغ ١٢ متراً وتسمح برسو السفن ذات القاطن الكبير .

البتروال التابع للشركة المصرية لتكرير البترول وتجارته . ومستودعات تخزين البترول التي توجد في المنطقة بين شون أقطان الحكومة وبين بحيرة مربوط على مسافة كيلو متر تقريباً جنوب حوض البترول (١) .

كذلك يضم القسم الغربي من ميناء الاسكندرية بين الرصيفين رقم ٦٨ ، ورقم ٧٠ الحوضين الجافين القديم والجديد والمنشآت الخاصة بمشروع الترمانة البحرية .

وتبلغ جملة أطوال الأرصفة بميناء الاسكندرية بقسميها الشرق والغرب أي الداخل والخارجى حوالى ١٥ كيلو متراً . وقد مدت إليها الطرق والخطوط الحديدية لتسهيل نقل البضائع منها إليها أو بعبارة أخرى تسهيل ربطها بالطرق البرية وبالخطوط الحديدية التي تصل الاسكندرية بدخل البلاد .

وبإيج مجموع أطوال السكك الحديدية التي تشعب داخل ميناء الاسكندرية إلى أرصفتها حوالى ٣٢ كيلو متراً (٢) .

بعد هذا الوصف العام لميناء الاسكندرية ننتقل إلى دراسة المشكلات الرئيسية التي تواجه هذا الميناء ونذكر في مقدمتها مشكلة تكديس البضائع والتي تظهر بين حين وآخر وتعد في الواقع مظهراً لعدد كبير ومتنوع من المشكلات التي تواجهها الميناء أيضاً .. وقبل أن نعرض لتحليل هذه المشكلة لمعرفة أسبابها ووسائل علاجها يجدر بنا أن نبدأ أولاً بمعرفة الطاقة الحالية

(١) تم إنشاء هذا الحوض (حوض البترول) سنة ١٩٥٣ عند الطرف الخارجى لميناء الاسكندرية . وقد أختير له هذا الموقع حتى يمكن عزله في حالة قيام أى حريق ، ولكي يقع بالقرب من المنشآت البترولية المذكورة . وتبلغ مساحته ٥٢ فداناً ويحميه حاجزان للأمواج أحدهما شرق وطوله ٣٥٠ متراً والآخر شمال ويتألف من جزئين طولهما معاً ٣٧٥ متراً ويقع بينهما فتخل الحوض الذي يبلغ اتساعه ١٢٠ متراً . ويتراوح العمق بجوار أرصفة الحوض الخمس بين ٩,٧٥ متراً ، ١١,٥٨ متراً ولذا فهو يسمح باستقبال ناقلات تصل حولتها إلى ٣٥ ألف طن . كما أنه يسع خمس ناقلات في وقت واحد .

(٢) انظر الخريطة شكل رقم (١) .

لميناء الاسكندرية وعلاقتها بمشكلة التكديس - فقد ذكرنا من قبل أن هذا الميناء يضم ٨٦ رصيفاً مجموع أطوالها ١٥ كم ويتراوح الغاطس بجوارها بين ٤ ، ١٥ متراً ، وبصلاح منها لتراكمي سفن أعالي البحار ٥٥ رصيفاً من بينها ٢٥ أو ٢٨ رصيفاً مخصصة لأنواع معينة من البضائع (١) ، أما الأرصفة الباقية وعددها ٢٧ رصيفاً فهي أرصفة البضائع العامة . وعلى هذا يمكننا القول أن في استطاعة الميناء أن تستقبل ٢٧ باخرة محملة بالبضائع العامة في وقت واحد . فإذا افترضنا أن أقصى مدة تقضيتها الباخرة في عمليات التفريغ والشحن هي خمسة أيام .. كان معنى هذا أن مجموع البواخر المحملة بالبضائع العامة والتي يمكن أن تستقبلها الميناء في العام هو :

$$\frac{365 \times 27}{5} \text{ أي } 1971 \text{ باخرة .}$$

ويرتفع هذا الرقم إذا حسب على أساس متوسط المدة التي تقضيها الباخرة في هاتين العمليتين عادة وهو ثلاثة أيام فقط حيث يبلغ $\frac{365 \times 27}{3} = 3285$ باخرة - أي بمعدل تسع بوآخر يومياً . وهو معدل يزيد عن المتوسط الحالي لعدد السفن المحملة بالبضائع العامة التي ترد إلى ميناء الاسكندرية والذي لا يتجاوز ست بوآخر يومياً .. ومعنى هذا أن أرصفة البضائع العامة بميناء الاسكندرية تعمل كافية في الوقت الحاضر لاستقبال السفن الواردة إليها . وأن مشكلة التكديس التي تظهر بين حين وآخر لا تعزى إلى نقص في عدد هذه الأرصفة أو عدم كفايتها ..

(١) تشمل هذه الأرصفة :

- (أ) خمسة أرصفة لناقلات المواد البترولية .
- (ب) ثلاثة أرصفة لتفريغ سفن النلال وشحن الصنادل النهرية .
- (ج) ستة أرصفة للأخشاب ويمكن زيادتها إلى تسعة عند الحاجة .
- (د) ثلاثة أرصفة لتفريغ فحم الكوك المستورد .
- (هـ) ثلاثة أرصفة للأسمدة .
- (و) أربعة أرصفة مخصصة لعمليات الشحن والتفريغ للقوات المسلحة .
- (ز) رصيف مخصص للباخرة «عايدة» التي تقوم بشوين المناثر .

غير أن هذه النتيجة تعتبر في الواقع صحيحة من الناحية النظرية فقط وذلك للأسباب الآتية :

(أولاً) عدم كفاية الأعماق أمام كثير من هذه الأرصفة لاستقبال البواخر الكبيرة الغاطس خاصة وأن الاتجاه السائد الآن هو نحو زيادة حجم البواخر وغاطسها .

(ثانياً) أن بعض هذه الأرصفة لا يستغل -الاستغلال الكامل له إما بسبب قلة الغاطس بجواره وحاجته لأعمال التطهير كالرصيفين رقم ٤ ، رقم ٨ أو بسبب التلف والحاجة للإصلاح كالرصيف رقم ٤١ وهو مهتم منذ الحرب العالمية الثانية . أو بسبب عدم توفر بعض الوسائل المساعدة للتشغيل كالرصيف رقم ٤٣ وكان يستخدم في أعمال الشحن والتفريغ على براطيم ثم ألغى التراكى عليه لعدم توفر البراطيم .

(ثالثاً) ان الحركة في ميناء الاسكندرية حركة موسمية بمعنى أنها تنشط كثيراً في أوقات معينة من السنة سواء بالنسبة للصادر أو بالنسبة للوارد بينما تقل في أوقات أخرى . ومن أهم الفترات التي تنشط فيها حركة الميناء مواسم تصدير الحاصلات الزراعية الأساسية كالقطن والأرز والبصل ومواسم استيراد المواد التحوينية والأسمدة والأخشاب . ولهذا نجد أن عدد السفن التي تصل إلى الميناء في تلك المواسم قد يزيد إلى درجة لا تكفى معها الأرصفة المذكورة لاستقبالها . ومن ثم يضطر بعضها إلى الانتظار على الخفاف حتى يحين دورها في التراكى على الأرصفة . وقد يترتب على ذلك الكثير من النتائج الاقتصادية انحصار : إذ قد تكون بعض هذه البواخر مرتبطة بعمود مشاركة تحدد أياماً معينة للشحن والتفريغ تلزم بعدها الدولة أو الملاء بدفع غرامات تأخير كبيرة بالعملات الأجنبية .

وعلى هذا يمكننا القول بأن عدد أرصفة البضائع العامة في ميناء الاسكندرية لا يكفى لتحديد كفايتها لمواجهة حركة السفن بها ، كذلك يمكننا القول بأن موسمية الحركة في ميناء الاسكندرية تعد أحد العوامل المساعدة على ظهور مشكلة التكدس بها . أما بقية العوامل أو الأسباب التي تؤدي إلى ظهور هذه المشكلة فالخصصا فيما يلي :

(أولاً) انخفاض معدل تفريغ وشحن السفن بميناء الاسكندرية مما يترتب عليه طول الوقت الذي تستغرقه داتين العمليتين (١) - وبعبارة أخرى هذا الانخفاض إلى عدة أسباب نذكر من أهمها ما يأتي :

١ - ضعف إمكانيات الشحن والتفريغ بالميناء - إذ أن هذه الإمكانيات تشمل حالياً ثمانية أوناش (دركات) تتراوح حمولتها بين ٢٠ - ٩٠ طناً (٢) كما تشمل حوالي ١٥ ونشاً بريةً شبه مستهلكة تتراوح حمولتها بين ثلاثة وعشرة أطنان - وكذلك دركين عائمين تم شراؤهما مؤخراً وحمل «الجبار» وحولته ١٥٠ طناً مع حمل مساعد ثلاثون طناً، و «النصور» وحولته مائة طن سبع حمل مساعد ٢٥ طناً و ثلاثاً قادر على المناورة في جميع الاتجاهات وعبر السفن إلى الرصيف مباشرة دون مساعدة المرافعين أو المصنادل ، وهذه الإمكانيات - كما نرى - أقل مما تحتاجه ميناء الاسكندرية .

بلى اننا نجب أن نشير أيضاً إلى قلة الاهتمام بصيانة هذه المعدات لأسباب وقد أربط قطاع المقاولات البحرية داخل الميناء إلى شركة الشحن والتفريغ وهي إحدى شركات القطاع العام التي ضمت بين جوائنها المقاولين القدامى

(١) يتقدر معدل تفريغ البواخر أو شحنها في اليوم الواحد مع توفر كافة الظروف المناسبة بمقدار ألف طن .

(٢) هذه الأوناش أو الدركات هي :

(أ) الدرك «فرعون» وحولته ٩٠ طناً وحمل مساعد ٢٥ طناً وهو قادر على المناورة في جميع الجهات وسحب الباطنة .

(ب) الدرك «الحديدية» وحولته ٥٠ طناً وهو قادر على المناورة في حدود زاوية قائمة يميناً .

(ج) الدرك «رقم ١» وحولته ٤٠ طناً ولا يستطيع المناورة

(د) الدرك «عففي» وحولته ٥٠ طناً ولا يستطيع المناورة وكذلك لا يمكنه سوى رفع الدروع من الباطنة وتثبيتها في ماعونة أو على الرصيف بعد سحبه .

(هـ) الدرك «عادل» وحولته ٢٠ طناً ولا يستطيع المناورة

(و) الدرك «كروسي» وحولته ٣٠ طناً ولا يستطيع المناورة .

(ز) الدرك «عل سليم» وحولته ٢٠ طناً ولا يستطيع المناورة

(ح) الدرك «الصنبر» وحولته ٢٠ طناً ولا يستطيع المناورة .

الذين كانوا يقومون بأعمال الشحن والتفريغ داخل الميناء لحسابهم الخاص (١) ولعل هذه الظاهرة هي التفسير الحقيقي لما يلاحظ من كثرة تعطيل بعض هذه المعدات وتناقص حمولتها باستمرار وبالتالي انخفاض معدل تفريغ السفن أو شحنها . وطول مدد وقوفها سواء على الأرصفة أو على المخطاف انتظاراً لدورها . ولا يخفى ما لهذا من أثر في تعطيل السفن وزيادة تكاليفها وبالتالي نقص أرباحها الأمر الذي يدفع أصحابها في كثير من الأحيان إلى مطالبة عملائهم بزيادة النولون أى أجور نقل البضائع المصدرة إلى ميناء الاسكندرية ، أو إلى تحصيل علاوة تكديس قد تصل إلى ١٠٪ من قيمة النولون . بل وإلى إحجم بعض السفن عن قبول شحنات لميناء الاسكندرية (٢).

٢ - بطء عملية سحب البضائع الواردة من الأرصفة إلى الداخل مما يؤدي إلى زحامها وبالتالي بطء وصعوبة أعمال تفريغ وشحن السفن - ويترتب هذا البطء إلى عاملين أساسيين : أولهما - أن معظم البضائع الواردة يتم سحبها في الوقت الحاضر بواسطة الخبثود البشرى أى بواسطة الحمالين ، إلى يسحب جزء صغير منها بواسطة سيارات ونش متحركة قديمة وقاية العدد (٣).

ثانياً العامل الثانى : فهو عدم توفر مخازن جمركية بالسعة الكافية لاستقبال

(١) تقدر إمكانيات شحن والتفريغ التى كانت تابعة لأعلى قبل خضوعها لإشراف القطاع لعدم وجود ٢١٦ مرسئياً بحرية كلية حوالى ١٥ ألف طن ، ٦٧ قنطرة لسحب هذه البضائيات .
تقدر مصلحة الحوائى ، - تراب - الميناء العامة للموانئ بالجمهورية العربية المتحدة والتجارات
توسع مستقبلة - يناير ١٩٦٥ الملحق رقم ١ .

(٢) مساهمة في علاج هذه المشكلة قامت أختبراً محاولات لتفريغ البواخر الراسية على المخطاف بواسطة صندوق لهرية مؤجرة من القطاع الخاص تتراوح حمولتها بين ١٤٠ ، ٢٥٠ طناً غير أن شركات الشحن والتفريغ تترددت لتوقف عملية التاجير هذه وتحتل صندوقاً محل وحدات القطاع الخاص .

(٣) يبلغ عدد الأوناش المتحركة على قضبان الأرصفة الميناء ثمانية أوناش تابعة لمؤسسة الميناء ويقدر مجموع حمولتها بنحو ٢٥ طناً .

البضائع المستوردة لحين إتمام الإجراءات الخاصة بتسليمها . إذ أن مساحة المخازن الحالية في ميناء الاسكندرية تبلغ حوالى ٢٣٠ ألف متراً مربعاً فقط (١) ولعل هذا يرجع إلى صغر المساحة اليابسة من ميناء الاسكندرية فقد ذكرنا من قبل أن هذه المساحة تبلغ $\frac{1}{3}$ المساحة الكلية للميناء أو بعبارة أخرى أن نسبة المساحة اليابسة إلى المساحة المائية هي ١ : ٨ في حين أن المساحة اليابسة في أى ميناء يجب ألا تقل عن ثلث المساحة المائية .. بل لقد حدث أكثر من ذلك أن اقتطع ما يزيد عن نصف مساحة جحر المحمودية وجزء كبير من جحر الاسكندرية لاقاءة محطة الركاب البحرية والخوض الجاف الجديد والترسانة وما يتبعها من أرصفة ومنشآت .. وترتب على ذلك - لا سيما في السنوات الأخيرة - عدم وجود المساحات الكافية لاستقبال الواردات الكثيرة التي اقتضتها برامج التصنيع ومتطلبات إنشاء السد العالي .. ومن ثم اضطر المسؤولون إلى اختيار مناطق محددة خارج الميناء واعتبارها تابعة للدائرة الجمركية ، وسحب بعض البضائع المستوردة لتخزينها بها حتى يتم تسليمها لأصحابها ، كما اضطروا إلى استصدار قرار ينص على تحديد مدد معينة لسحب البضائع من الأرصفة أو من الساحات الواقعة داخل الميناء وإلا سحبت إلى الملاحة الخارجية . غير أن هذا القرار لم يشمل المهتمات المستوردة للسد العالي في حين أن هذه المهتمات كانت تمثل نسبة كبيرة من بضائع التكديس في الميناء كما استثنى منه أيضاً البضائع الصب والمعبأة في أجرة وبكميات كبيرة كالشرب وكذلك الحديد الزهر وحديد التسليح والبضائع التي يزيد وزن الطرود منها عن عشرة أطنان . أى أن هذا القرار يسرى فقط على الطرود التي يقل وزنها عن عشرة أطنان . ومن ثم أصبح أثره محدوداً في علاج هذه المشكلة .

(ثانياً) طول الاجراءات وتعدد الهيئات المشرفة على عمليات الشحن والتفريغ والاستيراد والتصدير - فبعد أن تصل الباخرة وترسو أو تترامى

(١) انظر مصلحة الموانئ والمناظر - السياسة العامة للموانئ (المراجع السابق) الملحق رقم ١

بحوار الرصيف المخصص لها تبدأ عملية تفريغ البضائع من العنابر إما مباشرة إلى الأرصفة أو في مواعين خاصة على أن يتم بعد ذلك فرزها ونقلها إلى المخازن أو إلى الساحات الواقعة داخل الدائرة الجمركية أو إلى المستودعات الخاصة بالجوارك خارج الميناء . وتقوم بهذه العمليات جميعها مؤسسة النقل البحرية (شركات الشحن والتفريغ) والتوكيلات الملاحية . وقد تقوم بعمليات التخزين المؤسسة المصرية العامة للصوامع ، والتخزين بالاشتراك مع مؤسسة الميناء . ثم يتبع هذه العمليات جميعها إجراءات الحجر الزراعي وتقرر بها وزارة الزراعة والحجر البيطري وتقوم بها وزارة الصحة . وكذلك إجراءات قيود الاستيراد والنقد وتقوم بها وزارة الاقتصاد . ثم الإجراءات الخاصة باستيفاء المستندات المصرفية والملاحية والضرائب والاستحقات وهي من شأن أصحاب المصالح والهيئات المستوردة التي تقوم بعمليات الملاحية بإختارها عادة عند وصول البضائع .

وبعد الانتهاء من هذه الإجراءات كلها تقوم مصلحة الجمارك بمراجعة النواتج الخاصة بالسلع المستوردة وتقدير الرسوم الجمركية المستحقة عليها وتخصيصها ثم الافراج عنها .

وتتم إجراءات سحب البضائع من قبل المستورد بتقديم شهادة الإجراءات واذن التخليع والمستندات إلى أقسام التثمين للمراجعة وتقديم البيان لشرف الرصيف للتحقق من مقادير البضائع وأنواعها ثم إعادته لأقسام التثمين للمراجعة ثانية وتقدير الضرائب وتخصيلها واعطاء اذن الافراج النهائي ، والتقدم بها لاذن إلى أقسام الحركة لسحب البضائع والخروج بها من أبواب الميناء بعد تدبير وسائل النقل الكافية والملائمة . وبعد سداد الاستحقاقات أيضاً توكيلات الملاحية وشركات التخزين .

هذا . وقد تجرى أيضاً داخل الدائرة الجمركية عمليات تعبئة محمية لبعض السلع المستوردة أو تجرى عمليات وزن كما هو الحال بالنسبة لبعض السلع القابلة للتلف المستوردة . وقد يترتب على إجراء مثل هذه العمليات بعض التعطيل أيضاً .

ومن هذا كله نرى مدى طول الاجراءات وتعدد الهيئات المشغولة عن تنفيذها - وقد تسير هذه الاجراءات سيرها الطبيعي ومن ثم لا تستغرق وقتاً طويلاً . ولكن قد يحدث - بل كثيراً ما يحدث - أن تعطل في إحدى مراحلها وبالتالي تعطل أو تقف عملية سحب البضائع وتأخذ مشكلة التكديس في الظهور .

(ثالثاً) عدم وجود خطة ممتدة لتزويد الاستيراد لدى بعض الهيئات المستوردة - فكثيراً ما يحدث أن تصل إلى الميناء كميات كبيرة من البضائع أو المعدات والآلات المستوردة لحيثيات مختلفة في وقت واحد مما يؤدي إلى ازدحام الميناء وتكدس البضائع بها . بل انه قد يحدث أن بعض هذه الهيئات تترك المعدات المستوردة لحسابها داخل الدائرة الجمركية بسبب عدم الانتهاء من المراحل أو التجهيزات التي يجب أن تسبق وصولها أو تركيبها .

كذلك قد يحدث أن بعض الهيئات تترك البضائع المستوردة لحسابها داخل الدائرة الجمركية بعد التخليص عليها - أعني بعد سداد الرسوم الجمركية المقررة عليها - وذلك لكي تسحب منها بمقدار حسب الحاجة أو الاستهلاك أو حسب التوزيع المحلي لها . أو قد يحدث أن بعض الهيئات تقره بأعمال الوزن والتعبئة - كما أسلفنا - داخل الدائرة الجمركية . وجميعها أمور تزدحم بسببها الأرصفة والمخازن دون مبرر ولا تفسح بالتالي مجالاً للبضائع الأخرى المستوردة مما يؤخر سحبها وظهور مشكلة التكدس في الميناء .

(رابعاً) البطء الملحوظ في سحب البضائع من الميناء إلى داخل الجمهورية بسبب ضعف كفاءة الوسائل التي تتروم بهذه العملية في الوقت الحاضر - وتشمل هذه الوسائل السيارات والمكوك الحديدية والصنادل النهرية . ويذكر المختصون أن الطاقة اليومية الممكنة للنقل بهذه الوسائل بين ميناء الاسكندرية والداخل تبلغ بالنسبة للسيارات حوالي ألف طن إلى داخل المدينة وحوالي ٢٥٠٠ طناً إلى خارجها . وبالنسبة للمكوك الحديدية تبلغ حوالي عشرة قطارات يومياً تصل حواملها إلى نحو ٨٠٠٠ طناً وبالنسبة

للمصنادل النهرية تبينج حوالي ٥٠٠ طنّاً يومياً . أى أن حملة الطاقة الممكنة لوسائل النقل الثلاث تصل في مجموعها إلى أكثر من عشرة آلاف طن يومياً . ودور قم يزيد كثيراً عن المعدل اليومي للحركة المفروضة بين ميناء الاسكندرية والداخل والذي يقدر بنحو لا يزيد عن تسعة آلاف طن (١) . غير أن هذه النتيجة لا تتفق مع الواقع وذلك لأن وسائل النقل المذكورة لا تعمل بكامل طاقتها المشار إليها نظراً لما يواجهها من عقبات وصعاب كثيرة ومتنوعة تقلل من عدد وحداتها العاملة وتضعف من كفاءة تشغيلها حتى تصبح - خاصة في مواسم نشاط الحركة في الميناء والتي أشرنا إليها من قبل - أقل بكثير مما تحتاجه عمليات نقل البضائع بين الميناء وداخل الجمهورية . وسوف نشير إلى هذه الصعاب والعقبات عند الكلام عن مشكلة النقل بين ميناء الاسكندرية والداخل .

هذه هي أهم أسباب مشكلة التكدس التي تحدث بين آن وآخر في ميناء الاسكندرية . وقد حاول المسؤولون في السنوات الأخيرة علاج هذه المشكلة بالعمل على تنفيذ بعض المقترحات والمشروعات : فقد شملت الخطة الخمسية الأولى (١٩٦٥/٦٠) وكذلك الخطة الخمسية الثانية (١٩٧٠/٦٥) عدداً من المشروعات التي تم إنجاز بعضها (٢) . ولنذكر منها مثلاً بناء عدة مخازن بخركية حديثة وتجديد المخازن القديمة (٣) كذلك تدبير عدد من المخازن

(١) انظر : مصدرة الموانئ والمناشر = السياسة العامة للموانئ (المرجع السابق) - طاقة ميناء الاسكندرية لاستقبال السفن وحركة البضائع . الملحق رقم ١ . . .

(٢) مصدرة الموانئ والمناشر = السياسة العامة للموانئ (المرجع السابق) ص ص ١٧-٢٧ ، ص ص ٤٢ - ٤٩ .

(٣) من المخازن التي اقترح بنائها وتم انشاء بعضها مخزن الصادر خلف رصيف ٢٢ بممرك الحدودية ومساحته ٢٤٠٠ متراً مربعاً . ومخازن السخان الثلاث وتبلغ مساحة كل منها ١٥٠٠ متراً مربعاً ، ومخازن المواد الملتهبة التي تقرر انشاؤها عوضاً عن المخازن التي هدمت نتيجة لمشروع ترسانة البحرية والخوض الجانف الجديد .

ومن المخازن القديمة التي طلب إكمالها وتجديدها المخزن رقم ١٠ والمخازن أرقام ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٤٢ ، ٤٣ . وقد أصيب المخزنان الأخيران خلال الحرب العالمية الثانية .

المغطاه خارج الدائرة الجمركية اكى ينقل اليها بجانب من المواد التحوينية المستوردة كالدقيق والسكر (١) . وتدير مساحات أخرى خارج الميناء أيضاً كمناطق جمركية اكى تنقل اليها البضائع التى يمكن تشوينها فى العراء حين انجاز الاجراءات الخاصة بها وتسليمها لأصحابها . وكذلك أيضاً إقامة عدة سقائف للأسمدة والبضائع العامة والزيوت المعدنية (٢) وإنشاء أرصفة للغلال (٣) .. وأخرى للبضائع الثقيلة بطول ٤٧٥ متراً وبغطاس أمامها مقداره عشرة أمتار وتزويدها بأوناش كهربائية لنقل فحم الكوك من البواخر إلى منطقة تشوين مسورة تسمح بتخزين ٨٠ ألف طن وتزويدها أيضاً بخطوط حديدية لنقل الفحم إلى الداخل . هذا بالإضافة إلى العمل على تدعيم وسائل الشحن والتفريغ وتوفير الطرق المرصوفة داخل الميناء وتحسين وسائل الاضاءة حتى يمكن استمرار العمل ليلاً وبالتالي يمكن زيادة كفاءة تشغيل الميناء .

كما أوصى المجلس الأعلى للدوائى بضرورة تعديل اللاوائح الجمركية وتوحيد جهات الاختصاص بإنشاء مؤسسة للميناء تتولى جميع النواحي

(١) تقدر سعة هذه المخازن الإضافية بنحو ٣٢ ألف طن . [أنظر تقرير اللجنة المشككة من مشغولى وزارة التموين والمخاركة والموانى لبحث إيجاد حل لتخزين الدقيق والغلال خارج الميناء فى ١٩٦٣/٨/٢٢] . والتقارير بالإدارة العامة لشئون الهندسة المدنية بمصلحة الموانى والمخازن .

(٢) فى سنة ١٩٥٤ تم إنشاء الأرصفة الخاصة بالأسمدة الكيماوية بطول ٤٥٠ متراً ويعتق مجاور لها قدره عشرة أمتار . وقد خصص جزء من المساحة الواقعة خلفها لإقامة خمس سقائف طول الواحدة ثمانون متراً وعرضها خمسون متراً . أما السقائف الخاصة بالبضائع العامة وعلى ثلاث فقد اقترحت إقامتها خلف الأرصفة رقم ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ . كما اقترح أيضاً إقامة ثلاث سقائف للزيوت المعدنية بالرصيف الجنوبي لحوض البترول .

(٣) تقع هذه الأرصفة شرق حوض البترول وتشمل رصيفين عميقين طول كل منهما ١٦٠ متراً وعمق المياه أمامه عشرة أمتار . وخلف هذين الرصيفين يوجد حوض للصنادل النهرية وبه أرصفة عمق المياه أمامها ٣,٥ متراً .

الإدارية والزمنية والنواحي الخاصة بتشغيل الميناء وحركتها وقد تم بالفعل إنشاء هذه المؤسسة عام ١٩٦٣ (١).

وليس من شك في أن انجاز هذه المشروعات والأعمال له أثره البين في رفع كفاءة تشغيل الميناء والمساهمة في علاج كثير من مشكلاتها ومن بينها مشكلة التكدس . ولكن على الرغم من ذلك لا يمكن اعتبار هذه المشروعات العلاج الحاسم لمشكلة التكدس بالذات - فاستخدام مخازن خارج الدائرة الجمركية مثلاً كعلاج لهذه المشكلة إنما تواجهه صعاب وعقبات وعيوب متعددة فضلاً عن أنه يقتصر على بضائع معينة دون غيرها كما أشرنا من قبل ؛ ولهذا يمكننا القول أن علاج مشكلة التكدس يجب - في ضوء التحليل السابق لأسبابها - أن يشمل النواحي الآتية :

١ - توفير الوسائل الحديثة الكافية لأعمال التفريغ والشحن والنقل داخل الميناء . كالأوناش السريعة التي تتحرك على إطارات من المطاط . وكذلك القاطرات الكهربائية الصغيرة ذات المقطورات ، وتدريب المشتغلين في هذه الأعمال تدريباً فنياً كافياً لأدائها أداء تاماً .

(١) من أهم اختصاصات هذه المؤسسة :

(أ) إدارة الميناء وإنشاء وصيانة الأرصفة وحواجز المياه والممرات الملاحية وتوسيع وتطهير وتعميق الميناء طبقاً للتعليمات والشروط الفنية التي تملأها أو تقرها مصلحة الموانئ والمناظر .

(ب) إنشاء وإدارة واستغلال المخازن والمستودعات والساحات داخل الدائرة الجمركية باستثناء تلك التي تخص القوات المسلحة ومصلحة الموانئ والمناظر وصوامع انغزال .

(ج) إنشاء شركات التفريغ والشحن داخل الميناء .

(د) الإشراف على النقل داخل الميناء وتشغيل وصيانة المحطة البحرية .

(هـ) اقتراح الخطط الخاصة بالمشروعات المتعلقة بإدارة الميناء والتنسيق بينها وبين مشروعات النقل البحري والنقل الداخلي والموانئ والمناظر .

(و) اقتراح وإبداء الرأي بشأن الرسوم والموائد والتعريفات الخاصة بالخدمات التي تقوم بها مختلف الجهات داخل الميناء .

[انظر : القرار الجمهوري رقم ٢١١٠ لسنة ١٩٦٣ الخاص بإنشاء المؤسسة العامة لميناء الإسكندرية] .

٢ - توفير المخازن الحديثة داخل الدائرة الجمركية والتي تتلاءم مع حجم الحركة في الميناء . وقد أمر يتطلب ضم مساحات جديدة لياكس الميناء .
وجدير بالذكر أن هناك مشروعاً يجرى استكماله في الوقت الحاضر لضم مساحات جديدة للمنطقة الجمركية تصل إلى ٨٧ ألف متر مربعاً . وذلك تمهيداً مع التخطيط العام لمدينة الاسكندرية في الخمسين عاماً القادمة .
غير أن هذه المساحة لأزالت دون حاجة الميناء فن المعروف أن المساحة اليابسة في الميناء يجب الا تقل عن ثلث المساحة المائية - كما أرفقنا - وإذا طبقنا ذلك على ميناء الاسكندرية وجب أن يكون مقدار المساحة اليابسة بها ضعف مساحتها المائية على الأقل .

٣ - تبسيط الاجراءات الجمركية وتنظيمها وقيام التوكيلات الملاحية والمصارف المختلفة بإخطار المستوردين عن البضائع الواردة قبل وصولها بأطول فترة زمنية ممكنة ، وقيام المصدرين بإخطار مؤسسة النقل البحري بالخطوط الرئيسية لعمليات التصدير قبل إجرائها بوقت كاف . وكذلك تنظيم عملية سحب البضائع . والنص في العقود المبرمة على حد أدنى للسحب اليومي . وفرض عقوبة تأخير وليكن من العقوبات حرمان الهيئات التي تراخي أو تبطل في سحب البضائع الواردة لها من ميزة تخفيض رسوم الأرضية والذي قد تصل نسبته أحياناً إلى ٢٥٪ من مقدار الرسوم وبالتالي تحصيل الرسوم كاملة . بل ان من الممكن أيضاً - تشجيعاً للسرعة في سحب البضائع - منح حق الإعفاء من رسوم الأرضية كلية إذا تم السحب في حدود مدة معينة يمكن تحديدها ووضع أسس لها في ضوء حجم البضائع الواردة وبمعرفة المختصين في شئون النقل .

٤ - مراعاة مواسم زيادة الحركة في الميناء سواء بالنسبة للصادر أو للوارد . ومحاولة تنظيم الاستيراد على مدار السنة بتنظيم برامج الشحن من الخارج ومن الداخل بحيث ترد البضائع تبعاً في أوقات لا تتعارض مع مواسم زيادة الحركة في الميناء .

٥ - إصلاح الأرصفة المهتدة وغير المستخدمة . وقد أشرنا إلى ذلك من قبل . ثم العمل على توفير الأعماق الملائمة لغاطس السفن أمام جميع الأرصفة بالتطهير الدائم . إذ أن ظروف الإرساب تتوفر عادة بجوار الأرصفة نتيجة لهدوء المياه وكثرة الرواسب ووقوف السفن .

هذا بالإضافة إلى أهمية إعادة النظر في توزيع الأرصفة النوعية أي المخصصة لأنواع معينة من البضائع . وذلك في ضوء تطور الحركة ، وأنواع البضائع الصادرة والواردة من وإلى الميناء . إذ أن الضغط على أرصفة البضائع العامة غالباً ما يكون أشد منه على الأرصفة النوعية .

٦ - العمل على تحسين طرق النقل ووسائله بين ميناء الاسكندرية وداخل الجمهورية وزيادة كفاءتها . وعلاج مشكلاتها حتى تستطيع مواجهة الحركة المطردة بين الميناء والداخل . وسنعود إلى تفصيل هذه النقطة عند تحليل شبكة النقل بين ميناء الاسكندرية وداخل الجمهورية .

هذا عن مشكلة التكدس في ميناء الاسكندرية - أما المشكلة الثانية التي يواجهها هذا الميناء فهي الزيادة المطردة والمتوقعة في حركة الصادرات والواردات تبعاً لاحتياجات التنمية الاقتصادية في البلاد وزيادة الانتاج والتصدير - ولا شك أن العبء الأكبر في هذه الزيادة سوف يقع على كاهل ميناء الاسكندرية . ولهذا يجب العمل على رفع كفاءته ومحاولة انوصول إلى أقصى طاقة لتشغيله . وقد أشرنا من قبل إلى كثير من المشروعات والمقترحات التي تلزم لتحقيق هذه الغاية (١) . والواقع أن امكانيات ميناء الاسكندرية ليست قليلة فقد رأينا أن بها ٥٥ رصيفاً تصلح لتراكي سفن أعالي البحار منها ٢٧ رصيفاً للبضائع العامة والباقي أرصفة نوعية ومعنى هذا أن في استطاعة الميناء أن تستقبل ٥٥ سفينة في وقت واحد إذا توفرت

(١) يذكر المختصون في مصلحة الموانئ والمنائر أنه يمكن رفع كفاءة ميناء الاسكندرية بعد عمل التحسينات الممكنة انشائياً وإدارياً وتنظيماً وبلون الحاجة إلى استثمارات كبيرة - إلى حوالى ٨ مليون طن في السنة .

لها كافة الظروف الملائمة ونعني بها صلاحية جميع الأرصفة وتوفير الغاطس الملائم أنماها ووجود الوسائل الكافية للتفريغ والشحن والفنيين المتخصصين في هذه العمليات ، وكذلك وجود المساحة اليابسة الكافية لبناء المخازن الضرورية ووجود وسائل النقل الصالحة لنسحب البضائع من الأرصفة إلى المخازن ومن الميناء إلى الداخل .

ثم إذا افترضنا مع توفر هذه الظروف أن معدل الشحن أو التفريغ للباخرة الواحدة هو ألف طن في اليوم الواحد كان معنى ذلك أن انطاقة النظرية للميناء في السنة هي $365 \times 1000 \times 55 = 20,075,000$ طن منها حوالى $(365 \times 1000 \times 27)$ طناً بضائع عامة أى حوالى $9,855,000$ طناً وهى طاقة كبيرة تزيد على أضعاف الحركة الحالية في ميناء الاسكندرية والى تبلغ في المتوسط حوالى 7 مليون طن في السنة .

وحتى إذا تركنا من هذه الطاقة ما نسبته 20% كاحتياطي للميناء يستغل عند الطوارئ فقط ولا يدخل في الاعتبار عند حساب الطاقة المستغلة للميناء كما هو معتاد عند تقدير طاقة ميناء ما كان معنى هذا أن الطاقة المفروضة لميناء الاسكندرية - مع توفر جميع ظروف التشغيل الملائمة - هى حوالى 16 مليون طناً وحوالى 11 باخرة في اليوم الواحد (باعتبار أن معدل تفريغ وشحن الباخرة يستغرق خمسة أيام (1) .

ومن ثم يمكننا القول بأن رفع كفاءة ميناء الاسكندرية لمواجهة الزيادة المطردة والمتوقعة في حركة التجارة الخارجية للجمهورية يمكن أن يتم بتنفيذ المشروعات الخاصة بتشغيل الميناء وإصلاحها وتطهيرها وتطبيق الوسائل والأساليب الحديثة في أعمال الإرشاد والقطر والتفريغ والشحن والنقل والتخزين والادارة للوصول إلى الحد الأقصى لتشغيل الميناء أى إلى طاقتها الكاملة .

(1) يبلغ المعدل ائالى لعدد البواخر التى تدخل الميناء - في الظروف أو الأحوال العادية - ستة أو سبعة بوآخر يومياً .

وبالإضافة إلى ذلك يجب أن نشير إلى أن هناك أرصفة في ميناء الاسكندرية مخصصة في الوقت الحاضر لطائرات أو لأغراض معينة بحيث لا يسمح باستخدامها في حالة خلوها ، وقد يصبح من الممكن في المستقبل الاستفادة من هذه الأرصفة في تفريغ و شحن سفن البضائع العامة التي ترد إلى الميناء . وفضلا عن ذلك أيضاً نذكر أن من الممكن — إن لم يكن في الوقت الحاضر ففى المستقبل القريب — إنشاء ميناء لرسو ناقلات البترول خارج ميناء الاسكندرية على غرار ميناء البترول في السويس أو مرسى الناقلات في منطقة العلمين عند رأس الشتيق على مسافة ٢٥ ميلا شمال حقل العلمين . وبالتالي يمكن ضم أرصفة البترول الخمسة إلى أرصفة البضائع في ميناء الاسكندرية .

ثم لا ننسى أيضاً أن امكانيات توسيع ميناء الاسكندرية تجاه الغرب متوفرة على المدى الطويل . ولعل المشكلة التي تبدو صعبة إلى حد ما هي مشكلة توسيع المساحة اليابسة الحالية لميناء الاسكندرية خاصة في اتجاه الداخل . وذلك لأن الأحياء المتاخمة للميناء مباشرة .. وهي أحياء الميناء ورأس التين والجمرى والتمبارى تعد من الأحياء المزدهرة بالسكان في مدينة الاسكندرية ولهذا كان من الصعب القيام بأعمال نزع ملكية من أجل دمج بعض المساكن وتوسيع الميناء وإعادة تخطيط هذه الأحياء السكنية .

هذا ويمكننا القول أيضاً — بصدد التفكير في إنشاء موان جديدة لتخفيف عن ميناء الاسكندرية — أن الاهتمام برفع كفاءة ميناء الاسكندرية عن طريق تنفيذ المشروعات الختلفة الخاصة بها إنما يعد بديلا صالحا — في الوقت الحاضر على الأقل — عن التفكير في إنشاء موان جديدة كميناء دمياط بصفة خاصة . ففضلا عما يواجه مشروع هذا الميناء من اعتراضات فنية واقتصادية عديدة تتمثل في الصعوبات الفنية التي تواجه تنفيذه (١) .

(١) نذكر من هذه الصعوبات أن طبيعة الشاطئ قرب مصب دمياط لاتلائم إقامة موانى بحرية ، ولهذا كان لابد من إجراء أبحاث دقيقة للأعماق في منطقة المشروع عند رأس البر ودراسة اتجاه الأمواج والتيارات البحرية ومستويات المد والجزر وتيار النيل في منطقة المصب وكيفية الرواسب التي يحملها على مدار السنة ثم عمليات الارساب والتحت وتآكل الشاطئ في المنطقة =

بالإضافة إلى كثرة التكاليف التي تقرر مبدئياً بأنها لن تقل عن سبعة أو ثمانية ملايين من الجنيهات (١) .. فان الدراسات الاقتصادية التي أجريت لهذا المشروع دلت على أن تشييد ميناء دمياط سيكون بتحويل جانب من حركة ميناء الاسكندرية وبورسعيد اليه . أى أنه سيكون على حساب هذين الميناءين . وقد رأينا من قبل أن من الممكن رفع كفاءة ميناء الاسكندرية واستيعاب نحو ضعف حركتها الحالية وبالتالي لا يكون هناك مبرر لإنشاء دمياط المقترح (٢) . إذ أن وجود ثلاثة موانٍ كبيرة على مسافات متقاربة وتعمد كلها على نفس الحركة ليس له ما يبرره إلا إذا وضع في الاعتبار التخصص وليس التكرار .

وفضلاً عن ذلك فان الدراسات التي قامت بها وزارة التخطيط عن مدى الحاجة إلى تطوير نشاط الموانئ في الجمهورية العربية المتحدة . وكذلك الدراسات التي قامت بها إدارة التخطيط بوزارة الدفاع لمقترحات توزيع

= المقترحة لميناء حتى يمكن في ضوء هذه الأبحاث تحديد التخطيط المناسب للميناء ومدخله واتجاه حوائج الأمواج وغير ذلك من نواحٍ نسبية تفصل بتصميم ميناء .

هذا فضلاً عن ضرورة نقل أنواع خاصة من مواد البناء إلى الموقع المقترح - كما أن قرب ميناء بورسعيد من دمياط وقصر المسافة بينهما حيث تبلغ ٤٥ كم قد يجعل من الصعب إغراء سفن الخطوط المنتظمة على المرور بميناء دمياط بالإضافة إلى ميناء بورسعيد أو الإسكندرية . وإذا اضطرت سفينة إلى المرور على ميناء دمياط فسوف يترتب على ذلك زياده في أسعار الشحن من غير شك . وعن هذا يمكننا القول بأن من الممكن في الوقت الحاضر على الأقل إنشاء ميناء صيد في دمياط وتنفيذ مشروع الطريق البرى عبر بحيرة المنزلة بين بورسعيد والطرية التي ترتبط بالدوارة بالدمياط بتفريق برى أيضاً . ومن ثم تصبح بورسعيد - كما هي الآن - ميناء لمنطقة دمياط ويكون الاتصال بينهما أمهل وأسرع منه في الوقت الحاضر عن طريق القنطرة الملاحية الخافية عبر بحيرة المنزلة أو بواسطة الطريق الساحلى (طريق كبرى أششوم الجبل) الذى كثيراً ما يتعطل زمن الشتاء . [انظر التقرير السنوى لمصلحة الطرق والنقل البرى عام ١٩٥٩/٥٨ ص ٢٢٠/٢٢٢]

(١) هذا التقدير فيه اليأس الخبير الأجنبي الذى دعى للدراسة المشروع .

[مصلحة الموانئ والملاحة : السياسة العامة للموانئ (المرجع السابق) الملحق رقم ١٧]

(٢) كذلك من الممكن رفع كفاءة ميناء بورسعيد بانجاز مشروعات بناء الأرصفة العميقة المقترحة ، واستخدام وسائل شحن وتفريغ حديثة وكافية ، وتسهيل ربط الميناء بالداخل بإنشاء طريق بورسعيد الطرية ، وازدواج الخط الحيدى بين بورسعيد والاسماعيلية . ونحو ذلك من مشروعات زيادته كفاءة الميناء .

النسب المئوية من الصادرات والواردات التي تخص كل ميناء في المحطة الخمسية الثانية تدل على أن إنشاء ميناء دمياط سوف لا يكون له أثر كبير في تخفيف الضغط عن ميناء الاسكندرية . ويوضح ذلك الجداول الآتية وهو يبين توزيع معدل النسب المئوية للصادرات والواردات التي تخص موانئ الجمهورية باستعمال الموانئ الحالية فقط والتوزيع الذي قد يحدث عند استخدام الموانئ الحالية بالإضافة إلى ميناء دمياط المقترح (١)

الموازي					
الاركان المكونة	بورس عملة	السوق	مداخلة	موازي أخرى	ميناة دمايط المقترح
%	%	%	%	%	%
٤٥.٣	١٤.٨	١٧.٤	٢٠.٠	٢.٥	—
٤١.٨	١٠.٥	١٦.٢	١٨.٨	٢.٥	١٠.٢
٣.٥	٤.٣	١.٢	١.٢	صفر	—

ومن هذا الجدول يتبين أن نصيب ميناء الاسكندرية من التجارة الخارجية للجمهورية سوف ينخفض - إذا تم إنشاء ميناء دمياط - بنسبة ٣,٥ % أو بعبارة أخرى أن مقدار الزيادة في ميناء الاسكندرية سوف ينخفض إذا أنشئ ميناء دمياط بنسبة $\frac{100 \times 3.5}{45.3}$ أى بنسبة ٧,٧ % من مقدارها

(١) انظر : سعد الدين الحفنى - مدى الحاجة إلى تطوير نشاط الموانئ المصرية بما يتشـمـع مع احتياجات خطة التنمية [تقرير من وزارة التخطيط]

- عمود شعراوي ، شقيق منقذ : مقترحات توزيع النسب المثوية من الصادرات والواردات التي تخص كل ميناء في الخطة الخمسية الثانية . (مقرر من وزارة اخبيرة - شؤون الموانئ) .

— مصلحة الموانئ والمطارات : السياسة العامة للمواني (المترجم السابق) الملاحقين رقم ٧ ، ١٠ ، ١١ .

الحالى وهى نسبة صغيرة تحملها ميناء الاسكندرية فى الوقت الحاضر بل ويمكن أن تحمل أكثر منها فى المستقبل فى حدود الطاقة الممكنة للميناء والى ناقشناها من قبل .

وهن ثم فان القول بانشاء ميناء دمياط لغرض التخفيف عن ميناء الاسكندرية قد يكون قولاً مقبولاً لو أن الحركة فى ميناء الاسكندرية تزيد عن كفاءتها ، أو أن إمكانيات رفع كفاءة الميناء بلغت حدها الأقصى ، وهما أمران لا وجود لهما فى الوقت الحاضر (١).

هذا ، ويتصل برفع كفاءة ميناء الاسكندرية أيضاً العمل على تنوع وزيادة مواردها عن طريق الاستغادة من موقعها الجغرافى وذلك بالاهتمام بالنواحي الآتية :

(أولاً) العمل على انجاز مشروع الترمانة البحرية وتشغيلها - فميناء الاسكندرية بحكم موقعه الجغرافى على الطريق الرئيسى للملاحة العالمية بين الشرق والغرب ، وبحكم مركزه كأكبر ميناء فى النصف الشرقى من حوض البحر المتوسط لابد وأن يكون مزوداً بالوسائل الكافية والمعدة لاصلاح السفن العاملة على هذا الطريق . ونعنى بتلك الوسائل الأحواض الجافة والعائمة «والفرقات» وملحقاتها من ورش ومصانع تتصل ببناء السفن وإصلاحها .

ولم يكن بميناء الاسكندرية من هذه الوسائل حتى ١٩٦٥ سوى الحوض الجاف القديم وبعض الورش «والفرقات» الصغيرة والتدعيم : وفى تلك السنة تم بناء حوض جديد يصلح لاستقبال سفن حمولة ٨٥ ألف طن وبطول

(١) من النقاط التى قيلت فى تأييد مشروع ميناء دمياط أن من الأفضل من الناحيتين الاقتصادية والاستراتيجية عدم تركيز حركة الصادرات والواردات فى ميناءين فقط على ساحل البحر المتوسط لاسيما أثناء الحرب ، فضلاً عن أن إمكانيات التوسع فى ميناء بورسعيد محدودة . كما أن انشاء ميناء دمياط قد يصيب الاقليم بانتعاش اقتصادى نتيجة لامتنعاض الكثير من الأيدى العاملة فى أعمال الميناء ، وقيام الكثير من الخدمات التابعة .

٢٧٠ متراً وبغاطس ١٠,٥ متراً فوق العتب بالمحوض ، كما تم تجديد المحوض القديم ليستقبل سنبناً حولة ١٥ ألف طن وبطول ١٥٨ متراً وبغاطس ٥,٥ متراً فوق العتب .

وكذلك تضمنت الخطة الخمسية الثانية مشروعاً لإنشاء ترسانة بحرية بالميناء . وبدأ تنفيذ هذا المشروع سنة ١٩٦٢ بمعرفة شركة ترمانة الاسكندرية . وهي إحدى شركات المؤسسة المصرية للصناعات الهندسية وذلك على مساحة قدرها ٣٥٠ ألف متراً مربعاً منها نسبة قدرها ٤٠٪ تقريباً أى حوالى ١٤٠ ألف متراً مربعاً اقتطعت من مياه البحر وتم ردمها .

وتقع الترسانة داخل الدائرة الجمركية بين رصيفى ٦٨ ، ٧٠ . ومن المقرر أن يتدرج انتاجها بعد انجازها وبدء تشغيلها حتى تصل إلى أقصى طاقة لها عام ١٩٧٢ (١) حيث يصبح انتاجها سنوياً :

- ١ - أربع سفن كبيرة - ناقلات بترول لغاية ٣٠ ألف طن أو سفن بضاعة تصل حمولتها إلى ١٣ ألف طن وذلك بالترقات الرئيسية .
- ٢ - ثمان سفن صغيرة تصل حولة الواحدة منها إلى ١٢٠٠ طن وذلك بالقزق الميكانيكى (٢) .

وليس من شك في أن تشغيل الترسانة البحرية والمحوضين الجافين الجديد والتقديم بطاقتيهما المذكورة سابقاً وإعداد الفنيين المتخصصين في الأعمال المختلفة بهذه المنشآت سيكون له أثره في زيادة موارد الميناء ورفع كفاءتها سواء من ناحية انتاج السفن المشار إليها أو من ناحية جذب السفن العاملة في حوض البحر المتوسط وعلى الطريق الملاحي بين الشرق والغرب لإجراء ما يلزمها من إصلاحات ،

(١) قد يتأخر هذا التاريخ نظراً للظروف الحاضرة التي تمر بها البلاد وآثارها في الناحية الاقتصادية .

(٢) انظر الشكل رقم (٢) .

(ثانياً) العمل على تنشيط تجارة المرور والاستفادة من المنطقة الجمركية الحرة التي خصصت لم مساحة قدرها ٢٢٥٠٠ متراً مربعاً (١٥٠ متر × ١٥٠ متر) خلف أرصفة الأسمدة الكيماوية - إذ أن المرفع الجغرافي لميناء الاسكندرية يسمح لها بأن تكون ميناء مرور هام ينافس موانئ المرور الأخرى في حوض البحر المتوسط .

والواقع أن النقص الملحوظ في تجارة المرور في موانئ الجمهورية العربية المتحدة بصفة عامة في السنوات الأخيرة إنما يعزى أولاً إلى الحرب الاقتصادية التي أخذت تشهها على الجمهورية العربية المتحدة الدول غير الصديقة والدول التي تدور في فلكها منذ عدوان ١٩٥٦ ، وذلك بالإضافة إلى منافسة الموانئ الأخرى مثل جنوة وبيريه وبيروت وغيرها ، كما أن بطء عمليات الشحن والتفريغ وضعف مستوى أدائها في موانئ الجمهورية سواء بالنسبة للوسائل المستخدمة أو بالنسبة للقائمين بهذه العمليات لم يشجع الشركات الملاحية على استخدام تلك الموانئ في تفريغ بضائع المرور أو شحنها إذ قد يعرض السفن للتأخر عن المواعيد المحددة لها وبالتالي تتعرض لمزيد من التكاليف بل قد تتعرض لخسائر أو لأضرار شديدة نظراً لارتباط تواريخ الشحن والتفريغ في أغلب الأحيان بشروط مالية أو تجارية محددة .

ومن ثم يتبين لنا أن عامل السرعة في إنجاز عمليات التفريغ والشحن بموانئ الجمهورية عامة يعد عاملاً حاسماً في جذب تجارة المرور إليها . وعلى هذا فإن العناية بعلاج تلك المشكلة وغيرها يمكن أن يساعد على تنشيط تجارة المرور بموانئ الجمهورية عامة وميناء الاسكندرية بصفة خاصة .

ولا يخفى ما في ذلك من فائدة - ففضلاً عن رسوم التخزين والابداع وأجور الشحن والتفريغ والرسوم والعوائد الإضافية الأخرى نجد أن تنشيط تجارة المرور قد يساعد على تشغيل بعض السفن التجارية العربية الصغيرة في توصيل الشحنات والبضائع إلى الموانئ المرسل إليها وعدم انتظار السفن الأجنبية التي تتحكم في هذه العملية (١) .

(١) من الطرق الحديثة التي تستخدم لزيادة سرعة إنجاز عمليات الشحن والتفريغ في الموانئ =

(ثالثاً) تسهيل عمليات تموين السفن بالوقود (البunker) (١) من ميناء الاسكندرية ، والاهتمام بكل ما من شأنه جذب السفن لهذا الغرض — وذلك لما يترتب على هذه العمليات من فوائد اقتصادية كثيرة كزيادة دخل الدولة من العملات الصعبة ، وتشغيل عدد كبير من الأيدي العاملة في عمليات التزود ، وربط البواخر ونحوها . فضلاً عن أن تزود البواخر بالوقود من ميناء الاسكندرية قد يجذبها إلى التزود أيضاً بغير ذلك من مواد التموين بدلاً من توقفها بموانئ أخرى لهذا الغرض . وقد يجذبها كذلك إلى إجراء بعض الإصلاحات اللازمة لها (٢) .

وتنافس الاسكندرية وموانئ الجمهورية الأخرى في هذه الناحية موان كثيرة في حوض البحر المتوسط والبحر الأحمر وذلك بتخفيض أسعار الوقود الذي تبذره للسفن ، بتقديم التسهيلات الكثيرة لجذب البواخر إليها .

== وكذلك المحافظة على البضائع المنقولة وعدم تعرضها للنفث أو العبث — شحن البضائع في صناديق كبيرة متائلة الحجم تعرف باسم وحدات التجميع "Containers" وقد أحدثت بعض أحيثت الملاحة الدولية بوضع مواصفات تقنية معينة لهذه الوحدات تشمل أبعادها وسمك جدرانها وأركانها والمادة التي تصنع منها وأقصى حمولة لها .. الخ . ومن مزايا استخدام هذه الوحدات استقبال القوم البشيرة بالقوم الآلية في تفريغ السفن وشحنها وبالتالى الوفرة في الوقت وفي نفقات تشغيل السفن وكفاءتها إذ يمكنها القيام بعدد أكثر من الرحلات ، وكذلك رفع كفاءة الموانئ إذ يمكنها استقبال عدد أكبر من السفن . هذا بالإضافة إلى صيانة البضائع المنقولة من مختلف الأنواع والأحجام ، وخفض تكاليف التعبئة والنقل ، وتوفير نفقات التخزين والحراسة وما إليها من نفقات تتصل بالإعداد للشحن والنقل .

غير أن استخدام هذه الوحدات يتطلب شروطاً خاصة قد لا تتوفر حالياً في ميناء الاسكندرية ومن أهم هذه الشروط أن تكون المساحة اليابسة بالميناء مستقيمة تتناسب مع أبعادها الكبيرة من هذه الوحدات الصادرة والواردة . كذلك يجب أن تزود الأرصفة بآلات رفع قوية تتحرك على قضبان حديدية لسهولة نقل الوحدات من السفينة إلى أماكن تجميعها بالميناء مباشرة . كما يجب أن تتوفر المخازن الكافية لإستيعاب أعداد كبيرة من هذه الوحدات ، وكذلك العدد الكافى من سيارات الرفع القوية Fork lift Trucks ، لتداول الوحدات ونقلها من مكان إلى آخر .

(١) تطلق كلمة "Bunker" على المكان الذى يحفظ به الوقود بالسفينة غير أنها أصبحت الآن اصطلاحاً يطلق على جميع أنواع الوقود الذى تستعمله السفن في تحريك آلاتها .

(٢) يمكن أن نصنف إلى هذه الفوائد أيضاً قيام بعض أفراد طاقم السفن أو ركابها بزيارة المدينة وقد يكون لهذا بعض الأثر في انتعاشها الاقتصادى .

ومن هذه الموانئ كاتانيا وأوجستا وبالرمو في البحر المتوسط وعدن في البحر العربي ومصوع وبور سودان في البحر الأحمر (١) ولهذا يجب أن يعاد النظر في أسعار مواد البنكر (الوقود) في ضوء الأسعار التي تعلقها تلك الموانئ وغيرها في حوضي البحرين المتوسط والأحمر . وكذلك يجب الاتصال بشركات الملاحة لتشجيع عمليات التموين لاسيما الشركات التي لها سفن منتظمة في حوض البحر المتوسط أو على الطريق الملاحي الرئيسي بين الشرق والغرب ، كذلك يجب التأكد من أن مواد الوقود المنتجة والمعدة لتموين السفن بميناء الاسكندرية مطابقة للمواصفات الدولية ، وأن الكميات الموجودة في الميناء من مواد الوقود الثلاث المستخدمة وهي المازوت والديزل والسولار كافية لتموين أكبر عدد من السفن يمكن أن تستقبله الميناء دفعة واحدة . وذلك حتى لا تتعطل السفن انتظاراً لوصول الكميات اللازمة لها من الوقود . فقد لوحظ أن كثيراً من السفن يرفض التوقف بالميناء إذا لم تكن كميات الوقود المطاوعة معدة . ولا شك أن للتوكيلات الملاحية دور عملي هام في هذه الناحية (٢) .

(١) يلاحظ أنه نتيجة لهذه المنافسة وبسبب غلق قناة السويس عقب عدوان ١٩٥٦ ثم عقب عدوان ١٩٦٧ هبطت مبيعات الجمهورية العربية المتحدة من مواد البنكر (المازوت والديزل والسولار) بشكل ملحوظ .

(٢) تتحدد أسعار الوقود «البنكر» بالسعر العالمي لها مضافاً إليه تكاليف النقل والشحن كما تنفذ هذه الأسعار أيضاً تبعاً للأحداث السياسية والاقتصادية ويتضح ذلك من الجدول الآتي وهو يبين مدى تأثير أسعار الأنواع المختلفة من وقود السفن في موانئ الاسكندرية وبور سعيد والسويس بتلك الأحداث :

السعر المعلن للطن بالثلثات في موانئ			نوع الوقود	التاريخ
السويس	بور سعيد	الاسكندرية		
٨١/٦	٨٥	٩١	مازوت	١٩٦٧/٦/٤
١٧٥	١٧٥	١٧٥	ديزل	(قبل العدوان)
٢٠٥	٢٠٥	٢٠٥	سولار	
١١٨	١٣٤	١٤١	مازوت	١٩٦٨/٦/٥
٢٢٧	٢٣٩	٢٣٩	ديزل	(بعد غلق قناة السويس وتخفيض الإسترلينى في شهر فبراير)
٢٦٢	٢٧٤	٢٧٤	سولار	
١١٨	١٢٧	١٢٧	مازوت	١٩٦٨/٧/١
٢٢٠	٢٢٠	٢٢٠	ديزل	(أسعار منافسة نتيجة للحصار الاقتصادي)
٢٤٥	٢٤٥	٢٤٥	سولار	

أما المشكلة الثالثة التى يواجهها ميناء الاسكندرية فتشمل فى الصعوبات التى تواجهها وسائل النقل المختلفة التى تربط الميناء بداخل الجمهورية وأثر ذلك فى ضعف كفاءتها - فميناء الاسكندرية تصانه بالداخل ثلاثة أنواع من طرق النقل هى :

(أولاً) الطرق البرية - وتشمل :

١ - الطرق الممتدة داخل الميناء . والطرق التى تخترق مدينة الاسكندرية لتصل الميناء بالطرق الرئيسية المؤدية إلى داخل البلاد - ويواجه النقل على هذه الطرق جميعاً صعاب متنوعة منها الحاجة هذه الطرق إلى العناية والاصلاح المستمر نظراً لكثرة الحركة عليها . وكذلك استخدام العربات التى تجرها الخيول (الكارو) التى تؤثر عجلاتها الحديدية فى رصفها لاسيما بالنسبة للطرق التى تمتد داخل الميناء . كذلك ازديادها بالحركة ولعل السبب الأساسى فى ذلك هو صغر مساحة الجزء اليابس من الميناء بالنسبة لكمية البضائع التى ترد اليه أو تصدر منه .. كذلك ضيق الكثير منها لاسيما الطرق المؤدية إلى الميناء . وسوء تنظيها . وازدياد حام الجهات المحيطة بالميناء بالسكان .

ولا شك أن علاج هذه المشكلات إنما يرتبط باعادة تخطيط الأحياء المتاخمة لميناء خاصة رأس التين والجمر لك والقبارى . .

٢ - أنطرق التى تصل ميناء الاسكندرية بالداخل وتشمل - الطريق السريع الجديد الممتد إلى القاهرة ثم الطريق الزراعى القديم الممتد بمحاذاة الترع المحمودية إلى كفر الدوار ومنهور وهو طريق ضيق كثير المنحنيات . كما تشمل الطريق الممتد أيضاً نحو الشرق بموازية الساحل إلى رشيد وادفينا والطريق الصحراوى الممتد إلى القاهرة . ويعتبر الطريق الأول أدم الطرق جميعاً وأكثرها صلاحية للنقل نظراً لاتساعه واستقامته فى أطوال كثيرة منه . وربط معظم المدن الرئيسية ، والمراكز الصناعية فى الدلتا ، وصولة اتصاله بشبكة الطرق المتشعبة فى أنحائها المختلفة وتخلصه من كثير من العقبات التى تعترض الطرق الأخرى كالمنحنيات المتعددة أو التقاطع مع طرق أخرى أو مع الخطوط الحديدية أو الطرق الملاحية وذلك بفضل الكبارى العلوية

Over-head Bridges التي تمتد فوقها . ولذا كان هذا الطريق يعد الشريان الرئيسي للنقل البرى بين ميناء الاسكندرية والداخل ، كما كان الاهتمام به يفوق الاهتمام بغيره من الطرق . والواقع أن المشكلة التي ترتبط بالنقل البرى بين ميناء الاسكندرية والداخل إنما تتمثل فى ضعف وسائل النقل التي تعمل على هذه الطرق فى الوقت الحاضر وعدم كفايتها لمواجهة حركة النقل المتزايدة للميناء . ويظهر هذا الضعف فى قوة عدد سيارات النقل الصالحة للعمل وهبوط طاقتها . وأعل السبب فى ذلك هو الحد من استيراد السيارات ، وكذلك النقص الملحوظ فى قطع الغيار اللازمة لها فى الوقت الحاضر . ثم قيام بعض المؤسسات العامة بتعهيدات النقل بين الميناء والداخل خاصة بالنسبة للعواد التوينية والبضائع المستوردة أو المصدرة لحساب الهيئات والمؤسسات الحكومية .. هذا بالإضافة إلى منافسة السكك الحديدية والنقل المائى الداخلى بسبب ملائمتها لنقل أنواع من البضائع لا يلائمها استخدام السيارات كالبضائع الكبيرة الحجم مثل الآلات والأخشاب والأنابيب أو الرخيصة كالأتربة المعدنية ومواد البناء . أو أن يكون نقل البضائع لمسافات طويلة كما كان الحال بالنسبة لمعدات السد العالى .

غير أن ما يمتاز به السيارة من مميزات اقتصادية أخضعها المرونة والسرعة يدعونا إلى القول بضرورة العمل على تشجيع النقل بالسيارات بين ميناء الاسكندرية والداخل ، وذلك بتسهيل أعمال استيراد السيارات وتوفير قطع الغيار اللازمة لها . لا سيما وأن حوالة سيارات النقل الحديثة قد ارتفعت إلى حد يصل إلى ما بين ثلاثين وأربعين طناً (بما فى ذلك المقطورة) .

وفضلاً عن هذا يجب أن يكون هناك أيضاً نوع من التنسيق بين وسائل النقل المختلفة ، وكذلك بين مؤسسات النقل بالسيارات وبين الأفراد المشغلين به حتى لا يتحول بعض هؤلاء الأفراد عن المساهمة فى حركة النقل البرى بين ميناء الاسكندرية والداخل إلى نواح أخرى من نواحى الاستثمار الاقتصادى .

(ثانياً) السكك الحديدية :

ذكرنا من قبل أن حوالى ٣٢ كيلو متراً من السكك الحديدية تتشعب

داخل ميناء الاسكندرية لتربط أرصفتها المتعددة بمحطة بضائع القبارى التى تمتد منها خط حديدى جنوب مدينة الاسكندرية حتى يلتقى بخط الاسكندرية - القاهرة الرئيسى فى جنوب شرق مدينة الاسكندرية مباشرة.

كذلك ذكرنا أن المختصين يرون أن فى الامكان أن تصل طاقة السكك الحديدية التى تربط ميناء الاسكندرية بالداخل إلى عشرة قطارات يومياً مجموع حمولتها حوالى ثمانية آلاف طن (١) .

غير أن هذا القول قد تواجهه عند التنفيذ صعوبات حمة من أهمها صعوبة التنسيق بين مواعيد تحرك هذا العدد من القطارات على الخط الرئيسى وبين مواعيد تحرك قطارات الركاب التى تعمل على نفس الخط بين الاسكندرية والداخل . خاصة وأن عدد هذه الأخيرة قد زاد كثيراً بعد استخدام وحدات الديزل الصغيرة كما وأنه يزيد أكثر فى مواسم ضغط الحركة كما هو الحال فى فصل الصيف وفى فترات الأعياد الدينية . كذلك من الصعوبات أن عمليات الشحن والتفريغ وتسييف العربات Stowage لازالت تعتمد فى معظمها على المجهود البشرى . كما أن عمليات الفرز والمناورة وغيرها من العمليات التى تتصل بتنظيم الحركة تستغرق وقتاً غير قصير - وعلى هذا فإن زيادة عدد قطارات البضائع بين ميناء الاسكندرية والداخل سوف يتطلب التقليل من عدد قطارات الركاب العاملة على الخط الرئيسى ، وهو ما لا يمكن تحقيقه فى الوقت الحاضر نظراً لأن السكك الحديدية تعتبر الوسيلة الأساسية التى يعتمد عليها نقل معظم الركاب بين مدينة الاسكندرية والداخل ، بينما يعتمد نقل البضائع على أكثر من وسيلة :

(ثالثاً) طرق الملاحة الداخلية التى تصل ميناء الاسكندرية بالداخل - وهى تشمل طريقتين :

أولهما : ويعرف بالطريق الملاحى القديم - ويتبع الترعة المحمودية

(١) يعنى ذلك أن خمسة قطارات تتحرك من الاسكندرية إلى الداخل ومنها تتحرك اياباً أى من الداخل إلى الاسكندرية . أو نحو ذلك .

حتى مخرجها من فرع رشيد ، ثم يتبع مجرى فرع رشيد حتى القضاة ، ثم يتبع ترعة القضاة فالترعة الباجورية فالرياح المنوفى حتى القناطر الخيرية .

والثانى : ويعرف بالطريق الملاحي الجديد - ويتبع التربة الحمودية حتى ملتقاها بترعة الخندق الشرقى ثم يتبع التربة الأخيرة حتى مخرجها من الرياح البحرى . ثم يتبع هذا الرياح حتى القناطر الخيرية .

ويعتبر هذا الطريق الأخير فى الوقت الحاضر الطريق الرئيسى للنقل المائى بين ميناء الاسكندرية والداخل وذلك نظراً للصعاب والعقبات التى تواجهها الملاحة فى الطريق القديم والى من أهمها : الطول وكثرة المنحنيات وتعدد الكبارى والأهوسة ، وضيق المجرى فى بعض أجزائه ، وكثرة الرواسب ، وقلة الغاطس (١) ولكن على الرغم من الاهتمام بصلاحية هذا الطريق الجديد للملاحة ، وتخلصه نسبياً من بعض العقبات التى تكتنف الطريق القديم إلا أنه لازالت تواجهه بعض الصعاب وأخصها بالذكر كثرة الكبارى لاسيما فى منطقة الاسكندرية حيث يبلغ عدد الكبارى القائمة فوق التربة الحمودية فى هذه المنطقة فقط عشرة كبارى . ولهذا اتجه التفكير إلى مشروع شق قناة ملاحية تخرج من التربة الحمودية عند الكيلو ٤٠٠، ٤٠٥ (عند كفر الدوار تقريباً) وتقطع بحيرة مريوط ثم تنتهى فى حوض الصنادل النهرية خلف أرصفة الغلال فى ميناء القميرية (٢) . وبالتالي يمكن التخلص من مشكلة تعدد الكبارى السابقة والآثار المتعددة الناجمة عنها كتعطيل سير الوحدات الملاحية وتأخيرها وبالتالي ضعف كفاءة تشغيلها ، وكذلك يمكن التخلص من مشكلة كثرة المنحنيات فى الجزء الأدنى من التربة الحمودية وهى مشكلة تحد من حجم الوحدات الملاحية التى يمكن استخدامها فى النقل بين ميناء الاسكندرية والداخل . وقد تمت بالفعل دراسة هذا المشروع

(١) انظر د. فهمى هلال : النقل المائى فى مصر وبعض مشكلاته الرئيسية - رسالة دكتوراة ص ٣١٨ وما بعدها .

(٢) انظر مذكره بهذا المشروع فى : تفتيش عام مشروعات رى الوجه البحرى - وزاره الأشغال - الملف رقم ٩/٢/٤٢ جزئ ١ ، ٢ ، ٣

كما تم تخطيطه . ولكنه لم يخرج حتى الآن إلى حيز التنفيذ . وليس من شك في أن انجازه سوف يساعد كثيراً على تقدم النقل المائي بين ميناء الاسكندرية والداخل وسهولته . إذ أنه سوف يؤدي إلى رفع كفاءة الوحدات الملاحية نتيجة لعدم تعطيلها من جهة ولا يمكن استخدامها وحدات أكبر حجماً من جهة أخرى خاصة وأن من الآثار التي ارتبطت بإنشاء الميناء العالي بإمكان ضمان غاطس ثابت في المجرى الملاحية الرئيسية (١) . فضلاً عن قلة الحاجة لتطهيرها في فترات متقاربة نظراً لقلة الرواسب في مياهها .

ويمكننا أن نقدر أهمية هذا المشروع أيضاً وأثره في تقدم النقل بصفة عامة بين ميناء الاسكندرية والداخل إذا وضعنا في اعتبارنا المزايا الاقتصادية التي يفوق بها النقل المائي النقل بالسكك الحديدية أو بالسيارات لاسيما بالنسبة لأنواع البضائع التي ترد إلى ميناء الاسكندرية أو تصدر منها (٢) .

هذا ومن المشكلات الرئيسية التي تواجه ميناء الاسكندرية أيضاً مشكلة الإرساب وحاجة الميناء الدائمة لأعمال التطهير والتعميق لاسيما بجوار الأرصفة وفي الممرات الملاحية المؤدية إلى مدخل الميناء . وذلك لتوفير الغاطس الملائم للسفن فضلاً عن إمكانية مواجهة الاتجاه الدائد الآن نحو زيادة حجم البواخر وغطسها باطراد . وقد ذكرنا من قبل أن الغاطس بجوار أرصفة ميناء الاسكندرية يتراوح بين أربعة أمتار واثني عشر متراً غير أنه يقل في الواقع بجوار كثير من الأرصفة عن العمق المقرر لها أو المفروض لاستقبال السفن بجوارها . ولهذا أثره في حجم وعدد السفن الواردة إلى الميناء حتى أن بعضها قد يضطر أحياناً - عند وصوله - إلى الانتظار على المخطاف حتى تحاول بعض الأرصفة التي يتلاءم الغاطس بجوارها مع غاطسها ، ولا يخفى ما لهذا من أثر في تعطيل السفن وزيادة تكاليفها مما قد يدعو بعضها إلى الإحجام عن نقل شحنات إلى ميناء الاسكندرية .

(١) ربما يتأثر هذا الغاطس باستخدام نظام المناوبات في الري وحجز مياه في الأحباس المختلفة هل المجرى النهرية بواسطة قنطرة موازنة غير أنه يقدر بنحو ١٨٠ سم .

(٢) انظر الخريطة شكل رقم ٢

وتعزى مشكلة الإرساب فى ميناء الاسكندرية إلى عاملين أساسيين :

أولهما : التربة المحمودية والرواسب التى تحملها مياهها وتلقى بها بصفة مستمرة فى الميناء . ويساعد على تراكمها هدوء المياه فى داخلها نتيجة لامتداد حاجزى الأمواج الخارجيين من جهة ثم الحواجز التى تكتنفها فى الداخل من جهة أخرى .

أما العامل الثانى : فهو التيار الساحلى المار بالسواحل الشمالية من الجمهورية والرواسب التى يحملها ويتزود بها عند اتجاهه نحو الشرق . ويساعد على كثرة هذه الرواسب فى مياه التيار امتداد الشطوط والكثبان الرملية الممتدة على طول الساحل غرب الاسكندرية . ثم اتجاه الرياح السائدة من الشمال والشمال الغربى أى نحو الساحل إذ أن هذا يساعد على زيادة أثر الأمواج فى تعرية الشاطئ وتزويد التيار الساحلى باستمرار بما تنقله الأمواج من مفتتات الصخور وتكوينات الكثبان الساحلية والشطوط الرملية التى ترتطم بها . وبدخل جانب من هذه الرواسب مع تيارات المد التى تدخل إلى ميناء الاسكندرية خاصة وأن مدخل الميناء يقع فى مواجهة التيار الساحلى الذى يتحرك نحو الشرق .

هذا بالإضافة إلى أن اتجاه الرياح السائدة على ميناء الاسكندرية من الشمال والشمال الغربى من شأنه تقوية تيارات المد وهى التيارات التى تنقل الرواسب إلى داخل الميناء كما سبق ، والتخفيف من شدة وسرعة تيارات الجزر وهى التيارات الخارجة من الميناء نحو البحر ، والتى قد تحمل معها عند خروجها جانباً من الرواسب التى تصل إلى الميناء سواء عن طريق التربة المحمودية أو عن طريق التيار الساحلى .

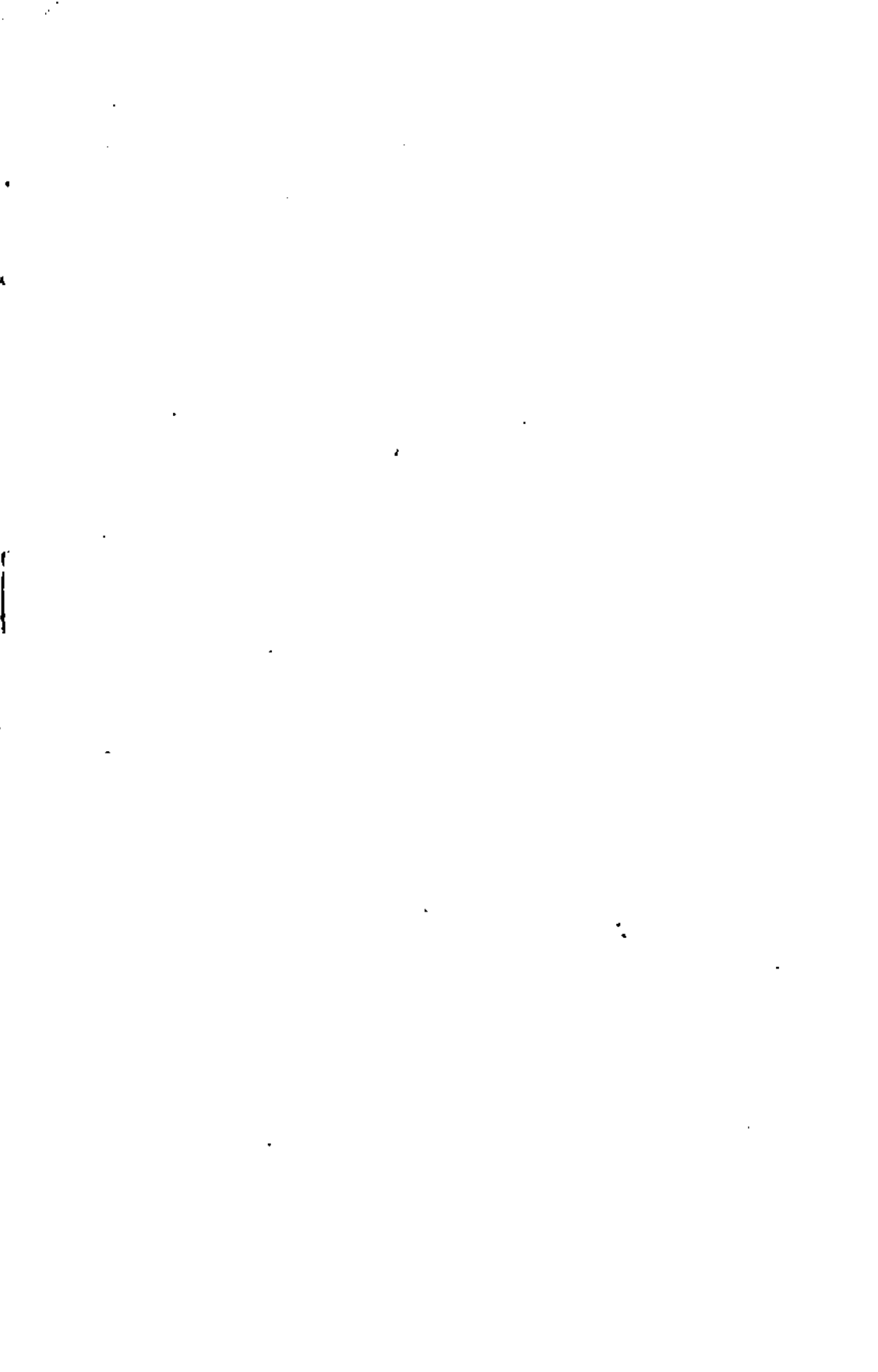
ومن ثم فإن كمية الرواسب التى تخرج من الميناء إلى البحر مع تلك التيارات تكون أقل مما تحمله تيارات المد إلى داخل الميناء ونتيجة ذلك هى أن يزداد الإرساب فى الميناء بصفة مستمرة .

هذا ويعتبر نقص معدات التطهير في ميناء الاسكندرية من الأمور المساعدة على زيادة تراكم الرواسب وقلة الأعماق بها لاسيما بجوار الأرصفة حيث تقل حركة مياه البحر وتتوفر ظروف الارساب . فعدد الكراكات التابعة لميناء الاسكندرية يبلغ في الوقت الحاضر ثلاث كراكات قديمة . أما الجبارات (١) فعددها خمسة فقط علماً بأن كل كراكة يلزمها لكي تستمر في أداء عملها أن يتعاون معها ثلاثة جبارات على الأقل دون توقف وعلى التوالي لكي يتم نقل نواتج التطهير إلى داخل البحر بعيداً عن الميناء وممراتها الملاحية .. كذلك يلزم أن تعمل الكراكات بصفة دائمة حتى لا تدع فرصة لتراكم الرواسب أو انتشارها بجوار الأرصفة أو في الممرات الملاحية .

والواقع أن العلاج الوحيد لمشكلة الارساب في ميناء الاسكندرية هو تزويد الميناء بعدد أكبر من معدات التطهير السائلة الذكر . هذا بالإضافة إلى أن إنشاء السد العالي وحجز مياه النيل أمامه سوف يساعد على نقص كمية الرواسب التي تحملها مياه الرعة الحمودية إلى ميناء الاسكندرية والتي كانت تزيد بصفة خاصة في أشهر الفيضان . وربما يساعد أيضاً إنشاء القناة الملاحية المقترحة ملدها بين الرعة الحمودية وميناء القمرية داخل بحيرة مريوط على مضاعفة هذا النقص وذلك لأن تصريف الرعة الحمودية قد يقل بعد نقطة تفرع القناة الملاحية المقترحة منها نظراً لعدم استخدام الجزء الأدنى منها في الملاحة وبالتالي تقل سرعة المياه بها ويزيد معدل الارساب في مجراها . وبالتالي أيضاً تقل كمية الرواسب التي تظل عالقة في مياهها حتى الميناء . ومن جهة أخرى سوف يكون تراكم الرواسب التي تحملها مياه القناة الملاحية الجديدة في مساحة محدودة في جنوب غرب الميناء بحيث يمكن حصرها وتطهيرها بصفة مستمرة .

(١) «الجبار» هو عبارة عن لش أو صندل كبير معد لنقل الرواسب ناتج التطهير "تي تستخرجها الكراكة من القاع إلى داخل البحر بعيداً عن الميناء .

وبعد : فهذه هي أهم المشكلات التي يواجهها ميناء الاسكندرية وهي كما رأينا مشكلات مترابطة ومتعددة الجوانب . ولكن علاجها يعتبر أمراً حيوياً بالنسبة لميناء يعد حلقة الاتصال الرئيسية بين الجمهورية وبين دول العالم الأخرى . كما يعتبر الميناء الثاني في حوض البحر المتوسط .



سيوة « دراسة جغرافية »

الاستاذ الدكتور عبد الفتاح وهيبه

والسيد / محمد علي بهجت

شخصية الواحة :

سيوة إحدى واحات الصحراء الغربية المصرية التي تمتد من وادي النيل في الشرق حتى الحدود الليبية في الغرب .. هذه الواحات متشابهة إلى حد بعيد في نشأتها وأصول وعوامل تكوينها ، وأيضاً في طريقة المعيشة بها ومدى وكيفية استغلال الانسان لأراضيها ، وإن كان من الواجب ذكر هذا الكلام بشيء من التحفظ ، ذلك لأنه الشبه وإن كان قائماً في كثير من النواحي إلا أن هذا لا ينفي وجود بعض الاختلافات المحلية والمميزات التي تحدد لكل واحة شخصيتها والتي تنشأ عن عوامل مختلفة كالموضع والموقع وطرق المواصلات مثلاً .

تقع سيوة بين خطي طول ٢٥° - ٣٠° شرقاً وبين خطي عرض ٢٩ - ٢٩,٣١° شمالاً ، وبهذا الموقع فهي تبعد عن البحر المتوسط في الشمال حوالي ٣٠٠ كيلو متر ، وتبعد عن نهر النيل في الشرق حوالي ٤٥٠ كيلو متر ممتدة بذلك من الشرق إلى الغرب مسافة تبلغ ٧٧ كيلو متراً بعرض يتراوح بين ٥ - ١٥ كيلو متر . وهي تقع في منسوب ينخفض عن مستوى سطح البحر حوالي ١٧ متراً . وهي تشمل بالإضافة إلى مدينة سيوة والعاصمة (مناطق أخرى تقع على أطراف المدينة هي أغورى وأبو شروف والمراقى ومشند وخيسة وقارة أم الصغير .

ولعل أهم ما يميز شخصية منخفض سيوة هو انعزاليته الشديدة عن العالم . فهو أبعد المنخفضات عن وادي النيل، ولا يربطه بالعمران سوى تلك المسالك الصحراوية التي تصله بمرسى مطروح على ساحل البحر المتوسط في الشمال ، وبالواحة البحرية في الجنوب وبواحة جغبوب في الغرب .

وقد انعكست تلك الانعزالية على أهل سيوة في كثير من نواحي حياتهم فـللـسيـويـين عادات وتقاليد مغايرة كثيراً لتلك الموجودة في وادي النيل ، وينطقون لغة بربرية غيز مكنوبة وإن كانت اللغة العربية قد أخذت طريقها إلى الواحة . وتؤكد شخصية سيوة من طريقة استغلال الإنسان لأراضيها وبمعنى آخر بالحد الذي وصل إليه تفاعل الإنسان مع البيئة هناك ، وإلى أى النتائج أدى ذلك التفاعل ويمكن بصفة عامة القول بأن أقدم الإنسان قده وطئت أرض سيوة منذ عهد بعيد يرجع إلى عصور ما قبل التاريخ ، وظل الإنسان في تفاعله مع البيئة يطور من شكل الاستغلال بها . فتطورت البيئة من أرض الجمع والالتقاط والصيد إلى أرض الزراعة والاستقرار والتعمير . ولعل في دراسة تاريخ هذا الاستغلال البشرى لأراضي سيوة ما يبرز صورتها ويثبت شخصيتها ؛

عن الجغرافية التاريخية للواحة :

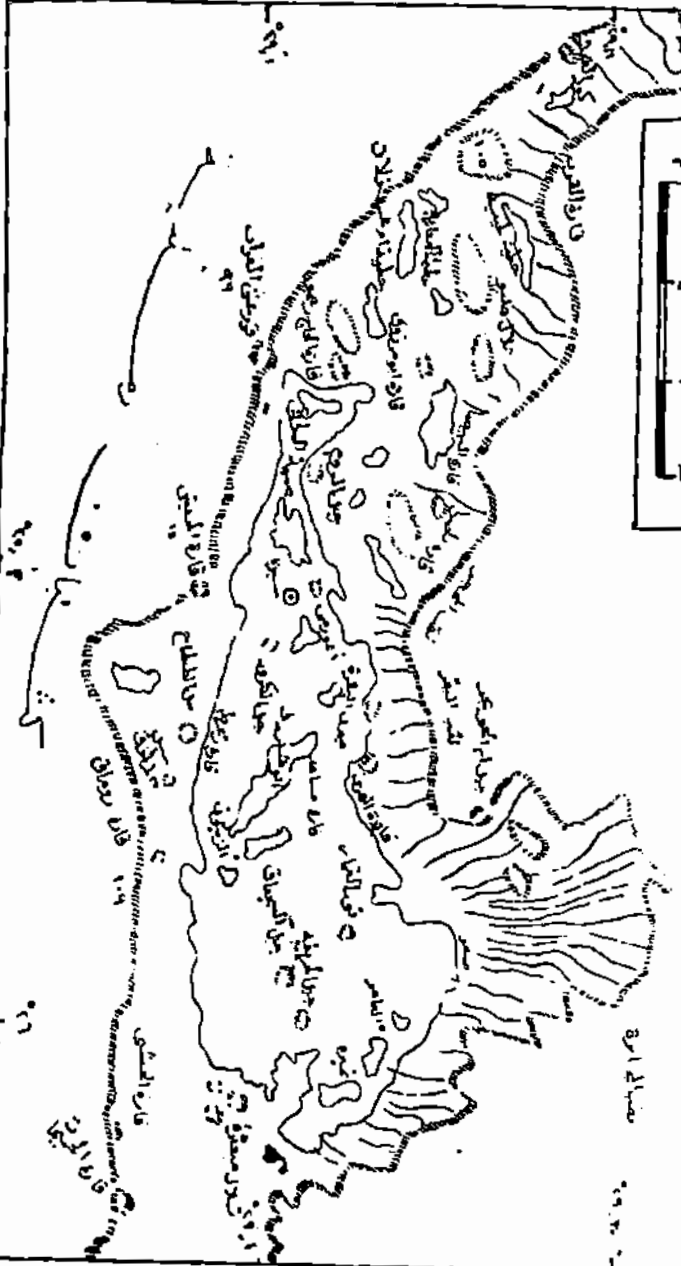
وفقاً للدراسات الجغرافية التاريخية والأثرية يمكن تقسيم تاريخ تعمير سيوة واستغلال أراضيها إلى العصور الآتية :

- ١ - عصر ما قبل التاريخ
- ٢ - عصر الفراعنة
- ٣ - العصر الاغريقي الروماني
- ٤ - العصر العربي
- ٥ - العصر الحديث

وفيما يلي كحة مختصرة عن تفاعل الإنسان مع البيئة خلال كل عصر من هذه العصور :

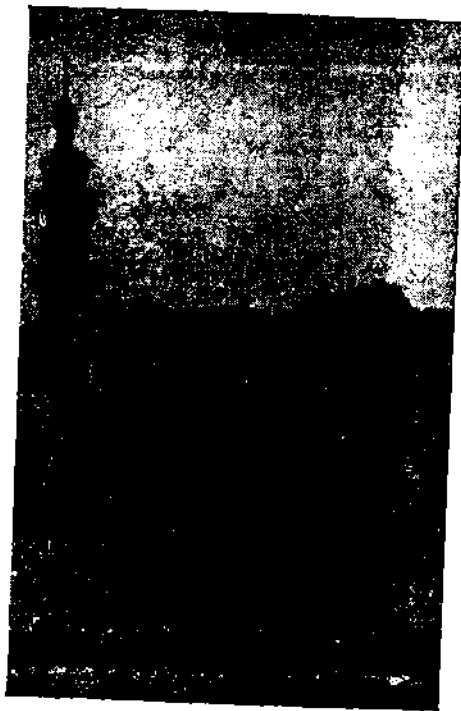
(1) Mitwally; M., „History of relation between the Egyptian Oases of the Lybian desert and the Nile valley". B. de L'institut du desert. Tom II No. I Jan. 1952 p.p. 114 - 131

منخفض مسبوقة

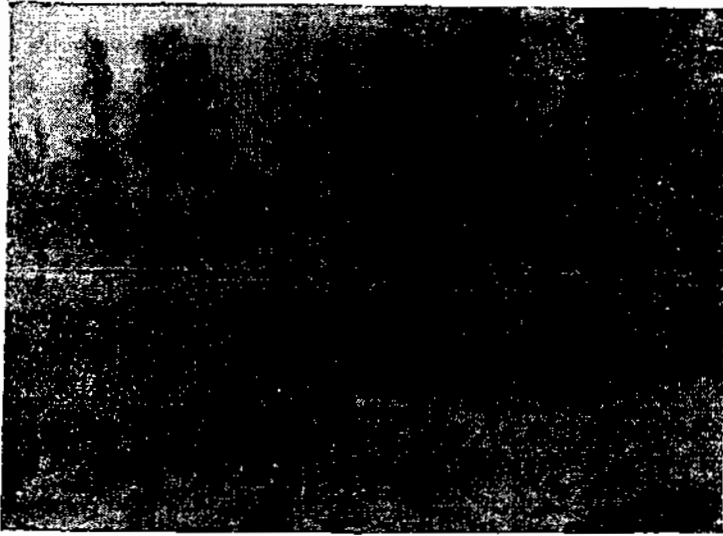




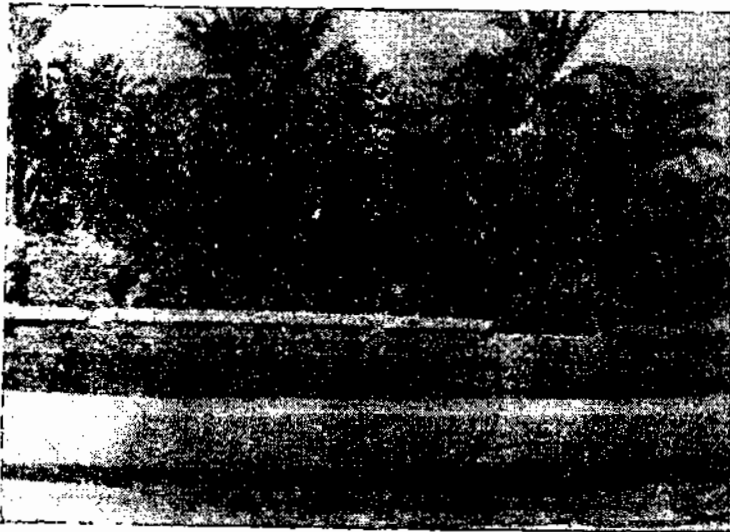
صورة رقم (١)
« منظر يوضح جزء من بلدة سيوة »



صورة رقم (٢)
« المسجد الحديث الذي بناه الملك فراد الأول ببلدة سيوة »



صورة رقم (٣)
« جانب من المزرعة الحكومية التابعة لحيطة تعمير الصحارى »

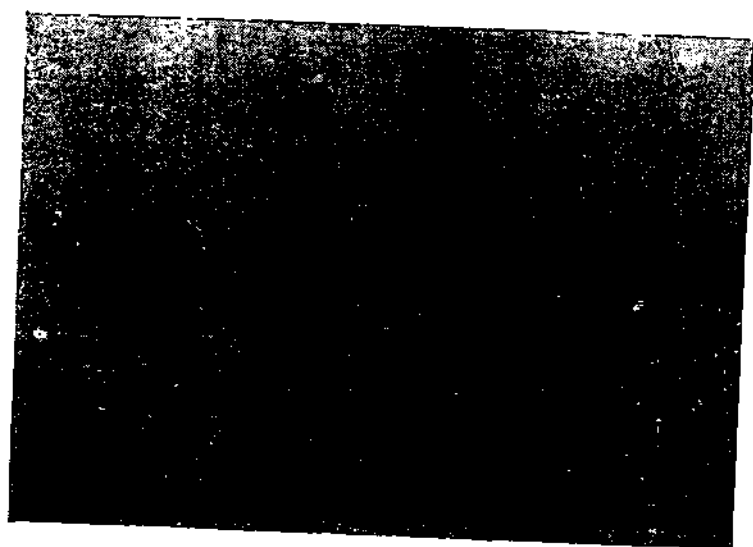


صورة رقم (٤)
« إحدى حدائق التخييل بواحة سيوة »



صورة رقم (٥)

مزل سيوى من طابق واحد (منطقة الذكرو)

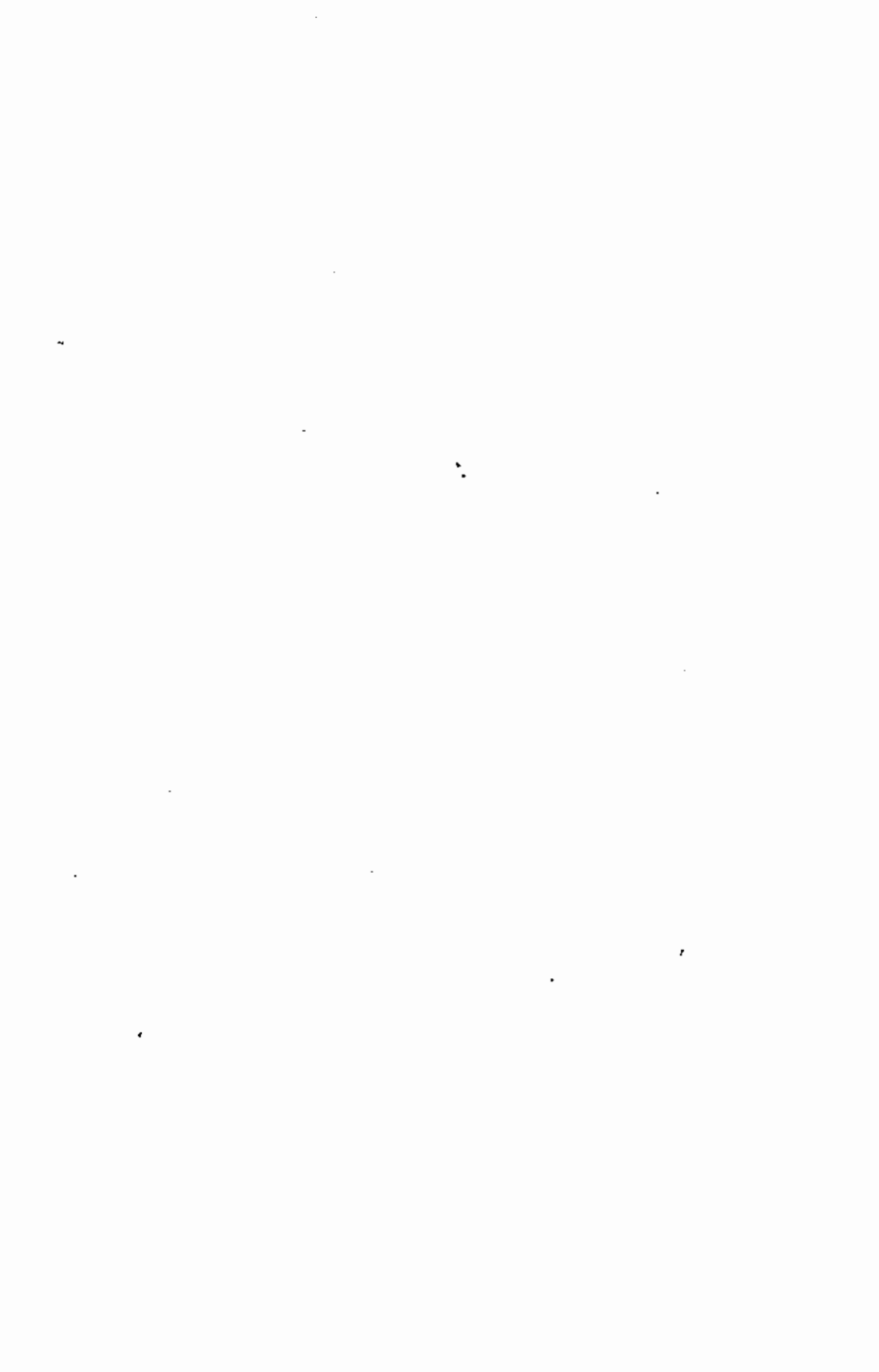


صورة رقم (٦)

إحدى البرك المستخدمة فى الصرف بالواحة



صورة رقم (٧)
« امرأة سيوية وطفلة بالملابس القومية »



١ - عصر ما قبل التاريخ :

إذا كانت الصحراء الغربية المصرية اليوم مكاناً معزولاً ومقفرًا فقد كانت في عصور ما قبل التاريخ تزخر بالحياة وكان الإنسان يسعى في ربوعها حيث مورد الرزق المضمون والميسر . واستدل البحاث على ذلك بالرسوم البدائية التي صورها الإنسان في عصوره الأولى على الصخور ، وبآلاته التي كان يستعملها في حياته اليومية ، بالإضافة إلى بقايا عظام الحيوان . بعد انتهاء الفترات المطيرة تحول شمال أفريقيا من منطقة غنية بنباتاتها وحيواناتها إلى إقليم صحراوي حيث حل الجفاف التدريجي محل المطر وهاجر الإنسان إلى المناطق التي توفرت بها المياه حول العيون ، وفي بطون الأودية الجافة حيث يقترب مستوى الماء الباطني وأيضاً في بعض الواحات التي احتضنت إليها الإنسان والحيوان معاً (١) وتلى ذلك قيام الزراعة واستئناس الحيوان في تلك المناطق القليلة المتناثرة في النصحراء ومنذ ذلك التاريخ بدأت الواحات المصرية تحتل مكانها على خريطة الصحراء .

٢ - عصر الفراعنة :

لعل أهم ما يميز الفترة التي تلت استقرار الإنسان في الواحات وقيام الزراعة كحرفة رئيسية لقاطنيها ، هو قيام ارتباط وعلاقة بين هذه الواحات ووادي النيل واستدل علماء الآثار والجغرافيا التاريخية على ذلك ليس فقط برسوم المصريين القدامى على جدران معابدهم ، ولكن أيضاً بما وجد من أدلة أثرية في الواحات ذاتها . مثال اكتشافات بول وبيدفل Ball & Beadnell في الواحات البحرية . وما ذكره برستيد Breasted عن تتبعه تلك الواحات إلى ممالك مصر وادي النيل . هذا بالإضافة إلى اكتشافات ستندورف Steindorff في الواحات الخارجة . وباختصار فإن كل واحات صحراء مصر الغربية التي نعرفها في الوقت الحاضر كانت معروفة أيضاً لدى المصريين

(١) يرى الجوهري (دكتور) وآخر - أفريقيا - الجزء الثاني - دراسة في الجغرافيا التاريخية والإقليمية بيروت ١٩٦٨ ص ٨٤ .

القدماء الذين عاشوا في عصر الأسرات : بل وكانت كل واحة لها اسم يدل على مكانتها أو منتجاتها .

فواحة سيوة كانت تعرف باسم « Sekhet-Amet » أى حقن النخيل
والواحة البحرية كانت تعرف باسم « ouhat Meht » أى واحات
الشمال .

وواحة الفراغة كانت تعرف باسم « Ta- Ahet » أى أرض الماشية
والواحة الداخلة كانت تعرف باسم « Desdes » أى عرش اله القمر
والواحة الخارجة كانت تعرف باسم Kenment-ouhat Rist أى
واحة الجنوب (١)

ومما يذكر أن حكام مصر كانوا يرسلون البعثات من وادى النيل
إلى تلك الواحات لجمع الضرائب والأشرف على شئون الري ولاخاد الفتن .

ومن الوجهة الاقتصادية فإن الواحات كانت اقلها غنياً بالمنتجات الزراعية
طيلة عهد الأسرات . وكانت هذه المنتجات ترسل بطريق منتظم إلى وادى
النيل . وكانت الواحات الخارجة والداخلة والبحرية تشتهر بمنتجاتها الجيدة .
بينما اشتهرت سيوة بالبلح والأعشاب الطبية . ومن المرجح أن قوافل الحمير
كانت تستخدم لنقل هذه السلع إلى وادى النيل وذلك قبل دخول الجمل
إلى مصر . وقد وصل الحمار إلى الواحات في القرنين الثالث عشر والثاني
عشر قبل الميلاد . ولازال هو الحيوان الرئيسى المستخدم فى النقل حيث
حيث يفضل كثيراً على الجمل . وقد بدأت القوافل الكبيرة من الحمير
تنظم فى السير على الدروب الصحراوية إلى النيل ابتداء من الأسرة الثانية
والعشرين .

٣ - العصر الإغريقى الرومانى :

وتبدأ هذه الفترة بدخول الإغريق أرض مصر وتنتهى ببداية الغزو

op. cit. p. 115.

(١)

العربي ويسبق هذا العصر فترة قصيرة تشمل السنين القليلة التي حكم فيها
الفرس مصر . وبرغم أن الواحات وصلت إلى ذروة مجدها وشمورها
إبان هذا العصر فإن الكتابات التاريخية تؤكد استغلالها عن حكم مصر
معظم هذه السنين .

وعلى أية حال فإن الفرس كانوا أول من حصل على الماء بطريقة
صناعية في الواحات وطبقاً لما كتبه كاتون تومبسون Caton Thompson -
فإن معظم الآبار المحفورة في الخارجة والداخلية والنفارة والبحرية وسيوه
قد تم حفرها خلال العصر الفارسي والعصر الإغريقي الروماني . ولا زال
معظم هذه الآبار القديمة موجوداً حتى الآن لم يتناقص معينها من المياه .
كما أن الأشجار كانت محملة بالفاكهة دائماً وكان القمح وفيراً ومن النوع
الجيد كما كان الشعير يزرع مرتين في العام . وقد نشطت التجارة أما نشاط
بين الواحات ووادي النيل خلال هذه الفترة ساعد على ذلك دخول الجمل
إلى الصحراء وإحلاله محل الحمار الذي كان وسيلة النقل الوحيدة إبان العصور
الفرعونية خاصة وأن الجمل يمتاز بصفات تناسب النقل عبر الصحراء .

وبالإضافة إلى الطرق التي كانت تربط الواحات برادى النيل كانت
هناك مسالك أخرى تربطها بقرطاج على ساحل البحر المتوسط وبقران
في الغرب وبدخل أفريقيا في الجنوب والجنوب الغربي وظل معظم هذه
هذه الطرق مستعملاً حتى بعد العصر الروماني . وقد تحدث ونلوك Winlock
عن هذه الطرق والمحطات التي كانت توجد عليها والتي أعدت كاستراحات
للسافرين ومما ذكره أن الجرار النخارية كانت تستخدم في نقل المياه
بدلاً من القرب المصنوعة من الجلد والمستعملة في الوقت الحاضر .

وقد تمتعت واحدة سيوه بشهرة دينية لاحد لها فخلال ثلاثة قرون ظل
الرسول يأتون إليها من كل مكان لمناقشة المعجزات الدينية والمتعلقة بالاله
آمون . ومن الجدير بالذكر أن مرسى مطروح أو كما كانت تسمى - آمونيا -
كانت الميناء والمنفذ الطبيعي إلى سيوه . وإنها لكانت كذلك حينما كان

حينما كان السفراء والزوار يبدأون رحلتهم إلى سيوة منها . ويمكن لنا أن نخيل مقدار الأثر أو الترف الذى لقيته سيوة نتيجة لهذه الزيارات المستمرة وما كان يصحبها من أموال وعطايا . غير أن أهمية سيوة الدينية بدأت تتناقص مع ابتداء القرن الثالث قبل الميلاد حتى تفوقت عليها الواحات الخارجية والداخلة فى الشهرة منذ بداية عام ٣٠ ق . م . وكان لقدوم المسيحية أثر واضح فى تغيير بعض المعتقدات والتقاليد بين سكان الواحات . ولكن ليس بالدرجة التى تم بها هذا التغيير فى وادى النيل فقد كان لعزلة ساكنى الواحات أثر فى بقاء كثير من تقاليدهم . ومما يؤكد أثر هذه العزلة فى حمود كثير من التقاليد بالواحات أن الاسلام بعد دخوله هذه المناطق لم يلبس أثر المسيحية تماماً من النفوس بل استغرق هذا الأمر وقتاً طويلاً وصعوبة تذكر

• • •

٤ - العصر العربى :

وتتمد هذه الفترة منذ دخول العرب إلى مصر حتى مطلع القرن التاسع عشر وإن كان أهم ما يميز العصور النازية والافريقية والرومانية هو تمتع الواحات بحكم محلى وعده خضوعهم للحكم الأجنبى فى مصر ، فإن أهم ما يميز الفترة العربية هو وصول العرب إلى الواحات بعد استقرارهم فى وادى النيل مباشرة . وليس هذا الأمر بمستغرب فإن العرب فى بيئتهم الأصلية قاطنو صحراء وبلدان إلى فهم ذوو خبرة عظيمة بالتنقل عبر الصحراء . والحقيقة أن سكان الواحات باستثناء أهل سيوة قبلوا بحكم العرب ورضوا به . فحتى القرن الثانى عشر الميلادى لم تكن سيوة قد خضعت لحكم العرب بعد ولم يكن أهلها قد اعتنقوا الاسلام . فعلى لسان ابن الوردى (١) المؤرخ الاسلامى جاء ما يفيد عن فشل موسى بن نصير سنة ٧٠٨ م فى فتح سيوة . حيث أنه كان قد تحرك إليها من ساحل البحر المتوسط قاطعاً المسافة فى حوالى أسبوع فوجد أسبوعين قد اعتصموا بمدىنتهم المحاطة بالأسوار العالية . وفى سنة ٧١٠ م فشل طارق بن زياد فى فتح سيوة أيضاً . وقد حدث فى

(١) ابن الوردى جريدة المعجذب وغريدة الغرائب

سنة ١٠٤٨ م أن رحلت جماعة من قبائل بنى هلال وبنى سليم (١) كانت تعيش في المنطقة الواقعة بين وادى النيل والبحر الأحمر . رحلت إلى الغرب حيث وصلوا إلى سواحل المحيط الاطلنطى بينما استقرت جماعة منهم في واحة سيوة واستطاعوا نشر الدين الاسلامى بين سكانها . ولم يأت عام ١١٠٠ م حتى كان القرآن وتعاليمه قد تغلغل في نفوس السيويين وبدأت اللغة العربية تجرى على ألسنتهم .

وبينا يصف بعض جغرافيين المسلمين الواحات على أنها اقليم على بالفلاح والحقول والآبار والنباتات الطبيعية والمناخ . نجد أن البعض الآخر يصفها على أنها اقليم غير مأهول بالسكان . وقد جاء في كتابات ابن حوقل (٢) (القرن العاشر الميلادى) أن اقليم الواحات يحتوى على العديد من المحارى المائية وخرائب المدن غير المسكونة وأضاف أن الماعز والأغنام حيوانات متوحشة ولذا فهم من حيوانات الصيد بالمنطقة . وليس هناك ما يدعو إلى عدم تصديق ابن حوقل في حديثه عن الواحات فإن السجلات التاريخية تؤكد أن الواحات في جملتها قد تدهورت تدهوراً شديداً في أواخر العهد الرومانى وأوائل العهد العربى وذلك بسبب تعرضها لهجمات القبائل البدوية بعد انسحاب الجنود الرومان منها في بداية دخول العرب أرض مصر حيث قام هؤلاء البدو بطرد الزراع المستقرين من حقولهم وسكنهم بالاضافة إلى تفشى مرض الملاريا واختفاء معظم المساقى والقينوات التى كانت تحمل المياه إلى الحقول وعليه فقد أهملت الزراعة وتدهورت إلى حد بعيد ومن ثم تناقصت أعداد السكان وزادت نسبة الوفيات بينهم .

ومنذ القرن السابع الميلادى بدأت الواحات تسرد مكانها حينما أصبحت محطات على طريق الحج الشمالى الذى كان يمتد من المغرب إلى مكة ، فبالاضافة إلى الطريق الساحلى كان هناك طريق آخر يعبر الواحات ماراً بالصحراء المصرية : وكان هذا الطريق يمتد من المغرب إلى طرابلس ثم إلى

(١) أصلهم من شبه الجزيرة العربية .

جنوب ومنها إلى سيوة ثم يتفرع فرعين أحدهما إلى الشرق حيث دلتا النيل ومنها إلى السويس والآخر إلى الجنوب الشرق إلى النيل مرآً بواحات البحرية والتمراغة إلى الداخلة فالخارجة ومن ثم إلى قنا وبعدها إلى القصير على ساحل البحر الأحمر . وقد أفادت الواحات من موقعا على طريق الحج غائدة كبيرة فنشطت أهميتها التجارية واستعادت شهرتها ومجدها السابقين .

ومع بداية الحكم التركي في مصر تركزت بعض الحاميات في الواحات وذلك للدفاع عنها ضد هجمات البدو . وحينما تركزت السلطة في أيدي المماليك واشتدت المنافسة بينهم على تولي الحكم كانت الواحات عبارة عن معقل لأمراء المماليك يعدون بها الجيوش ويهرعون إليها حين الخزيمة .

٥ - العصر الحديث :

مد محمد علي مد الإصلاح إلى الواحات . وكان الهدف من سياسته هذه الإصلاحية هو التوسيع من أجل تأمين الحدود الغربية لمصر لتتفرغ الجيوش لتوسيع ذلك إلى الحرب في السودان . ومما يذكر أن الواحات الخارجة والداخلة والبحرية والتمراغة كانت خاضعة لحكم مصر . أما سيوة فقد تمتعت بحكم على تحت إدارة شيوخها ولكن محمد علي أرسل بعثة لادماج سيوة وقد نجحت البعثة في ذلك . ومنذ ذلك التاريخ خضعت سيوة لحكم المصري حتى وقتنا الحاضر .

وقد اهتم الخديوي عباس الثاني بإصلاح واستغلال الصحراء الغربية لصرية وواحة سيوة . وفي سبيل ذلك مد الخط الحديدي على ساحل البحر المتوسط بين الإسكندرية والسويس كما زار واحة سيوة لمعاينة الأراضي القابلة للزراعة وعلى الرغم من ذلك فقد أتملت مشاريع الخديوي لتطوير واحة سيوة بعد وقت قصير .

وبعد الحرب العالمية الأولى واكتشاف السيارة استفادت الواحات كثيراً من استخدام السيارات على الطريق من مرسى مطروح إلى سيوة ومن النيل

إلى الواحات الأخرى وأه بحث المسافة التي كانت تقطعها الجمال في أيام طويلة تقطع في بعض ساعات ومن ذلك الوقت لم تصبح الواحات تلك المناطق البعيدة جداً والمعزولة بل ازداد اتصالها بالعمران وإن لم تكن عزلتها قد تلاشت تماماً .

هذه لمحة سريعة عن استغلال الإنسان لأراضي سيوة بصفة خاصة والواحات المصرية الأخرى بصفة عامة ولا شك أن البيئة الحضرية لسيوة اليوم قد اتخذت مظهرها نتيجة لهذا الصراع الطويل والمستمر بين الإنسان والأرض في محاولاته لاستغلال كل شبر من هذه البقعة الخصبة الخضراء الواقعة في وسط الصحراء القاحلة يعزلها عن العمران مئات الكيلو مترات ولعل في دراسة استغلال أرض سيوة في الوقت الحاضر تأكيد لأثر العزلة فلن لاحظ تغيراً كبيراً بين ما كان في العصور الماضية وما هو كائن الآن .

« استغلال الأرض في سيوة »

تنقسم أراضي سيوة حسب طريقة استغلالها إلى القسمين الآتيين :

(أولاً) أراضي مستغلة في الزراعة : وهي الأراضي المرتفعة التي تكثر بها مياه العيون وينخفض فيها مستوى الماء الباطني . وأيضاً الأراضي المنخفضة التي تشمل على البرك المستخدمة في الصرف .

(ثانياً) أراضي مستغلة في البناء : وهي الأراضي الرملية التي لا تزرع لعدم توفر مياه العيون بها وتحتلها المساكن والمنشآت والطرق .

(أولاً) الاستغلال الزراعي :

ذكرنا أن حرفة الزراعة عرفت طريقها إلى الواحة منذ عصور سحيقة بدأت بعد جفاف الأمطار وذبول النباتات في شمال افريقيا . ومنذ ذلك الوقت حتى عصرنا الحاضر والزراعة هي الحرفة الرئيسية للسكان .

وتبلغ مساحة الأراضي المستغلة في الزراعة بالواحة حوالي ١٣٠٠ فدان يزرع منها حوالي ١٠٠٠ فدان حدائق و ٣٠٠ فدان تستغل في زراعة المحاصيل

الحقلية كالبرسيم والقمح والخضر . وتبلغ المساحة العامة التي يمكن زراعتها في سيوة حوالي ٢٢٥٩٠ فداناً وقد استصلح منها حوالي ٥١٠ فدان (١) .

ويوجد في سيوة نوعان من المزارع : الأول وهو المزارع الحكومية ويقصد بها الأراضي التي تخضع لإشراف الحكومة ممثلة في هيئة تعمير الصحارى . والمزارع الحكومية نوعان : فمنها ما أنشأته الحكومة وقامت بزراعة الأشجار والمحاصيل به . ومنها ما استولت عليه الحكومة بعد تطبيق قوانين الإصلاح الزراعي (٢) . ويعمل السيويون - من غير ذوى الأملاك - كأجراء في هذه المزارع بمتوسط أجر يبلغ ٥٠ قرشاً في اليوم . وهو ولا شك متوسط مرتفع بالقياس إلى الأجور في الوادي والدلتا وهذا راجع بالطبع إلى قلة الأيدي العاملة وزيادة الطلب عليها ولتركز زراعة البساتين التي تحتاج لأيدي عاملة كثيرة وما هرة . أما النوع الثاني من المزارع فهو المزارع الأهلية أى تلك المملوكة للأهالى . وأول ما يلاحظ عليها هو انخفاض متوسط الملكية بشكل ملفت للنظر . ويوضح ذلك الجدول الآتى (٣) .

الملكيات	النسبة المئوية للحائزين
أقل من فدان	٣١,٩
من ١ إلى فدان	٢١,٥
من ٢ إلى ٣ فدان	٢٣,٧
من ٣ إلى ٥ فدان	٨,٣
من ٥ إلى ٦٠ فدان	٠,٢

(١) دولت صادق (دكتوراه) واحدة سيوة مجلة الجمعية الجغرافية المصرية - المحاضرات العامة الموسم الثقافي لسنة ١٩٦٢ ص ١٠٤ .

(٢) القانون رقم (١) لسنة ١٩٦٤ وأنخاص بالإستيلاء على الأراضي في المناطق الصحراوية

(٣) هذه الأرقام تقريبية وذلك لعدم توفر بيانات دقيقة لدى الهيئات الرسمية بالواحة .

ومن هذا الجدول نستخلص أن ٨٥٪ من السكان يمثلون الأفراد الذين تقل ملكياتهم عن ٣ أفدنة . وإذا عرفنا أن متوسط سعر الفدان في الواحة يتراوح بين ٤٠ - ١٠٠ جنيه فإن هذا يعطى صورة عن المستوى المعيشى المنخفض بالواحة والذي ينعكس على عدم القدرة للوصول بإنتاج الفدان للحد الأمثل بسبب العجز عن امداد الأرض بكل ما تحتاجه من أسمدة وبذور ومقاومة للحشرات والآفات الزراعية . ولعل هذا هو السر في أن إنتاج الفدان من المزارع الحكومية يفوق نظيره في المزارع الأهلية

العوامل المؤثرة في الاستغلال الزراعى بالواحة :

١ - التربة :

تتكون التربة في سيوة من مفتتات الصخور الرملية والجيرية التى تكون قاع وجوانب المنخفض أو تلك التى تحملها الرياح من الهضبة المحيطة بالمنخفض والمكونة من نفس الصخور . أى أن التربة هنا محلية غير منقولة . وبالإضافة إلى الرمل والجير فإن التربة تحوى كميات من الطمّل وكميات أخرى من الأملاح القابلة للذوبان في الماء مثل كلوريد الصوديوم وكبريتات الكالسيوم والتي تتركها على التربة مياه الواحة الباطنية بعد وصولها إلى السطح وتبخرها وترتفع نسبة الأملاح في تربة سيوة تبعاً لارتفاعها في مياه العيون . ويمكن أن نذكر للتدليل على ذلك أن نسبة الأملاح في مياه النيل لا تتعدى ١٥٠ جزءاً في المليون وأن أقصى نسبة يمكن أن تقوم عليها الزراعة في الوادي هي ٥٠٠ جزء في المليون . بينما هي في سيوة تزيد عن الألفين في غالبية العيون . ورغم ارتفاع هذه النسبة لدرجة تستحيل معها الزراعة فقد أمكن لنباتات الواحة أن تتأقلم مع هذه المياه من جهة ، كما أمكن للسيوى أن يختار نباتات معينة تكون أقدر على تحمل هذه الأملاح من جهة أخرى كما أنه يعمل دائماً على غسل التربة بالمقاربة بين فترات الري . كما أنه قد يعتمد أحياناً إلى قلب التربة لتصبح الطبقة الملحية أسفل الطبقة الطينية ذات الملوحة الأقل . وهذه الأملاح لها تأثير ضار على النبات وذلك لارتفاع نسبة الرمل في تربة سيوة والتي تساعد على تسرب المياه إلى الأرض حاملة معها الأملاح التي تؤثر على جنود النباتات المزروعة .

(٢) المياه :

قلنا أن الزراعة في سيوة تعتمد على مياه العيون الطبيعية والآبار المخفورة ويتم صرف المياه الزائدة إلى البرك الموجودة في حواف الواحة ذات المستوى المنخفض بالنسبة لبقية الأراضي . وفيما يلي دراسة للرأى والصرف بسيوة .

(١) الرأى :

بالإضافة إلى الآبار المخفورة والتي يبلغ عددها ١٥٠ بئراً فهناك العيون الطبيعية البالغ عددها ٢٥٠ بئراً . وبرغم أن سيوة كانت في عصور سابقة تخفى على عدد أكبر من العيون والآبار - والتي أمتدل على وجودها من كثرة المصارف القديمة المطموسة - فلا زالت سيوة أغنى واحات الصحراء الغربية بالمياه . ومعظم العيون بها تأخذ شكلاً دائرياً يتراوح قطره بين ٥ - ٢٢ متر أما عمقها فيتراوح بين ٥ - ١٠ متر (١) . وأهم العيون في سيوة عين الجربة . فهي أوسع العيون وأكثرها تصريفاً . ويلها في الأهمية عيون خيسة وضرسى وتابا والزيتون وقريشت ومن حيث ملكية العيون فهي تنقسم إلى عيون عامة ليس لأحد حق استخدام مياهها في الرأى ومن أمثلتها عين تابا وعيون مشتركة يملكها أكثر من واحد ويتنفع أصحابها بمياهها في رى زراعتهم . وعيون خاصة وهي التي يملكها فرد أو عائلة مثل عين الزيتون وعين أبى شروف وعين قريشت . أما عن مياه العيون فيلاحظ عليها الهدوء والصفاء . وبعض هذه العيون يخرج منها الماء باستمرار وهي العيون التي تندفع فيها المياه بقوة مثل عين جوبا وبعضها تقل فيه قوة دفع المياه ولهذا فلا يؤخذ منها الماء سوى في النهار وتترك في الليل حيث تمتلئ مثل عين الفرق وأما عن مصدر هذه المياه فقد ثبت طبقاً لدراسات جون بول سنة ١٩٢٥ (٢) للمياه الارتوازية بالصحراء الغربية المصرية أن :

(١) لا يوجد أى بيان مكتوب يوضح تصريف العيون بواحة سيوة - كما أن ملكيتها ليست مسجلة في أى دفتر رسمية .

Ball; G. "Problems of the Lybian Desert" "Geographical (٢) Journal" 1927

١ - كل العيون والآبار الموجودة في الصحراء الغربية تستمد مياهها من مصدر دائم للماء الأرضي في صخور الحجر الرهلي النوبي .

٢ - مصدر المياه الارتوازية ليس نهر النيل وإنما الأقطار التي تسقط على مرتفعات اردى وإيندى Erdi & Eneidin الواقعة على حدود حوض تشاد .

٣ - نظراً لارتفاع الهضبة المايوسينية في الشمال والهضبة الأيوسينية في الجنوب عن مستوى سطح الواحات فقد تفجرت مياه العيون الطبيعية فوق أرض الواحات فقط .

ويرجع ارتفاع نسبة الملوحة في المياه الباطنية بواحة سيوة إلى عاملين :

١ - طول الرحلة التي تقطعها المياه حتى تصل إلى سيوة .

٢ - تعدد الطبقات الجيرية ذات الأصل البحري التي تمر عليها هذه المياه أثناء صعودها إلى السطح حيث أن طبقات الحجر الرهلي النوبي الحاوية للمياه تقع أسفل طبقات صخرية جيرية ترجع إلى الكريتاسي والأيوسين والمايوسين (١) .

(ب) الصرف :

وتكاد سيوة أن تكون الوحيدة بين واحات الصحراء الغربية التي تحتاج لصرف أراضيها من أجل الزراعة ، ذلك لانخفاض منسوبها وارتفاع نسبة الأملاح في مياهها . ولذا فإن الزراع يختارون دائماً الأرض الأكثر ارتفاعاً من المستوى العام للواحة حتى يسهل صرف المياه الزائدة عن حاجة النبات وقد قامت الحكومة بحفر شبكة من المصارف الرئيسية وقام الأهالي بحفر المصارف الفرعية وإيصالها بالمصارف الحكومية الرئيسية التي تحمل المياه الزائدة إلى البرك الموجودة في الجنوب والجنوب الغربي والتي تختص كل

Attia; M.I. "Ground water in Egypt "Bulletin de L'institut (١)
du deserts Tom IV NO. 01 1954 p.p. 189—213.

بركة منها بصرف مياه جهة من جهات المنخفض وأهم تلك البرك : الزيتون وأغورى وسيوة والمراقى ، وبرغم ارتفاع الأراضي الزراعية عن مستوى هذه البرك إلا أن هذا الارتفاع ليس كبيراً فهو لا يتجاوز ٣ متر ما يجعل من المحتمل تسرب هذه المياه المرتفعة الموجهة إلى باطن الأرض الزراعية وبالتالي هلاك المزروعات والأشجار إلا أن هذا الأمر يبدو مستحيلاً على الأقل في الوقت الحاضر لأن المياه المنصرفة إلى تلك البرك تعادل تقريباً مع كمية المياه المتبخرة منها نظراً لانتساع مساحتها وارتفاع درجة الحرارة ولكن المشكلة يجب أن يحسب حسابها قبل البدء في حفر آبار جديدة . الأمر الذى سينتج عنه زيادة في كمية المياه المنصرفة إلى تلك البرك .

٣ - الأيدى العاملة :

لما كانت معظم الزراعة بالواحة شجرية ولما كان هذا النوع من الزراعة يحتاج إلى عناية ورعاية تفرقان الزراعات الحقلية فإن الحاجة إلى الأيدى العاملة ملحة . وبحق فإن مشكلة الزراعة الرئيسية بالواحة هي النقص الشديد في الأيدى العاملة وذلك لسببين : أولهما قلة الأيدى العاملة عموماً وآخرهما انصراف كثير من تلك الأيدى للعمل بحرف أخرى تحقق عائداً أكبر كالتجارة مثلاً . ويبلغ عدد من هم في سن العمل بالواحة حوالى ٣٠٠٠ نسمة وبرغم عدم اتمكن من الوصول إلى رقم دقيق يوضح نسبة العاملين في الزراعة فإنه على الأقل نصف هذا الرقم من النساء ، والمرأة لا تقوم بأعمال الحقل بل أنها تكاد لا تعمل إطلاقاً خارج المنزل . وعلى هذا فإن هناك ١٥٠٠ رجل قادرين على العمل ، وحتى لو كان هذا العدد كله يعمل في الزراعة فإن هذا لا يقلل من المشكلة لأن المساحة المزروعة تبلغ ١٣٠٠ فدان وبسبب هذا النقص فقد ارتفعت أجور العمالة كثيراً فهي تتراوح بين ٤٠ - ٦٠ قرشاً في اليوم الواحد وبالإضافة إلى وجبة غذائية تقدم لكل عامل . ولا تخفناض مستوى الدخل المردى بالواحة فليس كل الملاك قادرين على دفع هذا المبلغ ولذا فكثيراً ما تنترك الأرض دون عناية وبالتالي فتوسط انتاجها يتناقص وهذا يستوجب تدبير الأيدى العاملة اللازمة قبل التفكير في توسيع الرقعة الزراعية بالواحة .

٤ - الملكية الزراعية :

الأرض في سيوة كبقية أرض الصحراء ليست مملوكة لأحد من الأهليين القائمين باستغلالها ، وإنما هي ملك للحكومة ، وللأهليين فقط حق الانتفاع بها ولم كامل الحرية في بيع هذا الحق فيما بينهم ، وإذا أرادت الحكومة الاستيلاء على أية قطعة أرض لاستعمالها للمصالح العام فإنها لا تدفع لها ثمناً وإنما بقدر ما هو قائم عليها من أشجار أو نخيل أو بناء وصرف لصاحبه ثمنه (١) . ولعل هذا هو السبب في عدم رغبة مزارعي سيوة في التوسع الزراعي خوفاً من استيلاء الحكومة عليها وإذا فإن الثروات في سيوة تقدر بأشجار الزيتون والنخيل وتباع الملكيات الزراعية بحساب الزمن المأثري وليس بالمساحة . وهذا الزمن يقدر بساعة ونصف الساعة ويساوي من ٢ - ٤ جنيهات .

٥ - الخبرة الزراعية :

خبرة الزراع بسيوة لا بأس لها فقد أورثت السنين الطويلة من العمل في الزراعة السبوي خبرة بأنسب الطرق للزراعة والعناية بالنبات والتسميد ورغم ذلك فإن هذه الخبرة لتقف عاجزة بسبب النقص في رؤوس الأموال وفي الأيدي العاملة . هذا فيما يتعلق بالمزارع الأهلية في سيوة . أما بالنسبة للمزارع الحكومية فإن هذا العامل (الخبرة) لا يشكل موضوعاً ذا شأن ذلك لوجود عدد من المهندسين الزراعيين والمديرين الفنيين ، فتوفر العلم إلى جانب المقومات الأخرى للزراعة يؤدي بالطبع إلى زيادة في الانتاج وتحسين في النوع .

الانتاج الزراعي

في سيوة نوعان من المزروعات . محاصيل شجرية وأخرى حقليّة . ويأتي البلح في مقدمة المحاصيل الشجرية بالواحة بل هو أهم المحاصيل النقدية بها ويبلغ عدد أشجار البلح بسيوة ٢٤٠,٠٠٠ نخلة ويدخل نخيل البلح في كثير

(١) عبد اللطيف واكد - واحة آمون - القاهرة ١٩٤٩ ص . ١٥٠ - ١٥١

من نواحي الحياة هناك فيلخل في صناعة العصير وسقوف المنازل وصناعة الكرامى والأسرة والحصر والسلال والحبال . وتم مبادلة محصول البلح مع قبائل أولاد على الذين يحضرون في أواخر سبتمبر وأوائل أكتوبر ومعهم القمح والشعير والمصنوعات الجلدية .

وبلى الزيتون البلح من حيث أهميته في حياة السيويين . ويبلغ عدد أشجار الزيتون بالواحة حوالى ٢٣,٠٠٠ شجرة منتجة فعلا وحوالى ١٢,٠٠٠ شجرة حديثة الانتاج ويبلغ انتاج الشجرة في البداية حوالى ٥ كجم ثم يزيد انتاجها حتى يصل إلى ٥٠ كجم . وتعدد أنواع الزيتون تتعدد أغراضها فبعضها فبعضها يستخدم في التحليل وبعضها يستخرج منه الزيت كما تستخدم مخلفات العصر في صناعة الكسب الذى يستخدم كعلف للحيوانات .

ويعتبر القمح أهم المحاصيل الحقلية بالواحة وتبلغ المساحة المزروعة منه حوالى ٧٠ فداناً تنتج ما يقرب من ٩٠ أردب وبالطبع فهذه الكمية لا تكفى احتياجات السكان ولذا فيستورد الباقى من قبائل أولاد على الموجودين في الشمال . وهناك أيضاً الشعير الذى تبلغ المساحة المزروعة منه ٨٠ فدان حوالى ٨٠٠ أردب والكمية المنتجة من الشعير لا تكفى لسد احتياجات أهل سيوة . كما يزرع البرسيم الحجازى وهو من النباتات التى تتحمل العطش فهو لذلك ملائم للتربة كما أنه من النباتات المعمرة فهو يظل بالأرض لمدة ٦ سنوات . ويلاحظ أن المساحة المزروعة بالبرسيم قليلة تبعاً لقلّة الانتاج الحيوانى بالواحة .

وبالإضافة إلى المحاصيل الرئيسية السابقة فهناك بعض الأشجار المتناثرة في الحدائق منها المشمش والتين والرمّان والعتب والتفاح والبرقوق والموالح والخوخ والكمثرى والتوت واللوز والجوز كما أن هناك بعض الخضروات المزروعة بين الأشجار منها البصل والجرجير والطماطم والبطاطس والبطاطا .

تربية الحيوانات :-

الانتاج الحيوانى في الواحة قليل بصفة عامة وذلك عدم الحاجة إلى هذه

الحيوانات في الزراعة مثلاً فهي تقتنى فقط من أجل لبنها أو لحمها أو لاستخدامها كوسيلة للنقل . وتبلغ المساحة المستغلة في الرعى حوالى ٥٠ فدان (١) . ويوجد في الواحة حوالى ٣٥ بقرة و ٢٠٠ رأس من الغنم ومثل هذا العدد من الماعز (٢) إلا أن الماعز بدأ في الزيادة في السنين الأخيرة حتى وصل إلى ٤٠٠ رأس (٣) . أما الحمير فيوجد منها في الواحة حوالى ١٠٠٠ رأس ويستعمل الحمار في النقل وهم يفضلونه عن أى حيوان آخر في هذا الغرض . وكما ذكرنا في موضع سابق فإن الحمار وصل إلى سيوة في القرن ١٣ ق . م . ومنذ ذلك التاريخ وهو مفضل كثيراً على الجمل في النقل داخل الواحة وذلك لما يمتاز به من سرعة الحركة والقدرة على التحمل والجلد .

(ثانياً) العمران :

يبلغ عدد السكان في سيوة حوالى ٦٠٠٠ نسمة طبقاً لإحصاء سنة ١٩٦٠ ويشمل منخفض سيوة بالإضافة إلى العاصمة التي تشغل الجزء المركزى منه بعض الواحات القريبة وهي أغورمى وأبو شروف والمراتى ومشند وخيسة بالإضافة إلى قارة أم الصغير .

وبلدة سيوة هي عاصمة الواحة وتنتهى إليها طرق المواصلات والقوافل ويسكنها حوالى ٢ سكان المنخفض تقريباً . وقد طرأ على موضع البلدة كثير من التغيرات عبر التاريخ حتى انتهت إلى ما هي عليه الآن . وقد بدأ

(١) دولت صادق (دكتوراه) المرجع السابق ص ١٢٩

(٢) هذه الأرقام حسب إحصائية سنة ١٩٣٧

(٣) هذا الرقم مشكوك في صحته وذلك لأن الماعز نادراً ما تقتنى لدى السيويين كما أنهم يكرهون تربيتها كما يقال :

The Goat and olive cannot live together.

وذلك الخطر الذى ينجم عن تربيتها فهم تأكل كل خضرة تجدها كما أنها تقطع الحاصلات الحقلية من جنورها :

Bramly; "The Beduins of the western desert" B. de L'institut du desert. Tom IV No I Jan. 1954 — P. 124

العمران في سيوة بمنطقة أغورى حول معبد آمون . وحينما دخلت الواحة في الاسلام انتقل موضعها إلى منطقة تقع بين أغورى وسيوة الحالية . وقد أقام بها في ذلك الوقت جماعة من الرعاة في بيوت من الشعر وجعلوا يزرعون زراعات بسيطة وظلوا كذلك حيناً من الدهر إلى أن اختلطوا لأنفسهم مسجداً ومساكناً في موضع عرف بقرية سيدي مسلم . وتبعاً لغزوات البدو وهجأتهم فقد أريد معظم قاطنى القرية ولم يبق منهم سوى أربعين رجلاً انتقلوا بقريتهم على أحد المضارب المرتفعة المتناثرة في ربوع الواحة فسادوا مساكنهم عليها وأقاموا حول دورهم سوراً عالياً وجعلوا عند أسفل المضربة باباً يلقى ليلاً ويفتح نهاراً (١) شأن كل المدن القديمة في العصور الأولى ودعوا المدينة الجديدة شالى (٢) التى لا الت بقاياها ظاهرة للعيان في شكل خرائب واطلال . ومما يذكر أن منازل شالى كانت واسعة رحبة عندما كان سكانها قليلون ولما كثر عددهم صاروا يقيمون الحجرة إلى حجرتين وبتوالى الأجيال صارت الدار عدة دور وعدة أطواق ولم يصرح لأهالى المدينة بالنزول من المضربة الا بعد ما فتح جيش محمد على الواحة وصارت تابعة للحكومة المصرية . وصار أهل الواحة غير مطالبين بالدفاع عنها . ولقد وضع الحاكم في سيوة نظاماً للميادين والشوارع فقد جعلت مقامات الشوارع الرئيسية عشرين زراعاً والفرعية اثني عشر ذراعاً والخارات ثمانية أذرع .

ولازال المظهر العام لبلدة سيوة يوحى للناظر بالبداية والمستوى الحضارى المتخلف الذى مازال معظم سكانها يحيون فيه فلا تغيير يذكر في مادة البناء وطريقته بين شالى القديمة التى عفا عليها الزمن مع مطلع القرن التاسع عشر وبين سيوة الحديثة التى لازالت تحيا . والواقع أن لفظ مدينة لا ينبغي أن أن يطلق على سيوة الا لصفاتها الادارية فقط . أما من الناحية الوظيفية والمظهر العام فهى أقرب إلى القرية منها إلى المدينة فن حيث مادة البناء فهى مستمدة

(١) القرى الخلط والآثار .

(٢) شالى كلمة سيوية يقابلها في العربية لفظ «البلد»

من البيئة المحلية لسهولة الحصول عليها ولرخص تكلفتها ونقلها فالمنازل مبنية من قطع الحجر الجيري المتأسكة والمطلمة بمخلوط من الرمل والطفل والماء ومعظم الدور مكشوفة من طابقين فأما الأول فلا نوافذ فيه ويستعمل غالباً أزراباً للماشية وبه مدخل المنزل المظلم الذى يقوم خلفه حائط بحجب الرؤية إلى الداخل وخلفه يوجد السلم المؤدى إلى الطابق الثانى المحتوى على غرف المعيشة . وحينما تكبر الأسرة فيبنى دوراً ليعطى اتساعاً للمنزل : أما عن المرحاض والحمام فهما من النوع البدائى الموجود فى الريف المصرى فى الدلتا والوادي (مرحاض الخجور) والنوافذ مرتفعة وضيقة وللتقاليد أثر فى ذلك من حب التستر كما أن للطبيعة أثر فى إمكانية جلب الهواء الرطب والوقاية من حرارة الجو . وتستخدم جذوع النخيل فى سقف المنازل وأحياناً الأخشاب المحلوبة من الوادي والى تستخدم أيضاً فى صناعة الأبواب والنوافذ وفى بعض المساكن الموجودة بمنطقة الدكرور يلاحظ وجود منطقة مسورة خلف المنزل حيث تستخدم كمنطقة أو كفضاء يلعب فيه الأطفال وتقضى فيه النسوة وقتهن داخل المنزل والآثاث فى جلته بسيط يتفق مع بساطة الحياة فتمى جميع حجرات المنزل لا يجد الإنسان سوى الحصر المفروشة التى تستخدم للجلوس والنوم أيضاً .

وسوق البلدة عامرة بصفة مستديمة والحوانيت لا تقفل أبوابها الا بعد فترة طويلة من الليل . كما يوجد بها اثنان من المقاهى ومطعم وعدد من المساجد أهمها المسجد الحديث الذى بناه الملك فؤاد الأول .

أما عن المباني الحكومية ومساكن الموظفين فيلاحظ فيها الاختلاف من حيث مادة البناء وطريقته فهى مبنية من الطوب المصنوع من خليط الأسمنت والرمل والماء وتوضح منها الطريقة الحديثة فى البناء فهى لا تختلف كثيراً عن مساكن المدن فالأرضيات مبلطة والسقوف من الخرسانة المسلحة وبها اضاءة كهربائية .

ومن حيث مبانى الخدمات فهي متوفرة بالمدينة فيها قسم للشرطة ومبنى لمجلس المدينة وجمعية تعاونية زراعية ونادى ومسرح وسينما ومستشفى عام ووحدة بيطرية ومدرسة ابتدائية وأخرى اعدادية .

وبالإضافة إلى كون بلدة سيوة العاصمة الادارية للواحة فهي أيضاً العاصمة الاقتصادية حيث يوجد بها السوق الرئيسى وتتركز فيها كل الصناعات ، والصناعة فى سيوة نوعان حكومية وأهلية . وأهم الصناعات الحكومية تصنيع البلح فى المصنع الحكومى الوحيد التابع لمينة تعدين الصحارى ويعمل به من ٢٢ - ٢٥ عاملا وهناك أيضاً عصر الزيتون حيث يوجد بسيوة معصرة آلية تعتمد على المزرعة الحكومية البالغة مساحتها ٤٠٠ فدان وإلى جانب هذه الصناعات الحكومية فهناك صناعات أهلية منها كبس البلح وعصر الزيتون يدوياً وصناعة النخار والمراجين والصوف .

هذا عن بلدة سيوة العاصمة أما عن بقية المنخفض فيشمل :
أغورمى : وهى المركز الثانى بعد سيوة وتبعد عنها بنحو ٣ كياو مترات وتحتل إحدى التلال الجيرية المخروطية وان كان تكاثر السكان بها جعل القرية تنزل إلى سطح المنخفض ويوجد بها معبد آتون الأثرى .
وهناك أيضاً مناطق الزيتون وأبو شروف وخمسة والمراقى ومشدد
أما عن قارة أم الصغير فهي تقع إلى الشمال الشرقى من بلدة سيوة ويصلها بها طريق يبلغ طوله ١٢٥ كيلو متراً وهى امتداد لواحة سيوة من حيث التربة وأسلوب استغلال الأراضى والعادات والتقاليد .

خاتمة

من هذا العرض السريع للاستغلال البشرى لأرض سيوة يمكننا أن نرسم صورة لمستقبل الواحة فبرغم أن أسلوب الاستغلال بها لم يتغير كثيراً طوال تاريخها الطويل إلا أن بشائر التغيير تظهر واضحة .. البدء فى استصلاح الأراضى .. تشجيع الصناعات المحلية .. وصول الخدمات إلى الواحة .. كلها نذر تبشر بقرب التغيير . وللحق فأقول أن تطوير الواحة لن يتم إلا برصف أو على الأقل تعبيد طريق يصلها بالعالم .. بمرسى مطروح على الساحل أو بالنيل فى الشرق أو بليبيا فى الغرب ... فان الأمل فى الإصلاح يبدو عاجزاً بدون خلق الشريان الذى يربط الواحة بالحياة .

وفى ختام الحديث لا ننسى أن نذكر بالخير والتقدير الجهود الموفقة التى تبذلها الشركة العامة للبترول للتنقيب عن الحام فى أرض سيوة . ولعل الفرج يكون قريباً لتصبح سيوة كما تسمى بحق - جنة الصحراء - أو سيوة .. مدينة الذهب الأسود .

المراجع

- ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية
- ابن الوردي : جريدة العجائب وفريدة الغرائب
- ابن حوقل : المسالك والممالك
- المقرئزي : الخطط
- المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجواهر
- دولت صادق : واحة سيوه — مجلة الجمعية الجغرافية المصرية —
الموسم الثقافي ١٩٦٢ .
- عبد الطيف واكد : سيوه تحت نير الاحتلال الإيطالي لقاهرة ١٩٤٦
- واحة آمون : القاهرة ١٩٤٩
- مدائن الصحراء : القاهرة ١٩٥٠
- الزراعة بالصحراء : القاهرة ١٩٥٨
- علي مبارك : لخطط التوفيقية
- محمد رمزي : القاموس الجغرافي لأسماء البلاد المصرية — القاهرة ١٩٥٣
- مصلحة المساحة : الدليل الجغرافي لأسماء المدن والأواحي المصرية
- نشرات المجتمع العلمي للثقافة العلمية
- مجلات الفلاحة : الخطة الزراعية الصحفية الزراعية
- دراسة ميدانية لواحة سيوه قام بها أساتذة وطلبة قسم الجغرافيا في رحلة
القسم السنوية العلمية في مارس ١٩٧٠

Attia, M. I. "Ground water in Egypt.", B. de L'institut du desert-
Tom IV No. I 1954

Ball; J. "Problems of the Lybian desert" Geog. Journal Nov.
1927.

Bramly "The Beduins of the western desert" B. de L'institut du
desert Ton IV No I 1954.

— Brunhes, J. "Human Geography " London 1920.

Mitwally, M. "History of relation between the Egyptian oases of
the Lybian desert and the Nile valley"

B. de L'institut du Desert Tom II NO 1. 1952.

اتفاقات البحر المتوسط (فبراير - ديسمبر ١٨٨٧)

للدكتور حسن محمد صبحي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

يمتاز الربع الأخير من القرن التاسع عشر بمحاولة بريطانيا لإنهاء «عزلة»ها ، وذلك حينما بدأوا يشكون في إنجلترا - في الثمانينات والتسعينات - في جدوى سياسة العزلة هذه . فالتوسع الاستعماري في افريقية وفي الشرق الأقصى قد أدى إلى نزاع مع فرنسا وألمانيا والروسيا . وهذا أوضح لانجلترا انها لم تعد تتمتع باحتكار في ميدان التوسع الاستعماري . والتعاون الفرنسي الألماني في عامي ١٨٨٣ ، ١٨٨٤ قد ساعد هاتين الدولتين على ارساء قواعد لامبراطوريات افريقية دون أن يسألا إنجلترا موافقة على ذلك . كذلك كانوا يخشون في إنجلترا أن يتوصل منافسوها إلى إنهاء خلافاتهم وتكوين تكتل في القارة الأوروبية . وإذا تمكن منافسوها من عزلة فقد يتمكنون حينئذ من الضغط عليها في جنوب افريقية ومصر ومضائقها هناك (١) .

وفي نمار هذا الاتجاه الجديد لبريطانيا نجىء هذه الاتفاقات المعروفة باسم اتفاقات البحر المتوسط (١٨٨٧) . ولكن هذه الاتفاقات لم تكن وليدة الرغبة الانجليزية الجديدة فقط ، بل جاءت أيضاً نتيجة لأحداث الفترة ، ومطامع ايطاليا في شمال افريقية وخاوفها ازاء فرنسا في نفس الوقت . وخاوف انمسا من أن تتورط وحدها في حرب ضد فرنسا بسبب ايطاليا . وفوق كل شيء ، جاءت هذه الاتفاقات نتيجة أيضاً لمباركة بسمرك لكل هذه الاتجاهات ...

1. Bruce, The Shaping Of The Modern World 1870—1939. Vol. I. p. 886.

فتما يتعلق ببريطانيا نجد أن أولى مشاكلها — بالنسبة للسياسة الخارجية — كانت تكن حينئذ في البحر المتوسط . هكذا كان الحال حينما تولى سولسبرى رئاسة الوزارة البريطانية في أغسطس ١٨٨٦ . في ذلك الوقت كانت تواجه بريطانيا مشكلتان رئيسيتان : الأزمة البلغارية ، والمسألة المصرية . فتما يتعلق بالمشكلة الأولى قامت حركة في بلغاريا في سبتمبر ١٨٨٥ لضم روميليا الشرقية إلى بلغاريا . وبذلك فاجأت بلغاريا العالم بالأمر الواقع ، وضربت بقرارات برلين (١٨٧٨) عرض الحائط . وبينت زيف الادعاء بأنها مجرد تابعة للروسيا (١) . ومن المعروف أن لورد بيكونزفيلد Beaconsfield قد فرض فصل الولايتين ، ضد رغبة روسيا ، عام ١٨٧٨ . ولكن روسيا صارت تعارض الآن الوحدة بنفس اصرارها السابق على نفس الوحدة ، فالحزب المسيطر في بلغاريا ذو ميول معارضة للاتجاه الروسى . وقد كان سولسبرى — أول الأمر — يميل إلى أن يلتزم بسياسة لورد بيكونزفيلد . ولكن الملكة فيكتوريا ، وسير ويليام هوايت William White السفير الانجليزى في القسطنطينية — قد اقناعه بأن يتبع في هذه المسألة سياسة مغايرة لسياسة بيكونزفيلد . وفي تلك السياسة تبعت النمسا والمجر انجلترا . وهكذا كان على بريطانيا أن تعمل على تعضيد استقلال بلغاريا ابعاداً لتنفيذ الروسى عن القسطنطينية (٢) .

وقد كان هناك البعض — مثل لورد راندولف تشرشل وسير روبرت موريه Robert Morier — بشير بريطانيا في بطرسبرج — ممن كانوا يرون ان تكثف بريطانيا عن الوقوف في وجه روسيا وأن تصل إلى اتفاق مع القيصر الروسى ، الذى سوف يقابل بمعاملة بريطانيا له في الشرق الأدنى بأن يكف عن تهديده لأواسط آسيا . ولكن سولسبرى كانت له وجهة نظر مغايرة . فهو إذا نشر قدما إلى السلام اعتبر روسيا وفرنسا دولتين

1. Lowe, Salisbury and The Mediterranean 1886-1896. pp. 2 — 3.
2. Ensor, England 1870-1914: p.195.

ذات ميول عدوانية (١) . فنذ عام ١٨٧٩ تتبع فرنسا سياسة عنيفة في توسعاتها فيما وراء البحار . ومنذ عام ١٨٨٢ وهي تشهر السكين في كل مكان في وجه بريطانيا وتقيم العقوبات القوية في وجه السياسة الاستعمارية الانجليزية ، وفي شيل ذلك تلجأ راضية إلى ألمانيا ، عدوتها التقليدية . ثبرها ضد انجلترا وترسم لها سوء نواياها (٢) . وانجلترا كانت تحشى التوسع الفرنسى في شمال افريقية ، ورجال بحريتها كانوا يحشون من اتخاذ فرنسا قاعدة بحرية في سبته بالمغرب (٣) . ولا شك ان السياسة الخارجية للدولة تتأثر عادة بأراء خبرائها العسكريين (٤) . وفي خلال أعوام ١٨٨٧ - ١٨٨٩ تناب فرنسا حى الوطنية المزعجة التي اثارها الجنرال بولانجيه Boulanger . وبشكل عام أصبحت العلاقة بين فرنسا وانجلترا ، كما قال روزبرى (٥) في عام ١٨٨٦ . تسبب كثيراً من المضايقة للانجليز . ففرنسا تطلب من انجلترا شيئاً ما لا تستطيع اعطائه لها ابدأ ثم تشكو قائلة «انكم لا تعدلون شيئاً مطلقاً من أجلنا» (٦) . وبالنسبة لسولسبرى : فان فرنسا - كما يقول سولسبرى في فبراير ١٨٨٧ - ترتكب طائفة من «المزعجات» . ففى مراكش مثلاً «تسير فرنسا في طريق ابتلاع البلاد قطعة قطعة وتنطلق إلى احتلال طنجة» (٧) . ويبلغ الضيق بسولسبرى أشده حتى يذكر أنه من الصعب على المرء أن يمنع نفسه من أن يتمنى حرباً فرنسية المانية أخرى لتضع حداً لهذا الجور المستمر (٨) .

(١) Ensor, England, p. 197.

(٢) صفوت : الاحتلال الإنجليزي لمصر . ص ٧٦ / ٧٧ .

(٣) Marder, A., British Naval Policy, p. 271.

(٤) أنظر أيضاً : حسن صبحى ، التنافس الاستعماري الأوروبي في المغرب ص ٦٧ - ٦٩ ، ص ٧٧ .

(٥) وزير خارجية انجلترا (١٨٨٦) .

(٦) روزبرى الى السفير الإنجليزي في باريس - ١٠ أغسطس ١٨٨٦ - أنظر :

Wilson, Beckles, L'Ambassade d'Angleterre A paris, p. 229.

(٧) أنظر سولسبرى الى نيونز (السفير الإنجليزي في باريس) ٥ فبراير ١٨٨٧ .

المرجع السابق ص ٢٢٧ .

(٨) صبحى ، ص ٦٨ .

أما أطباع روسيا فقد ظهرت في بنجه Pendjeh في أوائل عام ١٨٨٥ حينما هاجمت قوة روسية أخرى أفغانية وهزمتها هناك في ٣٠ مارس ١٨٨٥ وهذه منطقة خصبة على الحدود الأفغانية - التركمانية . وكان ذلك الحدث منبهاً قوياً للخطر الذي يهدد إنجلترا في الهند من الناحية الشمالية الغربية . حينئذ بدت الدولتان - لبضعة أسابيع - على شفا الحرب . كذلك في أواخر العام تظهر أطباع روسيا القلقة حينما هددت صوفيا .

هذه كانت من الدواعي التي أدت بالبريطانيين إلى الاتجاه إلى دول الحلف الثلاثي ، ولا سيما وان إنجلترا قد باتت مهددة بأن تقف وحدها في المسألة المصرية . وهذه - أي المسألة المصرية - كانت المشكلة الثانية التي تجابه بريطانيا حينئذ في البحر المتوسط . فكان على بريطانيا أن تجابه مشكلة مباشرتها للأدور المصرية مع التخاضع من العداء الفرنسي لها هناك . وتتجنب - في نفس الوقت - اتجاهات بسمرك التي تميل إلى مناقشة حق الانجليز في مصر إذا ما ناقشوا حق ألمانيا في الاستعمار (١) .

ومن المعروف ان سولسبرى كان له رأيه الخاص في الدولة العثمانية ومصريها . فهو كان يبدو عديم الثقة بها . ميالا إلى تقسيمها ولا يرى هناك داعياً لبقائها . وهو لذلك يهتم بالمحافظة على المصالح الانجليزية لا بنجاية تركيا من الخطر الروسي . (٢) وقد وضع اتجاه سولسبرى هذا تماماً حينما زاد تعقد المسألة الشرقية في السبعينات وحينما خلف سولسبرى داربي في وزارة الخارجية البريطانية (مارس ١٨٧٨) ، فعينئذ بدا أن سياسة سولسبرى بخصوص الدولة العثمانية كانت أبعد ما تكون عن تأييد تلك الدولة أو المحافظة عليها . وكان ذلك انعكاساً لشكها فيما إذا كانت تركيا حقيقة جديدة بالدعم من جانب بريطانيا (٣) . صحيح انه لم يفقد حينئذ الأمل نهائياً

(١) Lowe, pp. 2-3.

أنظر كذلك : صفوت : الاحتلال الإنجليزي لمصر . ص ١٤٢ .

(٢) صفوت : نفس المرجع . ص ١٢٨-١٢٩ .

(٣) Ensor, p. 197 (٢)

في اصلاح الأحوال في تركيا . ولكنه كان يرى ان الامبراطورية العثمانية قد دب فيها الفساد والعفن إلى حد كبير ، وانها تسير حتما إلى النهاية . وكان يعتقد بجدوى تأجيل سقوط الامبراطورية العثمانية - بالنسبة لانجلترا - حتى قيام الثورة في روسيا . وانه من مصلحة انجلترا تأجيل حدوث هذه الكارثة . (١) أما السياسة العملية في نظره فهي الاشراف الفعلي على طرق المواصلات المائية إلى الهند . وذلك باحتلال مصر وقناة السويس وكريت والعمل على القضاء على الدولة العثمانية (٢) .

واستولت بريطانيا على قبرص (١٨٧٨) . ومصر (١٨٨٢) ، واطمانت على مركزها في شرق البحر المتوسط وعلى طرق مواصلاتها البحرية إلى الهند . ومع ذلك فقد بقيت العتبة الفرنسية في مصر من ناحية ، كما استمر الازعاج الروسي أو النمساوي لبلقان من ناحية أخرى .

حينئذ رأى سولسبرى - وفيما يتعلق بالبحر المتوسط ، وكما قال هو هو نفسه في عام ١٨٨٧ - انه لا خير لانجلترا في أى تغيير ، وان من مصلحة انجلترا الا يحدث من التغيير الا أقله (٣) . ورأى سولسبرى أن تتبع حكومته - في الأمور الداخلية كما في الخارجية - السياسة التقليدية ، ودبلوماسية الصبر والاناة بالنسبة لكلى المشكلتين : في مصر والبلقان (٤) .

ففى خريف عام ١٨٨٦ كان سولسبرى يريد مصلحة فرنسا بكامات معسولة واشارات إلى الانسحاب من مصر : بينما يجدد المباحثات مع الباب العالي حول هذا الموضوع ، وكانت قد قطعت عام ١٨٨٥ . يتضح ذلك تماماً في مقابلة طويلة بين سولسبرى ووادنجتون - السفير الفرنسي في لندن - خصصت كلها

(١) يظهر ذلك في خطاب خاص له إلى Layard السفير البريطاني في القسطنطينية. أنظر .

Medlicott, The Congress. Of Berlin And After p. 345.

(٢) صفوت : إنجلترا وقتاء السويس ص ٦٦

(٣) Lowe, p. 1.

(٤) Ibid. p.5.

لبحث المسألة المصرية . وفيها يتحدث سولسبري حديثاً ودياً ولكن بشوبه الغموض : كما يقول وادنجتون ، ويذكر - أي سولسبري - ان الحملة ا وفرنسا سوف يصلان إلى اتفاق بشأن المشكلة المصرية ، وانه يمكنهما أن يتفقا حول ذلك الموضوع :

“... néanmoins je suis persuadé que nous arriverons à une entente La France et L'Angleterre auront pu se mettre d'accord ...” (1)

ومن العسير تفسير ذلك على أنه مقدمة لهذه الصفقة الانجليزية - الفرنسية التي عقدت في ابريل عام ١٩٠٤ (الوافق الودي) . وذلك لجملة اعتبارات لا تخفى على كل دارس للعلاقات بين إنجلترا وألمانيا وفرنسا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين . إنما بكل تأكيد يمكن اعتبار ذلك الحديث متفقاً مع رغبة سولسبري في مصالحة فرنسا بمجرد كلمات طيبة دون أدنى التزام من جانبه . فحينما يخبره وادنجتون بأنه لا يوجد أحد في فرنسا يصدق ان الحكومة الانجليزية مخلصة حينما تؤكد رغبتها في الاعداد لتجلاء عن مصر . يكتفى سولسبري بأن يصبح «انكم تخطئون جداً ..» (٢) ويؤكد ان إنجلترا انما تسعى إلى الوسائل التي تخرج بها بشرف من مصر ، وان القوات الانجليزية في مصر سوف تكون أكثر نفعا في الهند ، وان إنجلترا مصممة على الجلاء عن مصر . ويتأدى سولسبري في تصوير مسألة الجلاء كأمر جدي تفكر فيه بريطانيا فيقول : انا حينما نعان ميعاداً لجلائنا فلسوف نطلب حينئذ من أوروبا تحديد فترة يكون لنا الحق اباؤها في الرجوع إلى مصر في ظروف محددة . إذا نشأت في مصر حالة جديدة وخطيرة من القوضى وحينما يسأله وادنجتون «وهل فاتحت الآخرين -

(١) من حديث سولسبري إلى وادنجتون . انظر :

Doc. Dip. Fr. lère S., T. VI, no. 342,

(Waddington à Freycinet, 3 nov. 1886, Très confidentiel).

(٢) “On se trompe grandement chez vous, lorsqu'on croit que nous voulons (٢) rester indéfiniment en Egypte ...” Ibid.

أى الدول الأخرى — بتلك الفكرة ؟ يجيب سولسبرى : « لا انك أول شخص يتحدث معه في هذا الموضوع . » ثم يشير سولسبرى إلى « المصاعب البرلمانية » التي توجد في إنجلترا ، وكيف انهم في إنجلترا — كما في فرنسا — يثورون بسهولة عند اثاره القضية المصرية (١) .

وبهذه الطريقة كان سولسبرى يظن انه من الممكن مصلحة فرنسا في مصر . وكان ذلك بالنسبة له يبدو أمراً معقولاً إذا كان عليه أن يقف في وجه روسيا في نفس الوقت في البلقان . وهو يقترح — وسيلة لذلك — التعاون مع النمسا في سياسة ترمي إلى تعضيد الأمير اسكندر في بلغاريا . ولكن الوزارة رفضت كلى الاقتراحين . وكان تشرشل Randolph Churchill وزير المالية وزعيم مجلس العموم — يعارض سياسة سولسبرى . (٢) كذلك حدث ما جعل سياسة سولسبرى — فيما يتعلق بالتعاون مع النمسا لصدد روسيا في البلقان — لا تلقى نجاحاً يذكر . فبسمرك كان غاية في الصراحة فيما يتعلق بذلك الأمر . وبين بوضوح انه لن يحرك اصعباً من أجل الأمير اسكندر في بلغاريا . وان بلغاريا وحتى القسطنطينية منطقة مصالح روسية لن يتدخل فيها أو يسمح للنمسا بالتدخل . واقترح بسمرك على بريطانيا — متهكماً — أن تستأجر تركيا إذا أرادت أن تعارض روسيا في البلقان . (٣) "Mit Geld lässt sich in der Türkei alles machen" والنمسا من ناحية أخرى لم تبد تجاوباً مما جعل ادسلي Iddesleigh وزير الخارجية الانجليزية — لا يأمل الكثير منها في تلك المسألة . فالروسيا كانت قد أكدت للنمسا انها لن تغزو بلغاريا (٤) .

ولكن بمجيء يناير عام ١٨٨٧ كان يبدو ان سولسبرى قد تخلص من بعض العقبات . فهو تخلص مثلاً من تشرشل في ديسمبر من العام

(١) Ibid.

(٢) Lowe, p. 5.

(٣) "بالمال يفعل المرء أى شئ في تركيا" أنظر : Lowe, p. 7.

(٤) نفس المرجع والصفحة

السابق ، وبسمرك - وقد شغل بأمر مباحثاته مع النمسا وإيطاليا بشأن تجديد الحلف الثلاثي - بدأ أكثر استعداداً للتعاون مع إنجلترا . وكانت النتيجة أن سولسبرى صار في ذلك الوقت قادراً على اتباع سياسة يختارها ، هو ، وكان يرى إلى عقد اتفاقية مع إيطاليا والنمسا لحماية الحالة الراهنة في شرق المتوسط ، وإجراء مباحثات بشأن تجديد أجل الاحتلال الإنجليزي لمصر وبذلك يصالح فرنسا ويرضيها . وكان ذلك يعني الرجوع إلى سياسة القرم (١) ، الأمر الذي كان تشرشل يعارضه بشدة ، ولكن ذلك لم يكن يعني أن سولسبرى كان يرى جدوى في الجلاء عن مصر أو يفكر في ذلك حقيقة .

نلاحظ ان بسمرك أيضاً كان يعمل على ارجاع «تكتل القرم» بطريقته الخاصة ، ووضح ذلك في مذكرة له في نوفمبر ١٨٨٦ (٢) . فبينما كان سولسبرى يعمل على مصالحة فرنسا وإسماها بمجدية التفكير الإنجليزي في الجلاء عن مصر ، كان بسمرك يعمل على التوسط بين إنجلترا وفرنسا لمصالحتهما . وكان بسمرك يسعى إلى ذلك تقريباً من فرنسا التي أخذت تتأكد من نوايا بسمرك السلمية ، بل وفكرت في تجديد وفاق فرى مع ألمانيا إذا ما ساعد بسمرك فرنسا ضد إنجلترا في مصر . ولما كان بسمرك لا يستطيع أن يفقد إنجلترا من أجل فرنسا ، فقد عرض الوساطة بين الدولتين . وهذا - كما يرى بسمرك - يتكون تكتل شبيه بتكتل القرم يعمل على تخفيف التوتر للموقف في البلقان ويرغم روسيا على احترام الاتفاقات (٣) . ولكن إنجلترا لم ترحب بذلك الأمر . فمصر ، وموقف فرنسا في البحر المتوسط بشكل عام ، بالإضافة إلى رغبة بريطانيا في عدم تدخل دولة ثالثة في أمر مصالحها مع فرنسا في مصر (٤) ، كل ذلك جعل ارجاع تكتل القرم كما يراه بسمرك أمراً عسيراً .

(١) Lowe, p. 8.

(٢) Taylor, The Struggle For Mastery In Europe 1848—1919 p. 305..

(٣) نفس المذكرة بالمرجع السابق .

(٤) كانت إنجلترا تعلم جيداً أن فرنسا سوف تقف وحدها إذا ما قام نزاع بينها وبين

إنجلترا بشأن مصر . انظر : نفس المرجع . Taylor, p. 309.

كانت هناك عقبات اذن تحول دون سولسبرى وتنفيذ سياسته ، ولكن
 بمجيء يناير ١٨٨٧ كان يبدو أنه نخلص من كثير منها كما ذكرنا . وبسمرك
 — وقد شغل بأمر محادثاته مع النمسا وإيطاليا بشأن تجديد الحلف الثلاثى —
 بدا أكثر استعداداً للتعاون مع إنجلترا . فترة السنوات الخمس للحلف
 الثلاثى كانت قد قاربت على الانتهاء فكان لابد من تجديده . ولكن كانت
 هناك مصاعب معينة تعترض تمام ذلك : فأنمسا كانت راغبة عن الارتباط
 كثيراً بإيطاليا نظراً للتنافس الإيطالى الفرنسى فى البحر المتوسط ، بينما
 كانت إيطاليا تخشى مغبة اطماع النمسا فى البلقان وتوريط نفسها من أجل
 ذلك فى حرب مع روسيا . ولكن لما كان بسمرك حريصاً على تجديد
 الحلف ، فقد وجد طريقاً إلى ذلك : التعاون مع إنجلترا ، التى كانت
 على استعداد لذلك نظراً لمصاعبها مع روسيا وفرنسا (١) . وكانت النتيجة
 ان سولسبرى صار فى ذلك الوقت قادراً على اتباع سياسة يختارها هو ،
 وتهدف — كما ذكرنا — إلى الانفاق مع إيطاليا والنمسا ومصالحة فرنسا
 وارضائها عن طريق اجراء مباحثات بشأن تجديد أجل للاحتلال الانجليزى
 لمصر .

والتغيير المفاجيء فى سياسة بسمرك ، وهو التغيير الذى أدى إلى عقد
 اتفاقيات البحر المتوسط فى فبراير ومارس ١٨٨٧ وإلى زيادة التعاون
 بين إنجلترا والتحالف الثلاثى ، يراه Lowe يرجع بالدرجة الأولى إلى الضغط
 الإيطالى (٢) ، بينما يراه Taylor يرجع إلى موقف فرنسا الذى أملى على
 أوروبا دبلوماسية سنة ١٨٨٧ (٣) .

فبسمرك — كما يرى تيلور — كان يرغب أن ترمى فرنسا فى أحضان
 روسيا : بعد هذه العزلة لفرنسا فى القارة ، وهذا بالتالى يدفع إنجلترا
 إلى الانضمام إلى جانب النمسا والمجر فى المسألة البلغارية . ولكن فرنسا فوت

(١) Bruce, p. 196.

(٢) Lowe, p. 8.

(٣) Taylor, p. 310.

على بسمرك هذا الهدف بأن قررت ان تحذو حذو ألمانيا في الأزمة . وهكذا
نحرك بسمرك في عام ١٨٨٧ يتعاون مع إنجلترا (١) . أما Lowe فينظر
إلى الآراء القائلة بأن اتفاقات البحر المتوسط هي فروع للتحالف الثلاثي
على انها مبالغ ، ويرجع هذه الآراء إلى نفوذ الوثائق الألمانية Die Grosse Politik
على التاريخ الدبلوماسي لتلك الفترة . (٢)

ومن المؤكد انه كانت هناك عوامل خاصة بإيطاليا . وأخرى بإنجلترا
قد انتجت هذه الاتفاقيات ، وكان لكل من سولسبرى ، وكرسبي
وجبة نظر دفعته إلى قبول المفاوضات من أجل هذه الاتفاقيات . وفيما
يتعلق بإيطاليا ، فإن من أهم دوافعها للتفاوض مع بريطانيا بهذا الخصوص
أطاعها الاستعمارية (٣) والتي كانت تتلخص في كلمة واحدة :
طرابلس .

ومن ناحية ثانية هناك مخاوف الايطاليين إزاء فرنسا . فالإيطاليون
يرفضون بشدة وصاية الفرنسيين عليهم أو رعايتهم لهم منذ أيام نابليون
الثالث . وهم أيضاً يخافون من امتلاك الفرنسيين لحوض البحر المتوسط
ومن تأمرهم ضدهم . لذلك يصمم الإيطاليون على زيادة قوتهم تفادياً
لإذلال آخر قد يحق بهم . كل ذلك بجانب المشكلة الإيطالية الأصلية والمستمرة ،
الاربدنتا Anti - Austrian irredentism - قد اعطى اتجاهها جديداً للسياسة
الإيطالية الخارجية . وبمجيء عام ١٨٨٤ رأينا دبلوماسيين إيطاليين مثل
روبلان Rablanti (٤) ينزعجون خشية توسع فرنسي جديد دون معوق ،
ويصممون على الوقوف في وجه المنافسة الفرنسية . وهؤلاء كانوا يخشون أيضاً
أن يؤدي استيلاء فرنسا على المغرب وطرابلس إلى انفجار شعبي في إيطاليا يطيح
بالملكية ، ويخشون ما قد يترتب على ذلك من عواقب بالنسبة لإيطاليا (٥) .

Ibid. (١)

Lowe, p. 8. (٢)

Ibid. (٣)

(٤) وزير الخارجية الإيطالية ١٨٨٥-١٨٨٧

Lowe, pp. 9 -- 10. (٥)

ذلك دعا إلى زيادة اهتمام إيطاليا بطرابلس عام ١٨٨٤ . ولكن إيطاليا لم تشأ أن تسير في ركاب ألمانيا وفرنسا ضد إنجلترا سعياً وراء الغنيمة . وعلى ذلك يرفض ما نشئني (١) منافذات فرى بشأن وفاق استعماري فرنسي - إيطالي ، ويبدو ميالا إلى التعاون مع إنجلترا بخصوص مصر والسويس ، أملا منه في أن يؤدي ذلك إلى تضام إيطالي - انجليزي قوى يعمل على حماية المصالح الإيطالية في البحر المتوسط (٢) . فهم في إيطاليا كانوا يعتقدون أن إنجلترا هي أنخلص صديق لهم في أوروبا . وهذه النظرة الإيطالية إلى إنجلترا نجدها واضحة تماماً في اتفاقها مع ألمانيا سنة ١٨٨٢ ، كما تتضح أكثر بالنسبة لتجديدات التحالف الثلاثي فيما بعد .

وفي سنة ١٨٨٦ كان الموقف - بالنسبة لإيطاليا - كما كان عام ١٨٨٤ مع فارق هو تصدع وفاق بسمرك الاستعماري مع فرنسا إلى حد الانهيار . والموقف في البلقان قد أوحى إلى روبيلان Robilant بأنه من الممكن الحصول من ألمانيا على بعض الضمان لصالح إيطاليا في البحر المتوسط وتنمية التعاون مع إنجلترا في نفس الوقت (٣) .

وكان روبيلان واثقاً من نفسه . فهو يصر على تعضيد ألماني لإيطاليا في طرابلس ثمناً لتجديد الحلف الثلاثي . ولم يكن يهم روبيلان أن يعني ذلك تعاوناً مع إنجلترا أو فرنسا ، فعلى بسمرك تجديد ذلك . وفي ١٧ أكتوبر (١٨٨٦) جاء رد بسمرك كما أرسل به لوناى Launay - السفير الإيطالي في برلين - إلى روبيلان . وفيه يقول إن بسمرك

"n'hésite pas à formuler son opinion dans ce sens qu'il serait tout contraire tout l'intérêt de l'Allemagne qu'à celui de l'Italie d'entrer dans les vues de la France." (٤)

وكان ذلك يعني طبعاً أن على إيطاليا أن تتجه إلى إنجلترا .

(١) وزير خارجية إيطاليا (١٨٨١-١٨٨٥) .

(٢) Lowe, p. 11.

(٣) ، (٤) Ibid. p.12.

وباتضاح موقف بسمرك ازاء ما ينبغي أن تكون عليه العلاقات الإيطالية - الفرنسية ، يسعى روبيلان لعقد تحالف مع إنجلترا ، ويستدعي Lumley السفير البريطاني في روما - يوم ٢٢ أكتوبر (١٨٨٦) - ويخبره انه على استعداد لبحث المسألة المصرية ، كما يظهر روبلان ذلك على الملأ في خطبة عامة له في نوفمبر ١٨٨٦ (١) .

ولكن لم يكن لهذا أثر يذكر ، فالإنجليز كانوا يريدون تعصيلاً في بلغاريا . الأمر الذي كان روبيلان راغباً عنه ، والايطاليون يعرضون تأييدهم للإنجليز في مصر . وهو أمر كان الإنجليز يشكون كثيراً في قيمته (٢) .

فشل روبيلان اذن في دفع بريطانيا إلى اتخاذ الخطوة الأولى نحو عقد تحالف ايطالي - انجليزي . فقام هو بتلك الخطوة . وقابل Corti كورتى السفير الايطالي في لندن - سولسبرى في ٧ - ١٧ يناير ١٨٨٧ . وأشار إلى أن الوقت قد حان لتفهم انجليزي - ايطالي (٣) . وفي هذه المقابلة الأخيرة يقول سولسبرى للسفير الايطالي أنه يود أن يجعل العلاقات مع ايطاليا أكثر توطئاً وأكثر نفعا (٤) .

واقترحات كورتى كانت غامضة إلى حد ما (يناير ١٨٨٧) . ولكن منهما يكن غنم سولسبرى للعروض الإيطالية ، سواء كانت توحى بتعصيد ايطالي في بلغاريا بالذات أو شرقي المتوسط عامة ، فإن سولسبرى - كما كتب إلى سفيره في القسطنطينية Marier في ١٩ يناير ١٨٨٧ - كان يعتقد بأن استخدام ايطاليا في الدفاع عن الحالة الراحنة في الشرق إنما هو أمر واقع (٥) .

Ibid. (١)

Ibid. p. 13. (٢)

Ibid. (٣)

Taylor, p. 310 (٤)

Lowe, p. 14. (٥)

ولكن اقتراعات روبيلان التي جاءت بالتفصيل فيما بعد (١) فبراير سنة ١٨٨٧) كانت على عكس ما توقع الانجليز . فهي وإن كانت تتكلم عن أثرها في القضاء على الخطر الروسى إلا انه يبدو انها كانت ترمى إلى تحالف في حالة الحرب ضد فرنسا : (١) وكان ذلك أكثر مما كان يرى اليه سولسبرى (٢) .

فالإيطاليون كانوا يرغبون في عقد اتفاقية محددة واضحة لمراعاة الحالة الراهنة في البحر المتوسط . وقد اقترحوا لذلك مراعاة الحالة الراهنة في البحر المتوسط والادرياتي والايجى والبحر الأسود ومقاومة كل ضم أو احتلال أو حماية في هذه الجهات . وعدم احداث تغيير في هذه المناطق مهما كان دون موافقة مسبقه من انجلترا وايطاليا ، والتأييد الايطالى لانجلترا في مصر مقابل التأييد البريطانى لايطاليا في شمال افريقيا ولا سيما في برقة وطرابلس وذلك ضد أى غزو بمعرفة دولة ثالثة ، وأخيراً تعضيداً عاماً متبادلاً في البحر المتوسط . ولكن يلاحظ أن كل هذه المقترحات كانت تعنى أكثر من حلف ضد فرنسا أو ضد النمسا والمجر فيما يتعلق بالادرياتي (٣) .

ويبدو ان الإيطاليين - بهذا العرض - كانوا قد أساءوا فهم البريطانيين . فالبريطانيون ، رغم أنهم كانوا مستعدين لاعطاء ايطاليا نوعاً من التعضيد في طرابلس كما أعطاهم الإيطاليون في مصر ، لم يكونوا على استعداد للارتباط معهم بحلف من هذا النوع . فقد يلجأ مثلاً خليفة روبيلان إلى شن حرب ضد فرنسا لاسترجاع نيس وسافوى . وعلى أية حال فانجلترا لم يكن لديها ما يمنع من ايجاد تفاهم مع ايطاليا - في حالة زوال احتمال عمل ايطاليا على استرجاع نيس وسافوى . فطرابلس نفسها ،

Ibid. (١)

Taylor, p. 311. (٢)

Ibid. (٣)

في هذه المرحلة ، لم تكن تكون عقبة في سبيل مثل هذا التفاهم . وقد أكد سولسبرى لكورتى انه في الوقت الملائم فان ايطاليا هي التي سوف تحتل طرابلس وليست فرنسا . وكانت إنجلترا تعلم ان طرابلس لا تثير مشكلة تذكر مع فرنسا (١) .

وكان على كورتى أن يؤكد لسولسبرى ان ايطاليا ليست لديها أية نية لمهاجمة فرنسا ، ولكن ايطاليا - ببساطة - تريد الا تتكرر مسألة تونس بصورة أخرى . وقد أكد روبيلان ذلك في ٧ فبراير ١٨٨٧ (٢) .

وإذا كانت ايطاليا حقيقة ليست لديها النية لمهاجمة فرنسا فان اتفاقاً مع ايطاليا يربط إنجلترا بدول الوسط يبدو لانجلترا ذا ميزات متعددة بالنسبة لها .. ولكن الأمر الذي كان يخيف سولسبرى حينئذ كان هذا الذي يقوله بسمرك في الرايشتاج Reichstag / وما كان يعنيه عن قرب حدوث حرب فرنسية - ألمانية .

وفي الواقع كانت الصحافة الألمانية والرأي العام الألماني حينئذ يتكلم عن استعدادات فرنسية على الحدود وعن النزعة الحربية للجنرال بولانجيه Boulanger وزير الحرب الفرنسي (٣) . ورغم ان Hatzfeldt السفير الألماني في لندن - قد أبلغ سولسبرى في ٢٤ يناير ١٨٨٧ أن ألمانيا سوف تهاجم فرنسا في الحال إذا استمرت استعدادات بولانجيه الحربية (٤) الا أن كلى المستشار والقيصر في ألمانيا لا يفتأ يؤكد نزعة ألمانيا السلمية ازاء فرنسا (٥) . ذلك يرجع الرأي القائل بأن الخطر الفرنسي على ألمانيا حينئذ انما هو خطر وهمي كان يحلو لبسمرك أن يخلفه .

(١) Lowe, p. 14.

(٢) Ibid., p.15.

(٣) أنظر Herbert (برلين) الى Flourins ، ٢٣ يناير ١٨٨٧ - الوثائق الفرنسية - المجموعة الأولى - جزء ٦ رقم ٤٠٤

(٤) Lowe, p. 15.

(٥) أنظر Flourins الى laboulaye (سان بيترسبورج) - ٣ فبراير ١٨٨٧ - الوثائق الفرنسية - المجموعة الأولى - جزء ٦ رقم ٤٢٢ .

وبسمرك من ناحية أخرى - كان يتعجل حدوث اتفاق إيطالى -
 انجليزى ، وذلك قبل أن يضع Kalnoky العقبات فى اللحظة الأخيرة ..
 ونرى بسمرك فى هذه المباحثات الانجليزية - الايطالية مهتما بالشرق وليس
 بالغرب . فهو باهتمامه كثيراً بالارتباط مع انجلترا فى الشرق انما يضمن
 أن ايطاليا سوف تكون عند التزاماتها - الأمر الذى كانت فيينا تشك فيه ،
 ذلك يفسره ما أبلغه بسمرك إلى Malei - السفير البريطانى فى برلين -
 فى يوم ١ فبراير ١٨٨٧ بأنه ليست هناك حاجة إلى أى اتفاقية موجهة
 ضد فرنسا . بل ان كل المطلوب هو تفاهم بخصوص الشرق .

فى نفس الوقت يتنصع الانجليز Hatzfeldt - السفير الألمانى فى لندن
 باعطاء ضمان لتأييد ألمانى فى مصر (١) .

على اية حال ، نجد انه بمجيء أول فبراير ١٨٨٧ اتضح انه كان هناك
 قدر كبير من التفاهم بين سولسبرى وروبيلان . واطمأن الانجليز إلى نزعة
 ايطاليا ، فقد أوضح Robilant ان كل ما يطالبه هو التأكد من عدم
 وجود احتمال لاتفاق أوروبى قد يعطى طرابلس إلى فرنسا . فهذا من شأنه
 أن يحدث زوبعة فى ايطاليا قد تؤدى إلى الحرب (٢) .

وهكذا نجد ان الوزارة البريطانية مطمئن ، وتسمح لسولسبرى
 بأن يجيب روبيلان بالموافقة (٢ فبراير ١٨٨٧) ، ولاسيما وان تشرشل
 كان - كما ذكرنا - قد خرج من الوزارة ولم يعد سولسبرى يجد معارضة
 لآرائه .

واستقالة الوزارة الايطالية التى كان روبيلان وزيراً للخارجية بها
 (٥ فبراير ١٨٨٧) جعل سولسبرى يسرع بعقد الاتفاق المنشود ، وذلك
 قبل أن تتفق سياسات ايطاليا الداخلية فى سبيل خطته (٣) ..

Lowe, pp. 15-16. (١)

Ibid. p. 16. (٢)

Ibid. (٣)

وأخيراً تتمكن كل من بريطانيا وإيطاليا من الوصول إلى اتفاقية سرية (١٢ فبراير ١٨٨٧). وهى الاتفاقية الأولى من سلسلة الاتفاقات التى عقدتها بريطانيا مع الدول وسميت باسم اتفاقات البحر المتوسط Mediterranean Agreements وهذه اتفاقية من أجل حفظ الحالة الراهنة status quo فى البحر المتوسط والبحر الادرياتي والبحر الابيى والبحر الأسود. وفيها تتعهد إيطاليا بتعصيد المصالح البريطانية فى مصر، كما تتعهد بريطانيا بحماية السواحل الإيطالية من الأسطول الفرنسى (١)

وقد جاءت هذه الاتفاقية - كما أرادها سولسبرى - تخدم الظروف الحاضرة، ولا ترتبط بها بريطانيا ارتباطاً محدداً، ولا تنطى الإيطاليين سوى موافقة عامة لفكرة التعاون. وقد أضاف سولسبرى إلى الاتفاقية جملة غامضة حول مضمون هذا التعاون تقول :

"... the character of that co-operation must be decided by them, when the occasion for it arises, according to the circumstances of the case."

وكان سولسبرى يعنى بكلمة by them الانجليز. بينما كان الإيطاليون يفهمونها على أنها تعنى كلى الحكومتين البريطانية والإيطالية (٢).

وقد لجأ سولسبرى إلى جعل الاتفاق على شكل خطابات متبادلة وليس بصورة معاهدة. وهى طريقة يستطيع بها أن ينفى للبرلمان أنه قد فعل أى شئ. وفى نفس الوقت فهو يخبر روبيلان أن تفاهما بين بريطانيا وإيطاليا على ذلك النحو سوف يكون له نفس تأثير «الاتفاقية». وعلى أى حال فتنظر سولسبرى فان اتفاقاً مع إيطاليا لم يمثل اتجاهاً سياسياً سلباً بالنسبة للعصاة التقليدية بين الإيطاليين والبريطانيين (٣).

(١) Esnor, p. 198.

(٢) Taylor, p. 311.

(٣) Lowe, p. 17.

وبالنسبة لاييطاليا نجد أن الحلف الجديد مع إنجلترا يخدمها سواء بالنسبة لمركزها في المتوسط وأطرافها هناك أو بالنسبة لعلاقاتها بالحلف الثلاثي ، فهي الحلف قد قوى من مركز إيطاليا كثيراً ، كما اعترف — لأول مرة — بأطرافها في البحر المتوسط . فالمادة الثالثة من اتفاقها مع إنجلترا تنص على أنه بينما على إيطاليا أن تعضد بريطانيا في مصر فإن على بريطانيا بالتالي — في حالة اغتصاب دولة ثالثة لأراض (طبعاً بالبحر المتوسط ، والمقصود هنا فرنسا والمغرب) — أن تعضد عمل إيطاليا في أي جهة أخرى على سواحل افريقية الشمالية ولاسيما في برقة وطرابلس (١) وهكذا كان الطريق في الواقع قد تمهد للحرب الطرابلسية سنة ١٩١١ ، بعد أن حددت هذه الاتفاقية الأهداف الإيطالية واعترفت بأمال إيطاليا في شمال افريقية .

وبعقد إيطاليا لاتفاقها مع إنجلترا تتحرر فرنسا من مخاوف انزلاقها وحدها إلى حرب ضد فرنسا بسبب إيطاليا ، ويتجدد الحلف الثلاثي (٢٠ فبراير ١٨٨٧) بعد أسبوع من عقد اتفاق البحر المتوسط هذا ، وبعد مصاعب تخطاها بسمرك مستخدماً مهارة مرموقة في ذلك السبيل : فيسمر ك يجدد التحالف الثلاثي بدون تغيير لارضاء كالنوكي كما تعقد اتفاقيات منفصلة بين إيطاليا وكل من ألمانيا والنمسا والمجر . وفيها تعد ألمانيا إيطاليا بمساعدتها إذا حاولت فرنسا أن تمتد احتلالها أو حمايتها أو سيادتها على طرابلس أو المغرب . كذلك تعد ألمانيا بأن تهرع إلى نجدها إذا هي تحركت بعدئذ في شمال افريقية أو حتى إذا هاجمت فرنسا في أوروبا . وفضلاً عن ذلك فالألمانيا تعد إيطاليا بأن تحصل لها على ضمانات اقليمية لسلامة حدودها ومركزها البحري ، وكانت تقصد بذلك كورسيكا وتونس ونيس (٢) . وبذلك لم يعد التحالف الثلاثي مجرد عصبة من أجل السلام — كما كان يحلو لبسمر ك أن يصِفَ — وصار بعيداً كل البعد عن وعود بسمرك المتكررة بتعصيب فرنسا في كل مكان ما عدا الأتراك والودين .

Bruce, p. 196. (١)

Taylor, p. 312. (٢)

وأهداف إيطاليا في علاقتها بالنمسا تتضح أيضاً عند تجديد الحلف الثلاثي ، ففى اتفاقية منفصلة وملحقة بالحلف الثلاثي تتفق الدولتان على أنهما إذا وجدت ضرورة لاتخاذ خطوات لتغيير الحالة الراهنة في البلقان أو الادرياتي والايجي ، فعليهما أن تتفقا مسبقاً بالنسبة للخطوات التي عليهما اتباعها ، وكذلك ينص الاتفاق - في هذه الحالة - على أن تنال كل منهما تعويضاً عن أى كسب تحصل عليه الأخرى . وهذه الفقرة قد احتواها التجديد للحلف الثلاثي في أعوام ١٨٩١ ، ١٩٠٢ ، ١٩١٢ . ونلاحظ ان إيطاليا تخلى عن الحلف الثلاثي في سنة ١٩١٥ بحجة أن هجوم النمسا على الصرب هو خرق لهذا الاتفاق (١) .

وهكذا . بمجيء فبراير ١٨٨٧ كان سولسبرى قد حصل أخيراً على ما كان يسعى للحصول عليه منذ صيف سنة ١٨٨٦ : اتفاقية ربطت بين دول الوسط بهدف الدفاع عن الحالة الراهنة في الشرق ، ولأسباب وأن موافقة النمسا عليها (مارس ١٨٨٧) قد زادت من قيمتها .

وكانت الأسباب الرئيسية لامتناع كالنوكي Kalnoky عن ذلك في الماضي هو موقف برلين من ناحية ، وما كان يراه من عدم الاعتماد على السياسة البريطانية التي كانت متأثرة بنفوذ تشرشل من ناحية أخرى . ولكن الآن - وقد ذهب تشرشل - ومنذ ١٦ فبراير قد بدأت برلين تتعجله الانضمام إلى التكتل البريطاني - الإيطالي . وبذلك لم يعد هناك ما يمنع من فتح باب المفاوضات مع بريطانيا في ٢٣ فبراير بقصد الوصول إلى اتفاق على غرار ذلك الذي عقده بريطانيا مع إيطاليا (٢) .

وبالنسبة لانجلترا ، فانه إذا كان اتفاقها مع إيطاليا (فبراير) ثم اتفاق إيطاليا مع ألمانيا في الأسبوع التالي قد ضمنا الحالة الراهنة في البحر المتوسط ضد فرنسا ، فان الخطر من جانب روسيا قد أغفلته هذه الاتفاقات .

(١) Bruce, pp. 196-197.

(٢) Lowe, P. 17.

ولم يكن ذلك التجاهل بالطبع الأمر الذي يسر النمسا . وهنا كان سولسبرى أيضاً مستعداً لارضاء النمسا . فسعى إلى ذلك الأمر وهو يرى ان الوزارة البريطانية - وقد انزلت إلى اتفاقية - فان تعارض في عقد أخرى (١) .

وقد كان كالتوكى - كما كان روبيلان - يفضل تحالفاً قوياً صلباً لا يربط الحكومة البريطانية الحالية فحسب ، بل الحكومات البريطانية القادمة أيضاً .. ولكن سولسبرى رأى ان عقد اتفاق Treaty غير مأمون العواقب بالنسبة لمركزه البرلمانى .. وجهد سولسبرى كثيراً ليقنع كالتوكى بأن اتفاقاً سياسياً له قيمته ، على أن تترك القرارات العسكرية فيما بعد حسبما تملى الظروف والأحداث (٢) .

وقد كان لسولسبرى ما أراد . وهكذا ينجى اتفاق بريطانيا مع النمسا (٢٤ مارس ١٨٨٧) وفي المذكرات المتبادلة بين الحكومتين البريطانية والنمسية تذكر الحالة الراهنة وعلى الأخص في البحرين الايجى والأسود : ولكنها لم تحو على اشارة محددة للبلقان ، وهو ما كان كالتوكى يصر عليه في أول الأمر . وهذه المذكرات - مثل مثيلاتها المتبادلة مع ايطاليا - تكلمت فقط عن تعاون دبلوماسى ، لم ويكن هناك أى وعد أو ارتباط من جانب بريطانيا بشئ (٣) . وبذلك يكون سولسبرى قد ربط إنجلترا إلى تفاهم سياسى عام مع ايطاليا والنمسا في البحر المتوسط . تاركاً أمر الترتيبات التفصيلية بشأن التعاون بين الدول الثلاث تحددها الظروف والضرورة (٤).

والاتفاق الانجليزى - النمسى قد جاء بمزايا بالنسبة للنمسا . فقد حصلت النمسا على ما سبق أن رفضه روبيلان - وزير الخارجية الايطالية - عند تجديد الحلف الثلاثى ، وهو التعضيد الايطالى في الشرق . وبذلك

Taylor, p. 312 (١)

Lowe, p. 17. (٢)

Taylor, p. 313. (٣)

Lowe, p. 18. (٤)

يرجع لانجلترا الفضل في ازدياد تماسك التحالف الثلاثي ، فكانتوكنى - في أول الأمر - لم يول هذه الاتفاقات اهتماماً يذكر (١) .

وهكذا تكون اتفاقات فبراير ومارس ١٨٨٧ قد خلقت وفاقاً ثلاثياً يحضى مصالح بريطانيا في مصر ومصالح إيطاليا في طرابلس ومصالح الجميع في القسطنطينية . ونلاحظ إنه رغم أن فرنسا لم تكن تعلم شيئاً عن أية اتفاقية مكتوبة تدور حول البحر المتوسط ، وكذلك كان الروس ، إلا أن هذه الحقيقة عن التعاون الدبلوماسي الذي اشتملت عليه هذه الاتفاقات كانت واضحة للجميع (٢) .

وقد يكون هدف سولسبرى من هذه الاتفاقات هو ضمان تأييد دول وسط أوروبا الدبلوماسي في المسألة المصرية ، ولكنه على أية حال قد برر هذه الاتفاقات للملكة فيكتوريا بأنها أحسن طريقة لدرء خطر عصبة من دول القارة الأوروبية قد تسعى إلى تقسيم الامبراطورية البريطانية (٣) .

والاتفاقات في حد ذاتها نصر كبير للدبلوماسية البريطانية . فقد حصل الانجليز على تأييد دبلوماسي لم دون وعد صريح بعمل قد يعقب ذلك التأييد . وبذلك ضمن الانجليز أغلبية صامدة في وجه الفرنسيين في مصر (٤) .

كانت الخطوة التالية لسولسبرى - بعد عقد اتفاقه مع النمسا (مارس ١٨٨٧) ، هي انتهاز فرصة هذا الموقف - غياب تشرشل من ناحية . وتعزيد بسمرك من ناحية أخرى - وإحياء فكرة المفاوضات بخصوص الانسحاب من مصر (٥) .

Ibid. (١)

Ibid. p. 313. (٢)

Ibid. 314. (٣)

Ibid. (٤)

Lowe, p. 18. (٥)

وبعد تسعة شهور اتخذت الامور شكلها النهائي بعقد اتفاقية البحر المتوسط الثانية (١٢ ديسمبر ١٨٨٧) ، وُلّهي اتفاقية لا يحمل اسمها سوى النذر اليسير من المعنى لأنها لا تحوى إلا القليل عن البحر المتوسط . وانما هي قد جاءت على اية حال نتيجة للأزمة البلقانية وميؤول كل من كرسبي وكالنوكى .

ففى ٧ يوليو (١٨٨٧) انتخب المجلس البلغارى فرديناند Ferdinand of Coburg أميراً متحدياً بذلك رغبات الروس ، وبدا التدخل الروسى وشيك الوقوع . وتكرر موقف الحريف الأسبق : كل من بسمرك وسولسبرى يرغب فى أن يكل إلى الآخر أمر تعضيد النمسا والمجر ، وفى ٣ أغسطس يقابل سولسبرى هاتزفيلد Hatzfeldt فى لندن ، ويبدأ سلسلة من المناقشات حول الأمور العالمية . وبدا الأمر صعباً . فولسبرى يصر على أنه من غير الممكن انقاذ الامبراطورية العثمانية وأن انجلترا سوف تضطر إلى اقتسامها مع روسيا ، مالم تعضدها المانيا . ولكن بسمرك لم يحدع وسرعان ما أرسل إلى سفيره فى لندن - بعد أقل من أسبوع (١) - بأن من دواعى سروره أن يعمل على تشجيع تفاهم روسى - انجليزى . وحينئذ تراجع سولسبرى واجاب بأنه لا يستطيع أن يخذل ايطاليا ويهجرها وأن اتفاقية انجليزية روسية على أية حال ، أمر مستحيل ، وهذا هو الأمر الوحيد فى المسألة الذى كان بسمرك يعمل على تحقيقه (٢) .

وجاء دور سفراء الدول الثلاث المتحالفة (ألمانيا - النمسا والمجر - ايطاليا) فى القسطنطينية . فبدأوا فى التشاور حول موقف تركيا فى الأزمة ، وأنها سوف تسلم للروسيا عند أول تهديد روسى لها . وتكلم السفراء الثلاثة عن فكرة اعطاء تركيا قوة للمقاومة ، على الأقل قوة أدبية . وتبنت ايطاليا هذا الاقتراح بحماس . فكرسبي - وقد صار رئيساً للوزراء

(١) فى ٨ أغسطس ١٨٨٧ . أنظر . Taylor, p. 319.

(٢) نفس المرجع ص ٣١٩ .

منذ يوليو ١٨٨٧ - كان يعلم تماماً مدى ضعف بلاده وتفككها، واعتقد ان علاج ذلك يكمن في دفع ايطاليا إلى النشاط . لذلك كان كرسبي ينتهز أي فرصة لاثهار بلاده بمظهر الدولة العظمى ، ويعمل على كسب تأييد بريطانيا لسياسته الاستعمارية العدوانية عامة وموقف ايطاليا من فرنسا في البحر المتوسط خاصة . ففي ابان وزارة كرسبي الأولى (١٨٨٧ - ١٨٩١) لم يغفل قط - بصفته وزيراً للخارجية - مسألة بيزرت التي كان الفرنسيون قد أثاروها منذ عام ١٨٨١ . كذلك فهو لم يفتأ - طوال هذه الفترة - اثاره هذه المسألة لدى الدول الصديقة والمتحافنة وحتى المهتمة عند أي بادرة لأي عمل انشائي في بيزرت مهما كان نافعاً (١) ولكنه يرمي إلى جعلها قاعدة بحرية تهدد أمن وسلام ايطاليا . وكان كرسبي يهتم على وجه الخصوص بجذب انجلترا للتعاون معه ومع حلفاء ايطاليا في عمل يهدف إلى منع استمرار فرنسا في هذه الانشاءات . فأعمال فرنسا هذه كانت تبدو في نظر كرسبي مخالفة لما سبق وتعهدت به فرنسا حينما فرضت حمايتها على تونس ، كما انها أيضاً تتحل بالتوازن وتهدد الحالة الراهنة بالبحر المتوسط (٢) .

وفي هذا المضمار - العمل على كسب تأييد بريطانيا لايطاليا - كان كالتوكي يؤيد كرسبي ، فكالتوكي يريد جذب انجلترا أكثر إلى الشرق الأوسط . وقد رحب سولسبري بالتفاهم مع انتمسا وايطاليا حول هذا

(١) أنظر Crispi, Francesco, "Politica Estera" (1871-1890)

"Questioni Internazionali" Traduction fr. de P.G. Grandchamp, p.123.

(٢) والحكومة الانجليزية بدورها كانت تشارك كرسبي وجهة نظره . ففي مذكرة لما إلى الحكومة الايطالية في ١٩ يناير ١٨٨٩ تذكر أن بيزرت كانت أقوى مركز استراتيجي في البحر المتوسط . وهي لذلك تعاتب بشدة الحكومة الفرنسية وتوجه نظرها إلى التزاماتها في هذا المجال والتي تعهدت بالفوفاء بها منذ عام ١٨٨١ ، وكذلك فعلت المانيا عن طريق سفيرها في باريس . وفي مذكرة أخرى لسولسبري - ردا على مراسلة من حكومة كرسبي بتاريخ ٢٩ يناير ١٨٨٩ - يؤكد سولسبري أن مسألة بيزرت تهم بريطانيا بقدر لا يقل عن اهتمام ايطاليا بها ، وأنها تراتب الموضوع بكل اهتمام ويقتله - أنظر المرجع السابق ص ١٢٣ /

الموضوع ، ولكنه طلب أن تغطي الاتفاقية آسيا الصغرى كما تشمل بلغاريا والمضائق . والوزارة البريطانية لم تسلّم أول الأمر برأى سولسبرى بضرورة الاتفاق مع النمسا وإيطاليا ، ولكن موافقة بسمرك الأدبية - كطالب سولسبرى - على ذلك الاتفاق ، دون أى وعد بمساعدة عملية أو الارتباط بسياسة معينة ، هذه الموافقة الأدبية كانت بمثابة ارضاء للوزارة البريطانية (١) .

وهكذا توقع اتفاقية البحر المتوسط الثانية (١٢ ديسمبر ١٨٨٧) ، وفيها تتحد الدول الثلاث في المحافظة على الحالة الراهنة في الشرق الأدنى ، كما يتفقون بوجه خاص على حرية المضائق والسلطة التركية في آسيا الصغرى وسيادتها على بلغاريا . وإذا اضطرت تركيا إلى مقاومة «أى مشروعات غير قانونية» - ومن المفروض أن تأتى من جانب روسيا بالطبع - فإن الدول الثلاث عليها أن «تصل في الحال إلى الوسائل التى تتخذ» لحمايتها . أما إذا تجاهلت تركيا مثل هذه «المشروعات الغير قانونية» ، فإن الدول الثلاث «سوف تجد مبرراً» لاحتلال ما تراه ضرورياً من الأراضى التركية حسبما يتفق عليه ، باعتبار أن مثل هذا الأمر شيئاً ضرورياً . ومن ذلك نرى انه إذا كانت اتفاقات البحر المتوسط الأولى تهدف إلى تعاون دبلوماسى ضد فرنسا على وجه الخصوص ، فإن الاتفاقية الثانية كانت تمهيداً لعمل عسكري محتمل موجه ضد روسيا فقط .

ولكن ارتياح سولسبرى بخصوص تلك الاتفاقية لم يستمر كثيراً . فبسمرك قد أخبره بمحتويات المحالفة النمساوية الألمانية لعام ١٨٧٩ . بالإضافة إلى ذلك فسولسبرى لم يكن ليطمئن على الاطلاق إذا علم بمحتويات الاتفاقية الألمانية-الروسية (٢) Reinsurance Treaty (١٨٨٧) التى فيها وعد المستشار

(١) Taylor, pp. 320 — 321.

(٢) بدأت غفوضات هذه الاتفاقية في صيف عام ١٨٨٧ . وهذه هى المحالفة الرابعة المنهية ، بعد الحلف الالماني - النمساوى (١٨٧٩) وحلف الأباطرة الثلاثة (١٨٨١) والتحالف الثلاثى (١٨٨٢) ، التى عقدها بسمرك بعد مؤتمر برلين ... وهذه المحالفة الروسية - الألمانية هى فى الواقع اعتراف من بسمرك بفشله فى أمرين : ازالة التوتر بين المانيا وفرنسا ، وازالة بين النمسا والمجر والروسيا من ناحية أخرى . انظر : Bruce, p. 879

الألماني الروسي بالحيداد المشيع بالعطف في حالة تقدمها في الباتقان والمضائق (١) وموافقة بسمرك ومباركته لاتفاقيات البحر المتوسط وعقدته لاتفاقه ذلك مع روسيا في نفس الوقت لمن المسائل المعقدة التي يصعب تفسيرها (٢) .

وسقوط بسمرك (٩ مارس ١٨٩٠) لم يؤثر مباشرة على علاقة دول الوسط بالبحر المتوسط . وظلت ألمانيا تشجع زيادة تقارب إنجلترا من دول الوسط . ففي ٧ مارس ١٨٩١ كتب مارشال Marschal ، وزير الخارجية الألمانية ، يقول : إن صداقة بين إيطاليا وإنجلترا على شوكة خاصة في عين فرنسا ، كما أنها أكبر عقبة في وجه المطامع الفرنسية في البحر المتوسط » (٣) .

لذلك جهدت ألمانيا في تقريب إنجلترا من إيطاليا برباط أقوى من ذلك الذي تم في عام ١٨٨٧ . فاتفقيات البحر المتوسط (مارس وديسمبر ١٨٨٧) لم تر فيها ألمانيا قرارات حول البحر المتوسط بالمعنى الضيق ، إنما كانت كلها تتعلق بالمشكلة الشرقية . وكانت ألمانيا تعلم أن اتجاه السياسة الإيطالية هو ضمان مصالح إيطاليا في البحر المتوسط قدر الامكان . بواسطة اتفاقيات مناسبة ، ولم تحاول إيطاليا أن تخفى هذا الاتجاه في ابان المباحثات مع ألمانيا بشأن تجديد الحلف الثلاثي . وإيطاليا بدورها كانت تعتقد بأن اتفاقها السري مع إنجلترا غير كاف لحماية مصالحها كما أنه فشل في الاعتراف بأهمية إيطاليا بالنسبة للسياسة البريطانية (٤) . لذلك تظهر اقتراحات ألمانية ترمى إلى دخول إنجلترا في اتفاق لمراعاة الحالة الراهنة في كل حوض البحر المتوسط . ورغم أن مولسبري كان

Ensor, pp. 198—199.

(١)

Herzfeld, Hans, Die Moderne welt, I Teil, p. 238.

(٢) أنظر :

German Diplomatic Documents vol. II, p. 55.

(٣)

(٤) هكذا أخبر Torielli ، السفير الإيطالي في لندن ، زميله الألماني Hatzfeldt -

هاتزفيلد إلى الخارجية الألمانية ، ٢٦ مارس ١٨٩١ - سري -

Germa. Dip. Doc. II, p. 94.

يُشعَى الاستقرار في تقارب أشد مع إيطاليا ومع الحلف الثلاثي بالتالي ،
فالتوثان لم تصلا - في هذا المجال - إلى اتفاق محدد (١) .

ورغم ان سياسة سولسبرى المتميزة بالصدافة الواضحة مع الحلف
الثلاثي قد استمرت بعد سقوط سولسبرى وبجىء روزبرى وزيراً للخارجية
(١٨٩٢) ، إلا أن هذه العلاقة الوطيدة لا تلبث أن تنهار في عام ١٨٩٦ -
ابان وزارة سولسبرى نفسه الثالثة . فحينما تولى روزبرى وزارة الخارجية
سنة (١٨٩٢) أخبر سفراء دول الحلف الثلاثي بأنه يعتزم الاستقرار في
سياسة سولسبرى ، وأبدى السفراء ارتياحهم الودى ازاء هذه البادرة
الطيبة منه . وهكذا استمرت الوزارة في اتباع سياسة الصداقة الواضحة
مع الحلف الثلاثي ، ولكن دون ارتباط أو وعد أو اتفاق محدد المعالم ،
وهذه كانت سياسة - كما كان يقول لورد جرائي - يمكن التخلّص
منها في أى لحظة (٢) . ومع ذلك فهذه العلاقة كثيراً ما كانت تُثير الرأى
العام الفرنسى ولا سيما في أوقات الاحتكاك بين البلدين ، فتكلم الصحافة
الفرنسية عن الحلف الثلاثي ناعته إياه بالحلف الرباعى (٣) .

وفي عام ١٨٩٦ تنهار هذه العلاقة بين إنجلترا ودول الوسط ، وهى
علاقة كما رأينا قد نمت وقويت بعناية منذ عام ١٨٨٧ ، وتحل محلها
هذه السياسة المشهورة عن البريطانيين : العزلة الرائعة Splendid Isolation .
ودواعى هذا التغيير معقدة في الغالب بعكس ما تبدو به لأول وهلة :
هناك ما يتعلق بالوزارة البريطانية . فالمعارضة بالنسبة لآراء سولسبرى
صارت أقوى كثيراً بعد عام ١٨٩٥ . بالإضافة إلى ذلك فقد حدث تغيير
في التفكير بشكل عام ، وبدا هناك احساس واضح في لندن بتصدع
الحلف الثلاثي . في نفس الوقت ، صارت برلين مقتنعة بمجىء عام ١٨٩٦

(١) ملحوظة بالمرجع السابق ص ٩٤ . أنظر أيضا الفصل الخامس بإيطاليا والبحر

المتوسط ، نفس المرجع ص ٩٥-١٠٧

(٢) Grey, Twenty-Five Years vol. I, p. 47.

(٣) Ibid. pp. 47 - 48.

بأن المناوصات مع إنجلترا كانت بمثابة مضیعة للوقت . كذلك كان لاتباع ألمانيا لسیاستها الاستعمارية Kolonialpolitik أثره فی ابعاد کلی المسئولين والرأى العام فی بريطانيا عن ألمانيا (١) . وكان ذلك فی الواقع یعنى انسیار اتفاقات البحر المتوسط .

وفیما عدا اتفاقات البحر المتوسط هذه . بقيت بريطانيا بوجه عام بعيدة عن المخالفات الأوروبية . وقد ارتفعت أصوات فی بريطانيا فی عام ١٨٩٨ تنادى بنبذ سياسة العزلة هذه (٢) ولكن عقدت بريطانيا لاتفاقيتها مع فرنسا (٢١ مارس ١٨٩٩) كانت نصراً لسیاسة العزلة « بالنسبة لبريطانيا . (٣) فالإنجليز قد اطمأنوا — بعقد هذه الاتفاقية — على مركزهم فی مصر ، ولم تعد بريطانيا . من وجهة النظر العسكرية . فی حاجة إلى تعضيد الدول الأخرى لها فی مصر . وهذا أنهت فاشودة فی الواقع ما تبقى من وفاق البحر المتوسط .

(١) أنظر Lowe, pp, 91 94.

(٢) Eubank, Keith, Paul Cambon-Master Diplomatist, p. 64.

(٣) Taylor, p. 382.

ثبت الاعلام

- ادملى Iddesleigh وزير الخارجية الانجليزية فى وزارة سولسبرى الثانية
خلفه سولسبرى فى وزارة الخارجية فى يناير ١٨٨٧ .
- بسمرك Bismarck مستشار الرايخ الالماني (١٨٧١ - ١٨٩٠) .
- بولانجييه Boulanger, Georges-Ernest وزير الحرب فى وزارتى فريسنيه
وجويليه (يناير ١٨٨٦ - مايو ١٨٨٧) .
- بيكونزفيلد Beaconsfield (Benjamin Disraeli) الرئيس الفعلى للوزارة
البريطانية (١٨٥٢) . رئيس الوزراء (١٨٧٤ - ١٨٨٠) (حصل على
لقب كونت بيكونزفيلد عام ١٨٧٦) .
- تشرشل Randolphe Churchill وزير مالية بريطانيا فى وزارة
سولسبرى الثانية (تكونت فى أغسطس ١٨٨٦) . استقال فى يناير ١٨٨٧
- تورنيلى Tornielli السفير الايطالى فى لندن .
- تيلور Taylor, A.J.P. مؤرخ بريطانى معاصر . عمل محاضراً فى الجامعات
البريطانية . كتب للصحافة واشتغل معلقاً على الأحداث بالاذاعة
البريطانية . له مجموعة من الأعمال الجيدة فى التاريخ الدولى .
- روبرت موريه Robert Morier سفير بريطانيا فى بطرسبرج .
- روبيان Robilant, General di وزير خارجية ايطاليا (اكتوبر
سنة ١٨٨٥ - ابريل ١٨٨٧) .
- سولسبرى Salisbury رئيس وزارة بريطانيا ١٨٨٥ - ١٨٨٦ ،
١٨٨٦ - ١٨٩٢ ، ١٨٩٥ - ١٩٠٢ .
- فرديناند Ferdinand of Coburg امير بلغاريا المنتخب (١٨٨٧) .
- فرى Ferry, Jules رئيس الوزارة الفرنسية ١٨٨٠ - ١٨٨١ . ١٨٨٣ -
١٨٨٥ . كذلك تولى الخارجية منذ ١٨٨٣ .
- فلورين Flourins وزير الخارجية الفرنسية ١٨٨٧ - ١٨٨٨ .

كالنوكى Kalnoky, Gustave وزير خارجية النمسا والمجر (١٨٨١ - ١٨٩٥).

كرسبي Francesco Crispi رئيس الوزارة الإيطالية (يوليو ١٨٨٧ - يناير ١٨٩١).

كورنى Corri السفير الإيطالى فى لندن

لابولاي Laboulay السفير الفرنسى فى بطرسبرج .

لاو Lowe, Cedric James محاضر فى التاريخ الدولى فى جامعة لندن (L.S.E.)

لوملى Lumley السفير البريطانى فى روما .

لوناي Launay السفير الإيطالى فى برلين .

ليارد Layars السفير البريطانى فى القسطنطينية .

ليونز Lyons السفير البريطانى فى باريس .

مارشال Marschall وزير خارجية ألمانيا (١٨٩١ - ١٨٩٧)

مالت Malet السفير البريطانى فى برلين .

مانشيني Mancini وزير خارجية إيطاليا (١٨٨١ - ١٨٨٥)

هاتزفيلد Hatzfeldt السفير الألمانى فى لندن .

هربت Herbette السفير الفرنسى فى برلين .

هوايت William White السفير البريطانى فى القسطنطينية .

وادنجتون Waddington السفير الفرنسى فى لندن .

مراجع البحث

(أولاً) باللغات الأوروبية :

BRUCE, MAURICE, The Shaping of The Modern World. Vol. I. London 1959
CRISPI, FRANCESCO "Politica Estera" (1876—1890).

"Questioni Internazionali" Traduction

Fr. de Grandchamp. Tunis 1913.

DOCUMENTS DIPLOMATIQUES FRANÇAIS 1ère. S., T. VI.

ENSOR, R.C.K., England 1870—1914. Oxford 1949.

EUBANK, KEITH, Paul Cambon - Master Diplomatist, Oklahoma, 1960.

GERMAN DIPLOMATIC DOCUMENTS, 1871—1914, Vol. II, selected and translated by F.T.S. Dugdale, London 1929.

GREY OF FALLODON, Twenty Five Years, Vol. I. London 1935.

HERZFELD, HANS, Die Moderne Welt, I. Teil, 1957.

LOWE, C. J., Salisbury and the Mediterranean 1886-1896, London, 1965.

MARDER, A., British Naval Policy 1880-1905, Mass. U.S.A. 1940.

MEDLICOTT, W.N., The Congress of Berlin And After (1878-1880), 1938.

TAYLOR, A. J. P., The Struggle For Mastery In Europe (1914-1918), Oxford 1954.

WILSON, BECKLES, L'Ambassade d'Angleterre A Paris (1814—1920), Paris 1924.

(ثانياً) باللغة العربية :

حسن صبحي : التنافس الاستعماري الأوروبي في المغرب (١٨٨٤ -

١٩٠٤) دار المعارف : الاسكندرية ١٩٦٥ .

محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الإنجليزي لمصر وموقف الدول الكبرى

ازاءه . القاهرة ١٩٥٢ .

محمد مصطفى صفوت : إنجلترا وقناة السويس (١٩٥٤ - ١٩٥٦) .

حوض وادى القطارة بليليا

دراسة جيومورفولوجية

للدكتور جوده حسين جوده

الوقع :

يدخل الجزء الأعظم من حوض وادى القطارة ضمن حدود محافظة بنغازى . وهو يشغل قسماً من أراضيها الشرقية المصبية التى تشمل الجزء الغربى من الجبل الأخضر . وتقدر مساحة الحوض بنحو ١٣٥٠ كم^٢ ، فيما بين خطى طول ٢٠ - ٢١ شرقاً ، وبين دائرتى عرض ٥٠ - ٥٣ - ٥٣٢ شمالاً على وجه التقريب .

ويقع الحوض فوق الدرجتين الأولى والثانية من الدرجات الثلاث التى يتكون منها الجبل الأخضر . وتبدأ الدرجة الأولى من ارتفاع ٣٠٠ متر على وجه التقريب ، وتشرف بحافة شديدة الانحدار قرب البحر إلى الشرق من طلمیة ، بينما تتراجع فى الغرب صوب الداخل بعيداً عن الساحل . وتمتد هذه الدرجة من المرج عبر الأبيار جنوباً لتختفى بالتدرج فى النطاق الصحراوى .

وبينما تتقارب خطوط الكنتور وتتراحم بين ارتفاعى ١٠٠ - ٣٠٠ متر فى شرق طلمیة بحيث لا يبدأ سطح الدرجة الأولى الا عند منسوب ٣٠٠ متر ، نراها تتباعد فى القسم الغربى المشرف على سهل بنغازى بالتدرج فى اتجاه الجنوب . وابتداء من دائرة عرض الأبيار - عين زيانة تنفرج الخطوط فى فواصل أفقية فسيحة تاركة القرصة لنشوء مسطحين هضبيين هما من الغرب نحو الشرق : هضبة بنينه (بين خطى ارتفاع ١٠٠ - ٢٠٠ متر) وهضبة الرجة - الأبيار (بين خطى ارتفاع ٢٠٠ - ٣٠٠ متر) .

ويقع نحو ثلاثة أرباع حوض التصريف المائي لوادى القطارة فوق هذه الدرجة الأولى التى تشمل حصاب بنينة والرجمة - الأبيار ومساحة واسعة شرق الأبيار حتى كنتور ٤٠٠ متر . أما الربع الباقي من الحوض فيقع فوق أرض الدرجة الثانية التى تبدأ من ارتفاع نحو ٤٠٠ متر : وتمتد إلى منسوب ٦٠٠ متر حيث يقع نطاق تقديم المياه فى أقصى الشرق (شكل ١)

البناء الجيولوجى :

أقدم الصخور التى أمكن اكتشافها فى حوض القطارة تنتمى العصر الكريتاسى . وهى مخزر جيرية مندرجة تكتنفها العقد السيلامكية بالإضافة إلى مخزر جيرية مارلية طباقية . وينحصر وجودها جميعاً فى أعلى الحوض .

وترتكز الصخور الايوسينية غير متوافقة فوق الصخور الكريتاسية ، وهى تتركب فى أعلى الحوض من مخزر جيرية صلبة تتخز قليلاً من الرمال وتميل نحو الجنوب الغربى ميلاً هيناً بين ١ - ٤ ° وفوقها فى شرق الحوض ، ترتكز مجموعة صخرية أخرى تنتمى للايوسين أيضاً ، لكنها تتكون هذه المرة من طبقات جيرية رمالية مارلية لينية ، تتداخل فيها مستويات من المارل وطبقات رقيقة من الصخور الرملية الجيرية ، وتميل هى الأخرى نحو الجنوب الغربى بزوايا تتراوح بين ١ - ٣ ° .

وبالانحداد غرباً تغطى الصخور الايوسينية بطبقات ميوسينية تتناثر مكشوفة فوق السطح . وهى فوق هضبة الرجمة - الأبيار تتمثل فى صخور جيرية دولوميتية ومارلية . لونها رمادى إلى أبيض ، وكلها صخور لينية أصهارها المتحلل . وتخرى بين طبقاتها عدسات من الجبس خاصة فى مستوياتها العليا . ويحدد الجبس الذى ينقل لمصنع الأسمنت الحديث (بدأ الانتاج فى أواسط مارس ١٩٧٢ بمعدل يومى قدره ٦٠٠ طن) فى موقع الحواري على طريق سائق على بعد ٩ كيلو متر جنوب مدينة بنغازى .

وتتمثل مخزر الميوسين ظاهرة فوق سطح هضبة بنينة فى أحجار جيرية دولوميتية لينية نوعاً . لم يصعب التحلل الا قليلاً .

أما جزء الحوض الواقع ضمن سهل بنغازى فيتتركب من صفور
ميوسينية ، طبقاتها العليا المكونة من الصخر الجبرى الدولوميتى والمارلى
تنتمى لأواسط الميوسين . وطبقاتها السفلى التى تتركب من المارل الأنخضر
والحجر الجبرى الرملى المارلى ترجع إلى الميوسين الأسفل .

الظواهر التكتونية :

من المعتقد أن منطقة الجبل الأنخضر تعانى من تسمية رفع رأسية بطيئة ،
بدأت منذ عصر البلايوسين ، وما تزال مستمرة حتى وقتنا الحاضر .
وفى أثناء مراحل الرفع نشأت نظم من الكسور أو الصدوع الاقليمية مكونة
لطاقات ضعف فى الصخور الرسوبية الحديثة . وفى نقاط الضعف هذه
تدفقت المياه سطحياً وباطنياً . ومما زاد من تآكل فعلها التآكل .

وفى مجال حوض القطار لا يستقيم من الكسور سطحياً سوى شقوق
منزودة ضحلة نوعاً تملأها الرواسب الصلصالية وارسابات الكالسيوم ،
وهى فى معظم الأحيان قصيرة المدى . ولا يتعدى امتدادها ٢٥ مترأ . أما
الكسور السفلى فى الطبقات الايوسينية ففى ظهور وأعظم أبعاداً .

ولما كانت رقعة الحوض تقع ضمن إقليم غير مستقر أخذ فى الارتفاع
لبطء ، فإنها تتعرض أيضاً خزات زلزالية بين حين وآخر . وعلى الرغم
من أن الزلزال المدر الأخير الذى أصاب منطقة المرج (خارج حدود
الحوض) فى عام ١٩٦٣ ، لم يزل مساحة الحوض بالتخريب ، الا أنه يمكن
اعتبار منطقة الحوض نشيطة من الوجهة السيسمولوجية ، وللزلازل أثرها
فى احداث الانزلاقات الأرضية وتهلل واجهات المنحدرات على جوانب
الأودية

جيومورفولوجية الحوض

١ - الظاهر العام للسطح :

يتميز حوض وادى القطار سواء منه الجزء فوق الدرجة الثانية

والأجزاء الواقعة فوق الدرجة الأولى بسطوح موجهة تموجاً هيناً . وتقل فيه ظواهر التضرس ذات الانحدارات الشديدة . وفوق هضبة بنينة والرجمة كثيراً ما نشاهد أسطحاً منبسطة تتغطى بغطاء رقيق من الرواسب الصلصالية الحمراء أو التيراروسا .

وتتميز بهذه الأسطح المنبسطة هضبة بنينة على وجه الخصوص . فنيا بين بُر بوليات Bu Layat وبلدة بنينة وإلى الشمال منها ، تمتد الهضبة فيما يشبه سهلاً فسيحاً منبسطة يبدأ من حضيض حافة الرجمة إلى خط كنتور ١١٠ متر . بحيث لا نكاد نحس انحداراً ، ولا نشاهد أية انتفاخات أو بروزات أو تموجات سطحية الا قليلاً .

وتختلف عن ذلك هضبة الرجمة . فبجانب الاستواء الذي تبدو به بعض أجزائها . نجد السطح مموجاً في هيئة ربوات مستديرة التسم هيئة الانحدار تحيط بها وتتحصر بينها منخفضات فسيحة ضحلة . وحين تقطع الهضبة في اتجاه شمالي جنوبي نهر الحديد من مجارى الأودية التي تأخذ مسالكها اتجاهاً عاماً من الشرق نحو الغرب . ومجارى الأودية ضحلة هيئة انحدار الجوانب فوق الهضبة ، لكنها تشتد عمقاً وانحداراً حين ينشط النحت الرأسى في اتجاه الغرب إذ تأخذ في الهبوط من نطاق حافة الرجمة إلى هضبة بنينة . وتبدو هذه الظواهر من الجو شديدة الوضوح .

وفي ظروف المناخ الشبه جاف الحال وبتأثيرات التغيرات الحرارية والمياه السطحية النصبية ، تتحلل أسطح الصخور ببطء وتتحول إلى صلصال بني محمر . والعملية ليست متساوية في نطاق الخوض ، كما تتنوع في كثافتها . ويمكن أن نشاهد تدرجات من الصخور الجيرية الدولوميتية النقية التي تبرز عارية في بعض المواضع خصوصاً فوق قمم الربوات وعلى منحدراتها وعلى جوانب الأودية ، إلى النتاج النهائي لعمليات التحلل في التيراروسا التي نجدها مستقرة في بطون المنخفضات .

وما دام حوض القطارة يتميز بسطوح هيئة التوج ، وتقل فيه ظواهر

التضرس ذات الانحدارات الشديدة ، فانه يمكن القول عامة بأن أرضه المكونة من صخور جيرية تغطي بغشاء رقيق من الفتات الصخرى المتحلل ومن التيراروسا ، ويعظم سمك التربة الحمراء في التجاويف الكبيرة حتى ليصل إلى ثلاثة أمتار أو أكثر في قيعانها .

وتتأثر الرياح فعلها كعامل نحت ونقل وارساب . كما أن فعل التعرية المائية مؤثر ، رغم فصلية الأمطار وقلتها نسبياً . ويتميز المطر بسقوطه في هيئة وابل ، ومن ثم فإن الجريان السطحي سريع رغم قصر أمده . وهو المسئول عن نقل حبيبات الصلصال والرمل إلى مجارى الأودية . الرئيسية حيث يتم ترسيبها في قيعانها وعند شارجتها . كما أن للجداول الصغيرة وزحف التربة أهميتها في تدفق المواد على جوانب الروابي إلى التجاويف والمنخفضات .

٢ - الظواهر الكارستية :

ويمكن القول بأن خطوط الكسور ونطاقات الضعف الاقليمية المشار إليها كانت بمثابة مسابقة جرت في اتجاهاتها المياه السطحية ومن بعدها المياه الجوفية . وبمقتضاها نجد الشبكة الهيدروجرافية ذات توجيه منتظم يمتشى مع المجارى الرئيسية في اتجاه عام شمالي شرقى - جنوبى غربى . وحين نبدأ في الشرق بحضيض حافة الدرجة الثانية ، نلاحظ نطاق ضعف يمتد من اقليم المرج إلى الأبيار وعبرها جنوباً بغرب . وعلى امتداد هذا النطاق كان من السهل على المياه السطحية أن تتداخل وتتسرب بسهولة في تكوينات الصخور الجيرية اللينة ، وتعمل على تحليلها وإذابتها . ومن ثم أنشأت حقلاً كارستياً ضخماً في منطقة المرج ، كما كانت حقولاً آخرين كبيرين قرب الأبيار .

ويتبع حقلاً الأبيار حوض وادى القطارة . وهما حقولان مستطيلان ضخمان يمتدان بطول كسرين اتجاههما العام شمالي شرقى - جنوبى غربى وفى مراحل تكوينهما الأولى كان لتسرب المياه السطحية الأهمية الكبرى في نموها . وقد اضمحل الآن تأثير المياه السطحية بعدما غطى الحقولان

بغطاء سميك من الرواسب الصلصالية الضعيفة النفاذية ، ولذلك فقد تناقص تسرب المياه إلى أدنى حد ، وأصبح للجريان السطحي والبحر أهميتهما في الموازنة المائية للمنطقة .

ولا شك أن نظم الكسور الاقضية التي نشأت بتأثير رفع الجبل الأخضر لها أهميتها الخاصة في نمو ظاهرات الكارست . ففي الصخور الجيرية الايوسينية والميوسينية اللينة ، كان يكفي أن تتفتح أصغر الكسور ، فتسرب المياه خلالها بسرعة محنة ومذيبة للجير ، وبذلك توسع الشقوق والفوهات والكهوف والشقوق ، وتشكلها في كهوف وقنوات باطنية .

ويمكن القول بأن نفاذية الصخور المكونة لأرض الحوض من نمطين من حيث النشأة : أولها يتمثل في مسامية الصخر الجيري كعنصر أساسي في بنائه . ويعززها أن قسماً عالياً من تلك الصخور ، خصيصاً منها المكونة لنبهة الرحمة . يدخل في تركيبها نسبة كبيرة من الأصداف البحرية التي ماتت لصخر نسيجاً مسامياً اسفنجياً . واتخذ الثاني يتمثل في التواصل التي تنظم في مجاميع تتعامد على سطوح الانفصال الطبقي بالاضافة إلى الكسور التي أنشأتها حركة الرفع التكتونية . ولذلك فإن الصخور الجيرية اللينة التابعة لعمرى الايوسين والميوسين تعمل كموصل جيد للماء الجوفي .

وينتشر وجود الشقوق السطحية في أراضي الحوض ، وهي وإن كانت قليلة الأبعاد . ولا تعدى في الصخر لأكثر من بضعة أمتار قليلة لا تزيد على خمسة ، إلا أن أهميتها الكبرى تتمثل في أنها بمثابة المجمعات الأولى للمياه السطحية التي ما تلبث أن تغور وتجد لها مسالك خلال الكسور التكتونية والتراكيب الصخرية المنفذة .

وبالاضافة إلى الحقلين الكارستيين المشار إليهما في مشارف الأبيار ، ينتشر وجود الحفر الكارستية Karstholes . وأكبرها ما شاهدها في مشارف وادي الدهاية Dhabyiah ، وهو رافد أمن لوادي

القطارة بخصوصاً في الجزء الأدنى من المساحة الواقعة أمام موقع سد وادي القطارة الرئيسي فيما بين الوادي وبلدة الرحمة ، ثم في منطقة تقسيم المياه شمالى موقع « قبر محطات » Mahattat ، وإلى الجنوب الغربى من ذلك الموضع الواقع على الطريق بين الرحمة والأبيار . وهناك بعض من تلك الحفر الكبيرة فيما بين الطريق المشار اليه ووادي القطارة الرئيسي . ويبدو أن الحفر الصغيرة نسبياً انما نشأت عن طريق اذابة الماء السطحى ، وشكلها قمعى في الأغلب الأعم ، ففى من نوع الدولينا Dolina . أما الحفر الكارستية الكبيرة فقد نمت نتيجة اندهور أسقف قنوات وكهوف باطنية في تلك المواضع .

وتعتبر لأشكال الكارستية التى سبق ذكرها مثالية للصخور الجيرية دولوميتية اللينة التى يتربك فيها القسم الأكبر من حوض وادي القطارة . أما الصخور الايوسينية في القسم الشرقى من الحوض ، فانها تكاد تخلو من الأشكال الكارستية السطحية . وكل ما يمكن أن يشاهد فيها مجرد حفر وحيزوز مسطحة صغيرة الأبعاد .

هذا ويخلو الحوض من وجود بالوعات Swallow holes ذات أهمية كبيرة في تسرب المياه وفقدانها . وفي قاع الجزء الأدنى من وادي القطارة وإلى الشرق من مدينة بنغازى توجد بعض الكهوف والحفر الكارستية الصغيرة نسبياً خلالها تسرب المياه بكميات صغيرة ، ولكنها ليست بالبالوعات الحقيقية .

٣ - وادي القطارة :

يبلغ طول وادي القطارة الرئيسى بقسمه الأعلى المسسمى «رقبة الناقة» حتى مصبه في البحر جنوب مدينة بنغازى نحو ٥٢ كيلو متر . وإذا ما نظرنا إلى الخريطة (شكل ١) سنجد امتداداً له في رافده الكبير «الباكورة» الذى يبلغ طوله - مناساً على الخريطة - أكثر من ٣٠ كم .

ولوادي القطارة أهمية خاصة ، فهو أطول الأودية التى تنصرف إلى

الغرب ، وأحد واديين يتجهان في عبور سهل بنغازى ويصلان إلى البحر (الثانى هو وادى السلايب ويصب في البحر جنوب بلدة توكرة) . وأهم من هذا وذلك شهرته بفيضاناته الخطرة . ففى بعض السنين التى تتميز بغزارة المطر تتدفق المياه فيه سريعة عارمة وتصل إلى ضواحي مدينة بنغازى فتصيبها بأضرار جسيمة .

وقد تكررت هذه الفيضانات فى أعوام ١٩٣٨ ، ١٩٥٤ ، ١٩٦١ . ١٩٦٧ . لهذا نشأت فكرة انشاء سدين على الوادى : الرئيسى منهما عند موقع «بوسديرة» ، والثانى عند موقع بئر بوليوات . وقد تم بناؤهما فى فبراير ١٩٧٢ . ووظيفتهما تخزين المياه لوقاية مدينة بنغازى من غوائل الفيضانات الخطرة ، ثم الاستفادة من المياه المخزونة للرى والزراعة فى محيط كل من مدينة بنغازى وبلدة بنينة ، وذلك عن طريق تغذية وانحاء الماء الباطنى من جهة ، وبالمياه السطحية التى يتم حجزها أمام السدين من جهة أخرى . وقد أنشئت سبعة سدود فرعية عند مخارج الروافد الرئيسية الوادى من هوامش الدرجة الثانية ، ووظيفتها تعطيل تدفق المياه إلى مجرى الوادى الرئيسى والاقبال من ورود الرواسب إلى بحيرة التخزين أمام السد الرئيسى .

وتوجد الوادى أودية عديدة تتباين فى أطوالها (شكل ١) . وهى فى الجزء الأعلى من الحوض تجرى فوق أرض شديدة الانحدار نسبياً وتتركب فى معظمها من صخور المارل ، ولهذا نجد الأودية عميقة شديدة انحدار الجوانب ، إذ غالباً ما تصل درجة الانحدار إلى ٣٠° وأكثر . وفوق هضبة الرحمة يجرى الوادى وروافده فوق أرض جيرية دولوميتية مارلية هيئة الانحدار نوعاً (شكل ١ ، لاحظ الفاصل الأفقى على امتداد الوادى جنوبى الأبيار حتى قرب موقع السد الرئيسى) ، ولهذا ترى قيعان الأودية ، ومنها قاع الوادى الرئيسى . ضحلة هيئة انحدار الجوانب (نحو ١٠°) أما حيث يجرى وادى القطار قاطعاً حافة الرحمة إلى هضبة بنينة ، فإن

المياه قد استطاعت قطع الصخر ونحره في هيئة خائق عميق يصل عمقه إلى نحو ١٢٠ متراً .

وتتكون حمولة القاع في الجزء الأعلى من الوادى حيث الانحدار أكبر من تكوينات خشنة من الحصى المستدير وشبه المستدير ، بالإضافة إلى حبيبات صخرية جيرية أصغر حجماً . وحيثما يقل الانحدار تحمل المواد الرملية الحصوية محل التكوينات الخشنة ، ثم تتحول في الجزء الأوسط إلى مواد صلاصالية . وإلى هذا الجزء تأتي كميات كبيرة من المواد الطينية عقب سقوط الأمطار ، تجلبها إليه مياه السيول . ويخلف السد الرئيسى (موقع بوسديرية) يغطى قاع الوادى غطاء سميك من الرواسب الطينية السيلتية القليلة اللزوجة يصل سمكه إلى أكثر من ٨ متر ، أسفله تقع طبقة سميكة أخرى من رواسب غير متجانسة من الطين الرملي المختلط بالحصى والحصباء (شكل ٢) .

وفي الشقة المحصورة بين موقعى بوسديرية وبوليات حيث يشند انحدار الوادى الرئيسى وتعظم انحدارات الأودية المنصرفه إليه ، نجد حمولة القاع خشنة جداً ، وهى ترى متراكمة في هيئة مخروطات عند مصبات الروافد في الوادى الرئيسى ، وتتركب من حصى كبير الحجم وككل صخرية يصل قطرها إلى ما بين ١,٥-٢ متر . والحصى ردىء الاستدارة إلى شبه مستدير ويصل قطره إلى نحو ٣ سم ، وتختلط به كثير من المواد الطينية والغرينية . وحين نتبع مجرى الوادى الرئيسى بعد موقع بوليات خلال هضبة بنينة نلاحظ قلة تدريجية في وجود رواسب حمولة القاع ، وتختفى نهائياً جنوب غربى الموقع المذكور بنحو أربعة كيلو مترات .

وتتميز جوانب الوادى الرئيسى فوق هضبة الرجمة بكثرة وجود الظواهر الكارستية ، فهناك عدد كبير من التجاويف ، والحفر والكهوف ويرتبط وجودها بشقوق وكسور ضحلة توازى جوانب الوادى . وعلى امتدادها تمارس المياه فعلها فتحلل الصخر الجيرى منشئة لتلك الظواهر . وقد أمكن في بعض المواضع التعرف على بقايا عدسات من صخر الجبس الذى أذابه

مياه الوادى . فتكون مكان تلك العدسات عدد من الكهوف . وكل هذه الأشكال الكارستية صغيرة الأبعاد . فأعماق الكهوف لا تزيد على عشرة أمتار . وتحلو جوانب الوادى التى تتركب من الصخر الجبرى الدولوميتى المندمج من مثل هذه الظاهرات . اللهم الا من بعض الشقوق الضحلة .

ويتميز وادى القطارة الرئيسى بنى قرب موقع بوسديرة بانحدارات هينة ، ويبدو أن الكسور والشمزق الصخرية هى التى حددت مسلك الجبرى ونحر الوادى منذ البداية . ويتباين عرض الوادى من جهة لأخرى ، فهو على بعد نحو ١٥ كم من بوسديرة يصل عرضه إلى خمسة كيلو مترات ، وإلى الغرب من ذلك بنحو ٣ كم يضيق إلى نحو ١٥ كم . ثم يأخذ فى الضيق التدريجى بالاتجاه غرباً حتى فصل إلى بوسديرة (موقع المد الرئيسى) فيصل العرض إلى نحو ٥٥ متراً . ويتميز رافده الأيمن الرئيسى الذى يتصل به قرب موقع بوسديرة المدعى الدهابية بنفس الصفات . فهو الآخر عريض فى أعاليه وأواسطه (بين ١ - ٢ كم) . ثم يضيق على بعد ٣ كم من مصبه . ويتضاءل العرض إلى ٩٠٠ متر ثم إلى ٥٠٠ متر . ومثل هذا يقال أيضاً عن رافدة الأيسر وادى المسنا .

ويمكن تفسير هذا الاختلاف فى عرض الوادى الرئيسى وروافده بالتباين فى قدرة عمليات التعرية المائية فى طبقات من الصخور الجبرية التى تتفاوت فى درجة صلابتها ومقاومتها . ففى الأجزاء العليا والوسطى من مسالك الأودية فوق حوضه الرجة تجرى المياه فوق نطاق تقوى (على ارتفاع يزيد على ٢٢٠ متر) تتركب من الحجر الجبرى الدولوميتى الصلب ، وما دامت الانحدارات هنا أيضاً هينة فإن المياه لا تقوى على التحت الرأسى ولهذا نجد قيعان الأودية ضحلة وعريضة . ويبدو أن التحت الجانبي كان وما يزال أنشط ، توارزه عمليات الاذابة فى مستويات الضعف التى تتمثل فى سطوح الانفصال الطبقي على الخصوص . ويبدو أيضاً أن أثر التجوية فعال ، فنحدرات جوانب الأودية هينة لا تزيد فى العادة على ١٥° .

وبالاتجاه نحو أداني الروافد ، ونحو موقع بوسديرة على الوادى الرئيسى تنحدر المياه هذه المرة فى طبقات سفلى من الصخر الجيرى المارلى الدولوميتى . وبدخول المارل كعنصر مكون للصخر يمنحه الليونة والضعف ، بالإضافة إلى زيادة ملحوظة فى الانحدارات . ولهذا وذلك ينشط النحت الرأسى ويزداد وضوحاً ، وتبدأ الأودية فى اتخاذ شكل الخواثق التى يشتد انحدار جوانبها حتى لتصل فى الجوانب المقهرة من منعطفات الشباب إلى أكثر من ٣٠° .

وفى الشقة المحصورة بين موقع السد الرئيسى (بوسديرة) وموقع السد الثانوى (بوليات) والى يبلغ طولها على امتداد الوادى زهاء ١١ كم مهدت الشركة التى أنشأت السدين طريقاً على امتداد الوادى يصل بين الموقعين . ومن ثم أمكننا تتبع الوادى ودراسته دراسة تفصيلية فى مسلكه هذا ، بالإضافة إلى جزء يسير غربى السد الثانوى .

يصنع وادى القطاية ستة منعطفات فى الشقة المحصورة بين موقع بوسديرة وبولات . وهى كلها منعطفات شباب . وينحنى الوادى أمام موضع السد الرئيسى صوب اليمين ، ثم ينثنى فجأة جهة اليسار خلف السد . والجانب الأيسر فى هذا المنعطف يمثل القوس المقعر حيث يشتد النحت والانحدار ، بينما الجانب الأيمن يمثل القوس المجدب حين الانحدار (أنظر القطاع شكل ٣) .

وتتركب جوانب الوادى من صخور جيرية دولوميتية تنتظم فى طبقات سمكية أفقية ، وهى صخور مسامية لينية ، وتحتوى كثيراً من الحفرىات التى عززت من خاصية نفاذيتها ، كما أنها تبدو متحاللة إلى حد كبير . وعلى كلا جانبي الوادى يستبين مظهر طبقة سمكية نوعاً بين ارتفاعى ٢٣٠ - ٢٤٥ متر على وجه التقريب ، تتركب من صخور المارل الجيرية اللينة السيئة الطباقية . وتتراوح انحدارات الجانب الأيمن بين ١٠ - ١٥° ، بينما يشتد الانحدار على الجانب الأيسر المقعر ، ويتراوح فى مختلف أجزائه بين ١٥ - ٣٠° .

وتبدأ كل منحدرات المنعطفات ، سواء منها الأقواس المحدبة والمقعرة ، في أعاليها بتحدب ظاهر . ثم تستقيم في قسمها الأوسط ، وتتقعر عند أسافلها . ويرجع التحدب العلوى هنا إلى ظروف التضرس وطبيعة الصخر الجبرى ومعاناته لظروف مناخية شبه جافة . ففي أثناء الصيف الطويل الجاف تنشط عمليات التجوية الميكانيكية ، وتؤازرها التجوية الكيميائية بحلول الفصل الرطب . وإن أية زاوية يصنعها صخر متجانس التركيب ، وهو الجبرى في حالتنا هذه ، وتغزوها التجوية من جانبيها تتحول بالتدريج إلى هيئة محدبة . يضاف إلى ذلك عمليات زحف التربة التى تنشط شتاء حين يتساقط المطر ، وتتحرك مكونات التربة نحو قاع الوادى . ولا شك أن استمرار انكشاف الصخر المكون لأعلى المنحدر يعرضه لعمليات التجوية فيترجع ويستدير .

وظاهرة الأجزاء المستقيمة من منحدرات الوادى صفة تميزه كغيره من الأودية التى تجرى خلال تضاريس مرتفعة . وهى تنشأ عن طريق تراجع المنحدرات ، وينغليها غطاء رسوبى رقيق يعرقل عمليات التعرية . بينما قد نشأ التقعر السفلى لمنحدرات جوانب الوادى بفعل الجداول المائية ، التى تتلاحم وتمارس تأثيراً تحاتياً وناقلاً .

وابتداء من أعلى منحدر الجانب الأيسر للوادى عند موقع بوسديرة ينحدر السطح بزاوية مقدارها نحو ٢٥° حتى منسوب ٢٤٥ متر ، وعلى الجانب الأيمن وحتى نفس المنسوب يتضاءل الانحدار إلى ربع هذا القدر . ويمكن للمشاهد أن يرى عدداً من جزوز التعرية المائية متوازية ، ويستطيع أن يميزها من بعيد بخطوط من النبات تنمو على امتدادها فى تربة رقيقة صلصالية (شكل ٤) .

ويبدو على الجانب الأيسر فيما بين منسوبي ٢٤٥ - ٢٣٠ متر نطاق تعرية مائية واضح يتفق وجوده مع مظهر طبقة المارل الجبرية اللينة . ويفترش هذا النطاق أو هذه المصطبة غطاء بلايوستوسينى رقيق من الرواسب

غير المتجانسة التي تتركب أساساً من الصلصال الأحمر ، الذي تتداخل فيه كتل من الصخر الجيري مختلفة الأحجام . ويتراوح سمك هذا الغطاء بين ١ - ٣ متر .

ويصعب التعرف على ما يقابل هذه المصطبة على الجانب الأيمن . فهنا يبدو سطح مظهر الطبقة المارلية الجيرية مستقيماً ، ويتغطى بطبقة مقطعة رقيقة من نفس الرواسب يتراوح سمكها بين ٢٠ - ٤٠ سم . وبينما يواصل الجزء المستقيم من منحدر الجانب الأيمن للوادي استمراره بغطائه البلايوسينيني الرقيق حتى منسوب ٢١٧ متر ، نرى قطعاً شديد الانحدار على الجانب الأيسر للوادي ابتداء من منسوب ٢٣٠ متر وحتى منسوب ٢١٧ متر ، وعلى امتداد القطع يبدو الصخر الجيري مكشوفاً عارياً تماماً .

وابتداء من أسفل القطع وحتى منسوب ٢٠٢ متر تقريباً يتضح وجود مصطبة يتراوح عرضها بين ٢٥ - ٤٠ متراً . وتمتد بطول الجانب الأيسر من الوادي . وتتركب تكويناتها من رواسب بلايوسينينية يبلغ أقصى سمك لها زهاء ٦ متر ، وهي تتركب من خليط من الصلصال والرمل والحصى . ونسبة الصلصال أكبر ، وتتداخل فيها كتل صخرية جيرية متفاوتة الأحجام . ولا تظهر تكوينات في هذه المصطبة على الجانب الأيمن إلا بسمك ضئيل لا يزيد على ٧٠ سم وترتكز هنا على طبقة من المحمعات الصخرية الجيرية المغمرة (الصلصال الأحمر هو المادة اللاصقة) يبلغ سمكها نحو ٥ متر . وأسفل منسوب ٢٠٢ متر على الجانب الأيسر ، وحوالى ٢٠٠ متر على الجانب الأيمن . وفوق قاع الوادي تراكت كميات ضخمة من الرواسب النهرية بسمك كبير يتراوح بين ١٤ - ١٧ متر . وهي تبدأ من أسفل بتكوينات حصوية وصلصالية تتداخل فيها كتل جيرية . وترتكز جميعاً على الأساس الصخري الجيري . ويعلو هذه التكوينات غطاء من الرواسب النهرية الأحدث يتراوح سمكه بين ٢ - ٦ متر . وفيه ينحدر القطارة مجراه الحالى إلى عمق يتراوح بين ١ - ٣ متر .

وينحدر قاع الوادى على امتداد مسافة نحو ١١ كم فيما بين بوسديرة وبوليات من ارتفاع ٢٠٢ متر إلى ارتفاع ١٥٥ متر تقريباً ، بمتوسط الانحدار قدره ٤,٧ متر لكل كيلو متر ، ويعظم الانحدار قرب بوليات حتى ليبدو الوادى فى هيئة خانق يصل عمقه إلى ١٢٠ متر . وتتميز الصخور الجيرية المكونة لجوانب الوادى فى هذه الشقة بكثرة التكرس والتشقق . وتمتد الشقوق موازية لامتداد جوانب الوادى . ويبدو أن المسالك الرئيسى الذى اتخذته التدفق السطحي فى الأصل قد سار على امتداد كسور مشابهة . ومع هذا فاننا لا ينبغي أن ننكر فعل الماء فى طبقات من الصخور الجيرية المتفاوتة الصلابة والمقاومة .

ويشتد انحدار الجوانب بالاتجاه نزلاً نحو بوليات . وهو انحدار حين على منحدرات الذايات المحدبة (١٠ - ٢٠°) ، وشديد على منحدرات الثنيات المقعرة (٢٠ - ٣٥°) . ومن الممكن رؤية مكونات انزلاقات أرضية فى أكثر من موضع ولكنها محدودة . وظواهر تحركات المواد على جوانب منحدرات الوادى شائعة نسبياً خصوصاً فوق المنحدرات المنحدنية المقعرة . ويفترش قاع الوادى غطاء رسوبى يرق بالاتجاه نزلاً نحو المصب نظراً لازدياد درجة الانحدار فى هذا الاتجاه . واشتداد قدرة التعرية المائية . وهو يتركب عموماً من حبيبات صلبة تحتل بها كميات كبيرة من الحصى والحصىاء . وتتداخل فيها كتل من الصخر الجبرى .

وقد أمكن تتبع عدد من أجزاء مدرجات نهريّة قديمة فيما بين منسوبى ١٨٠ - ٢٠٠ متر . وهى تظهر بوضوح حيناً وجدت أماكن مناسبة لحفظ تكويناتها . ويتكرر وجودها على جانبي الوادى فى كل المسافة المصورة بين بوسديرة وبوليات . وتظهر قطوع هراش المدرجات فى حالة جيدة فى بعض الأماكن بارتفاع يتراوح بين ٣ - ٤ متر ، ولكنها فى أماكن أخرى تبدو مشوشة وغير واضحة . ونختفى هنا وهناك فلا تكاد تبين (شكل ٥) .

وأكبر مصطبة أمكن تتبعها تقع بدايتها على الجانب الأيسر من الوادى على بعد نحو ١٢٠٠ متر شرق بوليات . ويتفاوت اتساعها ووضوح حافتها من موضع لآخر على امتداد طولها الذى يبلغ زهاء ٨٠٠ متر ، ثم تختفى وتعود إلى الظهور مرة أخرى على جانبي الوادى . وارتفاعها بين ١٨٠ - ١٩٠ متر . وتتركب رواسب المدرجات من تكوينات صلصالية رملية وحصوية وتتداخل بينها مستويات من الحصى والحطام الصخري الجبرى والحصى شبه مستدير ، وبعضه سيء الصقل والاستدارة .

وتتميز روافد الوادى فى هذا الجزء من حوضه بانحدارات كبيرة . وتجرى فيها المياه بسرعة كبيرة عقب هطول الأمطار الغزيرة ، وتكتسح معها كميات عظيمة من المواد الصلصالية والحصى والحطام الصخري . وعند مصباتها بالوادى الرئيسى وعلى مناسيب تضاهى مناسيب المدرجات النهرية القديمة السالفة الذكر توجد بقايا مراوح رسوبية قديمة يبلغ سمك أكثر من ٦ متر . وتتركب من مواد غير متجاسة من الحصى والحطام الصخري المختلط بالصلصال ، وكلها تبدو متآكلة من تأثير عمليات التجوية وتغطيتها طبقة رقيقة أحدثت من الصلصال والحصى .

ويضيق قاع الوادى عند بئر بوليات فلا يتعدى اتساعه ٦٠ متر (شكل ٦) . وهو هنا عند نطاق مخرجه من هضبة الرجة إلى هضبة بنينه يصنع منعطفاً صغير الحجم نوعاً ، بجانبه الأيمن حين الانحدار (نحو ١٠) وجانبه الأيسر شديد الانحدار (٣٥° فى المتوسط) . وبالإضافة إلى بقايا رسوبية رقيقة السمك لمصطبتين متقابلتين على الجانبين بين منسوبى ١٩٠ - ١٨٠ متر ، يوجد نطاق تعرية على الجانب الأيسر بين منسوبى ١٧٠ - ١٦٠ متر مغطى بغطاء نيميك من الرواسب يمثل مصطبة أحدث .

وقد شقت شركة مشروع القطارة خندقاً على امتداد عرض المصطبة بلغ طوله ٢٠ متراً وعمقه ٣ متر للتعرف على ليشولوجية التكوينات . وتبين أنها تتركب من صلصال رملى يخلط بالحصى والحطام الصخري الجبرى .

والتكوينات في معظمها حشة ضعيفة التماسك ومتحللة ومتآكلة بفعل التجوية ويقابل هذه المصطبة على الجانب الأيمن مصطبة على نفس المنسوب دينة الانحدار ، وتتغلى بغطاء رقيق من الصلصال والرمل والحصى . ومن الممكن الوصول إلى الصخر الجيري الأساسي ورؤيته على امتداد هذا المنحدر الأيمن بالحفر الضحل ، بل انه يبدو مكشوفاً في أكثر من موضع .

وابتداء من منسوب ١٦٥ متر على الجانب الأيمن ، ومنسوب ١٥٥ متر على الجانب الأيسر يفتش قاع الوادي غطاء رسوبي يزداد خشونة بالعمق ، ويبلغ أقصى سمكه نحو ٩ متر . ويرتكز على الأساس الصخري الجيري الدولوميتي اللين . وفيه تشق المياه حين سقوط المطر مجرى أشبه بخندق قائم الجوانب عمقه يصل إلى مترين .

ويمتد قاع وادي القطار بين موقع بوليات «وحوش الهوارى» فوق أرض تتركب من الصخور الجيرية الميوسينية التي أصابها العمليات الكارستية بقدر معتدل . وعلى كلا جانبي الوادي عند مغرجه إلى هضبة بنينة ، وحتى مسافة تقرب من ٢ كم غرباً توجد بقايا مروحة رسوبية تتركب من تكوينات غير متجانسة من الصلصال والحصى واطظام الصخري وتمتد شمالاً وجنوباً بين كتوري ٢٠٠ - ١٧٠ متر .

ويسير وادي القطار فوق هضبة بنينة وسهل بنغازي اما فوق أرض صخرية أو حصوية أو يخرق أراضي تتركب من التيرا روسا ، والأخيرة تبلغ سمكاً كبيراً خصوصاً على جانبه الأيسر . ويبدو من المحسات التي أجرتها شركة القطار في الشقة الممتدة من حوش الهوارى حتى الساحل أن تكوينات التيرا روسا تصل إلى سمك أقصاه ٧.٥ متر . وفي موقع الهوارى شاهدنا محجراً يستغله مصنع الأسمنت . وفيه يبلغ سمك طبقة التيرا روسا ٦ متر . وترتكز على أساس من الصخر الجيري الميوسيني الناصع البياض .

وعلى الرغم من صعوبة التعرف على تكوينات مدرجات قديمة في هذه المسافة من مجرى الوادي ، الا أنه يتضح وجود بقايا مروحة رسوبية قديمة

يجرى تجديدها باستمرار بواسطة الوادى عند حضيفض حافة هضبة بينه . وعند منسوب ٦٠ متر حول موقع «ميدى مفتاح العقيلي» تنتشر تكوينات حصوية خضنة . وفيما بين منسوب ٤٥ - ٣٥ متر توجد رواسب نهريّة حصوية حفرت فيها شركة القطارة مجساً يستبين منه أن سمك تلك الرواسب يصل إلى ٢,٥ متر . وفي النطاق الساحلي وعند منسوب ٨,٥ متر حفرت الشركة مجساً آخر وصل بعد سمك من التيرا روسا يبلغ نحو ١,٥ متر إلى تكوينات بحرية من الصخر الرملي اللين ، والصلصال الرملي سمكها حوالي ٧ متر . وترتكز عند منسوب البحر على مارل أزرق صلب ميوسيني العمر .

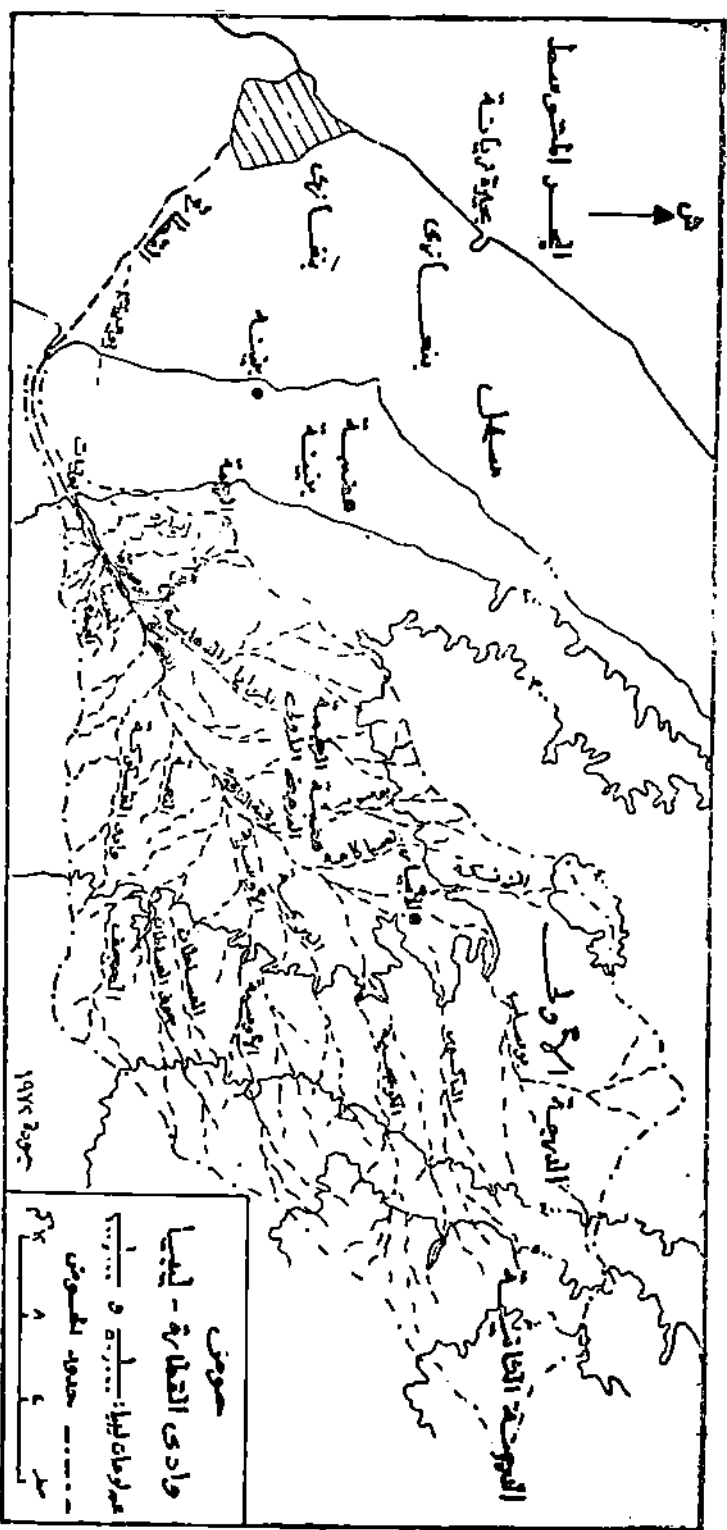
من هذا العرض السابق يتبين لنا بوضوح وجود تسعة مدرجات نهريّة تقع على جوانب الوادى الرئيسي ابتداء من قسمه الأعلى المعروف باسم رقبة الناقة حتى مصبه في البحر (انظر الجدول رقم ١) .

ولكى نستكمل الدراسة رسمنا قطاعاً طويلاً لقاع الوادى الرئيسي من واقع لوحات ليبيا مقياس ١ : ٥٠٠٠٠ ثم صغرنا القطاع إلى مقياس ١ : ١٠٠,٠٠٠ ثم إلى ١ : ٢٠٠,٠٠٠ في محاولة لاستكشاف نقاط تجديد الشباب ومقارنتها بمناسيب المدرجات النهريّة . ومن القطاع (شكل ٧) تظهر تسع نقاط واضحة عند المناسيب التالية على التوالي : ٢١٠ متر ، ١٩٠ متر ، ١٧٠ متر ، ١٣٠ متر ، ٨٠ متر ، ٦٠ متر ، ٤٠ متر ، ٣٠ متر ، ١٠ متر . وعلى الرغم من أن نقاط تجديد الشباب على القطاع الطولى لنهر تعتبر مشيراً لتغير في مستوى القاعدة ، وهو بالنسبة لوادى القطارة منسوب البحر ، إلا أنه يستحيل الاعتماد عليها وحدها ، نظراً لصعوبة التعرف على قوس القطاع السالف وامكانية عدم انتظامه أصلاً من جهة ، ثم ان قطاع وادى القطارة لا بد وقد تأثر أيضاً بعمليات الرفع النشيطة التي أصابت حوضه كجزء من الجبل الأخضر ابتداء من عصر البلايوسين .

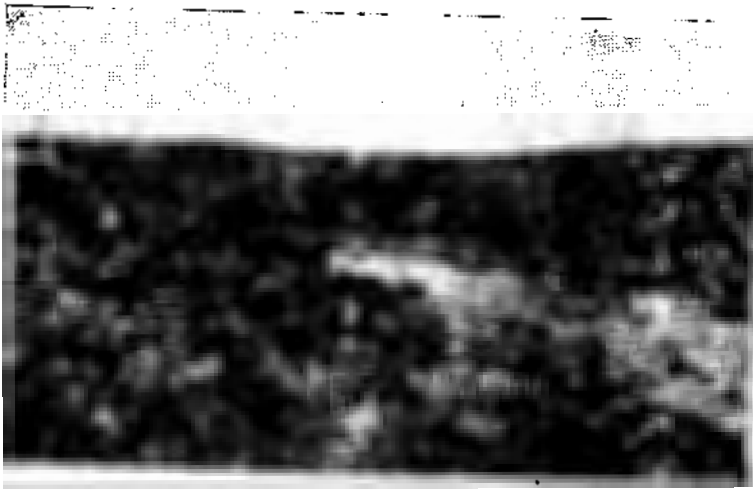
ولا شك أن المدرجات النهريّة تقدم مساعدة فعالة في محاولة بناء

القطاعات النهرية . إذ يمكن اتخاذ المدرجات وسيلة لمد أجزاء القطاع ابتداء من نقطة التجديد في اتجاه المصب ، ثم محاولة ربط هذه وتلك وموازاتها بمخطوط الشواطئ أو الأرضفة البحرية القديمة . وهذا ما يوضحه الجدول رقم (١) .

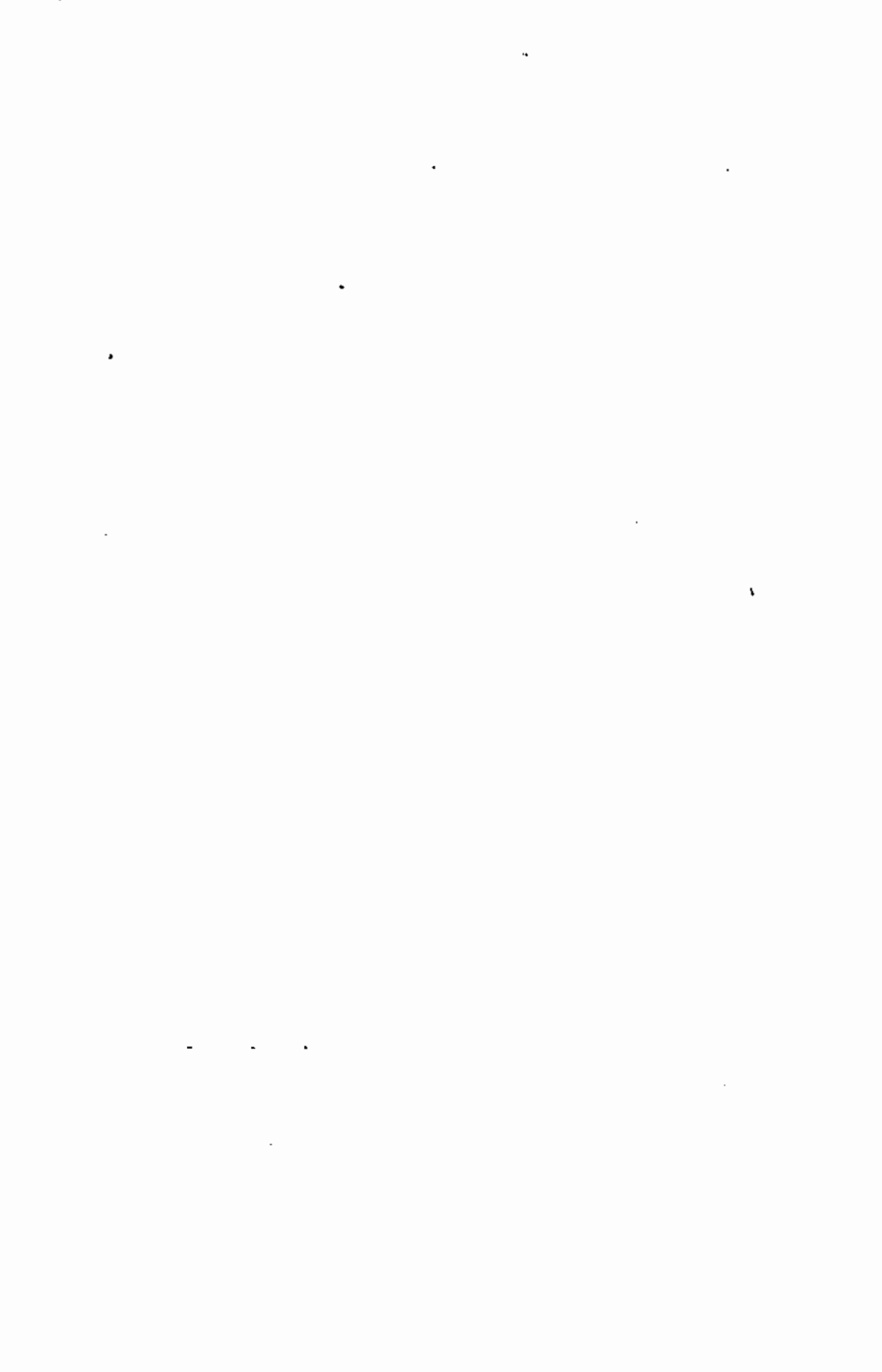
والمدرجات الخمسة الأقدم بلايوسينية - بلايوسينية - ، وبعض منها يقابل الرصيف البحري الكالابري . وأغلب الظن أنها نشأت مع نقط التجديد التي توازيها نتيجة لحركات تكثونية ومثلها الرصيف الكالابري ، فهو رصيف أيزوستاتي . والمدرجات الأخرى مع ما يصاحبها من نقط التجديد ناشئة في أكبر الاحتمالات عن ذبذبات ايوستاتية في مستوى القاعدة تقابل مناسيب البحر الصقلية والميلازية والتيرانية . ويفتقر القطاع لنقطة انقطاع تقابل منسوب البحر الموناستيري رقم (١) الذي يمثل هنا تكوينات التيرا روسا ابتداء من منسوب ٢٧ متر . وأخيراً توازي تكوينات الرمل البحرية ونقطة التجديد على ارتفاع ١٠ متر الرصيف الموناستيري رقم (٢) .



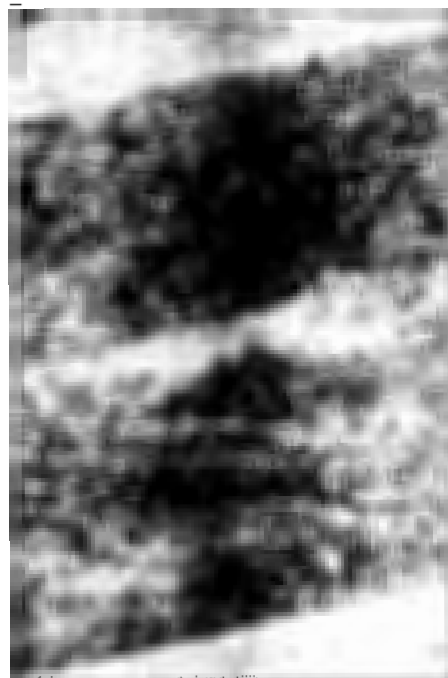
شكل (١)



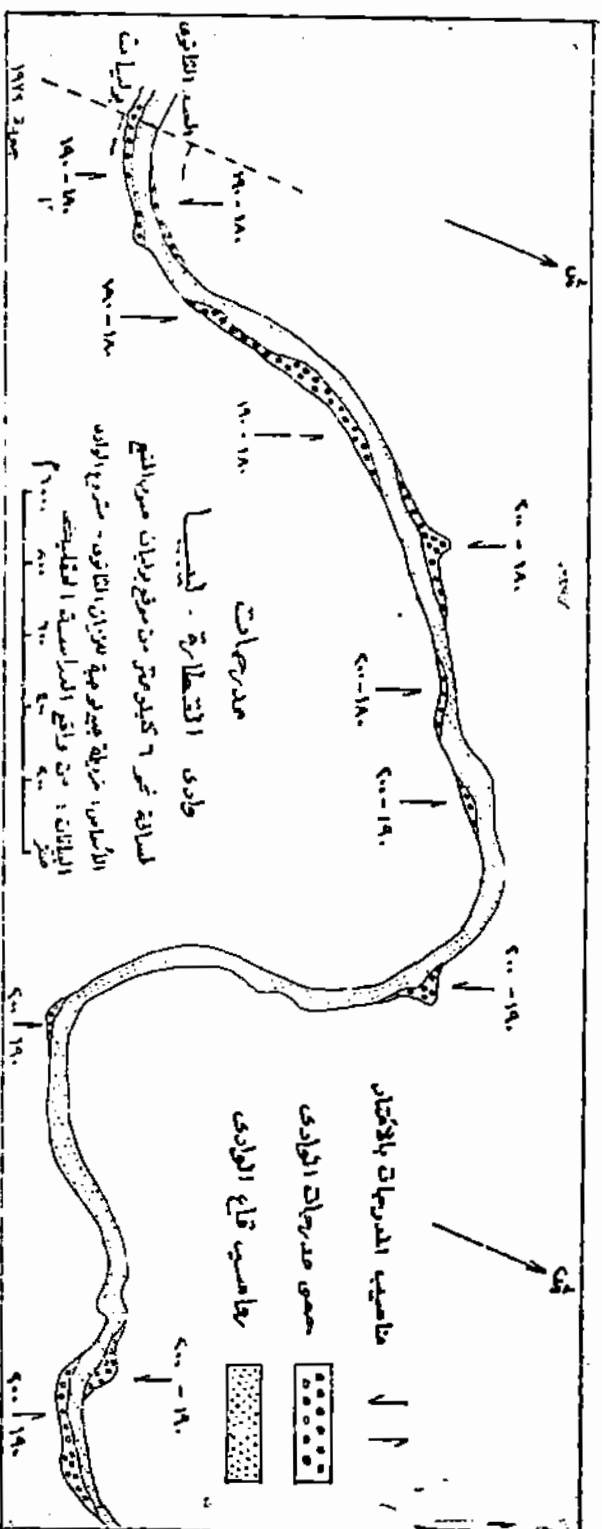
شكل (٢) وادى القطارة : مجرى الوادى غربى موقع بوسديره حيث يصنع منعطفاً
يبدو جانبه الأيسر المقعر (إلى اليمين) مقطوعاً شديداً الانحدار ، وجانبه الأيمن المهدب
(إلى اليسار) هين الانحدار . لاحظ حمولة انقاع الدقيقة الحبيبات ، ونخرج رافله فى
مؤخرة الصورة





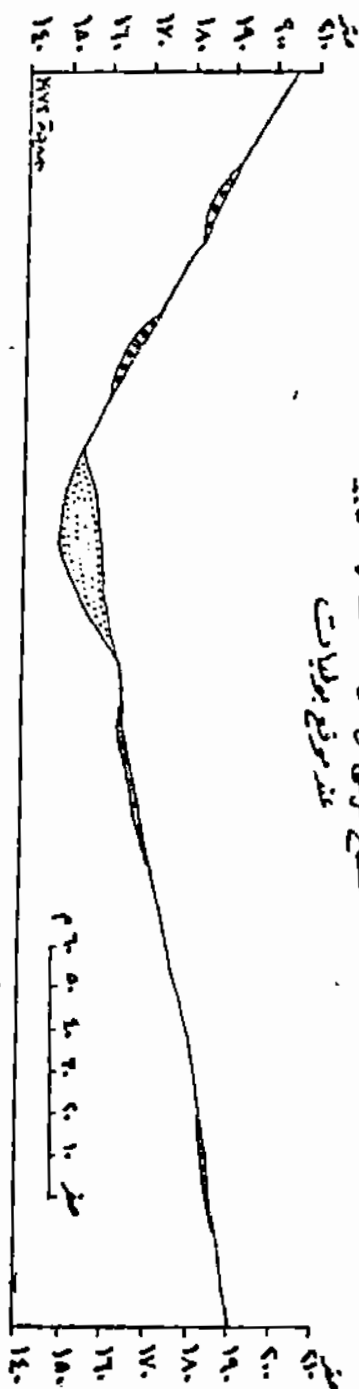


(شكل ٤) وادي القطار : منحدر الجانب الأيسر في منعطف بوسديره وحزوز
الترعية المائية و نسطية فيما بين منسوبي ٤٣٠-٤٤٥ متر

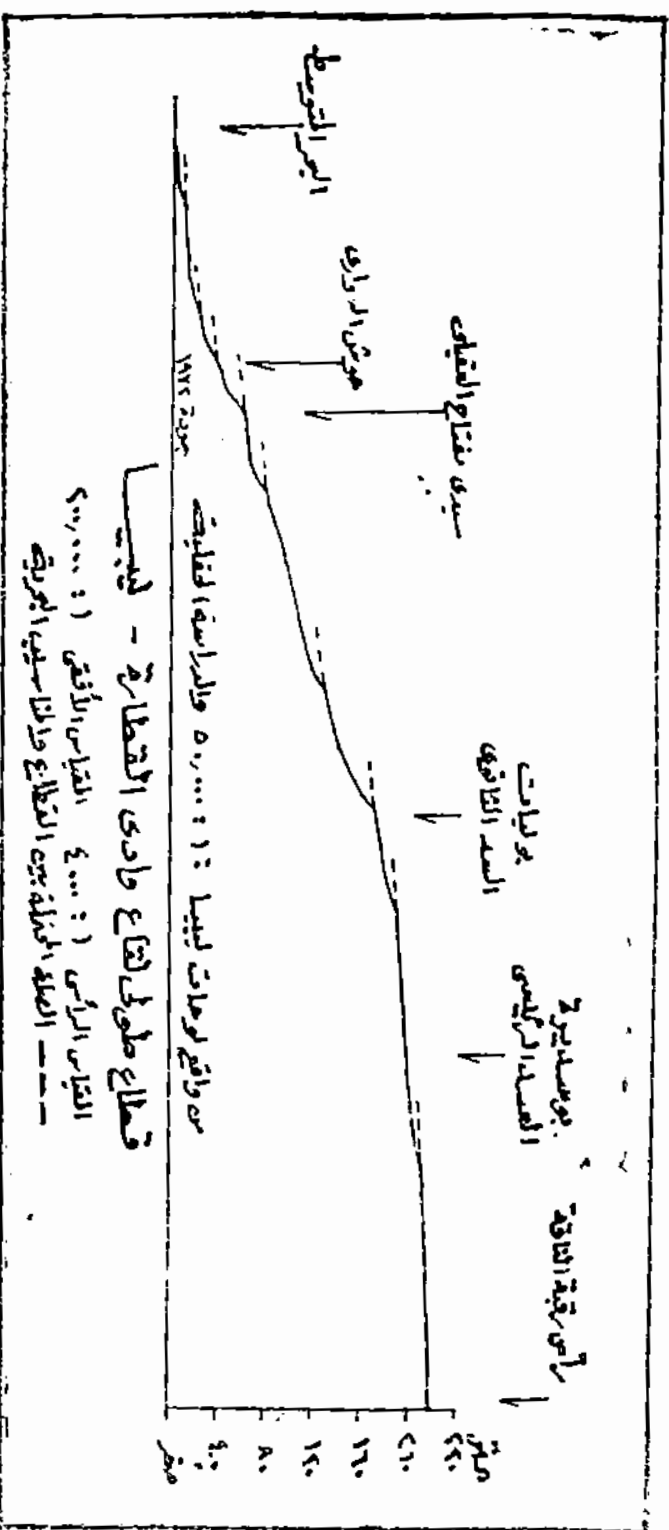


شكل (٥)

قطاع عرض الوادي القطار - ليبيا عند موقع بوليات



شكل (١)



شكل (٧)

جدول رقم (١١)

المدرجات ونقط التجويد الشباب بوادى القطار ومقارثها بالأرصقة البحرية فى حوض البحر المتوسط

وادی القطار ليبيا	أرصقة بحرية برقة - ليبيا (بالمتر)	الرصيف البحري وعمره	مناشيب بحرية مربوط مصر (بالمتر)	أرصقة بحرية نونس والخزائر (بالمتر)	أرصقة بحرية البحر المتوسط (بالمتر)	بو ديل
جوده ١٩٧٢	مالك بورني وهي ١٩٥٥		شكري وآخرون ١٩٥٦	ديريه ١٩١٨	فولديت ١٩٦٦	١٩٦٠
مدرجات نقط تجويد الشباب (بالمتر)						
٢٤٠-٢٣٠						
٢١٠	٢١٥-٢٠٥					
١٩٠	٢٠٠-١٨٠					
١٧٠	١٧٠-١٦٠	٢٠٠-١٤٠				
١٣٥	١٣٠-١٢٠	شاطئ بحريان				
٨٠	٨٠-٧٠	٩٠-٧٠				
٦٠	٦٠-٥٠	٥٥-٤٤				
٤٠	٤٥-٣٥	٤٠-٣٥				
-	٢٧-١٢	٢٥-١٥				
١٠	(تيراروسا) ٧ رمل بحري	٦				
		الكلابرى - فيلافز انكا بلايوستوستين أقدم				
		الاصغلي - ما قبل جوتز ميلازي - جوتز / مندل				
		تيراني - مندل / ريس				
		موناستير (١) - ريس / فورم				
		١١٠-٨٠				
		٦٠				
		٣٥				
		٢٥				
		١٠٠-٩٠				
		٦٠-٥٥				
		٣٠-٢٨				
		٢٠-١٨				
		١٠٠-٨٠				
		٦٠				
		٣٠				
		١٨-١٥				
		٨-٧				
		١٠٠				
		٦٠				
		٤٠-٢٨				
		٤٠-١٨				
		٨-٧				

المراجع العربية

جودة حسنين جودة (١٩٦٦) : العصر الخليدي . أبحاث في الجغرافيا الطبيعية لعصر البلايوسين . منشورات جامعة بيروت العربية .

جودة حسنين جودة (١٩٧١) : عصور المطر في الصحراء الكبرى الافريقية بحث في الجيومورفولوجيا المناخية لعصر البلايوسين والزمن الرابع ، مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية .

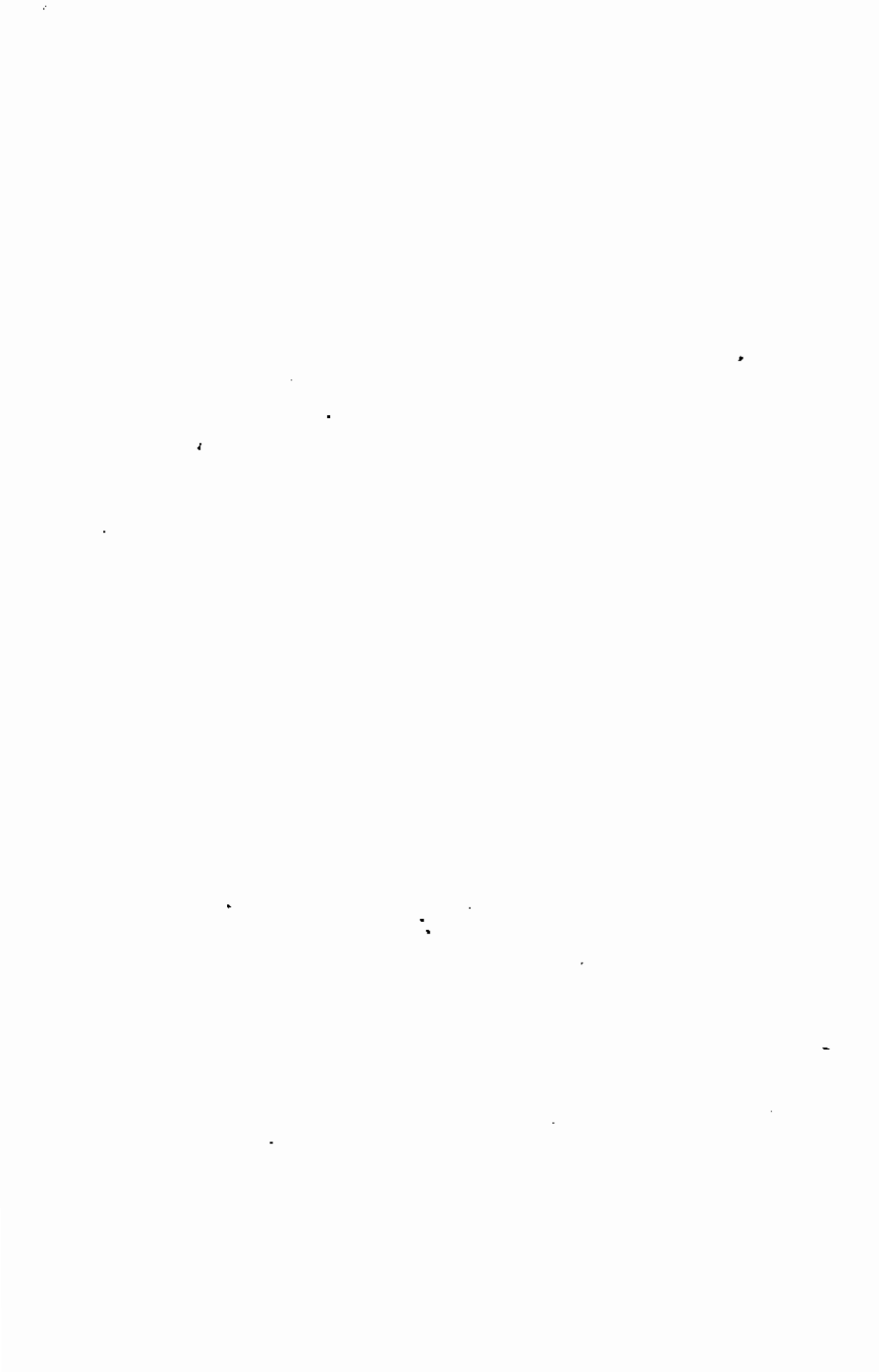
على عبد الوهاب شاهين (١٩٦٥) : ملاحظات على جيومورفولوجية المنطقة الشرقية من إقليم مريوط . مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ، المجلد التاسع عشر .

لوحات ليبيا مقياس ١ : ٥٠.٠٠٠ ومقياس ١ : ١٠٠.٠٠٠

ومقياس ١ : ٢٥٠.٠٠٠

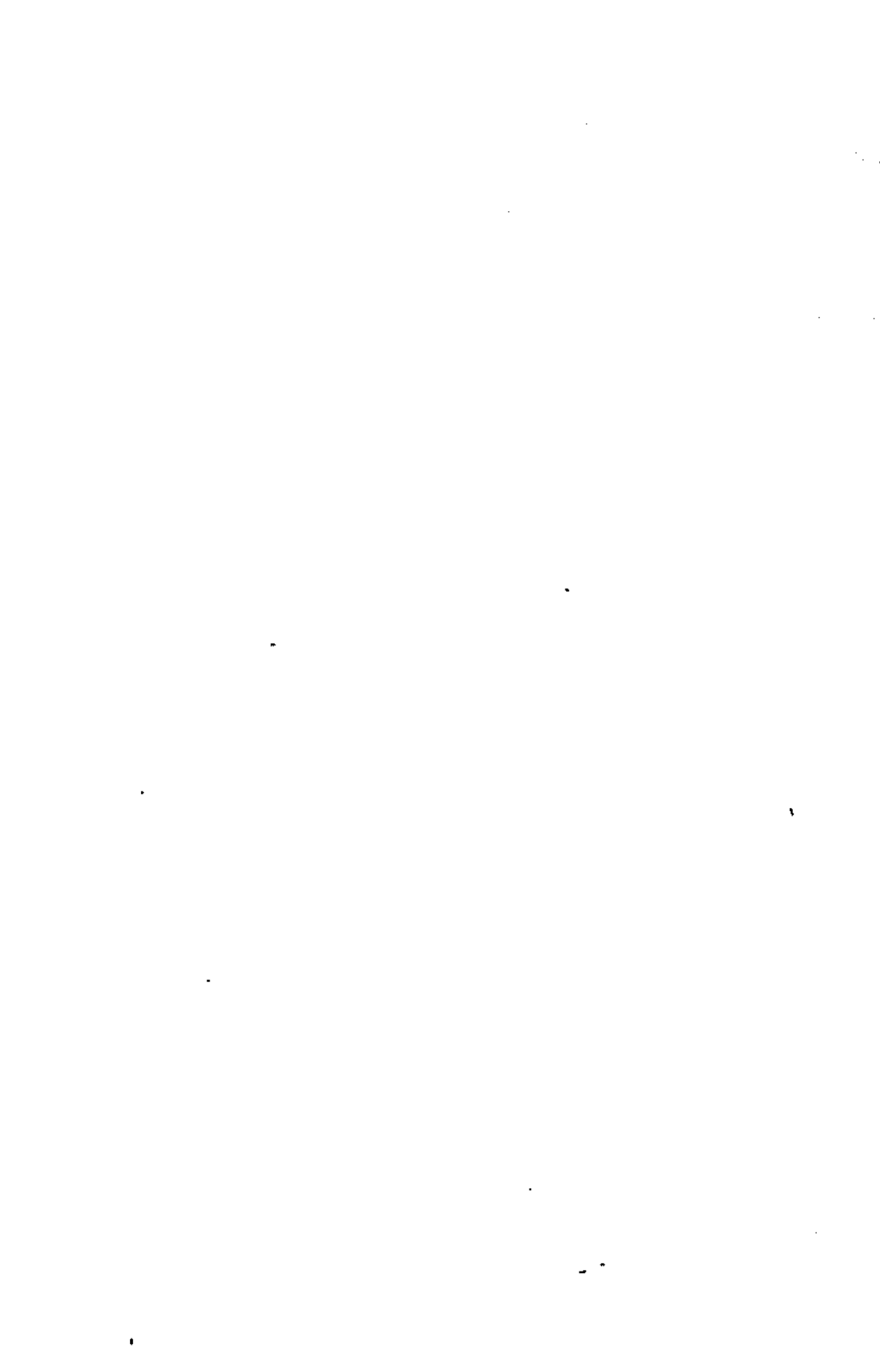
المراجع الافرنجية

- Budel, J. (1960). Die Gliederung der Wuerm-Kaltzeit. Wuerzburg.
- Cotton, Ch. : (1963). The question of high Pleistocene shorelines. Trans. roy. Soc. New Zealand (Geol.) 2, 5, Wellington.
- Depéret, C., : (1918). Essai de coordination chronologique générale des temps quaternaires. C.R. Acad. Sci., Paris, vol. CLXVII-
- Flohn, H. : (1963). Zur meteorologischen Interpretation der pleistozänen Klimaschwankungen. Eisz. u. Geg. 14.
- Hidroprojeatat : (1967). Contract documents for Construction of Wadi Gattara Project. Vol. 16, Beograd.
- Mc Burney, C. B. M. & Hey, R. W. : (1955). Prehistory and pleistocene Geology in Cyrenaican Libya. London.
- Shukry, N. M. Philip, G. & Said, R. (1955). The Geology of the Mediterranean Coast between Rosetta and Bardia. Part II: Pleistocene Sediments, Geomorphology and microphacies. Bull. Inst. Egypte, t. XXXVII.
- Woldstedt, P. : (1954). Des Eiszeitalter, Grundlinie einer Geologie des Quartaer, Bd. 1, Stuttgart.
- Woldstedt, P. : (1966). Ablauf des Eiszeitalters. Eisz. und Geg. 17. Oeringen/Wuertenberg.
- Zeuner, F. E. : (1959). The Pleistocene Period. 2ed London.



تم ، بعون الله ، طبع هذه المحلة
(مطبعة جامعة الاسكندرية) في يوم الاحد
٢١ مايو سنة ١٩٧٢ .

مدير المطبعة
محمد يوسف البساطي



BULLETIN OF THE FACULTY OF ARTS



Vol. XXIII
1969

All requests for copies of this Bulletin should be made to the Librarian of the Faculty of Arts, Alexandria University, Shatby, Alexandria, U. A. R. Communications regarding contributions should be addressed to the Editing Board of the Bulletin.

ALEXANDRIA UNIVERSITY PRESS

1972



AN OUTLINE OF A PROGRAMME FOR THE CONSERVATION RESTORATION AND REVITALIZATION OF HISTORICAL ENSEMBLES¹

By
W. FRODL

The ideas which I want to present here are based on elements from two different subjects — the protection and conservation of historical monuments and urbanism. Both subjects have developed separately for a long time, each representing different, even opposite interests. It was only the social, economic and technological situation during the last two decades which has forced them to review their standpoints and thereby approaching each other. The protection of historical monuments has, in the main, taken care of the conservation and restoration of individual monuments, whereas urbanism, until deep into our century, has seen its main task as the demolition of old buildings or whole districts only to replace them by an artificial network of streets and open spaces, which were only concerned with functional considerations. This system has done considerable damage to the individual character of the towns. One took notice neither of the historical development that reflects the growth of a city in the course of centuries, (which is distinctly expressed in the layout of a city), nor did they pay regard to the outward appearance of the city, which is the result of this development and gives the city its unique character.

Not until the last decades, precisely in the very last decade did those two branches converge, and it was necessary for each to become familiar with the other's ideas.

The people concerned with the task of protecting and conserving historical monuments have been made to realize that the historical and the artistic individuality of a city may be of such great importance that the whole city, or at least certain parts must be regarded as monuments—it was within this context that the term 'historical ensemble' was developed and town planners have learned to consider the historical

¹ Text of a lecture delivered by Prof. Dr. Walter Frodl on Wednesday 5 November 1969 at the Faculty of Arts, Alexandria University.

centre of a city as the heart on which individual life depends. Medical science has taught them that blood pressure must not be too high, otherwise the heart, that is the centre, would explode,— on the other hand, it must not be too low as it would consequently stop beating, which means the centre would be deserted. Today, also international groups of town planners do not doubt that there is a cultural necessity to protect the historical centres of the cities and to integrate them into modern life.

Of all problems arising today in connection with the conservation of works of cultural value in all the world, the most acute one is the protection and conservation of the historical city centres. In the 'Charta of Venice' formulated by the second World Congress of 'Architectes et Techniciens of antiquity service des Mounments historiques' in Venice, in 1964, the first paragraph reads that not only individual Monuments but whole urban or also rural districts have to be protected which bear witness to a certain culture, a characteristic development, or a historical event. Furthermore, not the great works of art and architecture but also the modest works have to be taken into consideration because, as a complex unity, they have gained quite a considerable cultural importance in the course of time.

In the meantime, all the problems connected with these questions have become topical in all continents throughout the world. Some of the international organizations, especially the UNESCO, the European council, and the ICOMOS have placed them on the agenda of their congresses and their work programmes.

By those organizations the national institutions and authorities which exist today in nearly all countries of the world — some of them for about 150 years — are provided with a broader basis on which they can fight the destruction or the constant diminution of works of cultural value.

In this modest report it would take too long to explain the causes that today threaten the existence of historical ensembles more than ever before. I may, however, refer to the fact that the social, economic and technical developments have caused far reaching changes in the structure of the cities. The historical centres of the cities are no longer able to meet with the requirements of the present time, not to mention the future. They either burst under the pressure of social, economic and technical

needs, or they must decay and become deserted if the pressure is not regulated in time. The historical centres can no longer cope with the old functions, which they have performed for centuries and therefore they should be given new ones that they will be able to fulfil.

It stands to reason that the radical measures which are necessary for the future, cannot be taken and executed by the public monument conservation authorities. It is the planning and realization of very complex projects which only can be accomplished by the cooperation and coordination of all experts and authorities concerned. In the whole world we are in the first phase of this development, there are only very few countries (for example the Netherlands or France), in which the first difficulties seem to have been overcome.

What do we now understand by a historical urban centre or an ensemble of historical or artistic interest? The most important quality of such an ensemble is its homogeneity, but this cannot be justified only by the topographical unity of, for instance, the same type of houses, but it must also result from the interior of the dwellings, the structure of the street network and the open spaces, and, above all, from the uniform scale of the buildings. The homogeneity of the tissue, however, is not itself sufficient. There must further be a higher quality, which justifies the conservation. This quality consists less in the monument character of one or the other individual building in question, but in the architectural, archaeological, or aesthetic value of a whole group of buildings, which form the ensemble. Those cities which have, as a whole, the demanded homogeneity and, in addition, the aesthetic qualities, and which can be described as an ensemble, are very rare. The street in the historical centre of Cairo—drawn in 1870—has all qualities of homogeneity. Architectonic, historical and aesthetic values shape the ensemble which does not exist any more in this unity and to this extent today. (Fig. 1)

Salzburg in Austria and Dubrovnik in Yugoslavia are two towns among many others still existing which are distinguished by a large number of important monuments. The monuments are still standing in their natural environment; this means that the original proportion of the buildings in these ensembles has been preserved. (Fig. 2, 3)

Venice, the 'city on the water', is probably the only complete example of this kind. There are mostly only parts of cities or their historical centres which may be looked upon as urban ensembles worth protecting.

In many other towns only some streets or places have remained whose houses compose a homogeneous ensemble. However, just those small parts of the town often determine its individual character. As examples I want to show a street in Erzurum, Anatolia, a Gracht (canal) in Amsterdam and a place in the City of Stockholm. (Fig. 4, 5, 6)

There are, of course, ensembles apart from urban realms, rural settlements, archaeological ensembles, as there are also in Egypt, ecclesiastical ensembles which I shall not deal with today.

Only the problem of the rural ensembles may be hinted at by three examples. Fig. 7 shows a part of a small village in the centre of the Anatolian Highland which will be very familiar to you because it has a similar structure, the houses consist of the same material (mudbricks) and, as a whole, have the same appearance as the Egyptian villages on the banks of the Nile. Fig. 8 shows a row of houses of a village in the province Gilan on the Caspian Sea, in Iran. Mud and straw are the typical building materials. Fig. 9 shows the centre of a village in the Austrian Alps, an example of perfect homogeneity and unity of style.

It may appear strange to you that I have chosen such villages as examples worthy of preservation when a large number of similar villages still exist elsewhere. But we may be sure that industrial and agricultural development will cause their disappearance — perhaps still in our age. Therefore it is of great importance to preserve at least some of them as witnesses to the special form of social and cultural life. For the Austrian village we have worked out a plan (Fig. 10) to protect the old centre which contains the best and most typical houses. For example, according to the plan, it is not permissible to erect new buildings in the northern part of the village, in order to avoid the view of this side of the village being ruined.

After answering this question, which may also serve as an introduction, we have to draw up a work programme for those works which are necessary to make secure the ensembles still existing in a country, to restore and to conserve them and to integrate them into the modern complex of a city. In answering this I want to avail myself partly of the ideas expressed by François Sorlin, from the Ministère de la culture in Paris, at the colloquium of the ICOMOS in Spain, in 1967.

This plan comprises three main points which concern the whole work of urbanists.

1. The drawing up of an inventory of ensembles in the whole country.

2. The necessity of solving this problem by legislation, either by the extension of existing laws or by making new ones.

3. A statement of general technical principles which govern the restauration and revitalization of ensembles.

To this belong :

- a) The definition of the methods of restoration.
- b) The integration of the new architecture into historical ensembles.
- c) Satisfactory solutions for the traffic in the historical parts of a city.
- d) The coordination of the work of people who are concerned with conservation and restoration work with that of the town planners.
- e) The supply or even training of the necessary architects and craftsmen.

I should like to add further remarks to these various items :

- ad 1.) The inventory that must consist of a complete documentation of historical ensembles of every country is the basis and also gives a first survey of the work which has to be done.

The documentation has to consist of

- the exact plans of historical areas, that means street by street and house for house,
- the description,
- presentation of the most important historical data,
- the most important economic and social facts,
- and finally of the plans giving information about age and condition of the buildings, their use, plans showing the most important views and the relation to the city as a whole, projects for the restoration of the old houses and the filling of gaps. All data have to be verified by plans as well as photos.

It is an enormous task that has to be accomplished and it will take many years. Up to now, Spain is the only country with

a preliminary inventory of ensembles consisting of a list of places and their most important monuments. The data are symbolized by numbers and letters so that can also be used for computer work.

Fig. 11 shows the plan of the historical and very important town of Santiago de Compostela in Spain. The monuments and the various protected zones are marked on the plan.

For many towns in France the protection and preservation of historical ensembles is already secured by law. Fig. 12 shows the plan of the protected zone of Avignon in the south of France.

On a similar scale we are trying the same in Austria. The plan of the little town of Radkersburg (Fig. 13), still surrounded by the fortifications of the 16th century, shows clearly that those walls and many groups of houses — marked black on the plan — compose historical ensembles. Thus we may evidently regard even a whole town as a monument. Consequently alterations may be tolerated but only on a moderate scale.

In Austria the first volume of the Publication of Historical Ensembles of 176 towns will be published n.y. The second volume will contain the large cities, and the third about 60 smaller towns and some villages. This survey is of great importance because public planning, which has to arrange the future living space, has to think and plan on a large scale. It may therefore happen that historical details may be overlooked. We therefore have worked out a number of maps in connection with the programme of Austrian national planning.

On one map those cities and places are drawn, still possessing a group of historical buildings, having the character of an ensemble. (Fig. 14) Another map shows the archaeological excavation sites in Austria and regions with natural caves whose protection is of scientific interest. (Fig. 15) These works have to be followed by detailed plans, showing the ensemble in every individual place with reference to their environment, and those plans have to be completed by the investigation of every single house. Photogrammetry and

aerial photography are a valuable help in this work.

- ad 2.) Legislation concerning legislation, it has to be stressed that the historical urban centres are not to get the character of a museum only to be visited by tourists, they should rather be kept alive and incorporated into the organism of the modern city. This can be achieved only if the historical ensembles are included accordingly in economic plans, in the plans of city expansion, in the traffic plans. As already mentioned above, this consideration has also to be taken into account in the regional and the national planning. Without an adequate legal and financial basis this will hardly be possible. Consequently legislation and financing will have to exceed by far what has been stated in the average existing monument-protection-law up to now, and they will have to acquire a different and new basis.

The third group of questions is of greatest importance to the people who are concerned with conservation task. It comprises the technical problems. They are numerous and also rather complex, and they depend on very different precepts.

In this connection we can refer to a resolution passed in Prague by ICOMOS, four years ago, which says that the character and the beauty of a town do not depend only on the appearance of the streets and places in the centre of the city, but also on a view in the city from the outside. (Fig. 16)

The resulting consequences influence the scale of revitalization and restoration of the individual buildings of which an ensemble consists. According to the demands of the Charta of Venice the original state of a building should mainly not be altered by its restoration. This demand is easier to be fulfilled with a monumental building than with a dwelling place.

For instance, whereas the layout of a mosque, because of its very function remains very stable, certain alterations will have to be tolerated with a dwelling place to improve the living conditions and its utilization. To take such measures in the old parts of the towns of the Middle East is especially difficult,

because the modest structure of the houses and their age seem to make it easier to replace those buildings by new ones. For only in modern houses can that minimum of comfort be installed which the social situation demands, especially with regard to sanity I think, for those cities special methods will have to be worked out, for which European models and experiences may be used as guidelines, but they must find their own solutions. It is a fact that these quarters are abandoned because they cannot meet with the conception of the requirements of better living conditions. Those abandoned quarters decay slowly and are finally pulled down, to provide sites for new buildings. An advance planning will be necessary to avoid the total loss of the historical face of the cities.

- b) It is naturally of great importance what those new buildings will look like. The new architecture can completely disfigure the historical picture. However, in its proportions, in the surface formation and by a clever selection of material, it can take up the melody by which the ensemble is dominated and form a new architectural harmony with the still existing historical buildings.

There is many a good example for this problem in Europe, and still more bad ones. (Fig. 17)

- c) Another chapter burdened with difficulties is that of the traffic. Already today the problem of modern traffic with its thousands of cars cannot be overcome even in a modern city with wider streets, circular roads and so-called express ways. One can imagine the far more difficult problem of finding a satisfactory solution for the narrow, winding streets of an old town.

The dangers brought about by modern traffic may be summed up shortly :

- Even today old streets are often replaced by new and wider ones in the course of which historical buildings are pulled down. The concussion of the ground caused by the traffic has a negative effect on the stability of old buildings that were erected under different conditions.
- And there is the so-called stationary traffic that hampers the flow of the traffic, causing that chaos with all its negative

consequences that influence constantly the life of the people in the cities and the cities themselves.

I am well aware of the fact that I have considered these problems from the view that results from my activity in a European city. After all, these problems are the same in your cities, however, with one difference that they, arise with a much stronger intensity and a greater severeness in the historical structure of a town in the Islamic world, and that the historical centres of a city with its densely built up areas on a town plan split into small sections, is much more sensitive to changes than in European countries, where the social, economic and technical development had started earlier.

- d) Concerning these problems the coordination of the work of the conservators and the town planners is even more decisive. From their cooperation only the results and the necessary consideration may rise which the monuments require as witnesses of a great history of the Islamic world.
- e) If the integration, especially the social and economic necessities and improvements into the existing historical structure of the cities will succeed, does also depend on the quality of work contributed by every single technician and craftsman. It is no secret that in Europe the number of those craftsmen capable of doing such work is becoming smaller and smaller.

For the training of architects who are especially needed for restoration work there are special possibilities provided at the Technical Universities and the Universities in Vienna, Warsaw, Milano, Delft in the Netherlands and some others. For eight years the University of Rome, together with the UNESCO, has arranged international courses for architects in which about 30 to 40 students from all parts of the world take part for the period of one year.

As far as I remember these courses were also attended by students from Egypt. Thus the problems of conservation of old city centres, or, as we have to put it more precisely the revitalization of old city centres are outlined with a few strokes. It is

natural that detailed different questions arise in different countries, especially when they are situated in different climates. These questions result from the character and the material of the buildings, from the customs and habits of the people, the social strata and from different other circumstances.

At all times, however, the success in restoring a monument (in our case the historical cities) will depend on the conscientiousness and skill of the restorer, and conservator, and, last but not least, on the accuracy and the high quality of the craftsmen employed.

And, lastly, there is one other thing which must not be lacking : that amount of artistic sensitiveness which is required wherever Man is engaged in matters of art.

ARAB AWAKENING DURING THE CRUSADES

By

DR. JOSEPH NESSIM YOUSSEF

University of Alexandria U.A.R.

Towards the close of the fifth century Rome fell into the hands of the Barbarians, and so the ancient Caesars' State came to an end. On its ruins the Germans set up their kingdoms in the Western Mediterranean area. Meanwhile, the Eastern Roman Empire moved to dominate over the Balkan and the Levant.¹

Consequently, the decline and fall of the ancient Roman Empire took place, and the Middle Ages started in an atmosphere of utter confusion. About this Edward Gibbon, the eminent historian, said in his book *History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, that he would write a story full of base and mean incidents that reveal how barbarism and religion could overcome discipline and civilization.²

To Gibbon's mind, it is plain that the Barbarian Invasions and the coming of Christianity, were the first and most fatal disadvantages with which the Middle Ages started upon the ruins of the Ancient Roman Empire and its brilliant civilization.

Western Europe and the Eastern Roman Empire continued to suffer great weakness up to the beginning of the seventh century, the very decades in which very important events began to occur in Arabia—events that had far-reaching effects on the course of human history. Islam arose with a general aim for all people: to call them to the worship of the One God and the rejection of idols; and with another specific aim for the Arabs themselves: to achieve unity and love by renouncing division and disagreement. Not many years passed before that new call was firmly established finding a ready response from all the diverse Arab tribes that had previously suffered from dissension. They considered Islam the symbol of their unity and of their hopes for realising a prosperous and glorious future.

On this sound basis the first Arab State took root in its confined home in Arabia, and from there sprang to conquer, hoping to spread the principles of Islam and defend its existence against the threats of its neighbours with their continuous intrusions on its borders. Thus in the conflict between this Islamic state and its neighbouring powers, the Arabs found their struggle against the Byzantines on one side and the Westerners on the other, to be part and parcel of their policy to secure their safety. At this stage both the Byzantines and the Latin nations were on the defensive because of their weakness, whereas the Arabs were advancing quickly on the western and eastern fronts after achieving a measure of unity. On the eastern front the Arabs won a series of quick victories and during the seventh and eighth centuries could lay their hands on Syria, the eastern part of Asia Minor, Egypt, North Africa and some of the Mediterranean islands. On the western front, the Arab conquests extended as far as Spain and across the Pyrenees to France itself, although they were not able to remain there for long. In the ninth century the conquests of the Islamic state included Crete, and in the beginning of the tenth century Sicily and Southern Italy were subdued. 3

This was the inevitable prelude to later events, for it was the first vivid proof of the miracles that Arab unity could perform. It was enough that the balance of power in that struggle that had gone on since the beginning of the Conquest up to the tenth century was in favour of the Arabs. Many Arab regions and towns dominated by Arab culture and the Arabic tongue rose along the coasts of the Mediterranean, a state of affairs that led the Belgian historian Henri Pirenne,⁴ to say that that sea which had been all Roman, and had been called by the Romans themselves "Mare Nostrum" as John LaMonte said,⁵ had become a purely Arab sea.

However, that great triumph that the Arabs had won, as a result of uniting their efforts was soon followed by painful blows. The first relapse was in the tenth century when the balance of power between East and West was upset and Europe began to regain its power after the blows that the Arabs had dealt it. The Arab decline began as a result of the political decay of the Abbasids in the East. At the same time the Arab states in the western Mediterranean also grew weak. That upset of the balance of power had sorrowful effects on the Arabs, most noticeably in the border areas between the Arabs and the Byzantines and Latins. The Eastern Roman Empire began to capture some towns in Asia Minor and Syria, while the Normans subdued southern Italy and Sicily. In Spain, invaders from the West won several victories, the most

important of which was the capture of Toledo in 1085. The gradual retraction of Arab power in the Levant and the western Mediterranean was doubtless the result of the weakness and division of the Arabs that prevailed at the time. 6

From that bitter experience, extending from the tenth century up to the Crusades, the Arabs drew a valuable lesson that benefited them later on. It showed clearly how division of the Arabs gave the Byzantines and Latins a chance to attack their dominion and devour a large part of it. Consequently, the Byzantines and Westerners undervalued Arab power and took the offensive against the Arabs who were then forced to be generally on the defensive.

Amid that upsurge of sad events occurring in the Arab World, there rose in Europe toward the close of the eleventh century a call that historians have agreed to term "The Crusades". That movement began when one of the Roman popes, Urban II, announced its birth in a speech that was delivered in the clerical council of Clermont in France.⁷ In that speech he called on Westerners to bear the cross to the Holy Land and establish Latin colonies there. Many contemporary Latin historians, including Foucher de Chartres and Baudri de Bourgueil, with Guibert de Nogent at their head,⁸ have preserved the text of the speech that is full of hatred and insults for the Arabs and Arabism. Contemporary accounts say that the crowds that listened to the Pope's speech shouted their famous cheer "Deus lo Vult," and soon bore the sign of the cross as their symbol. Thus the movement began to take on a religious form. One of the old western writers, Robert le Moine, said it was a divine deed and not a human one.⁹ Another modern western writer, Count Paul Riant, said that the Crusades were purely religious wars and their motives and aims were merely religious. The first and last aim was to deliver Palestine and the Holy Sepulchre from the hands of the Arabs.¹⁰

The latest historical research, approaching the Crusades from a more objective point of view, have proved that they were undoubtedly not solely religious, and that their aims since the beginning had been expansion and colonization. Under the disguise of a religious call, the actual purpose of the Crusades was to capture Palestine by military force, and establish Latin colonies there. The next step was to strengthen those colonies by expanding and fortifying them so that they might form a bridge for imperialism to cross and break up Arab unity, thus weakening the Arab World and securing influence and interests in the

area.¹¹ It is remarkable that some modern Western historians have admitted frankly the truth of the objectives of that movement. ¹²

However, under the guise of religion, great numbers of Crusaders, started from Western Europe and proceeded towards the Arab East, and in a few years won several quick victories that could never have been dreamt of before. Thus in the period between May 1097 and June 1098, the Crusaders were able to get rid of the Seljuk Sultanate in Asia Minor and Northern Syria and to form their first two colonies : Edessa on the Euphrates uplands, and Antioch on the Syrian uplands. All that was achieved within one year. ¹³

We have to ask whether the rapid advance of the Europeans was the result of certain characteristics that distinguished them—characteristics that the Arabs and the Seljuks did not possess — or whether it was due to their boldness and courage in their fight to death and martyrdom. Charles Oman answers these questions in his book *A History of the Art of War in the Middle Ages*, saying that the Franks were weak from the military point of view. They lacked discipline, good order and careful preparation, and they had no sound tactics for war. They were also composed of small feudal armies and needed unified leadership to which all could be loyal. However, they could win decisive victories over well-trained and well-disciplined forces that outnumbered them. The truth that lay behind those victories had more profound causes than these apparent ones. They were attributed, above all, to the division that broke up the Arabs and the Seljuks at that time.¹⁴

This was the first stage of defeat that befell the Arab World in the age of weakness and decline through which it passed at the beginning of the Crusades. It was a continuation of the state of affairs that had prevailed since the tenth century, one that led to serious and dangerous consequences. There were grave misunderstandings between the Arab kings and princes. The Shi'ite Fātimids in Egypt and the Sunnite 'Abbasids in Baghdad were worn out by wide political and religious differences that caused them to grow increasingly weaker. At the same time the Turcomans, including the Seljuks, snatched from the Fātimids and the 'Abbasids whatever regions they could lay hands on, for instance Syria. Even the Seljuks' Sultanate was divided into minor states with a prince to rule each of them. That state of affairs in Antioch, Aleppo

and Damascus¹⁵ has been confirmed by a contemporary Arab historian, Ibn al-Qalānisi who wrote about the first campaign. He says that if the princes of Aleppo and Damascus had reached an agreement, they could have won a decisive victory over the Franks and checked their advance through Asia Minor and Northern Syria. Notwithstanding the great danger that threatened them both, they did not unite to face their enemy or even exert any positive effort to stop its advance through the Arab East. ¹⁶

While all this dissension was going on, the Franks were waiting to seize the opportunity for their attack, for they were well-pleased at the division between the Arabs and the Seljuks that enabled them to achieve a great deal within a few years.

Shortly after the Crusaders had established their first two princedoms in the East, they began to march on Jerusalem and were able to reach it in 1099. At that time, Jerusalem was one of the Fatimids' possessions. ¹⁷ After besieging it for about forty days, Jerusalem fell into the hands of the Latins, and that holy city saw many atrocities when they entered. They pursued the peaceful citizens who resorted to the Dome of the Rock and to Aqsa Mosque for shelter when they found themselves surrounded by the enemy. The natives escaped from the violence of the Franks to these sacred places, hoping that they would not break into them or try to pollute their sanctuary. However, the Franks did not recognize their sacredness, and the blood of the martyrs flowed into rivers in which the invaders waded up to their knees. The cruelty of their actions has been described by two Frankish historians who witnessed the massacre. They are Raimond d'Agiles and Albert d'Aix.¹⁸ Many Arab writers, especially Ibn al-Qalānisi 'Abu-al-Fida, Ibn al-Wardi, Ibn Kathir, al-Maqrizi and Ibn al-Imad al-Katib, have given us numerous examples of the barbarism of the Franks during the Crusades.¹⁹

Palestine finally fell to the Westerners in July 1099, after the Arabs had ruled it for more than four and a half centuries. The Franks' dreams were realized when they set up their Latin kingdom in Arab territory and appointed one of their leaders as its ruler. He soon divided it into feudal princedoms and distributed them among the Latin generals, his companions, exploiting the Arab schism that still existed. Marshall Baldwin, the western historian, says, "The Crusaders' states in the

Levant may, therefore, best be understood as experiments in colonization, the first chapter in the long history of Europe overseas."20

Thus the first part of the struggle between the Arabs and the Latins ended with that decisive victory that was achieved within a few years. If we look a little at the overall pattern of this period, rather than just at individual battles, it seems that the success the invaders attained over the Arabs can be attributed to the state of affairs among the Arabs themselves. The division that prevailed then in the Arab East paralyzed their resistance against the Westerners.

The Westerners undoubtedly knew well from the start that if the Arabs in Egypt and Syria united their efforts and reached an agreement, their united forces would repel the Crusaders and get rid of them very easily. The Arabs themselves could never forget the losses that they suffered and the gains the Franks had made since the beginning of their campaign because of the decline and division of Arab power. They fully realized that the more they were united, the more eager they would become to attack their enemies and drive them out of their princedoms in the East. There would be strength in their unity, and if they were strong they could get rid of all trace of the Latins. But division meant weakness, and failure to resist their enemies would mean that Western influence would grow until it dominated the whole area.²¹

The disputes and wars among the Arab rulers kept them from giving their full attention to the struggle against the invaders. Nobody would ever deny that if they had been united when the first Crusade broke out, the Latins would never have won any military or political victories in Palestine, and the Arabs would have destroyed them totally before they could reach it or set up colonies there. Even if the Crusaders had settled on their lands, they would not have given them any opportunity to set up a strong state, and could have kept Palestine free from any foreign interference if they had put the welfare of their peoples above their own interests and differences.

However, in spite of the rapid success that the Franks were able to achieve, their society in the East was clearly weak, weary and collapsing. It did not have the necessary prerequisites for building a strong legitimate state. It was born so weak and so frail that it could not stand on its feet alone. It had no morality, no traditions, no national army and no public wealth or invested capital. That is why it was continually exposed to changes.

and upheavals as well as to violent crises, and it suffered much from the disastrous events that occasionally befell it. From the beginning the colonies were plagued with weakness stemming from factors such as their poor financial resources, their small number of warriors, their clashing interests, their varied desires, their different racial origins, their corrupt morals and their cool religious enthusiasm. Moreover, there were continuous disputes and quarrels between the Franks who recently arrived from the West, and those who had settled in the East before about their private interests and possession of estates. Finally, we must not forget the enmity that was then growing between the invaders and their subjects. The Franks knew that they were living among the lawful owners of the land who were eager to unite their forces in order to give the fatal blow that would enable them to regain their usurped lands.²²

The gradual decline of the Crusader's princedoms was met by the feeling of the Arab peoples that the existence of those princedoms among them was a threatening danger that should be uprooted before it was able to grow and spread over other parts of the Arab World. They realized that every day that passed without an achievement of unity meant a sure loss that would delay their holy wars against their enemy.

Unfortunately, no leader appeared on the Arab stage at that time who could lead the Arabs in one unified front against the Franks. The Franks in that early period had only adversary princes to face, so they did everything to divide the Seljuks and the Arab rulers in order to establish their own influence, and ensure their own interests.

As the danger to the Arab World grew more and more threatening, a feeling of consciousness and awakening appeared on its horizon at the beginning of the twelfth century. The Arabs then began to estimate the danger that they faced, and did their best to unite against the foreigners and drive them out of their homeland. Such an awakening first appeared in Egypt, Iraq and Northern Syria in the form of Arab stirrings, but it had not yet ripened into a unified movement. For example there was the alliance of the ruler of Aleppo and the Fātimids in Egypt against the Latin princedom of Antioch at the beginning of the century, as well as the attempts of the rulers of al-Maueşel and Damascus to form an axis that would go around the Latin possessions in the north and the north-east. These partial attempts did not bear fruit because the Arabs attacked the Franks' princedoms of Edessa, Tripoli and Antioch before having a perfectly unified front. The result was that they could not win an ultimate victory at that time.²³

Thus a sort of balance was created between the Arabs and the Franks in this second stage of the struggle in which neither of them could win a decisive victory over the other. This stage has been analysed and described in detail by René Grousset and Steven Runciman in their books about the Crusades. Prof. Aziz Suryal Atiya put this theory in its final form in his book "Crusade, Commerce and Culture" published in Bloomington in 1962.

Several circumstances helped the invaders to maintain their declining position in the Arab East, such as building castles and forts, fortifying the coastal towns, and exploiting any division that occurred between the Arab rulers, as well as arousing new misunderstandings. In addition, they were aided by the armed European pilgrims who arrived irregularly in small numbers. They also adopted the device of political marriage to join the princedoms that were in dispute with each other. Finally, they called on the military religious orders and the Italian commercial fleets that came from Genoa, Pisa and Venice to capture the Arab ports on the Syrian coast in return for a share of the profits and plunders. 24

But for these circumstances, that stage of struggle would have ended with the supremacy of the Arabs over the Crusaders who were surrounded in the north, the east and the south-west by the strong forces of the enemies who waited for the chance to go on the offensive. The odds were such that the invaders knew well that they would undoubtedly perish, and they had to choose either to return to their homes by sea or wait to be thrown into it by enemy forces when the proper time came.

These were the only alternatives for the Latins. As for the Arabs, they had two possible courses before them at that stage. The first was to block the coastal border of the Levant in front of the Franks, but that was not possible at that time because of the Frankish forts and ports along the coast which were strongly fortified against Arabs. Besides, the Arabs could not be sure about winning a decisive victory in that way because of the gaps that might take place within the Arab front itself before they could reach a state of perfect unity, gaps that could be exploited by the enemy. The second solution was for the Arabs to begin at once to form a united front extending from Syria and Iraq in the north to Egypt in the far south that would enable them to attack the Latin state from all directions, and thus push the Franks toward the sea.

This is what actually happened in the third and last stage of the Crusades. A movement known as the "Arab Awakening" arose,

Some strong Arab powers bore the responsibility of uniting the shattered Arab front so that it could stand against the Franks and check the threat they presented. That movement resulted in the appearance of the great leaders ʿImād al-Dīn Zinkī and his son Nūr al-Dīn Mahmūd²⁵ and the hero Saladin (Salah al-Dīn Youssef, the Ayyubid), who knew most effectively how to organize opposition in that bitter struggle against the Franks. The result was that within a few years they established a united Arab front that extended from the Euphrates in the far north to the Nile in the far south; there was beginning to be one state with one ruler, with Cairo as its capital. The Franks saw the danger now that their possessions were surrounded by a strong belt from all directions, and they had nothing before them except the sea. Even in that direction their position was threatened by the strong Egyptian navy that was waiting to begin a battle with them.²⁶ They were so terrified that Guillaume de Tyr the Latin historian who lived in that period and witnessed its events, says that the change in the balance of power had struck the Westerners, and was a disaster that destroyed their interests in Palestine and the Arab East.²⁷

Thus after the awakening, when the invaders had lost any hope for expansion and conquest, or even for mere survival, the stage was set for giving a final overwhelming blow. It happened in the days of Saladin when after he had secured the unity of all Arabs in the East, he began his well-known struggle against the Crusaders that ended with their defeat at Hittin in July 1187 and withdrawal from Jerusalem in October of the same year. The balance of power in the zone was now in favour of the Arabs, and the invaders' state retracted and became a narrow coastal patch on the Syrian coast. One Arab victory succeeded another and from that date on, all the campaigns that the Crusaders waged, failed. When the third Crusade arrived to reconquer Jerusalem two years after liberating it, it failed to attain its aim²⁸ and so the campaigns to which Egypt was exposed during the first half of the thirteenth century ended with failure and defeat on the Nile banks.²⁹ The fate of the last Crusade that Louis IX, king of France, directed against Tunis on the north African coast in 1270 fared no better than those formerly waged.³⁰

With the failure of all the campaigns, the rest of the Latin colonies on the Syrian coast awaited a terrible destiny. It was only a question of time before that sacred struggle, left to Saladin's successors from the Ayyubids and Mamlūks, succeeded in driving away the Latins from Arab

land toward the close of the thirteenth century when the Sultan al-Ashraf Khalil regained Arce, their last stronghold, in 1291.³¹

The Europeans attempted to revive a Crusade spirit in the fourteenth century, but these later Crusades were only slight hopes that could never succeed.

As a result of the failure of these campaigns, events in both the West and the Near East went through a great change. The West gave up the idea of the Crusades and began to take interest in its domestic affairs. In the Near East, Egypt, because of its geographic and strategic position, was able to dominate the coasts of the Levant. Turkey also became a great European power as well as a great Asian power. Reaction to these events took the form of Arab Islamic campaigns against the Latins that aimed at driving them out of the regions that were still in their hands. In the south, Egypt won numerous victories in the lands of the Near East as well as on the eastern parts of the Mediterranean Sea. Egyptian forces occupied Armenia in 1375, and campaigns against Cyprus continued until it was subjected in 1426. To the north the Ottomans swept over the Balkan Peninsula and captured Constantinople in 1453, and Rhodes fell into their hands in 1523. All these gave evidence of the end of the Middle Ages with its ideals and conceptions and signified the beginning of a new age.³²

CONCLUSIONS

From the evidence mentioned above we can deduce important facts and conclusions that can be summarized as follows :³³

1. The details of this research project reveal a significant idea : that ages of power, unity and progress, and others of weakness, decay and backwardness succeeded each other in the Arab Near East in the period between the seventh and the fifteenth centuries A.D. It also highlights the factors and causes that led to the waxing and waning of power, unity and progress, and the result of such changes.

2. There is also the related idea of the balance of power between the Latin West and the Arab East. That balance was closely connected with the political, economic and social circumstances that prevailed then in both worlds, and had significance in each sphere.

3. The third fact involves the conflict between the Latins and the Arabs in the Near East, a conflict beginning with the attacks of the Crusaders toward the end of the eleventh century, and lasting throughout the twelfth and thirteenth centuries. They were followed by other campaigns in the fourteenth century called the later Crusades. The West always began an attack when it was in the centre of power, and every Western offensive was followed by local Arab amassments in the regions exposed to danger, with the intention of repelling the aggressors. A widespread Arab awakening was followed by counter-attacks to regain the Holy Land from European hands. For instance, there was an uprisal in the twelfth century during the reign of 'Imād al-Dīn Zinkī involving his son Nūr al-Dīn Mahmūd and Ṣalāh al-Dīn the Ayyubid hero. Then there were the Arab Islamic counter-attacks by the Mamluks of Egypt and the Ottomans in the fifteenth and sixteenth centuries in answer to the later Crusades.

4. We should also differentiate between the local Arab amassments directed against Frankish attacks and the comprehensive Arab awakenings that were aroused by the Crusade colonization of the twelfth and fourteenth centuries. At the same time, these awakenings must be distinguished from the complete Arab unity achieved later, for each had its own circumstances leading to it and its own philosophy and ideology, though each movement was connected naturally to the other like links of a chain.

5. Another fact related to the preceeding one is the lesson the Arabs learned from their struggle with the Franks. They found that the amassment of Arab powers into a united front was essential for any kind of effective defence against the Franks.³⁴ This means that the Arabs, in order to obtain final and decisive victory over their enemies, have first to make a united front. In other words, Arab unity must preceed armed struggle. Sometimes the two went together, but in some cases the holy war preceeded Arab unity, when the Arabs were suddenly confronted by a situation in which they find themselves compelled to fight against their enemies.

6. From the beginning, the revelation of the real aims of the Crusades-expansion and colonization-was a spur to the rise of Arab power, culminating in the comprehensive Arab awakening, leading to the complete Arab unity.

7. The violence, cruelty and fanaticism of the Latins in their campaigns were important factors that excited the nationalist spirit among the Arabs.

8. It has also been proved that during this bloody conflict, Egypt was undoubtedly the heart of the Arab World and the centre for distribution of money, men, provisions and weapons.³⁵ From Egypt the shout for holy wars (al-Jihad) against the Crusaders always arose. It was Egypt that went out to fight them, and it played its part in gathering the Arab powers in a stand against Latin expansion. That was why the Westerners concentrated their attacks on it during the first half of the thirteenth century in the campaigns of Jean de Brienne and Louis IX.

9. The Crusades against the Arab East revealed another fact that cannot be ignored. Because of the geographical and strategic position of Egypt, as well as the ambitions of the invaders, it was necessary to strengthen its land and naval forces. The army was molded into a strong unit, at the same time the navy guarding the long Arab coast was being strengthened. In other words, there is a close relation between the geographical and strategic position of the Arab East and the invasions to which the Arabs were exposed, necessitating a great force on land and sea in the Arab East.³⁶

10. The Crusades showed that the Arab peoples did not live in isolation from the events that took place round them. They have proved in many situations that they understood and were well aware of current events. They assured their existence and individuality during the conflict. Undoubtedly, popular resistance within the Arab World has played a great part in its defence.³⁷

11. It is easy to show the strong spiritual unity between the Arabs in the East and the Arabs in the West during that period. While the tribes of the East struggled against the Franks in the Levant, the Arabs in the West around the Mediterranean were fighting the Europeans there. In addition the Maghreb peoples played an important part in the struggle against the Crusaders. This is a concrete expression of the unity that joined all the Arabs from the Atlantic Ocean to the Arabian Gulf in their sacred struggle against the Westerners.³⁸

Finally, we have to change the current and traditional ideas prevailing in the West concerning the crusading movement, and we have to look at it with a fresh mind as a movement aiming, above all, at expansion and colonization.³⁹

NOTES

Abbreviations

The following abbreviations have been used for works quoted in the footnotes :

- | | |
|--------------------|---|
| A.O.L. | Les Archives de l'Orient Latin |
| R.H.C. — Doc. Arm. | Recueil des Historiens des Croisades — Documents Arméniens |
| R.H.C. — H. Occ. | Recueil des Historiens des Croisades — Historiens Occidentaux |
| R.H.C. — H. Or. | Recueil des Historiens des Croisades — Historiens Orientaux |

1 Cf. Norman F. Cantor (ed.), *The Medieval World* (New York, 1963), pp. 10, 15, 67 ff.; John L. LaMonte, *The World of the Middle Ages* (New York, 1949), pp. 5 ff., 40 ff.; Solomon Katz, *The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe* (New York, 1960), pp. 73, 85, 93, 98 ff.; Sidney Painter, *A History of the Middle Ages* (London, 1966), pp. 18 ff., 33 ff., 62.

2. Coulton's and LaMonte's commentaries on Gibbon's opinion are in the following references: G.G. Coulton, *Medieval Scene* (Cambridge, 1961), pp. 8—9, 11; LaMonte, *op. cit.*, p. 38.

3. Cf. Ferdinand Lot, *Les Invasions Barbares* (Paris, 1942), pp. 13 ff.; Richard E. Sullivan, *Heirs of the Roman Empire* (New York, 1960), pp. 9—10, 24 ff.; F. Gabrieli, *Les Arabes*, French trans. by Marie de Wasmer (Paris, 1963), pp. 57 ff.; Steven Runciman, *A History of the Crusades*, I (Cambridge, 1954), pp. 14—19.

4. Henri Pirenne, *Economic and Social History of Medieval Europe* (London, 1961), pp. 2—3; *idem*, *Medieval Cities*, English trans. by F.D. Halsey (Princeton, 1948), pp. 15—16.

5. LaMonte, *op. cit.*, pp. 3—4.

6. LaMonte, *op. cit.*, pp. 275 ff.; Lot, *op. cit.*, pp. 21 f., 285 ff.; Painter, *op. cit.*, pp. 193 ff., 197 ff.

7. Concerning Urban II and his part in the Crusades, see J. N. Younsel, "Personal Motive Behind the Crusades," *Bulletin of the Faculty of Arts*, XVI (Alexandria University, 1962), 198—205 (in Arabic).

8. Foucher de Chartres, *Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium*, ed. R.H.C. — H. Occ., III (Paris, 1866), 323—4; Baudri de Bourgueil, *Historia Iherosolimitana*, ed. R.H.C. — H. Occ., IV (Paris, 1879), 12—15; Guibert de Nogent, *Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos*, ed. R.H.C. — H. Occ., IV (Paris, 1879), 137—40.

9. Robert le Moine, *Historia Iherosolimitana*, ed. R.H.C. — H. Occ., III (Paris, 1866), 723.

10. P. Riant, *Inventaire critique des lettres historiques des croisades*, ed. A.O.L., I (Paris, 1881), 2.

11. Joseph N. Youssef, *The Arabs, the Byzantines and the Latins during the First Crusade* (Alexandria, 1963), pp. 51—91 (in Arabic).

12. Cf. René Grousset, *The Sum of History*, English trans. by Helen and A. Temple Patterson (Oxford, 1951), p. 182; George Trevelyan, *A Shortened History of England* (Aylesbury, 1960), p. 141; Bernard Lewis, *The Arabs in History* (London, 1958), p. 140; Henry W.C. Davis, *Mediaeval Europe* (London, 1941), pp. 182, 198.

13. Matthieu d'Edesse, *Extraits de la Chronique de Matthieu d'Edesse*, ed. R.H.C. — Doc. Arm., I (Paris, 1869), 37 — 38; Foucher de Chartres, *op. cit.*, III, 496 — 97.

14. Charles Oman, *A History of the Art of War in the Middle Ages*, I (London, 1924), p. 233.

15. Cf. Runciman, *op. cit.*, I, 75—78; Kenneth M. Setton (ed.), *A History of the Crusades*, I (Philadelphia, 1958), 96—97; W. Stevenson, *The Crusaders in the East* (Cambridge, 1907), 19 — 20. For further details concerning the political and economic decline at the end of the Fatimids, see Ibn al-Athir, *Kitāb al-Kāmil fī al-Tārīkh*, ed. R.H.C. — H. Or., I (Paris, 1872), 550; al-Maqrizī, *Ighāthat al-Umma fī Kashf al-Ghumma*, ed. Ziada, M. M. and Shayyal, G. (Cairo, 1940), pp. 18 — 27; Abu al-Fida, *al-Mukhtasar fī Akhbār al-Bashar*, II (Istanbul, 1286 A.H.), 40—42.

16. Ibn al-Qalanisi, *Dhayl Tārīkh Dimashq*, ed. Amedroz (Beirut, 1908), pp. 134 — 35.

17. Cf. Ibn al-Qalanisi, *op. cit.*, p. 135; Ibn al-Wardi, *Tatimmat al-Mukhtasar fī Akhbār al-Bashar*, II (Cairo, 1285 A.H.), 11.

18. Raimond d'Agiles, *Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem*, ed. R.H.C. — H. Occ., III (Paris, 1866), 291 ff.; Albert d'Aix, *Historia Hierosolimitana*, ed. R.H.C. — H. Occ., IV (Paris, 1879), 470 ff.; cf. also Anna Gomnena, *The Alexiad*, English trans. by Elizabeth Dawes (London, 1928), p. 251.

19. Cf. Ibn al-Qalanisi *op. cit.*, p. 136; Abu al-Fida, *op. cit.*, III, 128—29; Ibn al-Wardi, *op. cit.*, II, 137; Ibn Kathir, *al-Bidāya wa al-Nihāya fī al-Tārīkh* (Cairo, 1358 A.H.), pp. 83—84; al-Maqrizī, *al-Mawā'iz wa al-I'tibār fī Dhikr al-Khitāt wa al-Athār*, I (Cairo, 1270 A.H.), 212; Ibn al-Imad, *Shadharāt al-Dahab fī Akhbār man Dahab*, V (Cairo, 1351 A.H.), 66.

20. Marshall W. Baldwin, *The Mediaeval Church* (New York, 1960), p. 103.

21. The best reference in Arabic in this respect is : Hasan Habashy, *Nūr al-Dīn and the Crusaders : A Historical Study of the Awakening of Islam* (Cairo, 1948).

22. René Grousset, *Histoire des Croisades*, II (Paris, 1948), 24 ff., 310 ff., 609 ff.; Runciman, *op. cit.*, II, 291 ff.

23. Ibn al-Athir, *Tārīkh al-Dawla al-Atābiyya Melūk al-Mausil*, ed. R.H.C. — H. Or., II, 2e. partie (Paris, 1876), 33; cf. also Albert d'Aix, *op. cit.*, IV, 670; Matthieu d'Edesse, *op. cit.*, I, 19—24, 96 — 97.

24. 'Omar Kamāl Tawfik, *The Crusading Kingdom of Jerusalem* (Alexandria, 1958), pp. 73 — 76, 164 ff. (in Arabic).

25. Runciman, *op. cit.*, II, 325—44, 403—35; Grousset, *op. cit.*, II, 62 ff., 363 ff., 650 ff. Concerning the wars of 'Imād al-Dīn Zinkī and Nūr al-Dīn Maḥmūd against the Franks, see: Ibn al-Qalanīsī, *op. cit.*, pp. 279—80, 333, 339—42; Ibn al-Shihna, *al-Durr al-Muntakhab fī Tārīkh Mamlakat Ḥalab*, ed. Surkis (Beirut, 1909), p. 219; Ibn al-Athīr, *op. cit.*, II, 2c. partie, 118, 125, 194, 207, 219—24, 233—36; Ibn Wāsil, *Muḥarrir al-Kurūb fī Akhbār Banī 'Ayyub* (The History of the Ayyubids), ed. Gamāl al-Dīn al-Shayyāl, I (Cairo, 1953), 72—75, 81—83, 120—25, 127—28, 134—36, 143 ff. Cf. also Grégoire le Prêtre, *Chronique*, ed. R.H.C. — Doc. Arm., I (Paris, 1869), 157.

26. Cf. Gamāl al-Dīn al-Shayyāl, "The Unity of Egypt and Syria during the Islamic Period," (Alexandria, 1958), 7, 13 (in Arabic).

27. Guillaume de Tyr, *Historia rerum in partibus transmarinis gestarum*, ed. R.H.C. — H. Occ., I, 2c. partie (Paris, 1844), 895—97.

28. Concerning Saladin's holy wars against the Franks and the third Crusade, see: Ibn Shaddād, *al-Namādīr al-Sultāniya wa al-Maḥāsīn al-Yusufiyya* (The Biography of Saladin), ed. Gamāl al-Dīn al-Shayyāl (Cairo, 1964), pp. 21—23, 41, 43, 45, 48—49, 63, 66, 74, 75 ff.; Ibn Wāsil, *op. cit.*, II, ed. Shayyāl (Cairo, 1957), 148 ff., 157 ff., 165 ff.; al-Asfahānī, *al-Fath al-Qussī fī al-Fath al-Qudsi* (Cairo, 1321 A.H.), 17—25, 36—45, 140—260, 314—17; cf. also Vartan le Grand, *Extrait de l'histoire universelle*, ed. R.H.C. — Doc. Arm., I (Paris, 1859), 439; Ambroise, *The Crusade of Richard Lion-Heart*, trans. by M. J. Hubert (New York, 1941), pp. 108 — 118, 124 ff.

29. For example, the Crusade of Jean de Brienne of Acre and the nominal king of Jerusalem (1218 — 1221 A.D.) and that of St. Louis of France (1248—1250 A.D.). Many good studies have appeared recently in Arabic concerning the Crusade of St. Louis, especially those written by M.M. Ziada, Gamāl al-Dīn al-Shayyāl, Hasan Habashy and Joseph N. Youssef.

30. Cf. al-Maqrīzī, *Kitāb al-Khitāt*, *op. cit.*, I (Cairo, 1270 A.H.), 223; *idem*, *Kitāb al-Sulūk lina 'rifat Duwal al-Mulūk*, ed. Ziada, M. M., I, Part II (Cairo, 1936), 364—65, 502, 590. Cf. also Joinville, *Histoire de Saint Louis*, ed. de Wailly, M. N. (Paris, 1874), 404 ff.; Eracles, *L'Estoire de Eracles Empereur*, ed. R.H.C. — H. Occ., II (Paris, 1859), 458 ff.

31. Al-Maqrīzī, *Kitāb al-Sulūk*, *op. cit.*, I, Part II, 567 ff.; I, Part III, 47 ff. Cf. also Aziz S. Atiya, *The Crusade in the Later Middle Ages* (London, 1938), 29 ff.

32. Prof. Dr. Aziz S. Atiya is an authority in the later Crusades. We may refer here to his valuable works concerning this subject: *The Crusade of Nicopolis* (London, 1934); *The Crusade in the Later Middle Ages* (London, 1933), pp. 3 — 9, 17 — 23, 43, 52, 74 ff., 123 ff., 345 ff., 398 ff., 435 ff., 463 ff., 480 — 83; *Crusade, Commerce and Culture* (Bloomington, 1962), pp. 92 — 111, 129 ff. As regards the part played by Cyprus under Latin domination during the period of the crusades, the best and only work in Arabic is: Saïd Ashour, *Cyprus and the Crusades* (Cairo, 1957), pp. 86 — 122.

33. These facts have been dealt with in detail in my book written in Arabic : *The Unity and the Awakening Movements of the Arabs During the Crusades* (Alexandria, 1967), pp. 45 — 66.

34. Cf. Stevenson, *op. cit.*, pp. 723 — 24.

35. Cf. Gamal al-Din al-Shayyal, *A Short Political and Economic History of Damietta* (Alexandria, 1949), p. 20 (in Arabic). Cf. also St. Lane-Poole, *A History of Egypt in the Middle Ages* (London, 1936), p. 218 ; *idem*, *The Story of Cairo* (London, 1924), 193.

36. Al-Qalqashandī, *Subh al-A'sha fi Sina'it al-Insha*, II (Cairo, 1913), 135 ff., IV (Cairo, 1914), 11 — 16; Ibn Mammānī, *Qawānīn al-Dawāwīn* ed. Aṭiya, A.S. (Cairo, 1943), pp. 339 ff., 354; al-Nuwairī, *Nihāyat al-'Arab fi Finūn al-Adab*, XXVII (Cairo ms.), General Knowledge 549, plate no. 92. Cf. also : al-Maqrīzī *al-Sulūk*, *op. cit.*, I, Part II, 339 n. 1; *idem*, *al-Khitāt*, *op. cit.*, II, 194—95; Claude Cahen, "Un traité d'armurerie composé pour Saladin," *Bulletin d'Etudes Orientales*, XII (1947—1948), 15 ff.; Oman, *op. cit.*, II, 46 ff.

37. We find good and clear examples in the following sources : Ibn Wāsil, *op. cit.* (Cairo ms.), Hist. 5319, II, 357b, 366a; al-Maqrīzī, *al-Sulūk*, *op. cit.*, I, Part II, 337, 350; *idem*, *al-Khitāt*, *op. cit.*, I, 221. Cf. also Joinville, *op. cit.*, p. 120; Rothelin, *Continuation de Guillaume de Tyr dite du manuscrit de Rothelin* (1229 — 1261 A.H.), ed. R.H.C. — H. Occ., II (Paris, 1859), 605.

38. Ibn Wāsil, *op. cit.*, II, 496 — 517; cf. Painter, *op. cit.*, pp. 191 ff. A valuable study written by Prof. Dr. Saad Zaghloul Abd-El-Hamid about the relation between Saladin in the Islamic East and Abu Youssef Ya'coub in the Islamic West sheds light on this important point. Cf. S.Z. Abd-El-Hamid, "The Relation between Saladin and Abu Youssef Ya'coub," *Bulletin of the Faculty of Arts*, VI & VII (Alexandria University, 1952 — 53), 84—100 (in Arabic).

39. Concerning this important point see the excellent work of Prof. Dr. Said Ashour, *The Crusades*, 2 vols. (Cairo, 1963) (in Arabic).